

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَاللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَارْحَمْهُ

زيارة الإمام زين العابدين عليه السلام ولفاق

خطوات في التنمية البشرية
والتخطيط الاستراتيجي لحقول الزيارة

محمد عبد الرضا هادي الساعدي



الإمامة العامة لعنبي الحسيني المقدسة
مركز دراسة الأبحاث والبحوث

الكتاب: زيارة الأربعين المباركة (دلالات وآفاق)

خطوات في التنمية البشرية والتخطيط الاستراتيجي لحقول الزيارة

المؤلف: محمد عبد الرضا هادي الساعدي

الإشراف العلمي: مركز كربلاء للدراسات والبحوث

الطبعة: الأولى

السنة: ١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م

جمهورية العراق / كربلاء المقدسة

00964 7719491210

00964 7814187625

www.c-karbala.com

info@c-karbala.com

karbala.center1@gmail.com

karbala.center1@yahoo.com

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق العراقية ببغداد (٣٨١٧) لسنة ٢٠١٧م

كل الحقوق محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السيرة الذاتية للمؤلف

محمد عبد الرضا هادي الساعدي

من مواليد ١٩٧٤ النجف الأشرف.

التحق بالدراسات الحوزوية في النجف الأشرف نهاية ١٩٨٩. هاجر إلى الجمهورية الإسلامية الإيرانية عام ١٩٩١ ليكمل دراسته على أيدي أساتذة الحوزة العلمية في مدينة قم. ثم هاجر في عام ١٩٩٧ إلى أوروبا وأستقرّ في هولندا كمرشد ديني للجمالية الشيعية في مدينة أمستردام. تخرج في جامعة أمستردام في مجال علم النفس الصحي عام ٢٠١٣.

الأعمال المعرفية المطبوعة باللغة العربية:

١. الدكتور محمود البستاني مفكرا اسلاميا - إضاءات نقدية في ضوء مشروع أسلمة العلوم الإنسانية. طبع سنة ٢٠٠٠.
٢. الجيل الإسلامي الثاني في الغرب - هولندا أنموذجاً. طبع سنة ٢٠٠٣.
٣. ثقافة الزيارة عند أتباع أهل البيت (عليه السلام) مقاربات تأملية في اتجاه فهم آخر. طبع سنة ٢٠٠٥.
٤. العلامة الشيخ باقر شريف القرشي - السيرة الذاتية. طبع سنة ٢٠١٠.
٥. ملامح القيادة الناجحة في ضوء منهجية الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام): مقارنات دراسية في سيكولوجية السلوك التنظيمي المعاصر. طبع سنة ٢٠١٤.
٦. زيارة الأربعين المباركة دلالات وآفاق: خطوات في التنمية البشرية والتخطيط الاستراتيجي لحقول الزيارة. الطبعة الأولى ٢٠١٥.

الأعمال المعرفية المطبوعة في اللغة الهولندية :

١. عقل المدينة: دراسة عن العوامل النفسية المؤثرة على شخصية سكان المدن الكبرى. بالإشتراك مع مجموعة من الباحثين الهولنديين. طبع في هولندا سنة ٢٠١٢.
 ٢. إدمان الأطفال على الألعاب الإلكترونية.
 ٣. العنصرية ضد المسلمين: بالإشتراك مع مجموعة من الباحثين الهولنديين.
 ٤. ترجمة كتاب مؤتمر علماء بغداد إلى اللغة الهولندية. طبع في فرنسا سنة ٢٠١٣.
 ٥. ترجمة كتاب رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام مع مترجمة هولندية. طبع في فرنسا سنة ٢٠١٢.
 ٦. ترجمة كتاب حياة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام مع مترجمة هولندية. طبع في فرنسا سنة ٢٠١٣.
- يعمل الآن في إحدى المؤسسات المتخصصة في مجال العلاج والإرشاد النفسي في مدينة أمستردام.

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المركز

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة، وأتم التحية والتسليم على النبي الهادي
الامين أبي القاسم محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين...
وبعد..

لطالما كان تراث الأمم والشعوب والاقوام ركيزة أساسية من ركائز هويتهم الثقافية
والحضارية؛ لأنه يمثل الذاكرة الحية للفرد والمجتمع، والهوية التي يتعرف من خلالها
الناس على شعب من الشعوب لما يحمله من قيمة ثقافية واجتماعية وتربوية تحمل ملامح
هذا الشعب، وتحفظ سماته، وتؤكد عراقته وأصالته، اذ لم يكن التراث الثقافي مجرد معالم
وصروح وآثار فحسب، بل تعدى ذلك ليصل الى كل ما يؤثر عن أمة من تعبير غير
مادي، من معارف، وممارسات، وعادات، وتقاليذ متوارثة عبر الأجيال.

فلكل شعب موروثاته الخاصة به والتي توارثها شفهيّاً أو عمليّاً، لتكون بمثابة ممارسة
فعلية نتجت من خلال التفاعل بين الافراد والجماعة والبيئة المحيطة، حتى أصبحت مع
مرور الوقت طقوساً سنوية تمارسها الجماعة وتحرص على حفظ هويتها واستمرارية
بقائها.

وتعد الزيارة الاربعينية للامام الحسين (عليه السلام)، واحدة من اكبر هذه الممارسات، فهي
تأكيد دائم على الولاء للمسيرة الحسينية الخالدة، وصرخة مدوية بوجه الظالمين، ورسالة
واضحة المعالم الى كل الطغاة بأن التواصل مع الامام الحسين (عليه السلام) هو مبدأ مستقر في
النفوس، وعقيدة راسخة في الازهان.

ولما تحمله هذه الزيارة من دلالات كبيرة، ودروس مستنبطة ينهل منها المفكرون والباحثون، ارتأى مركز كربلاء للدراسات والبحوث اقامة (موسوعة زيارة الأربعين المباركة)، وهي جزء من مشروعه الكبير الذي شرع فيه لإكمال اجراءات تسجيل هذه الزيارة في منظمة اليونسكو العالمية لتدخل ضمن لائحة التراث العالمي غير المادي، كموروث انساني للشعب العراقي.

وقد اطلق المركز دعوته الى السادة الباحثين والكتاب للمشاركة والاسهام في هذه الموسوعة واثرائها ببحوثهم العلمية عبر محاورها المختلفة، التاريخية، والفكرية، والعقائدية، والأدبية، والسياسية، والثقافية وفق أسلوب علمي ومنهج اكاديمي دقيق.

وقد كانت استجابة الاخوة الباحثين سريعة وفاعلة، حيث رقدوا المركز بابحث علمية رصينة متنوعة، جسدت عمق انتمائهم وولائهم للنهضة الحسينية، ومدى شعورهم بالمسؤولية الملقاة على عاتقهم للتعريف بالابعاد الأساسية لهذه الموسوعة بمحاورها المختلفة.

وإذ يثمن مركز كربلاء للدراسات والبحوث الجهود العلمية المضنية التي بذلها الاخوة الباحثون على الرغم من قلة المصادر والمراجع التي كُتبت عن الزيارة الاربعينية، فإنه يدعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقهم جميعاً لما يحبه ويرضاه، وأن يأخذ بطريقهم نحو اعتلاء منصات الابداع خدمة للقضية الحسينية الخالدة.

ولله الشكر من قبل ومن بعد...

مركز كربلاء للدراسات والبحوث

١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م

مقدمة الطبعة الثالثة

يسرني أن أقدم كتاب (زيارة الأربعين المباركة) للمرة الثالثة خلال أقل من سنتين بعد أن نفذت نسخته، وأكثر ما يدعوني للسرور هو تعافي حالة القراءة عند جمهورنا بعد أن استولت عند الباحثين والكتاب مشاعر القنوط من المتلقي العربي بسبب عزوفه عن القراءة المطبوعة.

إن إقبال المتلقي على إصدارنا أعلاه يعزز من قناعتنا بأن العمل الجاد يفرض على المتلقي الإستجابة الإيجابية. وأن الباحثين مطالبون ببذل المزيد من الجهد في انتخاب الموضوعات، والبحث عن في حقول مبتكرة، والعناية الفائقة في المعالجة المعمقة، وتطبيق شروط البحث العلمي المعاصر فيما يخص المنهجية وعناصر الوثائق والصلاحية.

مجدداً أقول: إن حقل زيارة الأربعين يكتنز بثروات تنمية اجتماعية، نفسية، حضارية، وعبادية... الخ هائلة بحاجة إلى استغوار، كشف، ورصد من قبل دارسين متسلحين بأدوات البحث العلمي المعاصر، وبتجارب خبروية عالية المستوى.

لم تخلو الطبعة الثالثة من الإضافات، والطلب متوجه إلى المثقفين والباحثين في تفضلهم علينا بالملاحظات لنتغل عليها في المستقبل القريب، والحمد لله على توفيقه لنا بهذا العمل المنطلق من الولاء لصاحب هذه المناسبة المحببة عليه أفضل الصلوات والسلام، آملاً منه سبحانه وتعالى القبول.

محمد عبد الرضا هادي الساعدي

أمستردام

الأربعاء ٣ / شوال / ١٤٣٨ هـ

Wed, 28 Jun 2017

دوافع الدراسة وأهدافها

لا زال حقل الدراسات المتخصصة بالاجتماع الإسلامي يفتقر إلى الأعمال الجادة بالرغم من شدة الحاجة إليها، فثمة ندرة دراسية لا تتناسب البتة مع المكانة الاعتبارية للحضارة وللمجتمع وللإنسان المسلم، والمراكز المعرفية الإسلامية مسؤولة عن معالجة الندرة المشار إليها، لأنها المعنية بالدرجة الأولى بهذه المسائل الحساسة. ومن بين المسائل الحيوية التي لم تحظ بالاهتمام الدراسي الموازي لحجمها وواقعها وخطورتها هي مسألة المعطيات والدلالات التي تستبطنها (الشعائر الدينية)، ومن بينها زيارة مشاهد أهل البيت عليه السلام حيث يتمتع هذا الحقل بقدرة استقطابية مذهلة، ويمتاز بجودة فائقة في ملازمة العديد من الموضوعات الضرورية في حياة الإنسان بعامه، وحياة الإنسان المسلم بخاصة. وقد تفرع عن حقل الزيارة المباركة العام حقل مستقل للزيارة، تشكل تدريجياً عبر تأريخ ممارسة الزيارة الطويل حتى وصل - في المرحلة المعاصرة - إلى ظاهرة جماهيرية عالمية ضخمة، لها ثقافة محددة، ورموز وشعارات ودلالات مميزة، وآثار اجتماعية عريضة، مما تعين علينا أن نتعامل معها بنحو مستقل، وبمقاربات دراسية خاصة، تنسجم مع طبيعتها الأصيلة.

الحقل الجديد يحمل عنوان (زيارة الأربعين المباركة). الزيارة التي دأب أتباع أهل البيت عليه السلام على إحيائها كل عام، وبالتحديد في العشرين من صفر، أي بعد ذكرى مقتل سيد الشهداء عليه السلام بأربعين يوم.

لقد نجحت هذه الزيارة في التأسيس لحزمة من النشاطات الجماهيرية الباهرة، حيث عملت على ملمة شتات الموالين لأهل البيت عليه السلام وتعزيز انتماؤهم لعقيدتهم المضطهدة،

وتوثيق أواصر الوحدة والتآلف فيما بينهم، وعكس مظاهر القوة المعنوية والمادية التي يتوفرون عليها عبر نشاطات شتى يقومون بها أثناء موسم الزيارة، مُضافاً إلى إتاحتها الفرصة لهم للتعبير عن رفضهم للظلم والقهر والاستكبار السياسي الذي لحقهم من الحكومات والدول المختلفة...

سلفاً، يؤسفني البوح: بأنني قد وجدت أن الاهتمام الدراسي المتخصص في زيارة الأربعين المباركة قليل جداً، بل يكاد أن يكون منعدماً، فلم أعثر على عنوان لدراسة خاصة بهذه الممارسة الهامة، ولا توجد مجلة أو صفحة إلكترونية علمية تُعنى بها، ولم ينعقد حولها مؤتمر دوليٌّ دوريٌّ يناقش محاورها ومعطياتها الإسلامية والإنسانية، مع إدراك جميع المعنيين بالدرس والمشهد الثقافي والاجتماعي والاستراتيجي بدورها وأهميتها ونتائجها المباركة، حيث تمثل مكسباً عظيماً على صعيد الثقافة والاجتماع والتنمية للعالم الإسلامي بنحو عام، وللعراق الذي يحتضن هذه الممارسة بنحو خاص، فضلاً عن كونها رسالة عالمية تدعو لمد جسور التواصل بين الشعوب والثقافات، ونشر قيم التسامح والمودة والسلام.

على أية حال، حاولت الدراسة الماثلة التطرق الى جانب من الدلالات العقائدية والحركية ذات التأثير الفاعل على سلوكنا الحياتي العملي مثل بحث قضية (البراءة من الظالمين) وما تفرع عنها من مسائل، وبحث محور (الاستعراض الجماهيري) وما تولد عنه من انعكاسات استعراضية متفردة، الى جانب دراستها الطويلة لبعض المفهومات الحضارية ذات العلاقة الوثيقة بصميم رسالة زيارة الأربعين المباركة، وهي دلالات تمثل همماً إنسانياً مشتركاً، ومحوراً من محاور البحث المتواصل من قبيل الفصل الخاص بموضوع (السلوك الإيثاري)، والفصل الذي عالج موضوع (العمل التطوعي)، والفصل الذي تناول أحد طرائق العلاج النفسي الجمعي (الإحساس العبادي الطويل)، والفصل الذي تناول (تأثيرات المشي على الصحة النفسية والعقلية)، والفصل الخاص بالمعطيات التربوية

والتعليمية والإصلاحية لزيارة الأربعين المباركة والتي اعتمدنا في تناولها أشهر الدراسات العلمية الأكاديمية المتخصصة بهذه المجالات، كما أولت الدراسة اهتماماً خاصاً بـ (صيانة ممارسة زيارة الأربعين المباركة) من قبيل المحافظة على طابعها العبادي، مراعاة الأحكام الشرعية، الالتزام بمنطلقاتها الأصلية، وعكس الطابع التقديسي لها. وقد عكفت على تقديم رؤية جديدة في مشاريع التنمية لممارسة زيارة الأربعين المباركة، طُرحت هذه الرؤية عبر فصلين مستقلين، أحدهما حمل عنوان (محاور التنمية الحكومية)، وفيه عالجت مشكلة النقل، الفنادق، تهيئة الطرق العامة، الإسعاف الطبي، ومقترح استحداث وزارة حكومية خاصة بالعبّات المقدسة، تعمل بالتنسيق مع إدارات الأمانات العامة للعبّات المقدسة وأجهزة الحكومة المعنية في تقديم أجود الأدوات المتعلقة بخدمة الزائرين الكرام، والفصل الآخر حمل عنوان (الجمهور المؤمن وتنمية زيارة الأربعين المباركة) وفيه بحثت ضرورة التأسيس للمؤتمر الدولي الخاص بالموكب والهيئات الحسينية العاملة في مجال خدمة زوار الأربعين، بغية النهوض بواقع تلك الخدمات، والاستفادة من التجارب والخبرات. كما تناولت في نفس الفصل تنمية جملة من الأعمال الهامة مثل: الأعمال الثقافية، الأعمال الفنية، الأنشطة الخاصة بالطفولة، الأنشطة النسوية، ومناقشة الدور الإعلامي الذي يعاني من القصور الحرفي في تغطيته وتعريفه بظاهرة الزيارة للعالم. وقد استعرنا فصلاً من إحدى دراساتنا السابقة نظراً لعلاقته القوية في موضوع دراستنا هذه، لنستكمل به موضوعات الدراسة ذاتها، وكان عنوانه (الملاح الحضارية) وأهم موضوعاته هي سلمية الحركة، نظامية الأداء، موضوعية المقصد، والوحدة وانتفاء الخصوصيات الضيقة. وكان آخر موضوعات الدراسة هو التطرق إلى تبين علاقة أبناء الحشد الشعبي الشرفاء بزيارة الأربعين المباركة.

ينبغي التنبيه إلى أن الدراسة قد تجنبت الخوض في بحث الأدلة الشرعية الخاصة بزيارة الأربعين المباركة، والرد على شبهات بعض المعترضين حول صحة النصوص

المتحدثة عنها، ذلك أن مقاصد الدراسة لا صلة لها بهذه البحوث، فهي تبحث عن دلالات ومعطيات خاصة لممارسة تجد أكثر من دليل شرعي على النذب إليها، وهي بغض النظر عن كل الاعتبارات والعناوين لا تخرج عن كونها زيارة لسيد الشهداء عليه السلام وزيارته تعد من الضرورات، فقد وردت العديد من النصوص التي استفاد منها بعض العلماء وجوب زيارته مع القدرة عليها، ومنها «مُرُوا شِيعَتَنَا بِزِيَارَةِ قَبْرِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، فَإِنَّ إِيْتَانَهُ مُفْتَرَضٌ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ يَقْرَأُ لِلْحُسَيْنِ عليه السلام بِالْإِمَامَةِ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» (ابن قولويه، ١٢١)، وأن تاركها يعتبر تاركاً حقاً من حقوق الله ورسوله ووليه، وعاقلاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومجافياً للحسين عليه السلام، وأن عدم إتيانه يعد منقصة في الدين والإيمان، وأن جزاء من تركها رغبة عنه الحسرة والندامة والحرمان يوم القيامة، إلى غير ذلك من نصوص شرعية في نفس المقصد، نحيل المهتمين الى الرجوع إليها في أبواب المصادر المتخصصة في نقل أخبار المعصومين عليهم السلام وبخاصة الكتب الموسومة بـ (المزار).

وأياً كان، تكفينا ورود هذه الزيارة بالذات في كتب كبار الطائفة ومراجع الدين والفقهاء من أمثال الشيخ أبي جعفر الطوسي في عرضه للروايات المتحدثة عن فضل زيارة الحسين عليه السلام حيث ذكر الحديث المروي عن أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام: «علامات المؤمن خمس: صلاة الخمسين - إحدى وخمسين -، وزيارة الأربعين، والتختم باليمين، وتعفير الجبين، والجهر بسم الله الرحمن الرحيم» (الطوسي، ١٩٩٢: ٦: ٤٣)، والشيخ المفيد في مزاره، والشيخ المشهدي في المزار الكبير والعلامة الحلي في التذكرة، والسيد ابن طاووس في الإقبال والمصباح، والشيخ الكفعمي في المصباح، والشهيد الأول في مزاره، والحر العاملي في الوسائل وغيرهم الكثير. إلى جانب إحياء الزيارة نفسها من قبل العديد من المراجع والفقهاء وأساتذة الحوزة العلمية منذ وقت طويل وبخاصة في الوقت المعاصر مع سائر المؤمنين والمؤمنات والدعاء لممارستها والمباركة لهم، وإصدارهم للتوجيهات والبيانات السنوية حول المناسبة نفسها... أقول: يكفينا جميع

ذلك عن التطرق والخوض في إثباتها مع اعتقادنا الكامل بثبوت النصوص الواردة في شأنها وشدة وثاققتها. وقد أجاب سماحة آية الله العظمى السيد السيستاني (حفظه الله) حول استفتاء أشار إلى قول البعض بعدم ثبوتها بالتالي: «لا يُصغى إلى ما ينقل بهذا الشأن» (الاستفتاءات، ٢٠١٥).

آمل أن أكون قد وفقت لخدمة قضايا هذه الزيارة المباركة، وكشف بعض محاورها الهامة للباحثين والمعنيين بشؤونها وهمومها ومعطياتها العظيمة، وكل رجائي أن أكتب ضمن لائحة خدام سيد الشهداء (عليه أفضل الصلوات والسلام).

محمد عبد الرضا هادي الساعدي

Amsterdam

٢٠١٥-٧-٢٦

٨ شوال ١٤٣٦ هـ

إشراقات تمهيدية

حينما تصل الكتابة عند أسوار ظاهرة زيارة الأربعين المباركة محاولة تقديم وصف أو تفسير لبعض أشكال ومضمونات هذه الظاهرة الإسلامية والإنسانية المباركة... فان اللغة تعلن - بكل شجاعة - عن عجزها التام عن اقتحام مثل هذا الموضوع الخطير، ذلك أن الظاهرة المذكورة فوق آليات الوصف والكشف، ومستوياتها أعمق من إمكانيات الغوص البياني والتجسيد اللغوي.

لهذا ولغيره، سوف نبذل ما بوسعنا عبر هذه الورقة المتواضعة تقديم ما يمكن التقاطه من دلالات تكتنف الظاهرة نفسها، وما تتوشح به من إشراقات واعدة على شكل مقاربات أولية قابلة للتطوير الرؤيوي المستمر، فما تكتنزه ظاهرة زيارة الأربعين المباركة من دلالات لا يقف عند حد مُعيّن.

وأولى الإشراقات التمهيدية التي سوف نتوقف عندها هي:

التفرد

يتضمن حقل الزيارة العديد من الزيارات الموسمية الضخمة، والتي تخطى بنذب جمهرة من النصوص الشرعية عليها مثل زيارة يوم الغدير للإمام علي عليه السلام وزيارتي النصف من شعبان ويوم عرفة للإمام الحسين عليه السلام، وغيرها، لكن جميع هذه الزيارات لا تصل إلى مستوى الحضور العددي والنوعي لزيارة الأربعين المباركة، ولا إلى الامتداد في زمن ممارستها، ولا إلى اتساع مكان المشاركة، ولا إلى تعدد أنشطتها وتنوعها، ولا إلى شمولية دلالاتها الفكرية والعقيدية والحركية، ولا إلى معطياتها الاجتماعية والثقافية

والصحية نفسياً وجسدياً، ولا إلى شعبيتها واحتفاء الجمهور بإحيائها، ولا إلى ضخامة ما ينفق عليها من جهود معنوية ومادية... ففي جميع المناحي التي أشرنا إليها توجد بصمة التفرد والتميز الواضحتين.

إنها بصرحة متفردة في كل شيء، وهذا ما أكسبها نكهة ولونا وصوتاً وعطراً لا يعيشه المتابع والمشارك إلا في أجوائها وفي غمرة نشاطاتها المباركة.

مدهشة التفسير

وقف العديد من الباحثين مندهشاً أمام تفسير إصرار الجمهور الحسيني المبارك على إحياء زيارة الأربعين المباركة، وعلى شدة تفاعله مع أنشطتها، وعمق فهمه لأهميتها، والإحساس الحاد بالمسؤولية حيالها، فلا يكاد يرسو باحث على مرفأ من مرافئ التفسير إلا ويلمع لعينه مرفأ آخر. صحيح أن الطابع العام لهذه الزيارة هو الطابع الإسلامي، بيد أن ملاحظة معاشة الممارسين للزيارة نفسها يكشف عن وجود بعض العناصر التي لا يمكن تفسيرها وفق الطابع المذكور فحسب، حيث شاهدنا مشاركة العديد من الأشخاص الغير مسلمين في أداء الممارسة، وفي تقديم المساعدة الى الزائرين مثل الصابئة والمسيحين وبعض الديانات الهندية والصينية، وحتى في الإطار الإسلامي فليس كل من يشترك في أنشطة وممارسة هذه الزيارة يمكن تصنيفه على الملزمين دينياً أو منطلقاً من إلزام ديني خالص أو من أتباع مذهب معين، فبالرغم من كثافة أتباع أهل البيت في المشاركة، فهناك العديد من أتباع المذاهب الإسلامية ممن يدأبون على المشاركة السنوية فيها. كما لا يمكن تفسيرها من منظور اجتماعي ذا منحنى عرقي أو سياسي أو ثقافي خاص، فعالمية الزيارة وتعدد ألوان المشتركين فيها أغلق الباب أمام من يحاول إيجاد تفسير من هذا القبيل. إنها ظاهرة مدهشة وعصية على التفسير، ولا يمكن فهمها إلا بلغة العشق الحسيني المقدس، ولا يغادرك الشعور بالدهشة حتى لو عزمت على الدخول الى تفسيرها

من خلال باب العشق الحسيني، فسوف تتثال عليك أمواج من الإشارات المبهرة، وتعود والدهشة مسيطرةً عليك مجدداً.

غرابية الدوافع

تخير الكثير من المتابعين أيضاً في تحديد الدوافع التي تدفع هذا الجمهور المبارك للتفاعل الغريب من نوعه، بالرغم من تيقن المتابعين بأنها دوافع داخلية - كما سوف نتطرق الى الموضوع نفسه في الفصل المقبل - تنطلق من إيمان جمهور الزيارة الأربعينية بما يقوم به، ولا يوجد ما توميء إليه أصابع الحوافز الخارجية العاملة على جذبهم إليها، فهناك الكثير من المشاركين ممن لا يفكر في أية مصلحة تترتب على أداء عمله، بل إن الكثير منهم من يعرض نفسه إلى الخطر الحقيقي، وإلى تعطيل مصالحه المادية من أجل المشاركة في الممارسة عينها، وليس هناك من سبب لهذا الاندفاع سوى عشقهم لصاحب المناسبة ﷺ وتبني أهدافه التي ضحى من أجلها. وهذا شيء موغل في الغرابة، فالتفاعل مع شخص استشهد قبل أكثر من ثلاثة عشر ونصف قرن والتعلق بأهدافه ورسالته، وبالنحو الذي نلاحظه في كل عام، يظل أمراً تكتنفه الغرابة مهما حاول البعض في دراسة دوافع المشاركين والكشف عن أسبابها. وأغرب ما لاحظناه في معاينة الدوافع المشار إليها هو عدم إمكانية تصنيف شريحة مخصصة للمتفاعلين مع ممارسة الزيارة الأربعينية من قبيل: شريحة الشباب أو متوسطي السن أو كبار السن، أو الرجال أو النساء، أو أصحاب التعليم المتدني أو التعليم العالي، أو الحرفيين أو الموظفين، فكل هذه الشرائح متواجدة وبقوة على جغرافية ممارسة الزيارة الأربعينية، تتشاطر الدوافع ذاتها وتختلف فقط في نسب درجاتها.

إبتكارية الأدوات

نقصد بـ (إبتكارية الأدوات) طبيعة أداء الممارسة المتمثلة في المشي، والشعارات، والرموز، والنشاطات، وطرائق تقديم الخدمات التي تزداد تولداً وتنوعاً وتجدداً موسماً بعد موسم، فزيارة الأربعين المباركة تختلف عن سائر الزيارات والشعائر الإسلامية من حيث توسلها بأدوات جديدة ومبتكرة، وابتعادها عن الرتابة والجمود، مما ساعد على جاذبيتها، وذيوها، واهتمام الجمهور بمتابعتها، حيث عكست قدرة الجمهور الحسيني على الإبداع والابتكار ومواكبة الزمن، مع احتفاظها بأصالتها، وطابعها التقليدي المميز، فهي بالرغم من الجدة والابتكار والتطوير في أدواتها، لم تخرج عن الضوابط الشرعية، ولم تغادر المناخ والذوق والأصالة التي أشتهرت بها عبر التاريخ، وعند الجمهور الحسيني.

الاستمرارية المتألقة

لا كلام حول خلود زيارة الأربعين المباركة، بل كل شعائر سيد الشهداء عليه السلام، فهي تستمد توهجها من قبسه المقدس، وهذه من الملاحظات التي ينبغي التوقف حيالها، فهناك الكثير من الشعائر الدينية، والمناسبات الاجتماعية والثقافية التي لا يُحْفَى بها بمثل ما نشهده في زيارة الأربعين المباركة، حيث يلاحظ أن زيارة الأربعين المباركة في ازدهار وانتعاش وتألّق مستمر يستحق معرفة عناصرها وتحليلها علمياً للإفادة منها في مشاريع تنمية اجتماعية أخرى، وإلى استثمار بعض المشاريع الاجتماعية في إطار الممارسة ذاتها. فالملحوظ أن جمهور الزيارة قد سجّل أقصى مديات الوفاء والبذل والوعي في ممارسته للزيارة منذ انطلاقتها الأولى وحتى الآن، وإلى المستقبل القريب الذي نميل إلى تضاعف حجم الإقبال والالتفاف عليها فيه من قبل الجمهور، نظراً لقراءة خصوصيات الحاضر واستكناه صور الماضي المتعلّق بجمهور الزيارة الذي لم ينتكس، ولم ينكمش، ولم يتهرب

من أداء مسؤولياته الرسالية المنعكسة عن ثقافة الزيارة المباركة، ونميل كذلك إلى أن هذه التظاهرة الإنسانية العالمية سوف تفرض على الرأي العالمي الاهتمام بها، ودخوله بثقل للمشاركة فيها من عدة جوانب، ذلك لأنها سوف تشهد تطوراً مطرداً، وسوف تحقق مكاسباً على صعيد التنمية الأخلاقية العملية لا نظير لها، فهي رسالة سلام ومودة وعلاج لجملة من الأمراض التي أفرزتها الحضارة المادية المتسببة في إعاقة تقدم الجوانب الروحية عند الإنسان.

الأداء العضوي

الناس بطبيعتها تميل إلى الممارسات العفوية والخالية من التعقيد، فكلما اقتربت الممارسات من السهولة، كلما ازدادت ألفتها وشعبيتها والإقبال عليها، وكلما اتسمت بالتفاصيل، والصرامة، والغموض، والتركيز العالي كلما نأى الناس عنها، وتحاشوا التعامل معها. وممارسة زيارة الأربعين المباركة تتسم بهذه السمة النادرة، فهي من الممارسات العفوية من حيث التنظيم، والأداء، ولا تتطلب من المشاركين بذل الجهد النفسي والذهني اللذين يصاحبان الكثير من الأنشطة الاجتماعية والثقافية، وحتى الرياضية ما يخرجها عادة عن عفويتها، ويحولها إلى أحد مصادر التوترات التي يعاني منها الناس في حياتهم، بدلاً من كونها محطة من محطات الراحة والهدوء والشحن النفسي والذهني.

يُضاف إلى ذلك، أن ثمة خصوصية أخرى تزيد من أهمية العفوية المذكورة، وهي الابتعاد الكبير عن مخططات الأحزاب السياسية، واستغلالها من قبل الآخرين مثل الشركات التجارية، وما تقوم به المؤسسات المتخصصة بالدعاية والتأثير، فهي من هذه الجهة تشكل مصداقاً ناصعاً لعفوية التوجه والأداء.

نبل العطاء

حديث البذل والعطاء والسخاء في ظاهرة زيارة الأربعين المباركة يحتاج إلى موسوعات لكي تستوعب حقائقه، وتفي بشرح أغراضه وموضوعاته، فهو إحدى مكاسب الإنسانية، وشاهد صادق على أصالة قيم الخير في الحياة. والعطاء في ممارسة الزيارة الأربعينية يكاد أن يختلف عن كل ألوان العطاء، فهو يسيل بالنبل والغايات الشريفة والتنافس على تقديم الأحسن من الأعمال، ولم يحدثنا التأريخ عن مواقف السخاء نظير ما يحدث في أيام الموسم الأربعيني المبارك.

ومن المتيقن بأن هناك العديد من قصص الكرم والعطاء التي نقلتها المدونات التاريخية والذاكرة الإنسانية لكنها قصص لأفراد، وليس لجماعات تصل أعدادها إلى مئات الآلاف وتعمل على استضافة الملايين لأيام وليالي، إنها قصة أمة من الناس وأبطالها هم كل من يشترك فيها، فالبطولة في سيناريو الأربعين هي بطولة جماعية... مع ملاحظة أننا لا نتحدث عن مواقف تاريخية بل عن وقائع معاصرة حية ومستمرة ومتجددة، في إمكان أي شخص التأكد منها. مضافاً إلى الاختلاف الجوهرى في الدوافع والمقاصد والتنوع بين الممارسين وبين موضوعات الممارسة، وما أشرنا إليه في مفردة النبل، فهو من أنبل وأشرف أنواع العطاء، ذلك أن المعطي يبذل أجود ما عنده، وأقصى ما يتمكن منه، والكثير منهم من يعمل جاهداً من سنة إلى سنة لتقديم أرفع أنواع العطاء، وبمحض الحب والتكريم لمن يتوجه إليهم بعطاءه. وسوف نتطرق في مضاعفات الدراسة إلى هذه المضمونات السامية.

الطاقة التأثيرية

في الوقت الذي تشكو فيه المؤسسات التربوية والنفسية والاجتماعية من ضعف قدرة التأثير الإيجابي على سلوك الناس، وفشل العديد من الطرائق الإرشادية والعلاجية في تفاعل الناس معها، تطل ممارسة زيارة الأربعين المباركة بأنشطتها التربوية المتعددة لتبهر الدارسين في فاعلية تأثيراتها على السلوك الإنساني، حيث تكتنز هذه الممارسة طاقة هائلة من التأثير الإيجابي على سلوك الممارسين وحتى المتابعين لها عبر وسائل الإعلام المختلفة، وقد توزع هذا التأثير على عدة مجالات، ولعل المجال التربوي هو أنصع مصاديق ظهور تلك الطاقة الخلاقة، فالملحوظ أن استجابة الناس لإحياءات النفع التربوي لزيارة الأربعين المباركة سريعة وفاعلة ومؤثرة، ولا تحتاج إلى مقدمات وأدوات وأوقات معقدة، ذلك أن النفع المذكور يمس وجدان الإنسان، ويستهدف سلوكه بنحو مباشر، وقد أثبتت التجارب العملية أن التأثير الوجداني أشد فاعلية في تغيير القناعة والتصميم على التغيير، كما قد أثبتت التجارب الأكاديمية إلى أن البدء في عملية تغيير السلوك عبر حمل الإنسان على القيام ببعض الأعمال الإيجابية يساعد على تغيير أفكاره الخاطئة، والتخلص من العادات والسلوكيات المرضية (Brasweel & Kendall, 2001; Kamphuis, 2002).

وقد لمسنا آثار تأثير أنشطة الزيارة على المشاركين بنحو لا يقبل الشك، حيث أن الكثير ممن كان يميل إلى العزلة وعدم المخالطة قد تدرب من خلال مشاركته في ممارسة الزيارة على بناء علاقات طيبة مع الآخرين، وبخاصة عبر المشاركات المتعددة في الأنشطة الجماعية التي تتميز بها ممارسة الزيارة الأربعينية، كما أن الكثير ممن كان يعاني من البخل، لم يمتلك مسك نفسه من العطاء المادي والمعنوي في غمرة البذل والسخاء الذي يعم الممارسة، إلى جانب تغيير السلوك السلبي والانحرافي لدى بعض الناس، حيث تمكن

الكثير من التوبة والإقلاع عن السلوكيات الغير سوية ببركة مشاركته في الممارسة ذاتها، وتعرضه للرحمة النازلة على المشاركين في تلك الممارسة المباركة، وتأثره بالوهج الإيماني الذي تشع فيه سلوكيات جمهور زيارة سيد الشهداء عليه السلام.

لذلك تعتبر مناسبة زيارة الأربعين المباركة فرصة نادرة لدعوة الناس صغاراً وكباراً إلى استثمار تلك الطاقة التأثيرية بغية تغيير وتعديل سلوكها عبر الاحتكاك الصحي بالسلوك الإيجابي الذي يستولي على أجواء موسم الزيارة، والدعوة أيضاً موجهة إلى المؤسسات المعنية بالتشجيع على السلوك الإيجابي للنزول الجاد إلى ميدان الممارسة نفسها للاستفادة من معطياتها.

الحماسة الحقيقية

تستأثر الحماسة الصادقة بمساحة كبيرة من نشاطات زيارة الأربعين المباركة، وهذه من اللافتات العريضة التي تستوقف الدارس والمتابع لشؤون الزيارة ذاتها، حيث تصل حماسة المشاركين إلى أقصى مدياتها حتى ليخيل إلى المشاهدين من خارج إطار أتباع أهل البيت عليهم السلام إنهم إزاء ثورة جماهيرية عارمة، ذلك لما يلاحظونه من تأجج عاطفي وتفاعل لدى الزائرين والعاملين، واستنفار وجهوزية عالية الدرجة، وبالفعل فإن المشاركين يعيشون حالة ثورية عالية من الصعب الوصول إليها أو التخطيط للحصول عليها في الحالات الطبيعية التي يعمل فيها المصلحون الاجتماعيون والقادة السياسيون لبلوغها في تحريك الشعوب، وهذا من المحاور الهامة التي لا مجال للخوض فيها عبر هذه الإشارات الدراسية السريعة. بيد أن الغرض من إثارة العنصر الحماسي هو إبراز حيوية الممارسة، وتميزها عن سائر الطقوس الدينية والاجتماعية التي لا أثر للنفض والإحساس والاستجابة فيها، فالحماسة الإيمانية والحركية المستمدة من العاطفة الإيجابية حالة صحية، وحاجة أصيلة في تكامل الإنسان والمجتمع، ولا سبيل إلى بلوغ الأهداف الكبيرة من دون التوفر عليها، شريطة استثمارها وتوظيفها بنحو صحيح ومدرّوس.

لذلك بالذات، فإن ما تتيحه ثقافة زيارة المشاهد المقدسة بعامة، وثقافة زيارة الأربعين المباركة بخاصة في تصعيد الحالة الحماسية - وهي من أهم خطوات استنهاض الأمة وتوجيهها صوب التغيير والتقدم والبناء - يشكل رافداً سخياً من روافد النهضة والحياة، ويداً حديدية لحماية أبناء الأمة من التميّع والانفلات والانشغال بالقضايا التافهة التي تعمل القوى الظالمة على زجهم فيها، من أجل حرفهم عن مسارات الخير والصلاح والسعادة. ويعجبني أن أقتبس شيئاً من انطباعات استاذنا الشيخ الأصفي (رحمه الله) حول آثار بعض مضمونات (الحماسة الأربعينية) على الجمهور الحسيني من خلال تناوله للشعارات التي يرددها الزائرون أثناء ممارسة الزيارة، وما تركه من آثار عقيدية ووجدانية على نفوسهم، وهو من أواخر ما جاد به يراعه المعطاء. يقول: «إن لهذه الهتافات تأثير قوي وفاعل ونافذ في نفوس الناس، ولها قدرة كبيرة على التعبئة العاطفية والنفسية لنفوس الناس، ولا سيما الشرائح الشبابية، وهذه التعبئة إن كانت على المناهج التربوية الراشدة فهي بناء ونافعة، تبني الإنسان على أسس صحيحة، فإن العاطفة جزء لا يتجزأ من شخصية الإنسان ولا بد للعاطفة من تعبئة صحيحة.

لقد كنت أطيل الوقوف في بعض الزيارات العلوية والحسينية عند تجمع الزائرين الشباب فأسمعهم يهتفون (لييك يا علي) أو (لييك يا حسين) وهم يرفعون قبضات أيديهم مقابل الضريح العلوي أو الضريح الحسيني بهذه التلبية فأجد لذة في هذه الهتافات التي ترتفع الى الله من حناجر هؤلاء الشباب، فلا تطاوعني قدماي أن أترك هذا المشهد رغم الزحام والتدافع الذي يجده الانسان في مثل هذه المشاهد.

وأقول في نفسي: يا ترى أي شحن عاطفي كبير تحمله هذه الهتافات في نفوس هؤلاء الشباب، انها تُفشل كل المحاولات التي يعملها أعداؤنا من خلال الفضائيات والاعلام والصحافة وشبكات التواصل الاجتماعي لتضليل هؤلاء الشباب وإبعادهم عن الله ورسوله وأهل بيته، وعن ثقافة هذا الدين وقيمه.

إن هذه الهتافات التي تصدر من عمق نفوس هؤلاء الشباب تحبط مرة واحدة كل المحاولات المضللة في مجتمعاتنا.

وأقارن بين هذه التلبية وتلبيات الحجاج في مواقيت الحج، وفي البيت الحرام، فأجد أن هذه التلبيات تأتي في امتداد تلك التلبيات، فإن تلبية الأنبياء وأئمة الهدى والدعاة إلى الله تلبية لله تعالى بالضرورة.

إن هذه الهتافات التي تصدر عن حناجر هؤلاء الشباب تروي قلوبهم وعواطفهم بل عقولهم أيضاً بزال طاهر نقي عذب من كوثر الولاء» (الأصفي، ٢٠١٤، ص: ١١٦).

الهوية الولائية

إن هوية جمهور زيارة الأربعين المباركة العامة هي الولاء لله ولرسوله وأهل بيته، وليس ثمة حاجة للتأكيد على هذه الحقيقة الواضحة، فقد وجدت هذه الممارسة أساساً للتعبير عن ولاء أتباع أهل البيت لأئمتهم عليهم السلام، وللإعلان عن تمسكهم ودفاعهم عن هذا الولاء المقدس، وفي نفس الوقت لكي يتخذ منها الموالون لهم حصوناً يجتمون بها، ويتزودون منها شتى أنواع العطاءات الروحية. والحق أن زيارة الأربعين المباركة من أعظم الميادين التي تعمل على تأصيل الهوية الولائية والتأكيد عليها، فقد تجلت في ممارساتها جميع معاني الولاء وصوره المشرقة.

ومن أروع ما قرأت في هذا الشأن مقارنة المشاهد المقدسة وبخاصة الحائر الحسيني ببيت الله الحرام من حيث الأداء الرسالي، لا بمعنى الإستغناء عن بيت الله والعياد بالله، فهذا ما لا يقوله مؤمن بالله، وإنما بمعنى التكامل في الأدوار، فكما أن بيت الله هو بيت للتوحيد، فإن مراقده أهل البيت عليهم السلام تمثل بيتاً للولاء، ويتعاضد هذان البيتان لتعميق الوعي العبادي عند المؤمنين والمؤمنات، فأحدهم يكمل الآخر، ويتحد معه، حيث «يأتي الولاء في امتداد التوحيد وبعد التوحيد، ويكمل مسيرة التوحيد... وإذ جعل الله

تعالى الكعبة البيت الحرام مثابة وأمناً للناس فلا بد للناس من بيت آخر إلى جانب بيت التوحيد، وهو بيت الولاء، يأتي في امتداد بيت التوحيد يحميهم، ويمنعهم بنفس الملاك الذي كان بيت التوحيد يجمع الموحدون جميعاً ويمنعهم من سطوة المشركين وإفسادهم. ولا مشاحة في الاصطلاح، فإن البيت يجمع ويمنع، يجمع أهله من التشتت، ويمنع عنهم العدوان والبطش والفتك.

وللولاء ثقافة تأتي في امتداد ثقافة التوحيد، وتتقوم بثقافة التوحيد، وللولاء جمهور واسع ينتشر في أقطار الأرض، في أقاليم الأرض الواسعة، ولا بد لهذه الثقافة والجمهور الواسع من بيت يحميهم ويمنعهم.

أقول كان لابد لاتباع أهل البيت (عليه السلام) في مقابل تلك التحديات من بيوت تجمعهم، وتحفظهم، وتحصنهم.

وكان الحائر الحسيني من هذه البيوت... بل من أهمها وأعظمها... يجمع الطائفة ويؤويها ويحفظها ويمنعها.

والروايات الكثيرة الواردة في فضل زيارة الحسين (عليه السلام) وقيمتها عند الله ناظرة إلى هذا المعنى، فيما تنظر إليه من معاني شريفة» (الأصفى، ٢٠١٢، ص: ٣٨).

ومن جديد، فإن زيارة الأربعين المباركة تعتبر المصداق الأكبر لترجمة المضمونات المتقدمة، فشعاراتها ونشاطاتها وتداعياتها التي تملأ زمان ومكان الممارسة تعمل على تجذير الولاء في وجدان وعقل الإنسان الموالي، وتهبه زخماً هائلاً من الإصرار والثبات والمقاومة، وما بقاء جمهور أتباع أهل البيت (عليه السلام) في الحياة، وحضوره الفاعل واعتراف الآخر بقوة دوره وثقل مواقفه... إلا من بركات حزمة من الأسرار الإلهية والتخطيطات الحكيمة لقادة التشيع، وزيارة الأربعين المقدسة واحدة من بين تلك الأسرار الإلهية العظيمة التي جسدت جميع ما ألمحنا إليه من آثار وبركات.

الروح التضامنية

تؤكد جماهير زيارة الأربعين المباركة كل عام على مفهوم التضامن في الحياة، ولا حياة لمجتمع من المجتمعات من دون الإيمان بمفهوم التضامن وتجسيده عملياً في الواقع السلوكي.

التضامن مع القيم والرموز والمجتمع ضرورة حضارية، ومطلب إنساني أساسي... فالقيم والمبادئ تحتاج إلى روح التضامن من أجل الارتفاع بها إلى مستوى الاحترام والتقدير والالتزام... والرموز التي تعكس وتطبق وتنذر أنفسها لحماية تلك القيم والمبادئ تحتاج إلى من يتضامن معها ويلتحم في مشروعها ويعمل على إحياء مواقفها في الحياة... والمجتمع الذي لا يتحسس أفراداه هموم واحتياجات بعضهم البعض الآخر، ولا يبادر بنحو تلقائي إلى الاستجابة الإيجابية سوف يفقد أهم مقومات بقائه كمجتمع حي ذي هوية عقيدية ورسالة حضارية خاصة، حيث تعتمد استمرارية المجتمعات على التوفر الحقيقي على الشعور بروح التضامن والتعاون في جهازها القيمي وسلوكها العملي ولا فرصة للبقاء وتسجيل الحضور من دون ذلك. وقد ترجمت جماهير زيارة الأربعين المباركة مفهوم التضامن بنحو أذهل العالم، وأمكن القول: أن جمهور الزيارة قد قدّم درساً بليغاً في معنى التضامن وفهم حقائقه والإفادة من معطياته، والإنسانية مدعوة اليوم للتعلم منه، فتضامنهم مع الحسين عليه السلام والقيم التي نادى بها قد تحولت إلى أسطورة من الأساطير البشرية ولا يجدر بنا التطرق إليها، فهي من الوضوح والشهرة والتمجيد بمكان عظيم... بيد أن التضامن الثالث وهو (التضامن مع المجتمع) يملينا التوقف عنده، فقد فاق تضامن جمهور الحسين عليه السلام وبخاصة جمهور الزيارة الأربعينية كل أشكال ومستويات التضامن في العالم، حيث أن الكل يهتم بالكل والكل يبادر لتقديم المساعدة وإسعاد المشاركين بموسم الزيارة المليوني بكل ما أوتي من قوة، ولم تقف مواقفهم

التضامنية عند حدود حدث الزيارة، بل كانت روح التضامن حاضرة في كل ما يواجه الأمة من أزمات ونكبات ومخاطر، وموقفهم المعاصر من المشاركة في الدفاع المقدس ونصرة الحشد الشعبي لحماية العراق من التكفيريين والطامعين والممسوخين شاهد حي على ما نحن بصده، فقد تألقت إسهاماتهم في سماء المجد والشرف والرفعة، وسوف يخلدها الأحرار ما بقيت الحياة الدنيا.

أسطورة الوفاء

ألمحنا ضمناً عبر الإشارات المتقدمة الى ظاهرة الوفاء في سلوك جمهور زيارة الأربعين بعامة، والآن نفرّد عنواناً خاصاً لهذه الظاهرة الملفتة، تكريماً للسلوك نفسه، وتوقفاً يسيراً للتأمل الجاد في مضمونها الإنساني السامي.

وربما يجد الحديث عن مفهوم الوفاء والتذكير فيه بين الحين والآخر أكثر من سبب تربوي، ذلك أن تثمين التضحيات والجهود والإشادة المستمرة بشخصها وذكرها يسهم في تشجيع الآخرين على التضحية والمثابرة وبذل الجهد من أجل القضايا العامة التي تتصل بمصلحة المجتمع العليا لكونها تعمل على تحليدها وتبنيها وحضورها المتجدد في ضمير الأمة وذاكرتها الحضارية، متحدية الجهل والجمود والإستبداد السياسي والاجتماعي وكل ما يضاد القيم النبيلة في الحياة.

ومؤشرات التخلف تتضح حينما يغيب الوفاء وتتنكر الأمة للشخصيات الرائدة والمبدعة والمضحية في المجتمع، فيتساوى الشريف مع السخيف والصادق مع المنافق والباذل مع الباخل، ويأخذ الجاهل منصب الفاضل، ويقدم الجبان على الشجاع... حينها تنحسر مفردات الفضيلة في المجتمع شيئاً فشيئاً وتسيطر جنود الرذيلة على كل شيء.

إن الوفاء للشخصيات التي قدمت لمجتمعاتها أعز ما تملك هو في حقيقته انتصار للخير، ومقاومة للشر، وإحياء للنفوس ودفع لها للاقتداء بالنماذج الصالحة، النماذج التي تستمد منها الحياة حضورها وفعاليتها، فتزدهر من خلالها مرابعها ويعز ساكنوها. وليس في قاموس اللغة من مفردة توضح معنى التكريم وشدة الإحتفاء والالتزام بالمواقف الأخلاقية النبيلة مثل مفردة الوفاء، ولا أشد منها تعبيراً وكشفاً على صدق أصحابها.

من هنا تشتد الدعوة للتأمل والإحتفاء في ظاهرة الوفاء الأسطوري عند جمهور زيارة الأربعين الذي اخترق الزمان والمكان، وتحدى أعنف المعوقات والتهديدات، وبرهن على أصالة قيم الخير في صراعها مع الزيف والفساد والباطل في الوجود... ذلك أن الإحتفاء بهذه القيمة وبممارسيها ودراسة عوامل تفاعل الجمهور معها يمنح مجتمعاتنا قوة معنوية عظيمة ويحصن إطارها القيمي من التصدعات والإختراقات الثقافية في زمن اضمحلت فيه القيم الخيرة في الحياة. وما سجله هذا الجمهور على صعيد ممارسة مفهوم الوفاء المتمثل في إحياء ذكرى سيد الشهداء عليه السلام وأهل بيته وصحبه الأبرار وبخاصة عبر زيارته المعروفة بزيارة الأربعين - بتفاصيلها وألوانها المتعددة - يعد منجزاً أخلاقياً باهراً يجدر بالإنسانية جمعاء أن تفتخر به وتتعلم منه، فضلاً عن استفادتنا نحن منه، وتعميمه في حياتنا الإسلامية.

١. البراءة من الظالمين

إذا كانت ممارسة البراءة من المشركين تمثل إحدى ممارسات الحج الهامة، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ (التوبة: ٣). فإن ممارسة زيارة الأربعين المباركة تمثل أكبر تظاهرة إسلامية للتعبير عن البراءة من المشركين ومن الظالمين، فالاتجاه نحو الإمام الحسين عليه السلام يُعد إعلاناً رفضياً صريحاً للشرك والمشركين والظلم والظالمين، ويُعبّر عن الانتفاء الحقيقي للتوحيد النقي من كل الشوائب، وذلك لكونه توجهاً إلى مفهوم الإمامة الإسلامية، والإمامة هي ركن أصيل من أركان التوحيد وامتداد له، بل هي الالتزام الواقعي والممارسة العملية للتوحيد الإلهي، فهي تجسيد حي لمعنى الولاء الذي أكد عليه الكتاب الكريم والسنة الشريفة، ولا يكتمل التوحيد في حياة المسلم بدونه، وقد أشارت الآيات القرآنية إلى أن عدم طاعة الإمام هي معصية لله تعالى، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٥٩). وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة: ٥٥).

كما أكدت الروايات المعتمدة بأن عدم معرفة الإمام تفضي إلى المصير السحيق، حيث يقول أحد النصوص بأن «من مات وهو لا يعرف إمام زمانه، مات ميتة جاهلية». (الشيخ الصدوق، ١٩٩١: ٣٧٦؛ السيوطي، ١٩٩٣: ٤: ١٩٤).

وليس بوسع أي مسلم أن يصل إلى مرتبة التوحيد - ولو بأدنى مستوياته - دون أن يعتقد بالإمامة ويستجيب لتوجيهاتها ويعمل على تطبيق مبادئها في الحياة، فالأئمة عليهم السلام

هم الأدلاء على الله ﷻ والصراط المستقيم، وهم الأمان لأهل الأرض كافة.

وإعلان البراءة من المشركين بمفهومها المستوعب والعميق، لم ينته في السنة التاسعة للهجرة حينما أمر الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين أن يفعلوا ذلك وقت دخولهم مكة، ويمنعوا المشركين من الحج كما كانوا معتادين على ذلك زمن الجاهلية، حسب ما يذكر أصحاب تفسير القرآن الكريم، فظاهرة الشرك خارج مكة بقيت - ولا زالت - مستمرة، مما يتعين على المسلمين إعلان البراءة منها عبر هذا المؤتمر الجماهيري المتكون من حجاج بيت الله الحرام، والمنعقد في أقدس بقعة وأفضل أيام. ولا شك أن الشرك السياسي الذي يضع أياديه على أغلب مؤسسات الحكم في البلدان الإسلامية والعربية يستدعي من المسلمين أن يجتمعوا ويتذكروا أمور الأمة الإسلامية ومناقشة قضاياها، وإعلان مواقفهم الصريحة إزاء الشرك العالمي ومخططاته السياسية التوسعية، علماً بأن الله سبحانه وتعالى قد أتاح لهم هذه الفرصة النفيسة من خلال مناسك الحج المقدسة التي تعد من محطات نزول الرحمة الإلهية، وتوفر الظرف المساعد للإقبال على الله، ولم يبق إلا أن يحيوها ويستثمروها ليحرروا إرادتهم السياسية المستلبة، ويظهروا أراضيتهم ومؤسساتهم من براثن الشرك والمشركين والظلم والظالمين.

وإذا كانت الأوضاع الأمنية تعيق ممارسة شعيرة البراءة بحرية، وذلك لتخوف السلطات الحاكمة في الديار المقدسة من الاجتماعات والمظاهرات ذات الصبغة السياسية من جهة، وانشغال الحجاج بأداء مناسكهم الأخرى خشية الإخلال بفريضة الحج مما لا يتسنى لهم معه الاجتماع والتذاكر بأمور الأمة الإسلامية والخروج بمظاهرة البراءة - وإن كانت هذه الأسباب وغيرها لا تعفيهم من تركها - فإن زيارة الأربعين المباركة تختلف تماماً عن مناخ فريضة الحج، حيث تكاد أن تتمحض هذه الممارسة للتعبير عن الموقف السياسي الإسلامي تجاه ما يجري في البلدان الإسلامية وغير الإسلامية، وبخاصة التنديد بالظلم والظالمين من الماضين والحاضرين انسجماً مع روح ثورة سيد الشهداء عليه السلام.

وتأكيداً على مضمون النصوص الواردة في زيارته عليه السلام، ومنها النص الوارد في زيارة الأربعين المباركة حيث تقول إحدى فقرات الزيارة: «فأعذر في الدعاء، ومنح النصح، وبذل مهجته فيك ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة...» (المشهدى، ١٤١٩ هـ). كما أن طبيعة نظام الحكم الحالي في العراق يسمح - والله الحمد - بحرية ممارستها بكامل تفاصيلها التعبيرية ما يمنحها تفرداً عالمياً لا نظير له. فليس هناك مؤتمر سياسي و تظاهرة جماهيرية مستقلة و حرة بهذا الحشد من الناس، و بهذا السقف الزمني، ولا باستطاعة أكبر دولة في العالم احتضان مثل هذا النشاط الكبير وتنظيم فعالياته المتعددة، وضبط سلوك المشتركين في نشاطاته.

وعليه لابد من التركيز على المضمون الرسالي لهذه الممارسة والتذكير المستمر به لكي لا تتحول الممارسة إلى طقوس خالية من دلالاتها الحركية الحقيقية.... حيث يتعين على هذا المؤتمر الحسيني العظيم أن يعلن كل عام صرخته المليونية الهادرة، مسمعاً العالم بأسره براءته وإدانتته لكل شرك وظلم وانحراف مُستعيداً شعارات كربلاء الأبية من جديد «هيهات منا الذلة» والعمل على مواجهة الجائرين أسوة بصاحب الذكرى حينما قال - وعمل -: «أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله» (القرشي، ٢٠٠٩: ٣: ٨١).

إن عظمة هذه التظاهرة المليونية تتجسد في خصوصياتها الثورية التغييرية التصحيحية، ولهذا وقف أعداء أتباع أهل البيت عليهم السلام إزائها موقفاً مستنكراً وعملوا على محاربتها بعنف شديد. إنها حركة وقائية منفتحة على كافة مسارات المجتمع الإسلامي بنحو خاص والمجتمع الإنساني بنحو عام، تبدأ من تطهير الذات عبر إنكار كل ما يمثل نزعة عدوانية على القيم الإسلامية والإنسانية السامية، وانتهاكاً لحقوق الله والإنسان والطبيعة، وتنتهي بالعمل الفعلي السلمي في اتجاه التصحيح والتغيير، ومن دون هذه المعاني السامية سوف

لا تعدو أن تكون نزهة أو مقصداً لطلب الحوائج الذاتية سواء أكانت أخروية أم دنيوية ولا مانع - في تصوري من ذلك - لكنها سوف تكون مجردة عن مضمونها الحقيقي وغير معبرة عن رسالتها الأصلية.

وهنا تبدأ مسؤولية العلماء والمثقفين وكل مهتم برسالة هذه الزيارة المباركة في توجيه المؤمنين والمؤمنات وسائر المشاركين إلى أغراض الزيارة المشار إليها، وعلى رأس القائمة البراءة والمفاصلة والمناهضة لكل أشكال الشرك والظلم، ويلزمهم التذكير المركز والمستمر عليها خشية الغفلة عنها وتضييع مفاداتها الخطيرة.

١.١ البراءة السياسية في زيارة الحسين (عليه السلام)

يتميّز الموقف السياسي في الإسلام بارتكازه على ثوابت مبدئية وقيم أخلاقية تمثل أطراً مرجعية في سلك التعامل مع العلاقات الخارجية أو مع الآخر بصورته المطلقة، خلافاً للرؤى السياسية السائدة عند جميع الاتجاهات الفكرية في العالم، حيث لا توجد ثمّة أية مرتكزات أو نظم سوى إدراك المصلحة الذاتية والتلون وفق مستلزماتها، ولذلك عرفوا السياسة بفنّ الممكن، يقصدون بذلك انتفاء فكرة الصداقة الثابتة والعداء الثابت.

فمن الطبيعي جداً أن يتحوّل العدوّ اللدود إلى صديق ودود والعكس صحيح... إن برنامج الثقافة الزيارية كما تترجمها زيارة وارث تفصح عن رؤية أيديولوجية ثابتة حول مفهوم التبني والصراع والائتلاف والعراك والسلام والحرب والحياد، من خلال قراءة الماضي في ضوء الحاضر، وفهم الحاضر كنتيجة أو عناصر واثرة لخطوط الماضي بخيرها وشرّها، وهذه من الحقائق المشعة بالغرابة والدهشة، حيث يقسم الميثاق السياسي في زيارة وارث الفريق المعادي إلى طوائف ثلاثة، هنّ كما يلي:

١ - الأمة القاتلة.

٢ - الأمة الظالمة.

٣ - الأمة الراضية.

يقول النص: «فَلَعَنَ اللَّهُ أُمَّةً قَتَلَتْكَ، وَلَعَنَ اللَّهُ أُمَّةً ظَلَمَتْكَ، وَلَعَنَ اللَّهُ أُمَّةً سَمِعَتْ بِذَلِكَ فَرَضِيَتْ بِهِ» (المجلسي، ١٩٨٢: ٩٨: ٤٣٣).

فالنص لا يقيم فارقاً بين المباشرة في القتل والمستسبب فيه، وبين الطائفة الأخطر، وهم السليبيون على مدار التاريخ، فالتصور الإسلامي يلغي عملية التعاقب الزمني أو التراكم الكمّي، وينظر للواقع التاريخي كوحدة زمنية متصلة، والمجتمع على صنفين: إمّا مؤيد ومناصر أو معاند معتدي، وهناك تفصيل واسع في المسألة، حيث طالما أشارت النصوص القرآنية وأحاديث أهل البيت عليهم السلام بأن السخط والرضا عمليّة تنفتح على الأجيال قاطبة، مثل مقولة أمير المؤمنين عليه السلام لمن قال له بعد ما أظفره الله بأصحاب الجمل:

«ووددت أنّ أخي فلاناً كان شاهداً ليرى ما نصرّك الله به على أعدائك، فقال له عليه السلام: أهوى أخيك معنّا؟ فقال: نعم، فقال: فَقَدْ شَهِدْنَا، وَلَقَدْ شَهِدْنَا فِي عَسْكَرِنَا هَذَا أَقْوَامٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ، سَيَرَعَفُ بِهِمُ الزَّمَانُ، وَيَقْوَى بِهِمُ الْإِيمَانُ» (عبده، ٢٠٠٦: ١: ٤٤).

كيف ما يكون، إنّ إعلان البراءة أو اللعن لا تعني وفق الرؤية الإسلامية المتبنّة من قبل أهل البيت عليهم السلام رغبة في اللعن أو تفريغاً للترسّبات العدوانية، بقدر ما تعني موقفاً عقيدياً فكرياً لا يحمل آية مسحة ذاتية أو طائفية أو عرقية أو فتوية.. بل ينطلق من صلب المصلحة الموضوعية العامة، حيث يتعين على الإنسان الملتزم أن يكون له موقفٌ صريحٌ حيال الانحراف والعدوان واللاعقلانية، وتتشدّد مسألة الالتزام بالنسبة إلى المؤمنين، فهم من ألصق الناس بقضايا الالتزام، والتصريح بالتصورات الصائبة في كل موقف يتطلب تسجيل كلمة الحق ومحاربة الفساد.

وتحضرني كلمة للشيخ الأصفي في هذا السياق من الضروري الاستشهاد بها. يقول الشيخ: «واللعن والبراة هو إعلان الفصل والبنونة الكاملة، ولا يصح ولا يجوز اللعن إلا عندما ينقطع آخر الخيوط من وشائج الولاء في هذه الأمة.

فإن انقطعت هذه الخيوط خيطاً بعد خيط، وشيجة بعد وشيجة، عند ذلك يكون كل من الفريقين أمة منفصلة عن الفريق الآخر، فإذا كانت إحدى الأمتين موضع رحمة الله مرحومة فلاحالة تكون الأمة الأخرى موضع غضب الله ملعونة، وهذا هو الحدّ الفاصل والحاسم بينهما، فإن الله تعالى قد وصل بين المسلمين بوشيجة الولاء، فقال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١)، وهي أقوى الوشائج الحضارية في تاريخ البشرية، ومن يدخل في مساحة الولاء من المؤمنين يستحق من أعضاء هذه الأسرة الكبيرة النصر والسلام والعصمة، وأقصد بالعصمة أن يحفظوا دمه.. عرضه.. كرامته.. ماله، وقد أعلن رسول الله حقّ المسلم على المسلمين في العصمة في خطاب عامّ ألقاه على المسلمين في مسجد الخيف بمنى في آخر حجة حجّها رسول الله بالمسلمين، فقال:

أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوا مَا أَقُولُ لَكُمْ وَاعْقِلُوهُ، فَإِنِّي لَا أَذْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِنَا هَذَا؟

ثم قال: أَيُّ يَوْمٍ أَعْظَمُ حُرْمَةً؟

قالوا: هذا اليوم.

قال: فَأَيُّ شَهْرٍ أَعْظَمُ حُرْمَةً؟

قالوا: هذا الشهر.

قال: فَأَيُّ بَلَدٍ أَعْظَمُ حُرْمَةً؟

قالوا: هذا البلد.

قال: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمٍ تَلْقَوْنَهُ، فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ. أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ:

قالوا: نعم.

قال: اللَّهُمَّ اشْهَدْ. أَلَا مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ وَلَا مَالُهُ إِلَّا بِطَبِيعَةِ نَفْسِهِ وَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا.

ويحق عليه تجاه المسلمين العزة والسلام والعصمة ونقصد بالسلام أن يسلم المسلمون من يده ولسانه.

فقد روي عن رسول الله ﷺ في ذلك: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ»، ولانعرف فيما نعرف من العلاقات الحضارية علاقة أقوى وأمتن، وفي نفس الوقت أرق من علاقة الولاء.

ويدخل في دائرة الولاء هذه كل من يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإذا شهدها دخل في عصمة الولاء وعصم من المسلمين دمه وماله وعرضه.

وإذا انقطع ما بينهما من العصمة كان كل فريق منهما أمة ورحم الله زهير بن القين كان واعياً لهذه الحقيقة لما خاطب جيش بني أمية يوم عاشوراء، فقال لهم:

يا أهل الكوفة، نذار لكم من عذاب الله نذار، إن حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتى الآن إخوة على دين واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنا أمة وأنتم أمة.

وهذا وعي دقيق لحقيقة كبرى من حقائق هذا الدين، فإن العصمة إذا ارتفعت بين فريقين من المسلمين ووقع بينهما القتل، وبغض أحدهما الآخر، كان كل فريق منهما أمة، فإذا كانت إحداها مرحومة كانت الأخرى ملعونة لامحالة» (الأصفي، ١٩٩٩: ١٨٣ - ١٨٥).

٢٠١ إحياء الإرادة السياسيّة

في الواقع أنّ زيارة الحسين عليه السلام تعمل على تنشيط مفاعيل الإرادة السياسيّة داخل الشخصية الإسلاميّة في قبال الجهود القمعيّة المكثّفة المبذولة من جانب السلطات، ومنذ وقت بعيد.

إنّ هموم السلطات المستبدّة والجائرة تتلخّص عبر كلّ تجربة حكوميّة تقودها السلطات المذكورة في ابتكار أفدح الوسائل الارهابيّة من أجل وأد صوت حريّة الإرادة الإنسانيّة، وتركيع الضمائر الحرّة، وشلّ محرّكات التعبير عندها، كي يتسنّى لها إملاء توجّهاتها وبرامجها السياسيّة على الشعوب... لأنها تدرك تماماً أنّ الشعوب متى ما تمتعت بامتلاك الإرادة السياسيّة، وتسلّحت بها في الحياة العملية فإن مصيرها ومصير كل الحركات الجائرة المستبدّة هو الزوال لا محالة. ولذلك كانت - ولا تزال - تعمل على قتل الإرادة السياسيّة داخل الأمة، ولا تسمح لأدنى محاولة تسعى إلى إحيائها ورعايتها وتقويتها بتاتاً.

ومن هنا نفهم توجيه أهل البيت عليهم السلام وحثهم المكثّف لأتباعهم على التواصل مع قادة التشريع الإسلامي عبر ممارسة الزيارة، فقد عكفوا على صياغة العديد من النصوص (الأدعية) التي تقرأ في تلك المقامات ونجحوا في تمرير جملة من المفاهيم المعرفية والعقيدية والحركية من خلالها وأهمها مفهوم (الإرادة السياسيّة) فهي تهدف إلى تأكيد العلاقة الولائيّة مع تلك الشخصيات الإسلاميّة المقدسة... واستذكّار مواقفهم الرساليّة ومقاصدهم النبيلة من أجل الإسلام والمسلمين... وهذا ما يحمل الزائر على الالتحاق بتلك الشخصيات وتبنيه لأعمالهم وتطلّعه لتحقيق الطموحات التي كان أهل البيت عليهم السلام يسعون إليها...

وتأتي زيارة الحسين عليه السلام في مقدمة الأعمال التي تبعث على خلق الإرادة السياسية في عقل ووجدان الفرد والأمة، وتدفع نحو الحركة وتسجيل المواقف الكريمة، فهي نبع متفجر من الوعي والحرص بمصالح الأمة واحتياجاتها وتحدياتها... وسيل من الحماسة للدفاع والتضحية من أجلها.

أقول: إنَّ زيارة الحسين عليه السلام وقفت بحزم وصرامة في وجه مشروعات السلطات المتعاقبة على منهجية القهر السياسي، حيث توقّرت على خطاب تعبوي يجيد تفعيل مفرداته الثورية بين أبناء الأمة وتحسيسهم بقضايا الشأن العام، كما لو أنّها قضاياهم الخاصة ومشكلاتهم الضرورية في الحياة، وما أشدّ احتياجاتنا في كلّ عصر إلى عناصر تقارب مكامن إحياء الإرادة في داخل النفوس، وتعمل بفاعلية عالية على استنهاض الجمهور المؤمن كما هو ملاحظ في زيارة سيد الشهداء وبالتحديد زيارة الأربعين المباركة.

٣.١ الانتصار والعمل

طالما أكّدت نصوص الزيارات جميعاً على الدعاء من الله سبحانه وتعالى في أن يكون القول مطابقاً للعمل، وأن يلحق الله عزّ شأنه الزائر في زمرة المناصرين الحقيقيين لأهل البيت عليه السلام؛ وذلك من خلال الانتصار لهم بالمواقف العملية، وليس الاقتصار على العواطف والكلام.

ففي زيارة أمير المؤمنين عليه السلام يقول أحد النصوص:

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ مَنْنْتَ عَلَيَّ بِزِيَارَةِ مَوْلَايَ وَوَلَايَتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، فَاجْعَلْنِي مِمَّنْ تَنْصُرُهُ وَتَنْصُرُ بِهِ، وَمَنْ عَلَيَّ بِنَصْرِكَ لِدِينِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. اللَّهُمَّ أَحْيِنِي عَلَى مَا حَيَّيَ عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمِتْنِي عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ» (ابن قولويه، ١٣٥٦ هـ: ٤٥).

يَبْدُ أَنْ حَجَمَ الْمَطَالِبَةَ فِي زِيَارَاتِ الْحُسَيْنِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) يَتَضَخَّمُ بِنَحْوِ أَكْبَرٍ، وَكَأَنَّ مَسْأَلَةَ الزِّيَارَةِ الْحُسَيْنِيَّةَ دَعْوَةً لِلْعَمَلِ وَالتَّطْيِيقِ وَامْتِحَانِ حَقِيقَةِ الذَّاتِ فِيمَا تَتَبَنَاهُ وَتَعْتَقِدُ فِيهِ عَقْلِيًّا وَوُجْدَانِيًّا. تَقُولُ بَعْضُ النُّصُوصِ:

«اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَا أَقُولُ بِلِسَانِي حَقِيقَةً فِي قَلْبِي، وَشَرِيعَةً فِي عَمَلِي. اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِمَّنْ لَهُ مَعَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ قَدَمٌ ثَابِتٌ، وَاثْبُتْنِي فِيمَنْ اسْتَشْهَدَ مَعَهُ» (المشهدى، ١٤١٩ هـ؛ ابن قولويه، ١٣٥٦ هـ: ١٩٥).

وَفِي نَصِّ عَجِيبٍ آخَرَ، يَحْمِلُ رَمْزِيَّةَ خَاصَّةٍ، يَقُولُ بَعْدَ رَحْلَةِ شَيْقَةِ فِي التَّنْقَلِ حَوْلَ مَوْضُوعَاتِ الزِّيَارَةِ وَأَفْكَارِهَا:

«ثُمَّ امْشِ قَلِيلًا وَقُلْ: إِنْ كَانَ لَمْ يُجِبْكَ بَدَنِي عِنْدَ اسْتِغَاثَتِكَ، وَلِسَانِي عِنْدَ اسْتِنْصَارِكَ، فَقَدْ أَجَابَكَ قَلْبِي وَسَمْعِي وَبَصَرِي وَرَأْيِي وَهَوَايَ عَلَى التَّسْلِيمِ لِحَلْفِ النَّبِيِّ الْمُرْسَلِ وَالسَّبْطِ الْمُتَجَبِّ، وَالِدِّ الدَّلِيلِ الْعَالِمِ، وَالْأَمِينِ الْمُسْتَخْزَنِ، وَالْمُؤَدِّي الْمُبْلَغِ، وَالْمَظْلُومِ الْمُضْطَهَّدِ» (ابن قولويه، ١٣٥٦ هـ: ٢٣٠).

بِكَلِمَةٍ مَلَخَّصَةٍ: إِنَّ التَّعَمُّقَ فِي مَضْمُونَاتِ زِيَارَةِ الْحُسَيْنِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) يَكْشِفُ عَنْ أَنَّ نَسِيجَ الزِّيَارَةِ الدَّاخِلِيَّ يَسْتَبْطِنُ طَاقَةَ حَرَكِيَّةٍ مَذْهَلَةٍ تَدْعُو لِلْعَمَلِ بِأَقْصَى مَسْتَوِيَّاتِ الدَّعْوَةِ وَالتَّحْرِيكِ، وَلَيْسَ مِنَ التَّضَخُّيمِ فِي شَيْءٍ إِذَا مَا وَصَفْنَا مَفْهُومَ الزِّيَارَةِ الْحُسَيْنِيَّةَ بِالمَفْهُومِ الْحَرَكِيِّ النِّهَاضِيِّ التَّغْيِيرِيِّ الْخَالِصِ، وَلِذَلِكَ كَانَتْ مَحَاوِلَاتُ أَهْلِ الْبَيْتِ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) الْمَكْتَفَّةُ فِي رِبْطِ أَبْنَاءِ الْأُمَّةِ بِهَذِهِ الْمَارَسَةِ الْمُبَارَكَةِ، كَالِيَّةٍ فَاعِلَةٍ مِنْ آيَاتِ الْإِصْلَاحِ وَمَحَارَبَةِ الْفَسَادِ الْمُسْتَشْرِى فِي الْوَسْطِ الْإِسْلَامِيِّ.

إِنْ قَرَأْتَ مِثْلَ هَذِهِ النُّصُوصِ - بِتَطَوُّعٍ وَرَغْبَةٍ ذَاتِيَّةٍ - تَضَعُ الْمَارَسَ أَمَامَ تَحْمُّلِ مَسْئُولِيَّاتِ مَضْمُونَاتِهَا، وَهَذَا مَا يَسَاعِدُ عَلَى مَبَاشَرَةِ الْأَعْمَالِ الْمُنْشُودَةِ وَفِي مَقْدَمَتِهَا تَعْدِيلُ السَّلُوكِ الشَّخْصِيِّ وَتَصْحِيحُ الظُّوَاهِرِ الْمُنْحَرِفَةِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْعَامِ، وَلَقَدْ أَكَّدَتِ الدِّرَاسَاتُ النَّفْسِيَّةُ

في مجال التأثير بالآخرين: أن حمل المقابل على الاعتراف بفكرة ما يعتقد بها أو يقول بها، تدفعه بقوة إلى تطبيقها، والشعور بالإحراج الشديد من التّصل منها، وهذا ما يُدعى بـ (الالتزام والاتساق) أو (Cialdini, 2009) (commitment and consistency).

والنصوص المتقدمة تعمل على حمل الزائر للاعتراف بقناعاته ومسؤولياته وإلى الإعلان عن رغبته الملحة في العمل على الانتصار لمشروع رموزه وقادته المقدسين وهم أهل البيت عليه السلام والسعي إلى تفعيل ذلك في الحياة الدنيا مما يصل فيه الممارس إلى مستوى العمل على المباشرة في تطبيق مسؤولياته الشرعية والأخلاقية لكي يزيح مشاعر التناقض التي تحدث للإنسان جراء تبنيه لبعض الأفكار والتهرب من الالتزام بها عملياً.

٢. استعراضات الجماهير المؤمنة الهادفة

نعرض عبر هذا العنوان الرئيس لجملة من الاستعراضات المعنوية الهادفة والتي تفردت بها الشريعة الإسلامية عبر ثقافة الزيارة المباركة وبخاصة زيارة الأربعين، ونبدأ تناول الموضوعات بـ:

١.٢ استعراض القوى المؤمنة

اعتادت الكثير من الدول والأحزاب والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية أن تظهر إمكانياتها وقدراتها البشرية والمادية الى الآخرين من خلال استعراض جماهيري أو نشاطات عسكرية و صناعية - معارض ومناورات ومؤتمرات - أو غير ذلك. يبذل العاملون على تنظيم مثل هذه الاستعراضات الكثير من الوقت والمال والجهد حرصاً منهم على إيصال رسائل إلى الأصدقاء والأعداء تهدف الى التعريف والإعلان وتعزيز الثقة في نفوس أتباعهم، والتهديد الغير مباشر لمنائئهم أو لمجرد الترويح والدعاية لمنتجاتهم الحديثة.

والمؤمنون معنيون - كغيرهم من القوى الموجودة على الأرض - باظهار قوتهم البشرية وطاقاتهم المعنوية عبر الممارسات المنسجمة مع الشريعة الإسلامية، والمواكبة لروح العصر، ذلك أنهم يحملون مشروعاً حضارياً، ويعملون على تقديمه إلى البشرية كبديل، بعد أن أخفقت المشاريع البشرية الأرضية في تقديم الحلول الصائبة لما يعاني منه الإنسان المعاصر... وهذا المشروع الحضاري ذو الهموم والطموحات الكبيرة يحتاج إلى نشاط تعريفى وإعلامى يوازي خطورته وضخامته بغية لفت انتباه واهتمام العالم إليه

وإعجابه به، إلى جانب تعزيز ثقة أتباعه بقدرته وعزته وحجم حضوره على جغرافية الأرض الحالية، فمن المعروف أن أتباع أهل البيت عليه السلام يشكلون أقليات دينية في مختلف البلدان، ما عدا أربع دول في العالم وهي العراق وأذربيجان والبحرين وإيران حيث يمثلون أكثرية دينية ومذهبية فيها بسبب معدلاتهم السكانية العالية في البلدان المذكورة، والشعور بالأقلية له تداعيات سلبية على الفرد والجماعة إذا لم يصاحبه وعي إيماني عال، مع التأكيد على أن التصور الإسلامي يمتدح القلة الثابتة على الحق، ولا يقيم اعتباراً للكثرة إذا افتقدت للمقومات الصائبة...

بالرغم من جميع ذلك، لقد لاحظت التصورات الإسلامية خطورة وجود الجماعة ومشاركة ومشاطرة الآخرين للمبادئ التي يؤمنون بها على الإحساس بالقوة، واستمداد الصبر والتحمل، والتشجيع على المواصلة والبذل. وهذا ما سوف نتناوله عبر الموضوع التالي:

١.١.٢ المنجز العددي

من الواضح أن الشريعة الإسلامية قد أسست - بنفسها - لبعض الممارسات العبادية العاملة على هذا الاتجاه مثل: الحج وصلاة الجماعة والجمعة والعيد وممارسة الزيارة في أوقات وأماكن خاصة حرصاً منها على اجتماع المؤمنين في وقت ومكان واحد، بل هناك توصيات خاصة في تزاور المؤمنين والدعوة إلى الاجتماع والتحدث فيما بينهم... الخ ومن بين هذه الممارسات زيارة الأربعين المباركة التي أخذت على عاتقها لعب هذا الدور، وقد أجادت في إيصال رسالتها الهادفة لظهور إمكانات المؤمنين - وعشاق السلام من غير المسلمين - المادية والمعنوية حيث أصبح من الواضح للجميع أن عدد المشاركين في زيارة الأربعين المباركة - في العقد الأخير - قد تجاوز في أقل تقاديره العشرة ملايين، وقد بلغ في عام (٢٠١٤ م) العشرين مليون، بمشاركة أكثر من خمسة ملايين زائر من خارج

العراق، وهو في تصاعد مستمر، ونتوقع له الازدياد المطرد... مما يشكل استعراضاً واضحاً للقوى المؤمنة من أتباع أهل البيت عليه السلام وكل من يشاركهم الاهتمام بمبادئ هذه الممارسة المباركة تظهر التي حجمهم الطبيعي وقوتهم العددية مما يعزز ثقتهم بأنفسهم ويفرض على الآخرين أن يحسبوا لهم الحسابات الخاصة، فهم يمثلون رقماً بشرياً كبيراً على الخارطة الاجتماعية. وقد وصفت إحدى محطات التلفزيون العالمية (BBC) البريطانية في عام (٢٠١٣) هذا الحشد المليوني المبارك بـ (التنين الأسود) الممتد من البصرة إلى كربلاء، وذلك لارتداء المشاركين اللباس الأسود حزناً على سيد الشهداء ولا اتصال حركة السير دون ترك فواصل مكانية... ما يرسم لوحةً جماهيرية متلاحمة، تعجز كل وسائل التصوير والفن من تجسيدها وتمثيلها بما هي عليه.

إنها لوحة إيمانية معنوية إنسانية قبل أن تكون لوحة تكشف عن الحجم العددي لأتباع وأنصار الحسين عليه السلام. تعكس هذه اللوحة مدى تلاحم أتباع أهل البيت عليه السلام مع مبادئهم الأصيلة وشدة تعلقهم بقائدهم العظيم أبي الأحرار عليه السلام حتى أملت هذه الحشود المباركة على أحد المعلقين الغربيين - كما نشر على إحدى شبكات التواصل الاجتماعي - أن يصرح بالتالي: «لو قُدر لهذا القائد - يقصد الإمام الحسين - أن ينهض بهذه الجماهير المليونية المتحمسة لكان قد احتل العالم كله»

كلمة - بالرغم من جهلنا بهوية قائلها - تفصح عن وعي عميق بما يترشح عن هذه الظاهرة المباركة من نتائج عملية متوقعة، ولا يسع الدارس الاجتماعي مهما اختلفت هويته وتوجهاته أن ينظر لها بخلاف ثقلها التعبوي الثوري الذي تنطوي عليه، وهو من المكاسب العظيمة لأتباع أهل البيت عليه السلام فليس من السهل التوفر على ممارسة اجتماعية قادرة على استقطاب مثل هذا الحشد المليوني من الناس، وليس من السهل تنظيمه واستنهاضه وعرضه أمام العالم بهذا النحو المتحضر والمتميز، فهو بحق منجز عددي يستحق منا كل تقدير ويفرض علينا بذل المزيد من الاهتمام والعمل على الاحتفاظ به.

٢.١.٢ القيمة النوعية

طبيعياً، إن اهتمامنا بالحديث عن ضخامة الأرقام التي سجلتها ممارسة زيارة الأربعين المباركة بالنسبة إلى المشاركين لا يمثل قيمة حقيقية مستقلة، وغاية نسعى إلى بلوغها، بالرغم من افتخارنا بها، والعمل على تناميها، فالكثرة - بما هي كم - لا تحظى بتقدير التصور الإسلامي، ولا يضعها ضمن أولوياته واستخطاطاته، فالقيمة الأساس يمنحها للنوعية وللמبادئ التي تنطوي عليها التجمعات والجماعات مهما صغرت، وقد وصف الله خليله إبراهيم بالأمة، في حين وصف أئمةً وشعوباً ومجتمعات بالموت، الجهاد، والحيوانات لكونهم قد انسلخوا عن إنسانيتهم، وأقفلوا قلوبهم، وأصبحوا كائنات تحمل صورة الإنسان، ولا تمتلك مضموناته. لذلك تطلب التذكير بأن قيمة هذا التجمع الإيماني الكبير تتمثل برسالته الإنسانية العظيمة، وغاياته النبيلة، ولا تكتسب الأهمية من حجم الأعداد المشاركة فيه، وإلا فالعالم يحتفي بالعديد من المهرجانات والكرنفالات والمليقات التي يخلع عليها تسمية الثقافة والفن والرياضة... وهي مجردة عن كل ثقافة وفن ورياضة، ومحتشدة بكل ما من شأنه أن يطمس معاني الفطرة، ويغلق قنوات تنفس الروح، حيث يرتفع فيها صخب الرذيلة، وتغطي المنكرات أجواء تلك التجمعات، وتتسبب بأزهاق العديد من النفوس، وإعاقة العديد من الشباب جراء مشاركتهم فيها، إلى جانب التعدي على الممتلكات العامة، وإهدار الأموال الطائلة دون تحقيق منجزات تعود على المشاركين وعلى المجتمع بفوائد ذات مساس مباشر قريب أو بعيد بتعديل سلوكهم، أو توليد إحساس السعادة الحقيقية في نفوسهم، نظير ما يصنعه مهرجان زيارة الأربعين المباركة من تأثيرات إيجابية سريعة، ومعطيات تعم مكاسبها النوع الإنساني جميعاً، لأنها تشتغل على هوم الإنسان الأساسية مثل العدالة، الكرامة، الحرية، التسامح، التعاون، الإيثار، السلام، وتعمل على ترسيخ مبادئ السلم الاجتماعي، من قبيل:

التقارب، الحوار، تبادل المعلومة، نبذ العنف، ومحاربة نشر الكراهية والعنصرية وإثارة الفتن والمناكفات السياسية والاجتماعية... الخ

لجميع ما تقدم، أمكن القول: إن دراسة ممارسة زيارة الأربعين المباركة بوعي اجتماعي وعبادي تقودنا إلى القول بأن هذه الممارسة المباركة قد تحولت إلى استعراض موسمي للعزة والعدل والحرية.... استعراض يفصح عن الحالة الثورية والفدائية لعشاق سيد الشهداء عليه السلام بنحو سلمي لا أثر فيه للعنف والكراهية والتحريض، بل إن جميع أدواته وشعاراته سلمية إنسانية متقيدة بالضوابط الشرعية والقانونية، وملزمة بوسائل التعبير المتحضرة.

من هنا ندعوا المؤمنين والمؤمنات من جميع أنحاء العالم إلى أن يلتحقوا بهذا الاستعراض المقدس ويسجلوا حضورهم الفعّال مع إخوانهم العراقيين على تراب العراق الزاكي من أجل الكشف عن هوية وحجم أتباع أهل البيت عليهم السلام، وإعطاء صورة واقعية عن حالتهم المعنوية، وإيضاح دورهم المحوري في الدفاع عن مبادئهم ومقدساتهم، ودرجة تعلقهم برموزهم العقيدية.

نتمنى من جميع المؤمنين والمؤمنات أن لا يتغيبوا عن الحضور والمشاركة في مهرجان الأربعين حتى لو ترتب على ذلك المشقة الكبيرة، فإن ذلك ما يضاعف لهم الأجر، وهو المطلوب حيث تضيف مشاركة بعض أصحاب الحالات الخاصة مثل المعوقين وكبار السن والمسؤولين والمشاهير إقليمياً وعالمياً على الصعيد الفني والإعلامي والرياضي نكهة متفردة على الممارسة نفسها، وإذا كانت الحالة الصحية لبعض من يتخوف من المجيء لا تسمح له بالوصول إلى المرقد المطهر، أو لا يمتلك الوقت الطويل بسبب انشغالات بعض أصحاب المسؤوليات... فيكفي أن يمشي كل شخص من هؤلاء لساعات محدودة أيام الزيارة باتجاه كربلاء المقدسة من أية جهة شاء.

٢.٢ الاستعراض الأخلاقي

إلى جانب ما تقدّمه حركة زوار الأربعين من عرض للحالة التعبوية والثورية والفدائية... فإنها تقدّم عرضاً أخلاقياً تكاد أن تتفرد في ممارسته وتطبيق مضموناته الأخلاقية على كافة المدارس والاتجاهات الأخلاقية في تأريخ الإنسانية. إن تجسيد مثل هذا الحجم من السلوكيات الأخلاقية الأصيلة على مسرح أداء الممارسة - وهو أكبر مسرح في العالم مساحةً ومشاركةً حيث يتوزع على آلاف الكيلومترات التي يسلكها عشاق الحسين، ويشارك فيه ملايين الممارسين مضافاً إلى ملايين المتابعين عبر شاشات التلفاز ووسائل التواصل الاجتماعي... - لأمرٌ بحاجة إلى وقفة دراسية طويلة، ولا أحسب أن باستطاعة الدارس لهذا المسرح الأخلاقي وموضوعاته المثيرة أن يوفق في كشف حقائقه ودلالاته المتدفقة فإن الموضوعات ذاتها تجعل من الدارس والمتابع والمراقب في ذهول وحيرة لغزارة ما يشاهد من ظواهر وحالات ومواقف في قمة الأخلاقية والقيم الإنسانية، ولا أحسب كذلك أن ثمة حدثاً أو ممارسة جماهيرية تحمل أبعادها على أن يُظهروا ويعملوا على تطبيق أرفع المفاهيم الأخلاقية على أرض الواقع مع ملاحظة اندفاعهم بشدة على التنافس في أدائها دون إكراه أو تأثيرات خارجية.

سلفاً ينبغي التنبيه إلى أن الاستعراض المذكور يسهم بجدية عالية في إعادة الاعتبار إلى القيم الأخلاقية نفسها في الحياة، بعد أن أهينت وأهدرت وانتهكت جميع المثل والقيم والمعايير الأخلاقية من قبل الإنسان المعاصر... ويسعى إلى أن يجعل من الممارسين (أحباب الحسين عليه السلام) شواهد ومصابيح للآخرين لكي يهتدوا بها ويعتبرون منها، فهي تمثل فضاءً محتشداً بزخم من التأثير الروحي الأخاذ ولا يسع شخص يحمل قدراً ضئيلاً من الحياة ألا يستجيب لها ويتأثر بدلالاتها.

إن المؤمنين - والإنسانية جميعاً - تمتلك عبر ممارسة زيارة الأربعين المباركة ثروة أخلاقية لا يمكن إحصائها، من شأنها أن تسعف الإنسان المعاصر من أخطار الأزمة الأخلاقية التي تعصف به منذ قرون، ومن الجدير بالقادة والمعنيين بهموم الإنسانية وأزماتها أن يلتفتوا إلى أهمية هذه الثروة الأخلاقية العظيمة ويعملوا على الإفادة من معطياتها نظير اهتماماتهم بالأزمات المالية التي تستولي على جهودهم بين الحين والآخر، فإن مصدر كل ما بنا من أزمات يرجع إلى حالة المنظومة الأخلاقية، فمتى ما تعافت وانتعشت تزدهر جميع الجوانب الحياتية، ومتى ما مرضت وأصيبت بالإفلاس والعجز، فإن الدمار والفساد والخوف سوف ترتفع معدلاته وطغيانه على الأرض. ولحسن الحظ فقد أُنْبهت الحكومات الغربية إلى ضرورة العامل الأخلاقي في التنمية، واستتباب الأمن، وتماسك المجتمع، والمحافظة على المصالح العامة، مما تطلب منها وضع معالجته ودراسته وتفعيله في الحياة على رأس قوائم برامجها الحكومية، وقد شجعت على تبني الحوار الأخلاقي بين جميع شرائح المجتمع، كما تبنت سن قوانين كثيرة - في عدة مجالات - من شأنها أن تعزز دور المبادئ والقيم الأخلاقية الإنسانية في سلوك أفرادها (Scheltema et al, 2007). ونتمنى أن تنتبه حكومات المجتمعات العربية والإسلامية إلى أهمية الموضوع ذاته.

ومن المؤسف أن يَهْمَش هذا الاستعراض الأخلاقي الكبير، ولا يعطى حقه من التعريف والاهتمام العالمي بالرغم من موضوعيته وحيادية أنشطته التي تمثل شراكة وإراثاً إنسانياً عاماً، وبالرغم من حاجة أسرة المجتمع الإنساني إليه. فهل ثمة من يختلف على مفهوم التعاون والإيثار والكرم والإحترام وإشاعة الحب والسلام في العالم؟ تلك وغيرها هي رسالة هذا الاستعراض الأخلاقي البريء فلماذا لا تعمل الأسرة الإنسانية على الإفادة وتنمية الاستعراض المذكور؟!

ربما أن الكثير من رؤوس أهل الأرض لا يريد لهذا الفريق من الناس (أتباع أهل البيت عليه السلام) أن يحظى بالاهتمام العالمي ولا يسمح له بتسجيل مكاسب أخلاقية لكي لا

يتيح لعقيدة الفريق نفسه من البروز والتأثير... فهناك تعمد مقصود في التعظيم الإعلامي لكافة جهود وإسهامات أتباع أهل البيت عليه السلام الإنسانية من جهة، ومن جهة أخرى فهناك توجه واضح لمؤسسات ومنظمات علنية وسرية تسعى لطمس معالم الأخلاق في الحياة، وصد الناس عن التوجه نحو المثل والقيم الإنسانية النبيلة بنحو عام، وذلك من خلال نشر العديد من الثقافات والموضات والسلوكيات المنحرفة، ومهاجمة الأديان والثوابت القيمة ليتسنى لتلك المنظمات السيئة أن تفرض هيمنتها على الشعوب، والتلاعب بمصائرهم ومقدراتهم، فإن أهم حصانة ومناعة تحمي الإنسان فرداً ومجتمعاً هي المنظومة الأخلاقية والضمير المسلح بمبادئها، ولهذا بالتحديد تعمل تلك المنظمات العدوانية على تحطيم أعظم دفاعات الإنسان وهي المنظومة الأخلاقية بأعمال متعددة وبتخطيط واستراتيجيات واسعة...

بيد أن ما شهدناه من إقبال واهتمام للعديد من الشخصيات المستقلة والمهتمة بمتابعة ودراسة الجوانب الإيجابية للبشرية يعزز من قناعتنا بأن المستقبل هو لأخلاق كربلاء، وأن الظماً المعنوي الذي تعاني منه البشرية كفيل بدفع الناس صوب منبع الأخلاق الحسينية المتسمة بالصفاء والرواء.

لجميع ما تقدم ينبغي التأكيد على أن زيارة الأربعين المباركة تتفرد بتقديم مثل هذا الاستعراض الأخلاقي العريض حيث لا يوجد ثمة عمل مشابه له، لا شكلاً ولا مضموناً ولا منطلقاً ولا غرضاً. فلم تشهد المجتمعات الأرضية - لا قديماً ولا حديثاً - حدثاً يُعنى بإحياء (مكارم الأخلاق) والقيم الإنسانية الأصيلة من خلال تجسيدها فعلياً، وممارستها طوعاً وعفوياً لأيام متتالية، وباستمرار وتنوع مثير ومذهل، فلا يكاد ينتهي مشهد حتى يخطف بصرك مشهد جديد، تحوم أحداث تلك المشاهد على صناعة الحب والوفاء وعشق السخاء وتكريم التضحية وخلق أنماط مُعجزة من التعاون والإيثار... إننا إزاء أسطورة أخلاقية ترسمها الملايين من المشتركين في ممارسة زيارة الأربعين المباركة.

لقد تساءلت مستغرباً: كيف تتحول الشخصية العراقية المتسمة - في نسبة كبيرة منها - نتيجة للظروف التي مرت بها - بالحدة والعنف والانفعال إلى شخصية هادئة وصبورة ومسالمة تفيض بالتسامح وتصدير العطف واستيعاب الآخرين واحتواء المواقف المشنجة في غمار ممارسة الزيارة نفسها؟! سؤال أترك الإجابة عليه للقارىء وحده فهناك أكثر من إجابة وشرح وتحليل... وكم تمنيت لو استمرت هذه الأخلاق الأسطورية في الحياة خارج إطار مسرح ممارسة زيارة الأربعين المباركة. ولعله هذا هو التحدي الذي ينتظرنا جميعاً، أعني تحويل تلك الممارسات الأخلاقية التي يشهدها موسم زيارة الأربعين المباركة إلى الحياة العامة، إلى أخلاق تمارسها أمة وليس أفراد لنكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠). فما أحوجنا إلى أن نعرض للعالم مشروعا الرسالي كأمة ومجتمعات بدلاً من مواقف فردية وشخصية مع تثميننا للمواقف الفردية واعترافنا بأهميتها وفعاليتها، لكن الحضارات لا تُبنى، ولا تعكس للعالم من قبل أفراد، فهي مسؤولية أمة.

٣.٢ استعراض هموم الأمة وتوجهاتها

تتيح ظاهرة الأربعين وممارسة زيارتها المباركة فرصة التعبير الحر عن الهموم والمآسي التي تواجهها الأمة والتي غالباً ما يتم تجاهلها من قبل الإعلام العالمي، ولا تحظى بتفاعل المجتمع الدولي نتيجة النفاق السياسي، وجفاف المبادئ الإنسانية داخل منظوماتها الحاكمة. إن الظلم الذي تتعرض له الأمة الإسلامية وبخاصة أتباع أهل البيت (عليه السلام) يشبه طوفاناً من الشر المتطاير بالعدوان والمكر والخبث، ظلم لم يترك مسرباً من مسارب الحياة إلا وخنقه، مما يحتم على الأمة أن تعبر عن ظلامتها بحجم ما حلّ بها وإن كان ذلك من المستحيل، فما حلّ بها من ظلم خارج نطاق التعبير، وليس ثمة وسيلة للتعبير الجماهيري عن همومه وآلامه وشكواه مثل وسيلة زيارة الأربعين المباركة، حيث يتسنى

للشعوب وللأفراد إطلاق الشكوى بنحو جماهيري يُسمع العالم، وعلى أقل التقادير فانه يُسمع الأمة المؤمنة المتواجدة وقت ممارسة الزيارة، وقد شهدنا في السنوات الأخيرة بعض تلك الاستعراضات من قبيل الاحتجاج على ما يتعرض له الشعب البحريني المظلوم من قبل السلطات البحرينية المتعسفة، أو ما يتعرض له الشعب العراقي من هجمة سوداء غاشمة، تقودها قوى التكفير والإرهاب، وترعاها دول متعددة من أجل إخلال توازن المنطقة الإسلامية، وإغراقها في الفوضى والعنف والدمار، لتضمن تبعيتها لها، وفرض نفوذها عليها.

وعلى جانب آخر، فإن الدارس والمتابع يسهل عليه التقاط هموم المواطن العامة والخاصة، حيث الكثير منهم من يجهر بشكواه عبر الدعاء أو الحديث معه عن الدوافع التي حملته على ممارسة زيارة الأربعين المباركة، فبعد إفصاحه عن حبه لسيد الشهداء عليه السلام وهو الدافع الأهم، ينفجر في سرد همومه ومعاناته التي يرجو ببركة سبط رسول الله صلوات الله عليه وآله أن تزاح عنه، والجدير بالملاحظة أن أغلب تلك الهموم والمعاناة هي هموم ومعاناة تمس حياة المجتمع بنحو عام، وليست هموم ومعاناة خاصة من قبيل: المطالبة بالعدالة، إحلال الأمن، ودحر الإرهاب، وعودة السلم الاجتماعي، ووحددة المسلمين وحفظ بلادهم من شرور الدول الاستكبارية.

لجميع ما تقدم، من الممكن الاعتماد على ممارسة زيارة الأربعين المباركة لمعرفة نبض الجمهور المؤمن، والتوقف على ما يعتمل في عقله ووجدانه، ورصد تطلعاته وطموحاته، فالممارسة عينها تمثل نافذة واسعة لمشاهدة سلوك الجمهور المؤمن، وفرصة حقيقية لمواجهة الجمهور وجهاً لوجه من أجل الانسجام مع متطلباته وتلبية احتياجاته ومواكبة ما يطرأ على سلوكه من تغييرات ومستجدات إيجابية كانت أو سلبية، والحمد لله أن المشتركين في الممارسة يمثلون عينات من مختلف شرائح الشعب، ولا تقتصر المشاركة على شريحة خاصة. كل ما نحتاجه هو التوفر على مراكز الدراسات الاستراتيجية

المتخصصة في إعداد اللوائح المعلوماتية وجمع البيانات وفق شروط الوثيقة العلمية المتبعة في عمليات الإحصاء والبحث مع التوفر على الدارسين القادرين على رصد السلوك النفسي والاجتماعي، وأكداً سوف نشهد وفرة من المعطيات العلمية التي يعتبر التوفر عليها مكسباً قومياً خطيراً ذلك أن التوفر عليها يعطي إمكانية الدخول لباطن الشخصية وتحديد مساراتها والتنبؤ بسلوكها المستقبلي، وهذا ما تبذل عليه بعض بلدان العالم الغربي أموالاً ضخمة، وهو أحد مرتكزات تقدمها المادي والاجتماعي، ولا تسمح بتسريب هكذا نوع من المعلومات ولا تبادلها مع أية جهة لأنها تمس أمنها القومي.

٣. السلوك الاجتماعي الإيجابي

كيف يضحى الإنسان بوقته، ماله، سعادته، بل وب نفسه من أجل الآخرين؟ ماهي العوامل التي تدفع البعض لمثل هذا السلوك؟ هل هي بيولوجية، نفسية، تربوية، ثقافية، ظرفية... الخ؟ وهل يوجد دافع خالص لمساعدة الآخرين؟ أم أن المنفعة الذاتية تقف وراء مساعدة الشخص للآخرين؟ وكيف نستطيع تنمية هذا السلوك الإيجابي؟

أسئلة اهتم العديد من العلماء المختصين في حقول المعرفة الإنسانية بالإجابة عليها، نظراً لما تنطوي عليه من تأثير مباشر على حياة الفرد والمجتمع الإنساني منذ القدم وحتى هذه اللحظة من عمر الحضارة الإنسانية التي تتلاشى - للأسف - فيها القيم الخيرة شيئاً فشيئاً، وتسيطر عليها النزعات اللا إنسانية مثل التمحور حول الذات، والاعتراب، والجشع، وفقدان الشعور بالمسؤولية، إلى درجة انعدام الإحساس وبس الضمير، وغيرها من سلوكيات سلبية.

سوف نتطرق إلى واحد من أهم السلوكيات الإيجابية التي اهتم بها علماء النفس الاجتماعي وهو (الإيثار) أو ما يدعى أحياناً بـ (السلوك الغيري)، ونبدأ بمحاولات تفسير (الإيثار) من قبل بعض الاتجاهات المهمة بدراسة الموضوع ذاته، والغرض من تناول هذا الموضوع الهام هو توضيح حجم المساهمة الإنسانية الإيجابية التي تقدمها ممارسة زيارة الأربعين المباركة مقارنة بالاهتمام العالمي بموضوعات السلوك الاجتماعي الإيجابي وبخاصة الإيثار والمساعدة، حيث سوف نقف على حقل خصب من السلوك الإيجابي، قد عملت ممارسة زيارة الأربعين المباركة على تأصيله عملياً في الحياة حتى أصبح مثلاً يحتذى فيه من قبل شعوب شتى.

بدءً تجدر الإشارة إلى أن ثمة تداخل في مصطلحين سوف يكثر استخدامهما في الفصل الآتي، وهما مصطلح السلوك الاجتماعي الإيجابي، والسلوك الإيثاري، لذا سوف نشير إلى ما اعتمدنا عليه في تعريف كل منهما.

السلوك الاجتماعي الإيجابي: هو كل عمل يهدف إلى رعاية أو رفاهية الآخر.

وأما السلوك الإيثاري: فهو أداء عمل لشخص آخر، دون أن تكون للشخص الفاعل أية مصلحة أو منفعة شخصية.

كما ينبغي التنبيه إلى أن المقصود من السلوك الإيثاري في هذه الدراسة هو إثارة الآخر بالمساعدة مع ما يستتبع تقديم المساعدة من مشقة على الشخص المتقدم بالمساعدة نفسه، لهذا سوف يلاحظ أن استخدام كلمة الإيثار للدلالة بها على معنى المساعدة كثير في دراستنا هذه، إلى جانب استخدامهما معاً بقصد الإيضاح وعدم الالتباس.

أول ما نتناوله في دراستنا من موضوعات هو:

١.١.٣ تفسير علم النفس التطوري للإيثار

وفقاً لنظرية كارلس دارون Charles Darwin 1859 صاحب نظرية النشوء والتطور فإن (عملية الانتقاء الطبيعي) - وهي من أهم الأسس التي بنى عليها نظريته - تمنح الأولوية للجينات التي تحمل فرصة أكبر لاستمرارية الفرد بالحياة وتضمن له مواصلة النسل والإنجاب (Aronost et al, 2007).

إن كل جين يعمل على زيادة فرص استمرار الفرد، ويرفع من فرصة الإنجاب عنده، فإنه - على الأرجح - يتم نقله من جيل إلى جيل، وأما الجينات التي تقلل من فرص الاستمرارية في الحياة مثل الجينات التي تسبب في الأمراض المهددة للحياة، وتعمل على تقليل التناسل والتخصيب الناجح... فإن مثل هذه الجينات لا يتم نقلها إلى الأجيال

الأخرى بنحو سريع.

اثنان من علماء البيولوجي، ممن ينتمون إلى اتجاه النشوء والتطور، وهما: E. O. Wilson (1976) and Richard Dawkins (1975) حاولا تطبيق مفادات نظرية النشوء والتطور أعلاه بغية تفسير بعض أنماط السلوك الاجتماعي مثل العنف والإيثار... وقد أخذ عنهما العديد من النفسانيين الأفكار المتعلقة بالموضوع، لذلك يعتبر هذان العالمان من المؤسسين الأساسيين لما يُعرف في الأوساط العلمية بـ (علم النفس التطوري أو Evolutionary psychology والذي يحاول تفسير السلوك الإنساني على أساس العوامل الجينية والوراثية عبر التطور الزمني الطويل وبناءً على مبادئ عملية (الانتقاء الطبيعي) حسب ما يعتقد أصحابه (Barkow, cosmidès & Tooby, 1992; Buss, 1999; Pinker, 2002). وقد تم - بالفعل - تفسير العديد من أنماط السلوك الاجتماعي وفق النظرية ذاتها، ومن بينها موضوع دراستنا هذه: السلوك الاجتماعي الإيجابي وبخاصة الإيثار والمساعدة.

ينبغي التنبيه إلى أن (دارون) قد أدرك - ومنذ وقت مبكر - بأن هناك مشكلة حقيقية تعترض نظرية النشوء والتطور، وهذه المشكلة تتجسد من خلال الإيثار نفسه، فأي تفسير يمكن أن تقدّمه النظرية ذاتها للسلوك الإيثاري؟

فإذا كان الهدف الأساس للبشر - حسب نظرية النشوء والتطور - هو التأكيد على استمراريتهم في الحياة... فلماذا يساعدون الآخرين في حين أنهم لا ينتفعون ذاتياً، بل وتتسبب المساعدة بسوء حالتهم نتيجة ما يقدمونه من أعمال وجهود؟

من المفترض حسب معطيات النظرية التطورية أن الإيثار يجب - عبر مسار تطور النوع البشري - أن يختفي ويزول، ذلك أن الأفراد الذين يسلكون في الحياة مسلكاً إيثارياً - ويعرضون أنفسهم نتيجة ذلك للخطر - سوف يكونون أقل إنتاجاً للنسل وأقل تواجداً، على العكس من الأفراد الذين يهتمون بذواتهم فحسب أو من يطلق عليهم الأنانيون. حيث يفترض بأن الجينات التي تدفع للأنانية أسبق في التناقل من جيل إلى جيل، بناءً على

مبادئ نظرية النشوء والتطور التي تؤكد على انتقاء العناصر التي تساعد على التكيف مع المحيط وعلى القدرة على التناسل والاستمرار (van der Linden, 2006).

حل إشكالية (الإيثار) ومساعدة الآخرين التي واجهت النفسانيين من اتجاه نظرية النشوء والتطور، قدّم هؤلاء ثلاثة أدلة للبرهنة على ما يعتقدون في أسباب مساعدة البعض للبعض الآخر، وهي:

الانتقاء النسبي

من المعالجات التي حاول علماء النفس التطوري فيها حل المعضلة التي واجهتهم ونقصدها مجدداً (إشكالية الإيثار) هي الإستعانة بمفهوم (الانتقاء النسبي) وهو القول بأن السلوك الإيثاري المنصب على الأقرباء يحظى بأسبقية التناقل من جيل إلى جيل آخر (Meyer, 1999). فالناس لا يزدون من فرص استمرارية عناصرهم الوراثية والجينية بالحياة من خلال عملية التناسل والإنجاب الشخصي فحسب، بل يستطيعون تأمين ذلك عبر العناية ومساعدة أقرباءهم وراثياً (جينياً) بالحصول على نفس الهدف وهو الأطفال، وذلك بسبب أن الشخص يشترك مع أقرباءه بأواصر الدم وبمجموعة من الجينات الوراثية، وهذا ما يعني أن الشخص الذي يساعد أقرباءه بالدم يسعى لنقل جيناته الوراثية ذاتها إلى الأجيال المستقبلية. لهذا يفسر علماء النفس التطوري السلوك الإيثاري بالنسبة إلى الأقرباء بالوراثة بأنه عملية شجّعت عليها مبادئ (الانتقاء الطبيعي) التي تحرص على استمرارية النسل والبقاء... وقد حاول النفسانيون المذكورون البرهنة على هذه النظرية من خلال البحوث والتجارب العلمية التي أجروها في نفس الموضوع، حيث توصلوا - كما يزعمون - إلى أن الأشخاص الذين تمّ استجوابهم قد أوضحوا بأنهم في الحالات الخطيرة التي تهدد الحياة مثل الحريق يقدّمون إنقاذ أفراد عائلتهم قبل إنقاذ الغرباء. وهذا ما يدعم نظريتهم الذاهبة إلى أن الشخص إنما يقدّم المساعدة بطريقة

تضمن له مواصلة عناصره الوراثية بالاستمرار عبر الأقرباء المتحدين بوحدة الدم. والجدير بالذكر أن البحث المذكور قد أجري على الأمريكيين واليابانيين ذكوراً وإناثاً فكانت النتائج نفس الشيء. (Sime, 1983).

طبيعياً، إن علماء النفس التطوري لا يريدون عبر المعطيات المشار إليها القول بأن الإنسان على وعي بأهمية الجانب البيولوجي في تقديم المساعدة للآخرين، بمعنى أنهم حينما يواجهون أمراً يتطلب المساعدة تحضر في أذهانهم هذه الحقائق وغيرها بنحو تفصيلي وادراكي، فهذه القاعدة قد تم تخزينها في الجينات منذ آلاف السنين، لذلك تحدث بصورة طبيعية من أجل غرض المحافظة على الاستمرار حسب زعمهم.

مبدأ التبادل المنفعي

من المعالجات التي حاول علماء النفس التطوري فيها تفسير (السلوك الإيثاري) هي مبدأ التبادل المنفعي (reciprocity norm) أو ما نطلق عليه في الحياة لاجتماعية بـ (رد الجميل) وأول من تطرق إلى هذه النظرية هو الباحث ترفيرس (Trivers 1971) حيث ينطلق الكثير من البشر من مبدأ أو قانون اجتماعي مفاده: إن ثمة توازن بين العطاء والأخذ، فما تقدمه من إحسان لشخص يحمله على الإحساس بالواجب في رد الإحسان إليك في يوم من الأيام. ولا شك أن وجود مجموعة من الناس وهي تعيش بنحو (أناني) سوف يقلل من فرص استمراريتهم في الحياة، إلى جانب ما يتطلبه السلوك الأناني من مشقة على الأشخاص أنفسهم.

ولهذا فإن الأشخاص الذين يتساعدون فيما بينهم هم من يستمرون في الحياة... أنا أساعدك بشرط أن تبادر لمساعدتي إذا احتجت للمساعدة. وفق هذا القانون يحاولون تفسير الإيثار، ويعتبرون أن الأشخاص الذين يعقدون مثل هذه الاتفاقيات مع جيرانهم أو مع من يعيش بالقرب منهم فإنهم - من المرجح - يحملون أساساً وراثياً مشتركاً

(Shackelford & Buss, 1996; De Waal, 1996) أما كيف يتم ذلك؟ فالباحثون ينسجون صمتاً، ولا يقدمون شرحاً.

تعلم القوانين الاجتماعية

هربرت سيمون (Herbert Simon) اكتشف وجود علاقة خارجية إضافية بين تفسير الاتجاه التطوري الدارويني وبين الإيثار، حيث ذهب إلى أن الأشخاص الذين يعلقون أهمية كبيرة على تعلم القوانين الاجتماعية (الأعراف والتقاليد والنظم والقيم) للمجتمع الذي يعيشون فيه... لديهم فرصة أكبر للاستمرار، وذلك أن ثقافة المجتمع قد احتفظت - عبر القرون الطويلة - بأشياء تعمل على محافظة نوعهم من الخطر مثل: التحذير من بعض الأطعمة السامة، وتعليم أهمية التعاون... الخ والشخص الذي يتعلم هذه القواعد سوف يسبق من لا يتعلمها في الاستمرار بالحياة، واستناداً إلى مبادئ (الانتقاء الطبيعي) أصبحت قدرة تعلم القوانين الاجتماعية جزء من البناء الوراثي لنا، يتم نقلها من جيل إلى آخر، ومن هذه القوانين والقواعد التي تعتبر حاضرة في كل المجتمعات البشرية هي تعلم الفرد قيمة مساعدة الآخر. وباختصار: الناس مبرمجون وراثياً على تعلم القوانين الاجتماعية، ومن بينها الإيثار من أجل ضمان استمرارهم في الحياة. (Kameda, Takezawa, 2003). إلى النتيجة أعلاه توصل هربرت سيمون.

نقد نظرية التفسير البيولوجي

ليس من الجديد في شيء، عرض ما تعرضت له النظرية الداروينية (أصل الأنواع) أو (On the Origin of Species) من نقد وجدل في الأوساط العلمية، منذ صدورهما عام ١٨٥٩ وحتى اليوم، فقد جوبهت بالرفض على الصعيدين الديني والأكاديمي، وإن كانت قد شقت طريقها في الأوساط العلمية فيما بعد إلا أن الرفض والجدل والنقاش

لا زال قائماً. وأهم ما ينبغي إعادة التذكير به أن النظرية المذكورة تلغي وجود صانع لهذا الكون، مدعية أن الكائنات الموجودة هي من صنعت نفسها بنفسها تدريجياً، من دون هدف أو ضمير قيمي يقودان عملية التكوين، سوى قيادة الانتقاء الطبيعي المشار إليها (van der Linden, 2006).

لهذا بالذات، تفقد النظرية قيمتها الاعتبارية حسب التصور الإسلامي، كما فقدت قيمتها عند أغلب أصحاب الديانات، فالتصور الإسلامي صريح في هذه المسألة ولا يقبل النقاش، والنصوص الإسلامية تفيض بهذا المعنى ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَىٰ تُوْفِكُونَ﴾ (غافر: ٦٢). وقوله: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الأنعام: ١٠٢). وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (غافر: ٦٧).

ما يهمننا الآن هو رفض تفسير علم النفس التطوري الذاهب إلى عدم وجود هدف ينظم عملية الخلق والانتقاء الطبيعي للمخلوقات سوى عملية الاستمرار بالتكاثر، وذلك أن التفسير المشار إليه مجرد الإنسان من كل قيم إلهية وإنسانية، فهو ينفي وجود مبدأ الخير والشر في عملية التكوين، والانتقاء، والاستمرار، في حين يؤكد القرآن الكريم على إلهامية الخير والشر عند كل إنسان ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٨ - ١٠). كما تتفق البشرية بمختلف أعراقها ودياناتها وثقافتها حتى الشعوب البدائية منها على مسائل الخير مثل إنقاذ إنسان ما ومساعدة المحتاج وغيرها من أمور، والكل يتفوق على قبح الشر من قبيل القتل، والسرقة، والغش... الخ، فهذه المبادئ مغروسة بفطرة الإنسان، والكل يدرك إيجابيتها، ولا تحتاج إلا لتحريكها في النفوس لتتركى وتتهذب بها، وسوف نقف عند هذا الموضوع بشيء من التفصيل والنقاش في مضاعفات الدراسة.

نقد الانتقاء النسبي

أما موقف التصور الإسلامي من عملية (الانتقاء النسبي) الذي حاول أن يعلل السلوك الإيثاري الخاص بمساعدة الأقرباء وتفضيلهم على الغرباء... الخ فهو: لا يمانع من تقديم الأقرباء المحتاجين للمساعدة على الغرباء المحتاجين لها، كما أشارت بحوثهم في إنقاذ الأقرباء اثناء نشوب الحرائق. فالواجب الشرعي يفرض على الإنسان مساعدة ارحامه في كل حال، بيد أن التصور الإسلامي يرفض أن تكون المساعدة منطلقة من دوافع لها علاقة باستمرارية بقاء الشخص من خلال النسل والإنجاب. فالغرض من المساعدة عند الحوادث المذكورة منطلق من بواعث الإحساس بالمسؤولية الشرعية التي يلتزم الإنسان المؤمن بها، هذا بالنسبة إلى المؤمنين، ومن بواعث فطرية إنسانية للمؤمن ولغير المؤمن، ولا أتصور بأن إنساناً سوياً يشيح بوجهه، ويصم أذنيه عند رؤية أو سماع استغاثة أحد من أقرباءه ومعارفه وإنه يتقدم في تقديم مساعدته لهم لأنه سوف يحفظ عملية تواصل شخصه من خلاهم، علماً بأن هناك العشرات من الحوادث التي يتدخل الناس فيها لإنقاذ الغرباء دون أن ينطلقوا بوعي أو لاوعي من مبدأ الانتقاء النسبي، وهناك الكثير ممن قدّم الآخرين في تقديم المساعدة على الأقرباء انسجماً مع المبدأ الإسلامي القائل (الجار قبل الدار).

نقد التبادل المنفعي

التصور الإسلامي يؤكد على تخليص الأعمال من الشوائب النفعية قدر الإمكان للوصول إلى مرتبة الإخلاص الكاملة، بل وما بعد الإخلاص حسب المقولة القائلة بـ (إن الإخلاص في ترك الإخلاص) بمعنى عدم التفكير بأن ما قمت فيه يمتاز بالإخلاص لأن مجرد هكذا تفكير يחדش في صفاء الإخلاص عند الأسوياء من المؤمنين، وهناك

وفرة من النصوص الإسلامية الداعية إلى تطهير العمل من المصالح الذاتية، وأن يكون منطلقه وهدفه هو رضا الله لا غير، قال سبحانه وتعالى حكايةً عن أوليائه المقربين: ﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (الإنسان: ٩).

ولذلك فإن التفسير المنفعي مرفوض، وقد أكدت ممارسات المؤمنين الإيجابية على بطلانه، فلقد عشنا وجربنا عشرات بل مئات المواقف والتجارب التي برهنت على تقديم الناس للمساعدة دون أن يستبطنوا مصالح أو تبادلات منفعية، كما يزعم أصحاب التفسير المشار إليه.

وهنا لا بد من الإشارة إلى حقيقة تمس السلوك والصحة النفسية بنحو مباشر، فالتصور الإسلامي حينما شدد على عدم السعي إلى المنفعة الشخصية إزاء ما نقوم به من أعمال للآخرين، وأن نعيش حالة القصور بدل الإعجاب بأعمالنا، فإنه كان يتوخى حماية أتباعه من الانعكاسات النفسية السلبية على سلوكه والإصابة بالصدمات النفسية الحادة بسبب بعض العناصر التي تقترن بالسلوك المنفعي، فعلى صعيد الانعكاسات السلبية تشير النصوص الإسلامية إلى أن المرء الذي تتنابه مشاعر الإنجاز أو تقديم عمل ما يتعرض للتراخي وعدم الاستمرار بالعمل نتيجة المشاعر المذكورة. يقول أحد النصوص عن العجب، عن عبدالرحمن بن الحجاج عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إن الرجل ليزنب الذنب فيندم عليه ويعمل العمل فيسره ذلك فيتراخي عن حاله تلك فلا يكون على حاله تلك خير له مما دخل فيه» (الحر العاملي: ١: ٩٩). والحديث صريح في ما يستتليه العجب من إعاقة المواصلة في تقديم الأعمال الصالحة.

وأما ما يخص الصدمات النفسية المتأتية نتيجة الإحباط، فيتلخص القول، بأن الشخصيات الساعية إلى الحصول على المنفعة (المكافأة) من وراء ما تقوم به من عمل، سرعان ما تنصدم بخيبة الأمل حينما تجد أن الآخرين قد تنكروا لما كنت قد قدمته لهم من أعمال حسنة، حيث - للأسف - أن الكثير من البشر لا يحفظ للآخرين مواقفهم الإيجابية،

وهذا ما يعمل على توتر الأشخاص الذين كانت لهم مواقف حسنة مع الآخرين.
(البستاني، ٢٠٠٠: ١: ٢١٧).

لذلك يتعين على الإنسان المؤمن أن يستهدف في أعماله رضا الله عز وجل، وأن تكون معاملته معه سبحانه وتعالى، وأن يلغي من حساباته أية منفعة متوقعة من الآخرين، ليجنب نفسه الإحباط فيما لو لم يكونوا أسوياء، ولكي يؤمن بأن الجهة التي توزع النفع والمكافاة هي السماء لا غير.

نقد تعلم القوانين الاجتماعية

فرضية تعلم القوانين تصطدم مع التصور الإسلامي لسببين، الأول: الجبر وسلب عملية الاختيار من الإنسان، لأنها تصرح بأن الناس مبرمجون على تعلم القوانين التي تعمل على الحفاظ على وجودهم، ومنها القوانين الاجتماعية التي ينتج عن ممارستها استمرارية بقائهم مثل التعاون وتقديم المساعدة، فالإنسان يمتلك حرية الاختيار في قناعاته وسلوكه، يقول تعالى ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩) ويقول: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦). والسبب الثاني: إن الهداية للمبادئ الخيرة أمر تكفل به سبحانه وتعالى، ولا علاقة لعملية استمرارية النسل فيها، يقول تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: ١٠) بمعنى الخير والشر، ويقول سبحانه كذلك: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان: ٣) وقد مرت بنا آية إلهامية الخير والشر ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: ٧-٨).

إن التعامل مع الإنسان على كونه مخلوق تحركه دوافع بيولوجية هدفها مواصلة البقاء دون أن يكون له خالق، وقيم خالصة، وقناعة، وإرادة، واختيار محاولة تستهدف مساواة البشر مع أدنى الكائنات الحيوانية والنباتية، وتحاول تأصيل فكرة البقاء للأقوى في الحياة، وهذا ما أوضحنا رفضنا له.

٢.١.٣ نظرية التبادل الاجتماعي: الربح والخسارة

بالرغم من اعتراض علماء النفس الاجتماعي على تفسير أصحاب نظرية الاتجاه التطوري للسلوك الاجتماعي الإيجابي، فإنهم يجدون أن ثمة توافقاً بينهم وبين ما تضمنه التفسير المشار إليه، وبخاصة قولهم بأن السلوك الإيثاري يستند إلى المصلحة الشخصية الذاتية، بل أكثر من ذلك، فأصحاب نظرية التبادل الاجتماعي يذهبون إلى أن الكثير من الأفعال التي نقوم بها تهدف إلى تحقيق أكبر قدر من الربح، وتقليل أكبر قدر من التكاليف (Thibaut & Kelley, 1959). الفرق بين هذين النظريتين يتعلق بأن أصحاب نظرية التبادل الاجتماعي لا يعتبرون التطلع الربحي المذكور مرتكزاً على العامل التطوري أو الوراثي لبناء الإنسان، وينفون وجود علاقة بيولوجية تدفع نحو تحقيق ما نتطلع إليه من مكاسب. فهم يعتقدون بأن علاقة البشر فيما بينهم تهدف إلى تحقيق الربح الاجتماعي، وتقليل التكاليف الاجتماعية نظير ما يجري في حياة الأسواق المالية، فالكُل يسعى للحصول على أكبر قدر من الربح، وتقليل التكاليف.

طبيعياً، إن علماء النفس الاجتماعي لا يريدون بهذا القول أن الناس تحمل معها قراطيس للملاحظات يدونون فيها كل ما يتصرفونه مع الآخرين، وما يتصرفه الآخرون معهم على غرار وضع إشارات الزائد والناقص لكي يجرّوا عمليات حساب تجاه معاملاتهم الاجتماعية... فالنظرية أعلاه تشير إلى أننا نحفظ بما يتعلق بالأرباح والتكاليف الخاصة بعلاقاتنا الاجتماعية بنحو ضمني وليس بنحو واضح وصرّيح، فالمساعدة - على سبيل المثال - يمكن أن تعتبر - عبر مختلف الطرق والأساليب - نوعاً من الكسب والربح، وكما عرضنا في (مبدأ التبادل المنفعي) فإن مساعدة شخص معين يزيد من فرصة مساعدة ذلك الشخص لنا في المستقبل، ولهذا فالمساعدة هي نوع من الاستثمار المستقبلي.

إلى جانب ذلك، فإن مساعدة الآخرين يمكن اعتبارها نوعاً من المكافأة الذاتية من قبيل الحصول على التقدير الاجتماعي، والحصول على الشعور بالقيمة الذاتية (Aronson et al, 2007).

نقد نظرية التبادل الاجتماعي

من الجوانب الشديدة الملاحظة في نظرية التبادل الاجتماعي، هو ما تؤكد عليه النظرية من أن الناس لا يقدمون على مساعدة الآخرين إلا في حالة اعتقادهم بأن الربح الذي يحصلون عليه من المساعدة المقدمة أكبر من التكلفة المبذولة، فالنظرية المذكورة لا تعتقد بوجود إثارة حقيقي يصدر عن شخص ما على حساب مصلحته الشخصية. مساعدة الآخرين تأتي - فقط - في حالة توقعهم الحصول على نفع أكبر من الجهد المبذول. أصحاب هذه النظرية يشككون بوجود إثارة خال من الشوائب يقدمه الناس دون أن تكون لهم مصلحة من ورائه.

إن أبسط رد يمكن توجيهه لأصحاب النظرية أعلاه - وبالفعل قد أشار المعارضون عليهم بنفس الكلام الآتي -: إذا كنتم تعتقدون بأن كل ما يصنعه الناس من مساعدة اجتماعية تختفي وراءه المصلحة الشخصية - ولا توجد لديهم حجج أو براهين غير هذا - فحسب... فكيف نستطيع تفسير ما يقوم به بعض الناس من تقديم حياتهم من أجل الآخرين، مثل مشاهدات الكثير من الحوادث والوقائع في العالم، وبخاصة قصص رجال الأمن والناس المدنيين الذين كانوا يصدون تفجير أحد الإرهابيين لنفسه، ممن يرتدون الأحزمة الناسفة ويحتضنونه لكي يحموا الناس الآخرين، أو الدخول في الأبنية التي تلتهبها النيران لإخراج المحاصرين فيها، أو النزول إلى الأنهار لإنقاذ الغرقى ومنهم من غرق وهو ينقذ الغرقى.

ما هو الربح الذي يمكن تعويضه من الآخرين بعد أن يفقد الإنسان حياته؟ وهل

التمنين الذي سوف يحصل عليه من الناس ينفعه بعد موته؟ أو هو أغلى ثمنًا من الحياة؟ ربما يجيب البعض بأنهم يحصلون على أجر آخروي، وهذا ما سوف نجيب عليه لاحقاً، بيد أن فيهم الكثير ممن لا يؤمنون بالله وبالثواب الآخروي.

في الواقع إن الطابع المادي هو الغالب على أصحاب هذه النظرية، فالقيمة الذاتية المادية هي المرجعية الأساسية لسلوك الناس عندهم، وهذا ما ترفضه القيم الدينية وبخاصة الإسلامية، وما ترفضه الكثير من الاتجاهات المعرفية ذات الطبيعة الإنسانية لأنها تتعارض مع قيم الفطرة الإنسانية، والقيم الروحية النبيلة التي سارت عليها البشرية.

التصور الإسلامي يؤكد على أن الناس مجبولة على حب الخير ومزودة بمعرفته فطرياً، وليس من الضروري أن تنطلق من المنفعة في مساعدة الناس بل وحتى مساعدة الحيوانات والنباتات، وغيرها من كائنات، فالدافع يجد أحياناً مصدره في الفطرة السليمة ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ (الروم: ٣٠). كما أكد على وقوع الإيثار وإمكانية ممارسة هذا السلوك عبر العديد من نصوصه، حيث أشار أحد النصوص القرآنية - على سبيل المثال - إلى تطبيق المسلمين للسلوك الإيثاري في حياتهم، مقدّمين الآخرين على أنفسهم بالرغم مما بهم من فاقة وحاجة، حيث تنازل الأنصار للمهاجرين عن غنيمة إجلاء يهود بني النضير من المدينة، ورضوا أن يقسمها رسول الله ﷺ على فقراء المهاجرين فقط - حسب ما يشير المفسرون -، ولم يشاركوهم بها بالرغم من أنهم تقاسموا معهم ديارهم وأموالهم (الطباطبائي، ١٩: ٢٠٩). ولم تكن دوافعهم وراء هذا السلوك دوافع نفعية، فلو كانوا ينطلقون في سلوكهم من المنفعة الذاتية، ويمنحونها الأولوية في معاملاتهم لما قدّموا الغير على أنفسهم مع شدة احتياجهم لما تنازلوا عنه للآخرين، يقول النص القرآني: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر: ٩). والخصاصة هي الفقر والحاجة، وهذا - بالنسبة إلينا - من الأدلة القطعية على أصالة السلوك الإيثاري،

وبطلان تفسير التبادل الاجتماعي أو الربح والخسارة، ذلك أن الله المطلع على حقائق الأمور وبواطن الإنسان يصف فعل تلك المجموعة المؤمنة بالإيثار، فلا معنى بعد ذلك للإصغاء إلى المعارضين.

بقي أن نقف عند اعتراض طرحه البعض، يتعلق بنفي فكرة الإيثار أو تجريد المؤمنين منها، ذلك لأنهم يهدفون من وراء أعمالهم الأجر الأخروي، والأجر الأخروي يتعارض مع مفهوم الإيثار، كما يدعي البعض. والشيء الغريب في الاعتراض المذكور هو مساواة المنفعة الدنيوية التي يسعى بعض الناس للظفر بها من خلال تقديم المساعدة إلى البعض الآخر بالمنفعة الأخروية المستمدة من الله سبحانه وتعالى. فالإيثار المطروح في البحث الذي بين أيدينا يحوم حول مسألة وجود بعض الناس ممن يعملون على مساعدة وإسعاد الآخرين بهدف موضوعي محض، لا لشيء إلا لحبهم وإيمانهم بعمل الخير، وبمعنى آخر، إنهم لا يستهدفون مصلحة ذاتية مقابل ما يقدمونه. وقد نفت بعض الاتجاهات النفسية في تفسير السلوك الإنساني وجود مثل هذا السلوك الخالص، إذاً النقاش يدور في إطار المنفعة بين الناس وعلى مستوى الحياة الدنيا، وأما التطلع إلى الانتفاع الأخروي فهو أمر آخر، فهو يمثل الخير الذي نعتقد بدفعه الناس فطرياً لممارسة السلوك الإيثاري الخالص نفسه، ولا إشكال في طلبه والتزود منه حتى على الصعيد الدنيوي.

يُضاف إلى ذلك، إن طلب التعويض من الله طلب موضوعي، وليس طلباً نفعياً ذاتياً مشوباً بالمصلحة، لأنه محاولة باتجاه الارتقاء والتكامل والتسامي، ذلك أننا نطلب من جهة تمثل القدرة والهيمنة والغنى... وطلب رضاها لا يعتبر أمراً نفعياً على غرار ما يستهدفه البشر من منافع دنيوية، وهو تعامل مع الغيب وليس مع الزمن الذي يحكم حياة الإنسان، ثم إن الآية القرآنية أوضحت بأن الأسوياء من البشر قالوا: ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ ولم يقولوا: لا نريد من الله تعالى جزاءً ولا شكوراً، وليس من اللياقة في شيء أن يرفض العبد ما فرضه له سيده من عطاء، والمتدبر بدقة في الفرق

بين الحالتين يجد أن المنفعة تأتي نتيجة سلوك إيجابي قام به الفرد، وليس سلوكاً حائماً على الذات. علماً بأن التوصيات الإسلامية تأمرنا بتمحيض أعمالنا لله تعالى، وأن لا نتطلع إلى المكافأة، بل التوصيات تشير إلى أن كل ما عندنا من خير فهو من الله، وأن مصدر ما نقترفه من حسنة هو الله وليس نحن ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (النساء: ٧٩). ونحن لا نملك لأنفسنا نفعاً ولا ضرراً ﴿أَقُلُّ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ (الأعراف: ١٨٨). لذلك فنحن لا نستحق أجراً على أي عمل يصدر منا، لأن مانح العمل الصالح هو الله سبحانه وتعالى، وإنما هو من فضله ولطفه عز وجل بنا أن جعلنا من المستحقين بأعمالنا الأجر الآخروي.

نكتفي بهذا القدر من الشرح خشية الخروج عن خطة الدراسة، وإن كان هناك المزيد مما يقال بالصدد عينه.

٣.١.٣ المتعاطف والإيثار: الدافع الخالص للمساعدة

سي دانييل باتسون C. Daniel Batson من أكبر الباحثين الغربيين المدافعين في مجال علم النفس الاجتماعي عن فكرة وجود المساعدة الخالصة أو الإيثار الخاص، والدافع الوحيد وراء مساعدة البعض من الناس هو الخير (Batson, 2011). وقد كرّس وقتاً طويلاً للبرهنة على فرضيته، حيث أنكر على القائلين بأن بعض الناس يصدرون عن دوافع ذاتية (أنانية) في تقديمهم المساعدة للآخرين من قبيل إزاحة التوتر الذي يحصل لهم نتيجة مشاهدة بعض الأشخاص المصابين أو الطالبين للمساعدة، فإن عدم مساعدتهم يتسبب بارتفاع حجم التوتر لديهم، وهذا ما يدفعهم لتقديم المساعدة.

باتسون كان يصر على أن ثمة دوافع إثارية خالصة تحمل بعض الناس على مساعدة بعضهم البعض الآخر، وأن هذه المساعدة هي بهدف المساعدة، ولا تستبطن منفعة ذاتية

حتى لو أدت المساعدة نفسها إلى أذيتهم، أو بذل التكاليف الباهضة (Batson & Shaw, 1991).

الإيثار الخالص - حسب تصوره - مسألة تحدث متى ما شعرنا بالتعاطف مع الشخص المحتاج إلى المساعدة، ففي هذه الحالة سوف نعيش حالة الشخص المحتاج إلى المساعدة، ونشعر بما يشعر فيه، كما لو أننا نمّر في نفس تجربته تماماً: "an other-oriented emotional response (e.g. sympathy, compassion) congruent with the [...] welfare of another person" (Batson & Oleson 1991). أو بكلمة تقريبيه (الاستجابة العاطفية المتجهة إلى شخص آخر من قبيل التعاطف أو الرحمة، تنسجم مع رعاية الشخص الآخر) وهذا الشعور بالتعاطف يقود إلى تحريك الدوافع الإيثارية من أجل تخفيف معاناة الآخر.

تصور أنك أثناء التسوق في أحد الأسواق، شاهدت رجلاً يحمل طفلاً صغيراً بيده، وفي اليد الأخرى يحمل سلة من الحوائج، وفجأة سقطت من السلة بعض الأشياء، فإذا أراد أن يرجع تلك الأشياء التي سقطت فسوف تقع سائر الأشياء من السلة، أو ربما سقط الطفل من يده.

هل سوف تقوم بمساعدته لإعادة الأشياء إلى السلة أم لا؟

حسب تصور باتسون أن الأمر يتوقف في البدء على إجابة السؤال القائل:

هل تشعر اتجاه ذلك الرجل بالتعاطف أم لا؟

إذا كانت إجابتك بنعم فمن المؤكد أنك سوف تساعد، بغض النظر عما يدفعك إلى ذلك الفعل، فهدفك هو تخفيض التوتر الذي يتعرض له الشخص المذكور في المثال أعلاه، وليس للحصول على شيء شخصي.

هذا هو بالتحديد محور فرضية التعاطف والإيثار لباتسون (empathy-altruism hypothesis) في الوقت الذي نشعر فيه بالتعاطف مع شخص ما، فإننا سوف نطلق

لمساعدته وبدوافع إثارية خالصة، دون أن نفكر بالحصول على شيء من وراء العمل نفسه (Aronson et al, 2007).

وفي الوقت الذي لا تجد تعاطفاً مع الشخص المحتاج إلى المساعدة تبدأ - حسب تصور باتسون - نظرية التبادل المنفعي التي تطرقنا إليه سلفاً بالعمل. ماذا سوف أحصل عليه من وراء هذا العمل؟ فإذا وجدت مؤشراً إيجابياً من قبيل: استحسان الشخص المعني بالمساعدة (كالشخص الذي افترضنا مواجهته في السوق) أو استحسان المشاهدين لعملك، فسوف تنطلق بمساعدته، وإذا لم تجد ثمة مؤشراً يومض بمنفعة فسوف تستمر فيما كنت مشغولاً فيه، وتذهب إلى حال سبيلك.

نقد فرضية الإيثار والتعاطف

المشكلة التي تواجه باتسون ومؤيديه أو التي أثارها عليه المعترضون هي صعوبة التحري عن حقيقة الدوافع للسلوك الاجتماعي، فالسلوك الاجتماعي شائك ومعقد ومن غير الممكن معرفة الأسباب الفعلية لهذا السلوك أو ذاك. إذا شاهدت شخصاً يقدم المساعدة لشخص آخر، فكيف تتسنى لك معرفة أن الشخص الذي يحاول المساعدة يقوم بذلك العمل بدافع التعاطف أو بدوافع شخصية أخرى مثل الحصول على مكافأة اجتماعية؟

وقد حاول باتسون البرهنة على فرضيته المشار إليها، بأجراء العديد من التجارب والبحوث النفسية المحكمة والطريقة بنفس الوقت (Batson, 2002; Batson & Powell, 2003). لا أجد ضرورة من عرضها وبإمكان المهتمين الرجوع إلى المصادر المذكورة، وبخاصة إلى (Brehm & Kassir, 1996) للاطلاع عليها.

والمهم في البين، أن نتائج التجارب التي قام بها مع فريقه تؤكد وجود الإيثار الخالص في لحظة إحساس الناس بالتعاطف اتجاه الآخرين. بيد أن المعترضين لم يقتنعوا بالنتائج

التي توصل إليها باتسون، وتشبثوا بموقفهم المنكر لمعرفة النوايا الحقيقية لمن يقدم المساعدة.

إسلامياً، لا نجد ضرورة في التحري عن نوايا الناس، فمعرفة السرائر أمر احتفظ به سبحانه وتعالى لوحده، وهذه واحدة من مصاديق رحمة الله على البشر، حيث السماح للناس بذلك يدعو إلى الكراهية، وعدم الثقة، وقطع مبادرات العمل الإيجابي في الحياة. وإلى جانب آخر، فالإسلام أمرنا بحسن الظن ببعضنا البعض الآخر، وعدم التشكيك بأفعال الناس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات: ١٢)، كما أمرنا بالإحسان لمن يحسن إلينا ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (الرحمان: ٦٠). دون التفتيش عن مقاصد المحسن، فتشجيع السلوك الاجتماعي الإيجابي أمر إيجابي يعود على المجتمع بالفائدة حتى لو شابت نوايا الناس بعض شوائب الذات، لأننا نعتقد أن ممارسة عمل الخير كفيلة - بمرور الزمن - بتدوين كل ما يعلق بالعمل من مقاصد غير موضوعية، وإيصال الممارسين لتلك الأعمال إلى مستوى الخلوص في العمل، مع التأكيد من جديد بأن الشخصيات السوية لا تعمل إلا ما هو خالص من الأعمال، كما حكي الله لنا عبر العديد من آيات القرآن الكريم عن المخلصين الذين لا يطلبون إلا رضاه، ومنها ما كشفه عن بواطن أهل البيت عليهم السلام في سورة الدهر ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ (الإنسان: ٨-٩).

بقي أن نؤكد على ما ورد في (فرضية الإيثار والتعاطف) من آراء غير مقبولة بالنسبة إلينا، فبالرغم من احترامنا للجهود المبذولة على تأصيل مفهوم المساعدة، والدفاع عن الطابع الإنساني في السلوك البشري إلا أننا نرفض قبول الفكرة القائلة بأن الإيثار لا يصدر عن الشخص إلا في حالة إحساسه بالتعاطف مع المحتاجين إلى المساعدة، وإذا لم يكن للتعاطف دوراً، فيبرز التفكير بالربح والخسارة الاجتماعية، وعلى ضوء التقييم

الذي يجريه الشخص للواقع يقدم المساعدة أو يمتنع عنها.

إن منظومة القيم الإسلامية توجب وتندب إلى إغاثة الملهوف ونصرته، وتقديم المساعدة لكل محتاج عبر مختلف مستوياتها، والمصادر الإسلامية غنية بالاستشهاد في هذه المسألة، فهناك فصول خاصة للنصوص الواردة بالشأن ذاته مثل قوله ﷺ: «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم». وقال ﷺ: «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم، ومن سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم» (الكافي، د.ت: ٢: ١٠٢).

ولا تقف المسألة عند حدود الهوية الإسلامية فحسب، بل الإسلام يفتح بوابات تصدير الخير إلى كل أفراد الأسرة الإنسانية حتى المخالفين، مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المتحنة: ٨)، وقوله تعالى: ﴿وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ (التوبة: ٦). وإن كانت الغاية من هذه الإجارة هي توصيل مبادئ الله إليه، كما ذهب صاحب تفسير الميزان (رحمه الله) إلى ذلك (الطباطبائي، ١٩٩٧: ٩: ١٥٩). فتوصيل مبادئ الله إلى الآخرين، وتهيئة الظروف الأمنية للتعرف عليها، واختيارها بحرية... من أجل مراتب تقديم المساعدة إلى الآخرين.

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «الْحَلَقُ عِيَالُ اللَّهِ، فَأَحْبُ الْحَلَقِ إِلَى اللَّهِ مَنْ نَفَعَ عِيَالَ اللَّهِ، وَأَدْخَلَ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ سُوراً» (الكافي، د.ت: ٢: ١٠٢). وعنه عليه السلام «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: أَنْفَعُ النَّاسِ لِلنَّاسِ» (الكافي، د.ت: ٢: ١٠٢).

وأما النصوص الحاثّة على المساعدة والتراحم والتعاطف والبر والإحسان والمعروف فهي من الكثرة بمكان، نذكر على سبيل المثال: قول الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام:

«تَوَاصِلُوا وَتَبَارَوْا وَتَرَاحَمُوا وَتَعَاطَفُوا» وقوله عليه السلام: «يَحَقُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْاجْتِهَادُ فِي التَّوَاصُلِ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَى التَّعَاطُفِ وَالْمُوَاسَاةُ لِأَهْلِ الْحَاجَةِ، وَتَعَاطُفٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، حَتَّى تَكُونُوا كَمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ مُتَرَاحِمِينَ، مُعْتَمِّينَ لِمَا غَابَ عَنْكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ، عَلَى مَا مَضَى عَلَيْهِ مَعَشَرُ الْأَنْصَارِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» (الكافي، د.ت: ٢: ١٠٩).

وهناك جمهرة من النصوص فيما يتعلق بقضاء الحوائج وإدخال السرور على قلوب المؤمنين، بإمكان المهتمين الرجوع إليها في مضانها.

لهذا وغيره، وجب التأكيد على ان تقديم المساعدة مسؤولية اجتماعية تدخل احياناً ضمن دائرة الوجوب الكفائي حسب أصول الشريعة الإسلامية، وفي أحيان أخرى تبقى في دائرة الندب. ولا مكان للعواطف فيها، وبغض النظر في أن يحصل عندنا تعاطف أو لا. مع أن المسلم السوي مطالب بتوفره على التعاطف مع القضايا الإنسانية جميعاً، وليس من مسؤوليتنا نبش قلوب الناس للتعرف على دوافعهم الحقيقية لما يقومون فيه من أعمال، كما أن الحسابات المادية فأمر مرفوض من كل الوجوه، لأن المؤمن يتوخى رضا الله تعالى قبال ما يقوم به من أعمال حسنة، ولا ينطلق من منطلق مكافآت الناس له.

١.٢.٣ السمات الشخصية والإيثار

اهتم الباحثون النفسيون في معرفة طبيعة السلوك الإيثاري ودراسة مختلف جوانبه، ومن بينها البحث عن علاقة السمات الشخصية بالسلوك الاجتماعي الإيجابي بعامة والسلوك الإيثاري بنحو خاص (Penner, Fritzsche, Craiger & Freifeld, 1995; Penner, & Finkelstein, 1998). وقد طرحت العديد من الأسئلة الباحثة عن إمكانية وجود علاقة بين الأمرين من قبيل:

هل يمكن تحديد قابلية الأشخاص للسلوك الإيثاري من غيرهم عبر صفاتهم الشخصية؟

وإلى أية مديات يمكن أن يكون بعض الأشخاص إثاريين بالمقارنة مع غيرهم؟ وقد أجريت عدت تجارب لمعرفة ما لو أن ثمة علاقة بين الصفات الشخصية والسلوك الاجتماعي الإيجابي، وأغلب النتائج أشارت إلى عدم وجود علاقة بين الإثنين، ولم تتم البرهنة على الفرضيات المطروحة حول المسألة، فلم يتوصل الباحثون إلى أن الأشخاص الذين كانوا قد أظهروا سلوكاً إثارياً في الحالة (أ) قد تكرر سلوكهم الإثاري في الحالة (ب)، بمعنى آخر، لم يتسن التنبؤ بسلوك الأفراد أنفسهم حينما تتغير الظروف أو الحالات. مضافاً إلى أن الأشخاص (أطفالاً وبالغين) الذين حصلوا على درجات عالية من السلوك الإثاري في الاختبارات التي أجريت لهم، لم يختلفوا في التجارب التطبيقية والعملية عن الأشخاص الآخرين ممن حصلوا على درجات قليلة (Batson, 1998; Magoo & Khanna, 1991).

طبيعياً، هذا لا يعني عدم وجود اختلاف بين شخص وآخر في السلوك الإثاري من قبيل تصور أن أسامة بن لادن سوف لن يختلف عن الأم تريزا التي قضت حياتها في مساعدة الفقراء، حسب قول أحد الباحثين الغربيين (Aronson et al, 2007). غاية الأمر، لا يمكن الاعتماد على عامل السمات الشخصية بنحو مستقل للتنبؤ بالسلوك الإثاري، حيث يتعين الأخذ بنظر الاعتبار العوامل الأخرى الشديدة الصلة مثل: الظرف الذي يمر به الإنسان، الاختلاف بين الجنسين (ذكر أو أنثى)، الثقافة التي يترعرع فيها، وحالة الشخص المزاجية في ذلك الوقت.

إسلامياً، تؤكد منظومة المعرفة الإسلامية - في هذا المجال - على دور التربية والتنشئة الاجتماعية على القيم النبيلة، فالأمر لا يتعلق بالسمات الشخصية بقدر ما يتعلق بالقُدوة الحسنة، والتدريب من الصغر على عمل الخير.

المساعدة قيمة إسلامية وإنسانية يجب ممارستها سواء اتصف بها بعض الأفراد نتيجة كثرة الممارسة أم لم يتصفوا بها، فعدم الاتصاف لا يعطي مبرراً لعدم الممارسة، ولا يعطينا

الإذن بالبصم على هذا الشخص أو ذاك، ووصمه بفاقد للسلوك الإيثاري، حيث يبقى هذا السلوك وغيره من التحديات التي تواجه الإنسان وتتطلب منه مجاهدة نفسه، وصيانة إرادته الخيرة.

٢.٢.٣ الاختلاف بين الجنسين في السلوك الإيثاري

من المسائل التي أولاهها الباحثون النفسيون عناية البحث هي مسألة الاختلاف بين الجنسين - الذكورة والأنوثة - وعلاقة هذه المسألة بمزاولة المساعدة كسلوك اجتماعي إيجابي في الحياة، والسؤال الذي انطلقوا منه هو:

هل يوجد اختلاف في ممارسة المساعدة بين الرجل والمرأة؟

بالرغم من قلة الدراسات المنصبة على دراسة هذه المسألة، إلا أن الباحثين يشيرون - حسب ما توصلوا إليه من نتائج - إلى أن ثمة اختلاف في نوعية تقديم المساعدة وليس في أصل المساعدة، ففي القضايا التي تتطلب المساعدة فيها إلى التعرض إلى الخطورة والمشقة الجسدية الكبيرة، أظهرت النتائج تفوق الرجال على النساء، وفي القضايا التي تتطلب الرعاية الطويلة المدى، فالنتائج أظهرت تفوق النساء على الرجال. وذلك أن جميع المجتمعات تمتلك قيماً وقوانين اجتماعية خاصة، يتم من خلالها توجيه سلوك الأفراد، وتحديد ماهو مسموح فيه وماهو محظور، ومن بين هذه القوانين الاجتماعية ما يخص طبيعة سلوك المرأة والرجل، أو ما يتوقع من المرأة والرجل أن يقومان به. فالرجل - على سبيل المثال - في المجتمعات العربية يتعين عليه منذ الصغر أن لا يبكي إذا تعرض لألم أو لحادثة عاطفية، حيث يجب أن يكتم عواطفه الحزينة والمؤلمة... في حين يسمح للمرأة بالبكاء واطهار الجزع، كما ينبغي عليها أن تظهر الرقة والحنان والرعاية، وأن تحيد بعض الأعمال المنزلية، وأن لا تقوم بالأعمال التي يقوم بها الرجال في المجتمع العربي.

لذلك على التحديد، فإن البحوث المخصصة لدراسة عينات من شعوب متعددة تشير إلى أن ثمة توافقاً كبيراً فيما يتعلق بميل النساء إلى تقديم المساعدة الخاصة بالرعاية، مثل تقديم المساعدة إلى المعاقين وإلى كبار السن وما شابه ذلك. بالمقابل فإن الرجال يبادرون إلى تقديم المساعدة في حوادث الغرق والحرائق والانفجارات، وغيرها من مسائل مشابهة (Flanagan, Bowes, Jonsson, Caspo & Sheblanova, 1998). ولعل أشبه مصداق على المعطيات المتقدمة اشتغال النسبة العظمى من النساء في قطاع الرعاية الصحية كمرمضات، وكذلك في دور العجزة، ومراكز العناية بالأطفال، في حين نجد عزوف من قبل الرجال عن الاشتغال في المجالات المذكورة، وانخراطهم في الأعمال الأخرى المطلوبة للخشونة واستعمال القوى الجسدية، وهذا لا يعني عدم الاشتغال في المجالات العلمية والمهنية الأخرى.

إسلامياً، تؤكد منظومة المعرفة الإسلامية على أصل الموضوع، وهو السلوك الاجتماعي الإيجابي (المساعدة) وليس على أشكاله وأنماطه ومستوياته بالنسبة إلى المرأة والرجل. نحن نقرّ بتأثير الثقافات الاجتماعية. كما سوف نبحث ذلك في الموضوع المقبل. على صياغة السلوك الفردي والاجتماعي بيد أن الجميع مطالب بتقديم المساعدة حسب الضوابط الشرعية، ولا قيمة حينها للأعراف الاجتماعية فيما لو كانت هناك حاجة إليها، من قبيل حدوث بعض الكوارث البيئية أو الحروب أو الأزمات الاقتصادية الحادة أو فقدان العنصر الذكوري... فعلى المرأة في هذه الحالات تقديم المساعدة، وعدم الامتناع بسبب الخروج على الأعراف المسيطرة. كما يتعين على الرجل تقديم المساعدات التي تميزت المرأة بتقديمها نتيجة الأعراف والقوانين الاجتماعية المشار إليها مثل الرعاية والاعتناء بأصحاب الاحتياجات الخاصة، ورعاية المرضى والأطفال إذا تطلب الأمر، وعدم الإصغاء إلى صوت العرف المذكور.

٣.٢.٣ الاختلافات الثقافية والسلوك الاجتماعي الإيجابي

أولى الباحثون الغربيون مسألة الاختلافات الثقافية عناية كبيرة، وبخاصة الاختلافات بين الثقافة الغربية والغير غربية، وكانت أغلب المقارنات الدراسية - حسب تتبعنا - بين الثقافة الغربية والآسيوية، والسؤال الذي كانوا ينطلقون منه في هذا السياق هو:

هل للثقافة الفردانية الشخصية - وهي سمة أغلب الشعوب الغربية المعاصرة - تأثير على استعدادية الناس لمساعدة الآخرين؟ أم دور الثقافة الاجتماعية ذات الترابط الوثيق بين أعضائها - وهي السمة العامة للشعوب الآسيوية - أكبر؟

الباحثون يؤكدون على أن الثقافات التي تركز على الشعور الجمعي أو الانتماء الاجتماعي الشديد، تكون إمكانية التنبؤ بتقديم أفرادها للمساعدة كبيرة جداً، ذلك بسبب الثقافة التي نشأ عليها، حيث تؤكد تلك الثقافة على تقديم الآخر على الذات. كما توصلوا إلى أن الناس - في جميع الثقافات - ينظرون في تقديم المساعدة إلى الأشخاص الذين يتتبعون إليهم أسرع من الأشخاص الغرباء عنهم، أو ما يصطلح عليه بـ (المجموعة الداخلية) أو بـ (in-group).

ففي كل مكان من العالم يتحرك الناس بنحو أقل سرعة في تقديم المساعدة إلى الغرباء عنهم (المجموعة الخارجية) أو (out-group) وفقاً لما أشار إليه البحث الذي قام به بروير و برون (Brewer & Brown, 1998).

وقد وجد العديد من الباحثين الغربيين عند الثقافات الاجتماعية ذات الطبيعة الجمعية أو الانتماء الاجتماعي الشديد (collectivist cultures)،... أن تلبية احتياجات أعضاء المجموعة الخاصة مقدم على الأشخاص من خارج إطار المجموعة الخاصة، فالناس تميل لتقديم المساعدة إلى المقربين إليهم، أو ممن يشتركون معهم في الروابط الاجتماعية

الخاصة مثل العرق، والبلد، والنسب، والدين،... الخ (Miller, Berssof & Harwood, 1990; Mohgadam, Taylor & Wright, 1993). وذلك أن الحد الفاصل بين (نحن) و (هم) حاد للغاية، فإذا أردت - على سبيل المثال - أن تحصل على المساعدة، فعليك أن تريهم أنك تنتمي إليهم أو أنك واحد منهم. هذه الحقيقة تعم جميع الشعوب المنتمية للثقافة الاجتماعية ذات الترابط الوثيق، كما يقول الباحثون الغربيون (Ting & Piliavin, 2000).

نقد نظرية الاختلافات الثقافية

الدارسون المعنيون بهذه الدراسات يؤكدون على أن المسألة لا تخضع للتقسيم المذكور (غربي أو غير غربي) فهناك العديد من الشعوب والدول التي تقع ضمن الجغرافية الغربية إلا أنها تختلف في تبنيها لهذه المسألة وغيرها عن الشعوب والدول الغربية الأخرى. الأمر تحدده ثقافة كل مجتمع على حدة، فالثقافة التي تشدد على المساعدة والإحسان، فإن استجابة أفرادها لتقديم المساعدة سوف تكون سريعة حتى مع الغرباء، كما أكد بحث يانوف وزميله ليغات ذلك عبر تجربته التطبيقية في الشوارع المزدهمة بالناس، حيث حاول معرفة استجابة الناس للأشخاص الغرباء عنهم، ممن يشدون المساعدة (Janof-Bullman & Leggatt, 2002). ففي المدن التي تسيطر عليها الثقافة المثمّنة والداعية للمساعدة، يلاحظ مبادرة الناس لمساعدة الآخرين حتى لو كانوا لا ينتمون إليهم، وفي المجتمعات التي لا تعير لمبدأ المساعدة أهمية كانت النتائج سلبية.

إسلامياً، نجد أن ثمة توافقاً بين النتيجة التي توصل إليها الباحثان يانوف وليغات، وبين منظومة المعرفة الإسلامية في هذه المسألة، فلا شك أن المجتمع الذي يحث أفراداه على ممارسة مبدأ المساعدة، ويمنحها قيمة عالية، فإن أفراداه سوف يمارسون المساعدة مع مختلف الناس. إلا أننا نرفض ما توصل إليه الباحثون بشأن الثقافات ذات الطبيعة الجمعية أو الاجتماعية شديدة الترابط، حيث توصلوا إلى أنها تقدّم أعضائها الخاصين

على غيرهم في تقديم المساعدة، ربما تكون هذه الدراسات محقة في كشفها عما هو كائن حالياً، وليست معنية بالتطرق إلى ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع حسب قيم ومبادئ تلك الشعوب، وبخاصة الشعوب الإسلامية منها، حيث غالباً ما يشار إلى الشعوب المنتمية إلى الثقافة الجمعية (collectivist cultures) بالآسيويين، ومن المعلوم أن الثقل الأكبر من الشعوب الإسلامية يعيش في آسيا... أقول: إن التوصيات الإسلامية تؤكد على توزيع الخير والمعروف والإحسان لكافة الناس، وقد أسلفنا إيضاح هذا الموضوع عبر الاستشهاد ببعض النصوص الإسلامية آنفاً، ومن المستهجن تصور المسلم، حينها يمر بشخص مرمي على الأرض وهو يستغيث بطلب المساعدة، أن يقف المسلم ليتساءل عن هوية ذلك الشخص العرقية والدينية والوطنية... الخ فإن استدل على وجود رابطة تصله فيه، تقدّم لنجدته، وإن تبين العكس، أعطاه ظهره ومشى، كأن الأمر لا يعنيه... إن تصور مثل هكذا إنسان بدون ضمير أو قلب أمر تستنكره جميع الثقافات الإنسانية، وليس الثقافة الإسلامية التي تربي أفرادها (على وأد الذات وتصدير الحب إلى الآخرين). نعم، ثمة أولويات يقرها الإسلام في تقديم بعض الفئات على غيرها في المساعدة مثل وجوب رعاية الوالدين والأولاد والأقربين ضمن الضوابط المقررة في الشريعة الإسلامية، لكن هذا التقديم لا علاقة له بنزعة عنصرية أو انتهازية صرفة، بقدر ما تعني الالتزام بالمسؤوليات التي رسمتها الشريعة الإسلامية في أبواب الحقوق والواجبات، ولا تحتجز هذه التشريعات المسلمين من تقديم يد العون والإغاثة لأبناء الجنس البشري بغض النظر عن هوياتهم وثقافتهم.

٤.٢.٣ تأثيرات الحالة المزاجية على السلوك الاجتماعي الإيجابي

هل للحالة المزاجية دور في توجيه السلوك الاجتماعي الإيجابي أم لا؟
ما علاقة المزاج المعتدل أو المزاج الغير معتدل على سلوك الناس الإيثاري؟

من العوامل التي يعتقد الباحثون الغربيون بتأثيرها الكبير على السلوك العام، وبخاصة السلوك الاجتماعي الإيجابي (الإيثار أو المساعدة) هي حالة الشخص النفسية أثناء حصول أمر يتطلب تقديم المساعدة.

لهذا فسوف نقف على ما توصل إليه الباحثون في هذا المجال، لنخضعه للمناقشة العلمية.

١.٤.٢.٣ التأثيرات المزاجية الإيجابية

يعتقد الباحثون الغربيون بأن حالة الشخص المزاجية تؤثر بنحو فاعل على دفعه لمساعدة الآخرين، منطلقين من المقولة الغربية الزاهية إلى أن: «من يشعر بأن مزاجه جيد، فإنه يعمل جيداً» وقد أجروا عدة بحوث وتجارب للتأكد من التأثير المذكور على العمل الاجتماعي الإيجابي، فأظهرت النتائج صحة ما ذهبوا إليه. حينما يشعر الإنسان بالارتياح والسعادة كمن ينجح في أداء الإمتحان بنحو جيد، أو يتلقى نبأ ساراً أو يحصل على هدية ثمينة... الخ فإنه يكون على قدر كبير من الاستعدادية من تقديم المساعدة للآخرين، وبمختلف الطرق والمستويات، مثل: التبرع بالمال للأهداف الخيرة، مساعدة الأشخاص الذين أضعوا بعض حاجاتهم للعثور عليها، مساعدة الأشخاص في بعض الأعمال المنزلية كالبناء والتصليح والنقل، التبرع بالدم، مساعدة الزملاء بالعمل لإنجاز أعمالهم بسرعة وغير ذلك من أعمال حسنة (Carlson, Charlin & Miller, 1988; Isen, 1999).

وقد أشار الباحثون إلى أن هناك ثلاثة أسباب تقف وراء تشجيع الحالة المعتدلة للمزاج الناس على ممارسة السلوك الاجتماعي الإيجابي، وهي كالتالي:

١. تساعدنا الحالة المزاجية المعتدلة على أن ننظر إلى الحياة نظرة إيجابية، وبسبب نظرتنا هذه فإننا سوف ننظر إلى الآخرين أيضاً بنظرة إيجابية، وسوف ننظر إلى الجوانب الجيدة عندهم، ونحملهم على المحمل الحسن. والملفت أن مشاهدة بعض الضحايا

أو المحتاجين للمساعدة، ممن هم معروفون عادة بالإزعاج والتطفل... في حالة اعتدال مزاجنا أو شعورنا بالفرح، سوف يدفعنا الشعور المعتدل نفسه إلى التعامل معهم بتهذيب وعطف وإسراع في تقديم الإسعاف (Carlson et al., 1988; Forgas & Bower, 1987).

٢. مساعدة الناس تعتبر واحدة من الطرق الممتازة في تمديد حالة اعتدال المزاج، فإذا كنا في حالة مزاجية جيدة، وواجهنا شخص محتاج للمساعدة، فسوف نشعر بالارتياح الإضافي عبر القيام بدور الرحماء، والمبادرة في مساعدته، لأن عدم المساعدة مع علمنا بضرورة تقديم المساعدة يعمل على سوء حالة الاعتدال المزاجي عندنا (Clark & Isen, 1982; Isen, 1987; Williamson & Clark, 1989).

٣. يساعدنا اعتدال المزاج على الاهتمام بذواتنا، والمقصود بالذات هنا هو ما يقابل الموضوعي وليس المعنى الذاتي السلبي،... فقد تبين أن الكثير من الناس لا يهتمون بمشاعرهم الداخلية، وقيمهم الخاصة (العالم الداخلي) مقارنةً مع اهتمامهم بما يجري حولهم (العالم الخارجي) (Aronson et al, 2007).
أحياناً نجد أن البعض مهتماً للغاية بعالمه الشخصي (الداخلي)، وأحياناً أخرى ينعدم مثل هذا الاهتمام عند الآخرين.

على أية حال: اعتدال المزاج يسهم في ضخ المزيد من الاهتمام بأنفسنا، وهذا ما يستتبع أن ينسجم سلوكنا مع قيمنا ومبادئنا والأمثلة الصالحة لنا في الحياة، والسبب يعود إلى أن أغلب الناس يعتقدون بقيمة السلوك الإيثاري وفضيلة المساعدة، وبسبب أن اعتدال المزاج يرفع من اهتمامنا بقيمنا ومبادئنا، فإن الاعتدال المزاجي نفسه يحفز على السلوك الاجتماعي الإيجابي (Berkowitz, 1987; Carlson et al., 1988; Salovey & Rodin, 1985).

٢.٤.٢.٣ التأثيرات المزاجية السلبية

ماذا يحدث لو كنا في حالة مزاجية سيئة؟

تصور لو أنك في وضع نفسي صعب، وشاهدت الرجل المحتاج للمساعدة في مثالنا السابق... هل سوف يؤثر مزاجك الغير معتدل على مساعدتك له، وإرجاع حاجاته إليه ليواصل مسيره بهدوء؟

النتائج التي توصلت إليها البحوث المعنية في هذا الجانب تشير إلى أن الحالة المزاجية الغير معتدلة تقود بوضوح إلى رفع ممارسة السلوك الاجتماعي الإيجابي (المساعدة) وليس العكس (Baumeister, Stillwell & Heatherton, 1994; Estrada-Hollenbeck & Heatheron, 1998). ذلك أن الناس ينطلقون في معاملاتهم من الفكرة الذاهبة إلى أن الأفعال الجيدة تعوض أو تكفّر عن الأعمال السيئة، فإذا عملوا عملاً ما، ونتيجة ذلك العمل يحصل لهم إحساسٌ بالذنب، فإنهم يستطيعون - كما يعتقدون - تعويض ذلك العمل السيء، وإزالة الشعور بالذنب من خلال مساعدة الآخرين (Aronson et al, 2007).

إلى هنا، قد يخال المرء، أن من المنطقي بأن الشعور بعدم اعتدال المزاج سوف يحجز الناس عن إتيان المساعدة، بعد أن علمنا بأن الاعتدال أو الارتياح هو أحد الدوافع الهامة للممارسة المذكورة. بيد أن من الأشياء الملفتة - حسب تصور الباحثين الغربيين -، هي أن الحزن يعتبر - في بعض الظروف - أحد العوامل المشجعة على ممارسة المساعدة، والسبب يعود إلى أن شعور بعض الناس بالحزن، يدفعهم بشدة إلى ممارسة بعض النشاطات التي تساعد على طرد الحزن، والشعور بالارتياح (Carlson & Miller, 1987; Salovey et al., 1991). وبما أن المساعدة عملية مربحة ومُكسبة، فإنها تمتلك إمكانية ادخال السرور على قلوبنا. لذلك يميل الناس المتعرضون للحزن لإزالة الحزن عبر هذه الطريقة (Wegner &

(Petty, 1994). وقد أطلق على الفكرة نفسها - تخفيف الحزن من خلال مساعدة الآخرين - بـ (فرضية تخفيف الحالة السلبية) أو (negative-state relief-hypothesis).

نقد نظرية تأثيرات الحالة المزاجية على السلوك الاجتماعي الإيجابي

لقد سلفت الإشارة إلى أن البحوث والتجارب التي تم عرضها، تنظر إلى ما هو كائن، وليس ما ينبغي أن يكون عليه من سلوك، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن عينات البحث في الغالب هي غربية، ومن المعلوم بأن القيم والحياة الغربية تختلف عن قيم وحياة الحضارات المتعددة في العالم، وبخاصة الحضارة الإسلامية التي تشدد على ممارسة السلوك الاجتماعي الإيجابي، وبخاصة المساعدة. فالشعور بالفرح ربما يكون سبباً عملياً لدفع الناس على مساعدة الآخرين، بيد أنه ليس العامل الأساس، وقد شاهدنا بأن التوصيات الإسلامية تأمر بتقديم المساعدة في كل الظروف والأحوال، سواء كنا في فرح أو حزن أو في حالة طبيعية خالية من المثيرات المذكورة، أو معها.

نعم، إسلامياً لا نجد مانعاً من تقبّل الفكرة الذاهبة إلى أن تقديم المساعدة يمثل تعويضاً لما يرتكبه الناس من ذنوب، فقد أكد القرآن الكريم على هذه الحقيقة بقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (هود: ١١٤). وهناك أساليب متعددة للتكفير عن الذنب، ذكرها الفقهاء وعلماء الأخلاق الإسلاميين، ضمن ضوابط وشروط محددة، وأهمها التوبة والشعور بالندم الحقيقي، وإرضاء من اذنبنا بحقهم.

ونؤكد - مرة أخرى - رفض التصور الإسلامي للمعطيات الذاهبة إلى أن ممارسة المساعدة هي إحدى استراتيجيات دفع الحزن (negative state relief hypothesis)، فهي في الواقع وجه آخر من وجوه نظرية (التبادل المنفعي) الذاهبة إلى أن الناس يساعدون أنفسهم من خلال المساعدة، وذلك بإزالة التوتر والحزن عنهم، وقد ناقشنا النظرية عينها في الموضوعات السابقة، ومن المفارقات الفجة ذهاب أحد الباحثين إلى القول: بأن

الشخص الذي يُصاب صديق له بحزن، فإنه يحس بالحزن نتيجة حزن صاحبه، لذلك إذا عمل على إزالة الحزن عنه، يكون قد عالج سبب الحزن عنده.

من المقبول تصور حالة التعاطف بين صديق وآخر، ومشاطرته باحزانه، كما من المؤكد بان ادخال السرور على الآخرين يمنحنا الشعور بالسرور والسعادة، لكن لا يمكن تقبّل الفكرة الذاهبة الى اننا ننطلق بعمل منفعي من خلال ذلك العمل وبهدف تخفيف الحزن عنّا ذاتياً. وماذا لو بقي الشخص على حالته من الحزن دون ان تنفعه محاولات المساعدة؟ فهل سوف نبقي كذلك رازحين تحت وطأة الحزن؟ أين وعينا الشخصي بحقيقة المسألة؟ وماهو دور ارادتنا في الخروج من دائرة الحزن؟ وهل بالفعل إن كل محاولات تخفيف الأحزان عن المقربين علينا، تهدف للمنفعة الذاتية؟ بمعنى عدم وجود مشاطرة لأحزان الآخرين، ومشاركتهم أحزانهم؟ أو ليس ثمة من يعمل على تخفيف حزن الآخرين بأهداف خالصة من الشوائب المنفعية الذاتية؟ أو هل أن فكرة المشاعر الخالصة فكرة كاذبة لا حقيقة لها؟

طبيعياً نحن لا نريد الدخول في مناقشة موضوع الحزن، وهل هو حزن إيجابي سوي يُثاب المرء عليه؟ أم حزن سلبي مرضي يتعين الانتصار عليه؟ بقدر ما اردنا التأكيد على رفض المبدأ المنفعي في تفسيره للسلوك الاجتماعي الإيجابي وبخاصة تقديم المساعدة للناس.

٣.٣ العوامل الظرفية والسلوك الاجتماعي الإيجابي

رأينا ما توصل اليه الباحثون الغربيون فيما يخص العوامل المساهمة في الإجابة على السؤال الباحث عن أسباب انطلاق الناس في تقديم المساعدة مثل: السمات الشخصية، الاختلاف بين الجنسين، الثقافة، والحالة المزاجية. بيد ان جميع ما تقدم، لا يعطي إجابة كاملة للفهم الصحيح المتعلق بالسؤال نفسه: (لماذا يعمل الناس على مساعدة بعضهم

البعض الآخر؟) ما لم يسلط الضوء على بحث (الظروف) التي يمرون بها الناس أو يعيشون فيها حسب رأي بعض علماء النفس الاجتماعي (Aronson et al, 2007). وأهم موضوعات العنوان أعلاه هي:

١.٣.٣ الريف والمدينة

هل للبيئة التي يعيش فيها الفرد تأثير على سلوكه الاجتماعي الإيجابي؟ وهل يختلف سكان الأرياف عن سكان المدن في تقديم المساعدة؟ أم لا يوجد ثمة تأثير؟ وماذا لو انتقل احد سكان المدن الى الريف او أحد سكان الريف الى المدينة، هل سوف يبقى سلوكه بنفس الوتيرة، أم يخضع للتغيير؟

لم يصل الباحثون إلى اتفاق حول هذه المسائل، فبعضهم أكد عبر البحوث التي أجروها على أن معظم أهل الأرياف يسلكون سلوكاً اجتماعياً إيجابياً، وقد تبين ذلك السلوك عملياً من خلال التجارب التي تعمدت اظهار سلوك المساعدة، من قبيل سقوط أحد الأشخاص من دراجته، ورفع صوته بطلب النجدة والمساعدة، حيث أشارت النتائج بأن نسبة المبادرين لتقديم المساعدة من سكان الأرياف كانت النصف تقريباً، بينما انخفضت نسبة سكان المدن الكبرى بنحو ملحوظ، فكانت نسبتهم لا تتجاوز الخمس عشرة بالمئة (Amato, 1983).

ولم يقف تقديم المساعدة بالنسبة إلى سكان الأرياف على حوادث السير، بل غطى أنواعاً مختلفة مثل: إرشاد الضالين على الطريق الصحيح، البحث عن الأطفال المفقودين، إيصال الرسائل الموضوعية بالخطأ إلى أصحابها، وغيرها من أمور. والملاحظ أن البحث المذكور قد أجري على بلدان مختلفة من بينها: الولايات المتحدة الأمريكية، كندا، تركيا، المملكة المتحدة البريطانية، والسودان (Hedge & Yousif, 1992; Steblay, 1987). فكانت النتائج متوافقة في تأكيد العلاقة بين أهل الريف والمساعدة.

والجدير بالذكر أن أحد الباحثين قد تساءل بالسؤال التالي:

هل يوجد جانب محدد للترعرع بالحياة الريفية يساعد على تكوين الشخصية الإيثارية أو المساعدة؟ وهل يوجد جانب محدد بالنسبة لمن يترعرع بالمدن الكبرى يمنعه من السلوك الإيثاري؟

إذا كان الواقع هو بالفعل كذلك، فمن المرجح بأنك ستحصل على المساعدة من شخص متواجد في المدن الكبرى، ولكنه كان قد ترعرع في الريف، ذلك أن جوهره قد تطبع على قيم الريف، ولا علاقة للمحيط المباشر الذي كان يتواجد فيه بتلك اللحظة في دفعه الى المساعدة. وربما يكون العكس هو الصحيح، بمعنى أن المحيط الذي يعيش فيه الشخص في تلك اللحظة هو من دفعه لذلك الفعل، وليس القيم التي تربي عليها بالريف (Aronson et al, 2007).

ستانلي ملغرام (Stanley Milgram) أشار الى أن الناس في المدن الكبرى يتعرضون باستمرار الى حجم كبير من المحفزات أو المثيرات مثل الأصوات والأضواء والإعلانات والباعة والحاجات والوجوه المختلفة من الناس... ولهذا بالذات ينكفئون على أنفسهم من أجل حمايتها من سيطرة تلك المحفزات عليها. حسب هذه الفرضية والتي تدعى بـ (فرضية الإرهاق أو التحميل الحضري الزائد) أو (urban overload hypothesis) فإن سكان المدن الكبرى لا يختلفون في ممارسة السلوك الاجتماعي الإيجابي عن سكان الأرياف، فهم مساعدون وإيثاريون تماماً مثل سكان الأرياف فيما لو تواجدوا في محيط هادئ ولا يحتوي على محفزات غزيرة كالتى هي عليه في المدن الكبرى.

البحوث الداعمة لهذه الفرضية (urban overload hypothesis) - حسب تتبع أحد الباحثين - أكثر من البحوث التي حاولت البرهنة على الفكرة القائلة بأن سكان المدن بطبيعتهم أقل إثارة ومساعدة. وقد اجري تحليل بيانات العشرات من البحوث التي دارت حول هذا الموضوع فتبين أن طبيعة المحيط الذي تحدث فيه حادثة ما، تتطلب

تقديم المساعدة أهم من المحيط الذي نشأ فيه الأشخاص (Stebly, 1987). والمقصود بالمحيط الذي تحدث فيه الحادثة هو قلة المحفزات المتوفرة، وبما ان الريف يعيش حالة من الهدوء، وجدنا أن سكان الأرياف أكثر مساعدةً من أهل المدن الكبرى.

نقد فرضية الريف والمدينة

من المؤكد أن الحياة في الريف تختلف عن الحياة في المدينة، وأن سلوك سكان الريف يختلف عن سكان المدينة، ولسنا بصدد دراسة تلك الفوارق التي أسهبت الدراسات الاجتماعية بمعالجتها، بيد أن تحمّل المسؤولية الاجتماعية أمر ملزم لسكان كلتا البيئتين، ولا يُعفى الإنسان - حسب التصور الإسلامي - من مسؤوليته بسبب غزارة المثيرات التي تسيطر على مناخ المدينة كما أشارت إلى ذلك فرضية (التحميل الحضري الزائد) أو (urban overload hypothesis) فالقيم الإسلامية واحدة، ومطلقة لا يمكن تجزئتها، ولا اخضاعها لمفهوم النسبية. ربما يكون للمكان أو الزمان أو اختلاف متعلق الأحكام (العنوان الأولي والعنوان الثانوي) دوراً في تغيير الأحكام الشرعية إلا ان هذا لايعني تغيير الحكم الشرعي بل هو تغيير في عناوين الموضوعات، ومن المعلوم في مجال الاستنباط الفقهي «أن الأحكام الشرعية تتبع موضوعاتها سلباً أو إيجاباً»، أقول: ربما يكون للظروف التي تكتنف الشخص اثناء تعرضه لأمر يتطلب المساعدة منه دوراً كبيراً، مما يعطيه العذر في تجاوز اسعاف شخص ما، بيد أن هذه الظروف لا ترفع حكم أو قيمة المساعدة في كل زمان ومكان، وبالرغم من انتقال الحكم من العنوان الأولي الى الثانوي، فالمساعدة قيمة ضرورية في حياة الناس.

٢.٣.٣ تأثير المتفرجين على الحادثة

الكثير من علماء النفس الاجتماعي أبدوا اهتماماً بالغاً في الحوادث التي تجري على مسمع ومرأى من الناس دون أن تجد اكترائاً أو استجابةً منهم، من قبيل الإعتداء على أحد الأشخاص في أحد الشوارع المليئة بالمارة، أو سماع أحد الأشخاص وهو يطلب الاستغاثة من الناس، أو مشاهدة أحد الأشخاص مطروحاً على الأرض وهو يئن... ولا يهب أحد لنجدهم!

من بين هؤلاء العلماء هما العالمان بيب لاتانة و يوهان دارلي Bibb Latane & John Darley المعروفان في مجال علم النفس الاجتماعي، فهذان العالمان لم يقتنعا بأن التوتر والمثيرات في حياة المدن الكبرى، هما من يحتجزان الناس عن تقديم المساعدة للضحايا، فقد ركزا على جانب آخر وهو عنصر توفر الأعداد الكثيرة من الناس عند وقوع تلك الحوادث، وقد توصلا الى الاعتقاد بأن العدد الكبير من المتفرجين أو الحاضرين اثناء تلك الحوادث هو الذي يحول من تقديم المساعدة (Latane & Darley, 1970).

من خلال العديد من التجارب التي أجروها للبرهنة على فرضيتهما، توصلا العالمان المشار اليهما الى أن وجود عدد كبير من الناس اثناء وقوع الحادث لا يعطي ضمناً بتقديمهم المساعدة، وقد أظهر أحد البحوث في السياق ذاته أن ٨٥ ٪ من الأشخاص الذين كانوا يجدون أنفسهم لوحدهم أثناء تعرض أحد الأشخاص لإصابة ما، كانوا يسرعون في تقديم المساعدة، بينما ٣١ ٪ من الذين كانوا يتواجدون مع أشخاص آخرين، كانوا يبادرون في تقديم المساعدة. وقد أعيدت تلك التجارب في المختبرات النفسية، والدراسات الميدانية للتأكد من نتائجها فثبت صحتها حسب رأي الباحثين المذكورين، وكانت النتيجة هي نفسها في كل مرة: كلما كان عدد المتفرجين أكبر، كلما انخفضت فرصة

مساعدة المحتاجين للنجدة. وقد أطلق على هذه الظاهرة تأثير المتفرجين (bystander effect).

لكن السؤال الملح هو: لماذا يقل ميل الناس لتقديم المساعدة إذا كان هناك حضور للآخرين؟

الباحثان المذكوران حاولا الإجابة على السؤال أعلاه من خلال تطوير نموذج معرفي للخطوات المرحلية التي يمر فيها الإنسان من أجل اتخاذ القرار في تقديم المساعدة في الحالات الخطيرة (Latane and Darley's cognitive model).

النموذج التالي يشرح هذه الخطوات



Latane and Darley's cognitive model 1970

الخطوات أعلاه تتضمن خمس مراحل، ينبغي استكمالها جميعاً لكي تصدر المساعدة، وفي حالة تجاوز واحدة منها، فسوف يمتنع الناس من تقديم المساعدة.

سوف نعرض إليها بشيء من الشرح المختصر، ونبدأ:

١. ملاحظة الحادثة

الشخص الذي يكون على عجلة من أمره، أو الشخص الذي لا ينتبه للحادثة بسبب الزحمة والأشياء التي تشغل انتباهه، سوف لن يتوقع منه تقديم المساعدة، وذلك أنه لم يلاحظ الحادثة بنحو دقيق، وهذا ما يحدث كثيراً في المدن الكبرى.

٢. الإدراك بخطورة الحادثة

ينبغي معرفة أن الحادثة أو الحالة التي يمر بها الشخص طالب المساعدة حالة ضرورية وخطيرة بالنسبة إلى الشخص الذي يشاهد تلك الحادثة، فإن عدم إدراكه لخطورة الحالة، سوف يحتجزه عن التقدم بتقديم المساعدة.

٣. تحمّل المسؤولية

في بعض الأحيان ينتبه الشخص للحادثة، ويدرك خطورتها، لكنه بسبب حضور الآخرين فإن الشعور بالمسؤولية يقل عنده، كلما ازداد عدد المتفرجين، ذلك أن المسؤولية سوف تتوزع على الجميع، والكل سوف يرمي بالمسؤولية على الآخرين، سوف يقول مع نفسه: لماذا أضاع نفسي بالخطر،... يوجد أشخاص آخرون غيري، لكن المشكلة أن الآخرين سوف يفكرون بنفس ذلك التفكير، مما يتسبب بعدم تقديم المساعدة.

٤. ماذا يتعين تقديمه

الخطوات الثلاث أعلاه لا تكفي في تقديم المساعدة حتى لو استكملها الفرد، حيث يتعين عليه معرفة الطريقة التي يقدم بها المساعدة. إن مشاهدة شخص ما يسقط فجأة مغشياً عليه، تدع الشخص المشاهد لتلك الحالة في حيرة... هل سقط نتيجة سكتة قلبية، أو نزيف دماغي، أو اختناق تنفسي؟ هل اسعفه بنفسه، أو اتصل بالإسعاف؟ فإذا لا

يعرف ماهي الطريقة المناسبة، فمن المؤكد بأنه لن يقدم المساعدة

٥. تنفيذ قرار المساعدة

معرفة طريقة المساعدة لا تكفي أيضاً في اتخاذ قرار المساعدة، فكثيراً ما يواجه الشخص التفكير فيما لو كان تدخله للمساعدة يعرض حياته للخطر، أو الخوف من الملاحقة القانونية ومسائلة الشرطة وغيرها من عواقب، أو الخجل، فبعض الأشخاص يستحي من المبادرة في تقديم المساعدة، أو التكلفة المادية والجهدية والوقتية التي تسبب بها المساعدة (Aronson et al, 2007).

من الجدير بالذكر أن نموذج لاتانة و دارلي لم ينحصر تطبيقه على الحالات الخطيرة فقط، بل جرى تطبيقه على حالات المساعدة الغير خطيرة، فأعطى نفس النتائج حسب ما أشار اليه نفس الباحثان.

نقد أنموذج لاتانة ودارلي

الأنموذج الذي تم عرض جانب من مضموناته الأساسية أعلاه، يقدم تفسيراً محكماً لبعض أسباب تلكا الناس عن تقديم المساعدة للمحتاجين إليها، ولكنه للأسف لا يتناول الأسباب الضرورية الأخرى مثل (الحالة الدينية) للأشخاص المتفرجين و (الاختلاف الثقافي) لهذا البلد أو ذاك، لكي نتعرف على احتمالية وجود ترابط بينهما أم لا. فقد بدى وكأنه محاولة لإيجاد تبرير علمي لعدم المساعدة بالرغم من الحاجة إليها، وتعمد الناس على عدم ممارستها، ولا يكشف - بنفس الوقت - عن الأشخاص الذين استطاعوا تجاوز تلك العقبات المعرفية التي يضعها في أنموذجه، إلا بتجارب منفصلة تبحث عن أسباب تشجيع الناس على المساعدة، فهناك يتضح - كما سوف نشير بالموضوع التالي - أن الأشخاص الذين تدخلوا في تقديم المساعدة - بالرغم من الملابس المذكورة - قد كانوا

على علم بتأثير العوامل التي أشار إليها النموذج نفسه أو ممن كانوا قد حضروا لإستماع محاضرة نفسية تطرقت إلى تأثير العوامل نفسها على احتجاز الناس من تقديم المساعدة في الحالات الخطيرة. وهذا ما لا يمكن تقبله، فهل يُعقل أن كل من قدّم المساعدة اثناء تلك التجارب المشار إليها، هم ممن كانوا على اطلاع بتلك العوامل؟ أين دور الضمير في هذه المسألة؟ وأين دور القيم التي تربي عليها الإنسان؟

٣.٣.٣ الباحثون الغربيون المؤيدون للسلوك الإيثاري

إلى جانب دفاع النفساني المشهور باتسون وزملائه عن أصالة السلوك الإيثاري عند الإنسان، فقد أنبرى العديد من الباحثين المشهود لهم في الأوساط الأكاديمية للتأكيد على توفر الإنسان فطرياً على خاصية الإيثار والميل إلى الاستجابة الطبيعية لمساعدة الآخرين، ومن بين هؤلاء الباحثين المشهورين عالمياً الباحث البيولوجي الهولندي فرانس د وال Frans de Waal الذي قضى العشرات من سنوات عمره في دراسة سلوك الحيوانات الرئيسات من قبيل (القردة والغورلا) ومقارنة سلوكها مع السلوك البشري حيث عارض بشدة الرأي الذاهب إلى انكار مفهوم الإيثار عند البشر، وقد تجلّت معارضته عبر الكثير من البحوث وأبرزها كتابه: (من الطبيعة حسن و وقت للتعاطف) وفيها أكد على أن البشر وبعض الثدييات العليا تتوفر بنحو طبيعي على قدرة المحبة، التعاطف والمشاركة الوجدانية. بل أكثر من ذلك فقد برهن العديد من الباحثين المعنيين بدراسة السلوك الحيواني الاجتماعي على أن هناك العديد من أنواع الحيوانات وحتى الحشرات ممن تسلك في حياتها السلوك الإيثاري، فالملاحظ أن النمل يعمل بجهد وإيثار ولا يفكر بالتوالد من أجل مصلحة شعبه (Wilson 1975).

والدولفين يعمل على انقاذ أبناء نوعه الذين يعلقون في الشباك أو تصطادهم الحراب المعدة لصيدهم من خلال عضه وسحبه وتخليصه (De Waal 1996).

والحيتان تتدخل لتخليص أحد أفرادها المصاب بجرح من خلال وقوفها بين الجريح والقارب حتى يتمكن الحوت المصاب من السباحة والهرب أو من خلال قلب القارب. والطيور تعطي الأفضلية أحياناً إلى مساعدة الآباء والأمتناع عن التناسل لبعض الوقت (Woolfenden 1975).

البيولوجي فرانس د وال قدّم العشرات من الأمثلة التي شرح من خلالها سلوك التعاطف والإيثار عند الشمبانزي والثدييات العليا (القردة)، ومن تلك الأمثلة ما يتعلق - على سبيل المثال - بالقرود الذي يصاب بالعوق، فإنه يحصل من قبل المجموعة التي يعيش معها على الاهتمام، التسامح، والرعاية، وكذلك فيما يخص القرود الصغيرة المصابة بالعمى، فإنها لا تترك لوحدها، ويبقى معها بعض القرود حينما تضطر المجموعة للتنقل. وبعض الحيوانات يعرض نفسه للموت من أجل إنقاذ الحيوانات الأخرى كما هو الحال في السنجاب الذي يقف يراقب العدو حتى تتمكن مجموعته من الأكل، وفي حالة مشاهدته للعدو فإنه يصرخ من أجل أن يضلّل العدو ويدعه يقصده بدلاً من أن يتجه إلى الآخرين (Tiemeijer, Thomas en Prast, 2009). كما تقدم الطيور - أحياناً - أنفسها من أجل إنقاذ الطيور الأخرى، كما لاحظ الباحثون على سلوك بعض أنواع العصفائر التي يبقى أحدها لمراقبة العدو في الوقت الذي ينشغل به الآخرون في الأكل، ويكون العصفور المراقب هو الضحية لأنه يعمل على إنذارهم، ولفت العدو إليه.

إن الناس لا تنظر إلى مصالحها الخاصة فقط (العائدات والمنافع) كما يحاول البعض التأكيد على ذلك، فقد تبين عبر العديد من الدراسات أن للناس حاجة ماسة في الترابط مع الآخرين، وإن حاجتها هذه تعتبر من الحاجات الأساسية لهم، وفي حالة عدم تلبية هذه الحاجة ونقصها من جديد (حاجة الترابط)، فهناك العديد من الأضرار المترتبة على ذلك من قبيل الأضرار الصحية النفسية والبدنية، وفي أشد الحالات تقود عدم التلبية والنقص في الحاجة إلى الموت (Baumeister en Leary 1995; Taylor 2007; Cacioppo en Patrick 2008).

ولا شك أن الترابط المشار اليه يعتمد في بقاءه وتماسكه على مضمونات السلوك الإيجابي والتي يعتبر العنصر الإيثاري من أهم مكوناتها، فلا معنى للترابط من دون معاشة حالة الإيثار، والتنازل عن الذات مقابل الآخرين حسب القدرة والإستطاعة.

ونكتفي فيما قاله إلنكسون وهو من الباحثين المدافعين بشدة عن إصالة السلوك الإيثاري الخالص من المنافع الذاتية في الموضوع ذاته، حيث أشار الى أن الإنسان بطبيعته حسن (إيجابي) لكن طبيعته الأخلاقية الصافية قد تلفت بسبب المجتمع الغربي (Ellingson, 2001). والحق معه فالطبيعة أو الفطرة تحتاج الى محيط يتيح له تعلم وممارسة وتنمية السلوك الإيجابي، وهذا ما سوف نلمح اليه في الموضوع التالي:

٤.٣.٣ كيف نشجّع الناس على المساعدة

لاشك ان الغرض من اهتمام الباحثين في دراسة موضوع السلوك الاجتماعي الإيجابي هو من أجل التشجيع على ممارسة المساعدة في الحياة العملية العامة، ولذلك كان السؤال الأكثر جديةً هو:

كيف نجعل من الناس مساعدين؟ أو بكلمة ثانية: كيف نشجّع الناس على ممارسة سلوك المساعدة في الحياة؟

لا يختلف اثنان حول فضيلة وضروة هذا السلوك الأساسي في الحياة، فالحياة الإنسانية من دون السلوك الإيثاري فاقدة لأشد دلالاتها نصوعاً، بل لا قيمة لها بتاتاً فضلاً عن عدم تصور استمرارية الحياة الاجتماعية من دون وجود العنصر الإيثاري، ومساعدة الناس لبعضها البعض الآخر، فقد أثبتت الدراسات المختصة في المجال نفسه الى أن الجماعات التي يسودها الإيثار والتعاون تمتلك فرصاً أكبر للاستمرار مقارنةً بالمجموعات التي تسيطر عليها ثقافة التمحور حول الذات (Gintis et al. 2005; Haidt 2010). وهناك من الدراسات العلمية التي تشير الى التوارث الثقافي (Richerson en Boyd 2005) مما يترتب

على ذلك أن بعض المجتمعات تتوارث السلوكيات الإيجابية، وهذا ما يفسر بقائها، ذلك أن الثقافات المتعانة والتي تتوفر على الإيثار أقوى من الثقافات (الأنانية)، وبمعنى آخر أن المجموعات ذات السلوك الإيجابي تبقى مستمرة بالحياة، في حين تنقرض المجموعات الأنانية من الوجود.

من جديد: الإجابة على السؤال أو المطلب أعلاه، طرحها الباحثون الغربيون ضمناً في مناقشتهم لأسباب السلوك الإيثاري، من قبيل:

تنمية السمات الشخصية

تشير بعض الدراسات إلى وجود بعض السمات الشخصية الكاشفة على توفر الشخص على السلوك الاجتماعي الإيجابي، لذلك فإن تنمية وتشجيع هذه السمات (المتوفرة عند بعض الناس بنحو ملحوظ) سوف يقود الناس إلى مساعدة الآخرين (Clary et al., 1994; Snyder, 1993).

رفع العقوبات الظرفية

إلى جانب ذلك، فإن رفع العقوبات الظرفية التي تحول من ممارسة المساعدة مثل تأثير المدن الكبرى على السلوك الإيثاري، ووجود العدد الكبير من المتفرجين عند الحادث يلعبان دوراً بارزاً في الدفع على تقديم المساعدة، لأن توفر الشخص على الصفات الإيثارية سوف لن يساعده على ممارسة سلوك المساعدة في غمرة تلك الظروف (Aronson et al, 2007). فلا بد من إزالة تلك العوائق، وخلق الظروف الصحية المشجعة لممارسة السلوك الإيجابي.

نشر المعرفة وتوعية الناس

من الأسباب الهامة في تشجيع الناس على سلوك المساعدة - حسب توصيات الباحثين الغربيين - هي حملات التوعية ونشر المعرفة المستمرة حول العقبات التي تحتجز الناس عن ممارسة المساعدة، فالمعرفة بحقيقة تلك العقبات وتفهم تأثيراتها على السلوك، تسهم في تجاوزها، كما أكدت التجارب الميدانية على ذلك (Beaman, Barnes, Klentz & McQuirk, 1978). والأمر المهم في نشر المعرفة هو الكشف على ما حدث من تغيير لبعض القيم التي كان لها دوراً بارزاً في تأصيل السلوك الإيثاري في المجتمعات الإنسانية وتعامل الناس معها كقيمة أساسية في الحياة، فقد فقدت بعض المجتمعات هذه القيم، واستبدلتها بالقيم التي تشجع على السلوك الإناني كما أشار أكثر من باحث غربي في تفسيره لحالة انحسار السلوك الإيثاري في المجتمعات الغربية، حيث ينشأ المرء على عدم التدخل في مساعدة الآخر، والاهتمام بنفسه فقط كما توصي المقولة الإنكليزية المشهورة "Mind your own business." مما ينتج عن ذلك اماتة الحس الإيثاري عند الإنسان (Tiemeijer, Thomas en Prast, 2009).

إسلامياً نجد أن ثمة توصيات متعددة حول التأكيد على التعريف بأهمية السلوك الإيجابي والتذكير به، فقد أوصى الله رسوله الكريم بتذكير الناس وتذكير المؤمنين بنحو خاص، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (الغاشية: ٢١).

وقال جلّ وعلى: ﴿وَذَكَّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: ٥٥). وغيرها من نصوص تحث على الموعظة والنصيحة ونشر الوعي والتبصرة، لكن التوصيات بنفس الوقت تؤكد على العنصر الإيماني في المخاطبين حيث يلعب الإيمان دوراً هاماً في تقبل

هذه التوصيات الإيجابية والعمل على تطبيقها.

إلى هنا نكون قد تناولنا أهم المسائل المتعلقة بالسلوك الاجتماعي الإيجابي وبخاصة السلوك الإيثاري في ضوء تصور علماء النفس الغربيين، وقد سعيينا - بنحو عابر - إلى مناقشة تلك المسائل حسب موقف التصور الإسلامي منها بغية إثراء القراء بهذه المعلومات الهامة، ولم يكن ذلك من مقاصد البحث، حيث كان المخطط أن نوضح مدى أهمية موضوع السلوك الإيثاري (المساعدة) في مراكز البحث الأكاديمي، وشدة ضرورته في تنمية الحياة الإنسانية، لنطلّ على إسهامات ممارسة زيارة الأربعين المباركة في هذا الحقل، وهي إسهامات تستحق الدراسة والتعريف.

٥.٣.٣ إسهامات زيارة الأربعين المباركة في حقل السلوك الإيثاري

إذا كانت البحوث المذكورة سلفاً تشير إلى معضلة حقيقية في العالم الغربي فيما يخص السلوك الإيثاري، وانكفاء النسبة العظمى من سكانه على أنفسهم، وفشل الكثير من الحلول المطروحة في الوصول إلى المستوى المنشود من ممارسة السلوك الاجتماعي الإيجابي (المساعدة، التعاطف، التعاون التضحية، الإيثار)، فإن ظاهرة زيارة الأربعين المباركة تكشف عن حالة من التعافي الكبير في جسد أتباع أهل البيت عليه السلام في حقل السلوك الاجتماعي الإيجابي حتى أمكن القول: إن ظاهرة زيارة الأربعين المباركة تمثل معاملاً أخلاقية ضخمة لإنتاج السلوك الإيثاري، ومختبرات عظيمة لفحص واختبار ودراسة السلوك الإنساني المتعلق بالبذل والتعاون وتقديم المساعدة إلى الآخرين.

من المؤكد بأننا نمتلك ثروة هائلة من النصوص الإسلامية التي تؤصل لهذه المسائل، وتشجّع عليها إلا أننا إزاء ممارسة تطبيقية خاصة، جذورها تتصل في عمق الثقافة الإسلامية، إلا أنها تحتفظ بطابعها الخاص وطرائقها المتميزة، لذا يتعين علينا مقاربتها مقارنة خاصة، وكما سلفت الإشارة بأنها منفردة من نوعها، ومدهشة في تفسيرها،

وغربية في دوافع أصحابها، ومبتكرة في أدواتها، ومتألقة في استمراريتها، والأرفع من كل ذلك، عفوية الأداء، ونبيل العطاء، والحماسة الحقيقية، والهوية الولائية، والأسطورة الوفاية، والروح التضامنية.

لهذا وذاك، فقد تخطى السلوك الإيثاري عند عشاق ممارسة زيارة الأربعين المباركة، ومن يعملون على إحيائها كل العقبات المذكورة، وفيما يلي مقارنة سريعة بين سلوكهم والتفسيرات التي قدّمها الباحثون الغربيون.

١٠٥.٣.٣ إثارية سلوك زيارة الأربعين المباركة والتفسير البيولوجي

ليس ثمة دوافع بيولوجية وراء سلوك عشاق ممارسة زيارة الأربعين المباركة تفرض تخصيص المساعدة ضمن عملية الانتقاء النسبي أو تقديم المساعدة بسبب توقع الحصول عليها عند الحاجة ليضمن الفرد استمرارية بقائه من خلال التبادل المنفعي، أو كما افترض احد الباحثين (Herbert Simom) بأن الناس مبرمجون وراثياً على تعلم القوانين الاجتماعية، ومن بينها الإيثار من اجل ضمان استمرارهم في الحياة، كما سلفت الإشارة إلى فرضيته، فالممارسون لأداء الزيارة، وخدمة زوار الحسين عليه السلام بخاصة يفارقون الأهل والأصدقاء أياماً ولياليًا، ويعمدون على تأجيل احتياجاتهم وأعمالهم ومنافعهم الذاتية، مؤثرين على أنفسهم شرائح من أعراق وأوطان متعددة، هذا فيما يخص الرد على عملية الانتقاء النسبي.

وأما ما يخص مبدأ التبادل المنفعي الذي يرسم لإسترجاع ما يقدمه الفرد من مساعدة سواء على المدى القريب أو البعيد، فهذا ملغى في ممارسة الأربعين بالمرة، لأن التعامل مع شرائح غربية، لا يُتوقع مقابلتها مرة أخرى، وفي الكثير من الأحيان - كما سجلنا ذلك عبر الملاحظة - لا ينظر المساعد الى وجه من يقدم له المساعدة، بسبب اهتمامه بعملية المساعدة حصراً.

وليس هناك قوانين اجتماعية، أو عملية جبر وراثية، يسعى الحسينيون الى تعلمها لكي يحافظوا على استمرارية وجودهم.

إن تأريخ ممارسة زيارة الأربعين المباركة يشهد بأن الزوار والمتطوعين لخدمتهم يعرضون أنفسهم للمخاطر في هذه الممارسة عبر مختلف الوجوه، وأوضحها مواقف الحكومات المناهضة لهذه الممارسة، لأنهم يعتقدون بانها تهدد كياناتهم ذلك لما تتضمنه من شعارات ثورية مناهضة للظلم والإستبداد ودعوات صريحة للتغير والحركة وتحمل المسؤولية الاجتماعية والعبادية...، وأما أعمال الإرهاب وما حصدته هجماته الإجرامية من أرواح زوار هذه الممارسة بالذات ومنذ ثلاث عشرة سنة، فليس بالمخفي على أدنى متابع. فأية محاولة استمرار في الحياة يعمل لها أصحاب هذه الممارسة التضحية، فيما لو أردنا تطبيقها عليهم؟

٢.٥.٣.٣ إثارية سلوك زيارة الأربعين المباركة ونظرية التبادل الاجتماعي

تؤكد نظرية التبادل الاجتماعي (الربح والخسارة) كما عرضنا سلفاً على أن الناس لا يقدمون على مساعدة الآخرين إلا في حالة اعتقادهم بأن الربح الذي يحصلون عليه من المساعدة المقدمة أكبر من التكلفة المبذولة، فالنظرية المذكورة لا تعتقد بوجود إثارة حقيقي يصدر عن شخص ما على حساب مصلحته الشخصية. مساعدة الآخرين تأتي فقط - في حالة توقعهم بالحصول على نفع أكبر من الجهد المبذول. أصحاب هذه النظرية يشككون بوجود إثارة خال من الشوائب يقدمه الناس دون أن تكون لهم مصلحة من ورائه.

هنا بالذات تبرز قيمة سلوك المساعدة عند زوار الحسين عليه السلام والمتطوعين لخدمتهم، للرد على منكري السلوك الإيثاري الخالص، فسلوك هذا الجمهور العريض دليل ناصع على وجوده، فهو سلوك إيثاري محض، لا يضع في حساباته مطلقاً مبادئ الربح

والخسارة، فكما اسلفنا أن الناس تتعامل مع أمواج من الممارسين الغرباء، ممن لا يعرف بعضهم البعض الآخر، وإن حجم الكلفة المبذولة، لا ينسجم البتة مع الربح المتوقع حتى لو تخيلنا وجود تطلع للتبادل المنفعي، حسب ما تقرره النظرية ذاتها. وأما ما أشارت إليه النظرية النفعية من أن النفع ربما يأخذ شكل التقدير الاجتماعي، فهذا حكم لا يستند إلى حقائق صريحة، لأن معرفة نوايا الناس ومقاصدهم الباطنية أمر غير متيسر للبشر، وقد ناقشنا هذا الجانب في الموضوعات المتقدمة، ونضيف هنا - بسبب أهمية هذا الجانب - أن هناك فرقاً بين من يتطلع إلى التقدير الاجتماعي، وبين من يحصل عليه نتيجة السلوك الإيجابي، دون أن يكون هدفه ذلك، بمعنى أن الآخرين ملزمون باستجابة التقدير حيال المحسن، ولا دخل للمحسن نفسه بفرض التقدير عليهم. يقول أحد النصوص الواردة عن الإمام الرضا عليه السلام «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْمَنَعَمَ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ» (المجلسي، ١٩٩٤: ٧١: ٤٤).

مضافاً إلى ما تقدم، فهناك الكثير من الممارسين في زيارة الأربعين المباركة، يقدمون المساعدة بنحو سري، والبعض الآخر يشدد على عدم ذكر اسمه من الحاصلين على مساعدته، وهذا لوحده برهان واضح على صفاء السلوك الاجتماعي الإيجابي الذي يصدر عن هذا الجمهور المبارك.

٣.٥.٣.٣ إثارية سلوك زيارة الأربعين المباركة وفرضية الإيثار والتعاطف

الفكرة القائلة بأن الإيثار لا يصدر عن الشخص إلا في حالة إحساسه بالتعاطف مع المحتاجين إلى المساعدة، وإذا لم يكن للتعاطف دور فيبرز التفكير بالربح والخسارة الاجتماعية، وعلى ضوء التقييم الذي يجريه الشخص للواقع يقدم المساعدة أو يمتنع عنها، فكرة لا تجد لها مكاناً في سلوك ممارسة زيارة الأربعين المباركة، لا بمعنى أن الممارسين غير متعاطفين مع بعضهم البعض الآخر، أو أن المساعدات المقدمة لا تحمل تعاطفاً، على

العكس، فالتعاطف أمر مفروغ منه بين جميع المشاركين، ولكنه ليس الدافع الأساسي على ممارسة المساعدة، فالمساعدة منطلقة بالدرجة الأولى من منطلق الإيمان بسلوك المساعدة، وبحب الخير والإحسان، وبخاصة عشق الممارسين لها لسيد الشهداء عليه السلام والمبادئ الإنسانية والإسلامية التي تجلت في شخصيته العظيمة. ثم إننا لا نجد ثمة مؤشراً يمكن الاستدلال فيه على صحة الفرضية أعلاه فيما يتعلق بقولها (وإذا لم يكن للتعاطف دور فيبرز التفكير بالربح والخسارة الاجتماعية) فالممارسة خالية من كل تفكير نفعي، والكل يعمل على البذل والتعاون ويتقبل الإرهاق وتعرض نفسه للخطر من أجل الآخرين الذين تضمهم الممارسة نفسها.

٤.٥.٣.٣ إثباتية سلوك زيارة الأربعين المباركة والاختلاف بين الجنسين

من الصعب تحديد فوارق كبيرة بين المرأة والرجل فيما يتعلق بالسلوك الإيثاري أثناء ممارسة زيارة الأربعين المباركة، فكلًا الجنسان يشتركان في بذل مختلف أشكال المساعدة، وكثيراً ما تتداخل الأدوار دون أن يחדش ذلك التداخل في حياء الممارسين، أو يتسبب ببعض المحاذير الشرعية، فقد شاهدنا الرجال تقوم بالطبخ والتنظيف - وهو ما تختص فيه النساء بالعادة في مجتمعاتنا الشرقية -، وشاهدنا النساء، تقدّم الطعام، وتعالج المرضى والمصابين، وتنقل المؤن لأصحاب المواكب، وتقف على الشارع طالبة من الزائرين النزول في بيوتهم لغرض تقديم الطعام وتهيئة الاستراحة لهم. والجدير بالذكر ان النساء المذكورات كنّ من كبار السن وكان أسلوبهن في غاية الحشمة والالتزام.

والخلاصة إن توفر السلوك الإيثاري من العنصر النسوي لا يقل عن نظيره الذكوري، وإنه لا يقتصر على نوع واحد من قبيل الرعاية أو غيرها من الأعمال التي كشفت عنها البحوث المختصة بالمسألة عينها، فقد شاركن أشقائهن الرجال في أغلب نشاطات السلوك الإيثاري.

٥.٥.٣.٣ إثارية سلوك زيارة الأربعين المباركة والاختلافات الثقافية

تمثل زيارة الأربعين المباركة مهرجاناً إنسانياً عظيماً للتلاقي الحضاري، والتعارف الثقافي الإيجابي، سواء أكان بين الحضارات والثقافات المتعددة أو حتى داخل الحضارة والثقافة الواحدة، مهرجاناً تنظمه الجماهير المؤمنة بنفسها، ولا تتدخل السياسة والانتماءات العرقية والفتوية في نشاطاته على الإطلاق، فهو من النشاطات المجردة من الشوائب الوصلية والمصلحية والاعتبارية التي لا تكاد أن تنزه عنها أغلب النشاطات الاجتماعية. وسوف نتطرق إلى هذا الموضوع بنحو مستقل في تضاعيف دراستنا هذه. بيد أن ما يهمننا الآن، هو توضيح بعض حقائق ممارسة زيارة الأربعين المباركة المتعلقة في السلوك الاجتماعي الإيجابي، للرد على الباحثين الغربيين الذين أكدوا على أن للثقافة الخاصة دوراً في تحديد تقديم المساعدة، وبخاصة الثقافات ذات الطبيعة الجمعية أو الاجتماعية شديدة الترابط، حيث تميل الناس لمساعدة أعضائها الخاصين مفضلة إياهم على الغرباء حسب زعمهم، ويبرز في هذا السياق المبدأ المعروف بـ(نحن) و(هم) (in-group out-group) بشكل واضح.

إن أغلب المشاركين في ممارسة زيارة الأربعين المباركة، هم من أصحاب الثقافة التي تصنف على أنها ثقافة جمعية شديدة الترابط بين أعضائها (collectivist cultures) فهم من الآسيويين، - وان كانت الزيارة تتضمن حضور مختلف الثقافات والشعوب العالمية - حيث يلاحظ بأن الناس، وبخاصة المتطوعين لخدمة الزائرين يسعون لتقديم المساعدة إلى الغرباء بالدرجة الأولى، ويتفانون في البذل والاستجابات الإنسانية الطيبة دون أن يلتفتوا إلى هوية الآخرين. ان حالة الانغلاق في ممارسة السلوك الاجتماعي الإيجابي منتفية في سلوك جمهور زيارة الأربعين المباركة، فالانفتاح على مساعدة الآخرين عند هذا الجمهور حالة تحتاج إلى مقارنة دراسية مستقلة، لما فيها من حقائق ومعطيات هامة،

وبما أن السياق قد وصل بنا الى هذه المسألة، فأحب أن أنقل ما ذكره لي أحد الإخوة المؤمنين من قصص السلوك الاجتماعي الإيجابي التي حدثت في العام الماضي، حيث شهد العراق أعلى نسبة من دخول الزائرين القاصدين المشاركة في زيارة الأربعين المباركة، وقد غاصت الشوارع والمدن فيهم، وبخاصة حينما توجهوا إلى زيارة الإمامين الجوادين عليهما السلام في مدينة الكاظمية، فلم تعهد هذه المدينة مثل هذا الزخم البشري، وكان الطقس بارداً جداً، والزوار يفتشون الأرض ويلتحفون السماء، فهب الغيارى من أبناء الكاظمية ومدينة الشعلة وغيرها من الأحياء المجاورة، لنجدة ضيوف سيد الشهداء عليه السلام، وكان من بينهم ابن أخت أخي المؤمن الذي أشرت إليه، فحمل إلى منزله مجموعة من الزائرين الإيرانيين، وقد استنفر أهله لخدمة الزائرين كعادة العراقيين المعروفة في تقديم الضيافة، وبعدما اخذوا قسطاً من الراحة، حاول أحد الزائرين أن يوصل إلى ذلك الشاب محاولة النظام البعثي الخبيثة في زرع الكراهية بين الشيعين الإيراني والعراقي عبر حربه الظالمة التي استمرت ثمان سنوات، فأجابه الشاب بابتسامة وتفهم عميق:

- لقد قُتل والدي في الحرب التي ذكرتها على يد الإيرانيين.

وهنا سيطرت الدهشة على الزائرين، وارتسمت على وجوههم ملامح الإحراج، فلم يعودوا يعرفون ماذا يقولون، وإذا بالشاب يستأنف حديثه مرة أخرى، لينفض ما علق في أذهانهم من ريبة، فيقول:

- ولكنني أتشرف بخدمة زوار الحسين عليه السلام ولا أحمل على الإيرانيين ذرة من البغضاء.

ولنا أن نتصور وقع هذه الكلمات السامية، وعظمة هذا السلوك على نفوس الضيوف الإيرانيين. فلا شك بأنها أثمن وأعظم من كل أنواع المساعدة. فهو سلوك لا يحطّم أطواق الإنغلاق الثقافي فحسب، بل ويتجه بالحب والإحسان نحو أقوام كان من المفترض أن يحمل عليهم مشاعر البغض والكراهية، لأن أباه قد قُتل بسبب الحرب التي كانت معهم، فأى عوامل هذه التي قد نجحت بصناعة التقارب والتعاطف بين الشعوب

والثقافات التي عاشت حقبة من العداء والتقاتل والكرهية؟ في الحقيقة إن هذا الموضوع وأمثاله الكثير بحاجة إلى مشاريع دراسية واسعة لدراسته واستخلاص النتائج العملية منه، ومن هنا نوجه الدعوة إلى أساتذة وطلبة الدراسات العليا إلى الاهتمام الدراسي بهذه الموضوعات الهامة عبر تقديم رسائل الماجستير والدكتوراه حولها، فلا زالت غير مدروسة ولا تحظى بالتوجيه رغم ضرورتها وحاجتنا إليها.

٦.٥.٣.٣ إثارية سلوك زيارة الأربعين المباركة والتأثيرات المزاجية

تخيم مشاعر السعادة والرضا والتمنين على ممارسة زيارة الأربعين المباركة بكل تفاصيلها ومفاصلها وأوقاتها ومواقيتها، حيث بمجرد أن يضع الممارس قدمه على طريق كربلاء حتى يحس بانقلاب سريع في جهازه الذهني والنفسي، فيتبدل مزاجه بنحو عجيب من سلب الى ايجاب، لكن هل أن التغيير المزاجي المتطرق اليه هو سبب تلك الملحمة المدهشة من السلوك الاجتماعي الإيجابي؟

الإجابة - قطعاً - كلا. فلا علاقة لهذا الأمر أبداً، بالرغم من عدم قيامنا ببحث ميداني للبرهنة على هذه الإجابة. ذلك أننا نعلم مسبقاً بأن أغلب مواكب تقديم المساعدة والخدمات كانت قد اعتزمت خوض غمار (الملحمة الأربعينية) قبل مدة زمنية طويلة تصل احياناً أسابيعاً وشهوراً، والكثير منهم يبدأ في العمل التحضيري بنحو فردي، وهذا ما يؤكد لنا عدم تأثير المزاج المعتدل المتولد عن أجواء المناسبة الإيجابية بالسلوك الإيثاري.

كما لا يمكن تصور فاعلية الفرضية النفعية الذاهبة الى ان المساعدة التي يقدمها الناس تعود عليهم بالنفع لأنها تطرد التوتر والحزن عنهم، ذلك أن الفرضية المذكورة تتحدث عن مشاعر الحزن المتأتية بسبب حزن بعض المقربين على الشخص المعني (الحزين او المتوتر) وفي حالة ممارسة زيارة لأربعين فالمساعدة تكاد أن تخلو من الحزن أو التوترات

الشخصية، مضافاً الى عدم وجود صلات شخصية بين الممارسين، يستجر حزن احدهم الحزن على الآخر، مما يتوجب عليه مساعدته ليزيح الحزن عن نفسه، فالكل يشعر بالسعادة، وحتى وقوع بعض الحوادث والإصابات المؤسفة، لا يزيد المشاركين إلا بالمزيد من الرضا.

وفيما يتعلق بالقول الداهب الى ان تقديم المساعدة يأتي للتعويض أو التكفير عن الذنب فقد سلفت الإشارة الى أن التصور الإسلامي يدعو للتكفير عن الذنب بشتى الوسائل، ومن أعظم وسائل التكفير عن الذنوب هو مساعدة القاصدين لزيارة سيد الشهداء عليه السلام مع التأكيد مرة أخرى على أن أغلب المساهمين في تقديم المساعدات الى زوار الحسين عليه السلام ينطلقون من دافع الحب لصاحب المناسبة عليه السلام والمساعدة لغرض المساعدة ذاتها لأنها من الخير والخير مطلوب لذاته، لا لشيء آخر، وهم لا يتخذون من هذه الممارسة الكريمة مناسبة للتكفير عن ذنوبهم أو تقصيرهم وفقاً لما أشارت اليه البحوث المذكورة سلفاً، مع تطلع الجميع الى غفران الذنوب ببركة زيارة سيد الشهداء، وهو تطلع موضوعي وعدت به العديد من النصوص الشرعية.

٧.٥.٣.٣ إيثارية سلوك زيارة الأربعين المباركة والعوامل الظرفية

يتلخص تأثير العوامل الظرفية - كما ذكرنا في البحوث السابقة - بجانبين هما تأثير نشأة الشخص بالريف أو المدينة، وتأثير المحفزات على انكفاء الفرد على نفسه. وهذان الجانبان لا يمكن تطبيقهما على ممارسة السلوك الإيثاري الذي تحتضنه زيارة الأربعين المباركة، لأننا نجد أن سكان المدن الكبرى والأرياف يتنافسون على تقديم الخدمات لزوار سيد الشهداء عليه السلام، وبما أن محطات الإستراحة غالباً ما تجد مكاناً لها بالقرب من المدن الكبرى، فالملاحظ أن سكان المدن الكبرى يُهرعون لتقديم المساعدات، ويتفننون في عرض السلوكيات الإيثارية بالنحو الذي سوف نتطرق اليه بالفصل المقبل.

وفيما يتعلق بـ (فرضية الإرهاق أو التحميل الحضري الزائد) أو (urban overload hypothesis) لـ ستانلي ملغرام الذاهبة إلى ان سكان المدن الكبرى لا يختلفون في ممارسة السلوك الاجتماعي الإيجابي عن سكان الأرياف، فهم مساعدون وإيثاريون تماماً مثل سكان الأرياف فيما لو تواجدوا في محيط هادئ ولا يحتوي على محفزات غزيرة كالتي هي عليه في المدن الكبرى، فإن هذه الفرضية تصطدم بالسلوك الاجتماعي الإيجابي لممارسة زيارة الأربعين المباركة لسبيين.

الأول: يتعلق بعدم وجود فارق بين أهل المدن الكبرى والأرياف بالنسبة إلى المشاركين في الممارسة عينها، فالكُل يعمل على مساعدة الآخرين كما المحنأ أعلاه.

الثاني: إن ظاهرة زيارة الأربعين المباركة تعج بالمحفزات والمثيرات، من أصوات المنشدين، وهتافات الزائرين، ودعوات أصحاب المواكب، وتدفق الوجوه، واللافتات، والرموز، والعناوين، فلا مكان للهدوء فيها، ومع ذلك فالسلوك الاجتماعي الإيجابي لا ينقطع على امتداد المكان والزمان لهذه الزيارة، مما يكشف عن بطلان الفرضية المذكورة.

٨.٥.٣.٣ إثارية سلوك زيارة الأربعين المباركة وأنموذج تأثير المتفرجين

تطرقنا إلى اهتمام علماء النفس الاجتماعي بالحوادث التي تحدث أمام أعين الناس دون أن تجد تفاعلاً من الحاضرين لتقديم المساعدة إليهم، وقد قاما اثنان من العلماء بدراسة الموضوع وتوصلا إلى الاعتقاد بأن العدد الكبير من المتفرجين أو الحاضرين أثناء تلك الحوادث هو الذي يحول من تقديم المساعدة (Latane & Darley, 1970). وقد قدّمنا أنموذجاً معرفياً للخطوات التي يمر بها الفرد حتى يقرر تقديم المساعدة أو لا يقدمها.

هذه الفرضية تصنف مع الفرضيات السابقة من حيث عدم إمكانية تطبيقها على جمهور زيارة الأربعين المباركة، ونشاطات السلوك الاجتماعي الإيجابي المتمخض عنه. فلا يمكن مقارنة كثرة المتفرجين أو المتواجدين من الممارسين لهذه الممارسة مع الحوادث

التي تحدث في المدن أو الأحياء المكتظة بالناس، ذلك أن ممارسة زيارة الأربعين المباركة تحتشد بالملايين من الناس، وبالرغم من كل هذه الحشود، فقد وجدنا مبادرة العشرات بل المئات من الناس لتقديم المساعدة حينما يقع حادث لأحد الزائرين. مما يشير إلى عدم مصداقية الفرضية المذكورة، فلا تأثير لكثرة المتواجدين على تلكاً الناس من تقديم المساعدة بسبب الكثرة المتسببة بإرماء المسؤولية على بعضهم البعض الآخر. وملاحظة سرعة نجدتهم للمصابين تتعارض هي الأخرى مع الخطوات المذكورة في أنموذج لاتانة و دارلي المشار إليه سلفاً، فالكل يهب لتقديم المساعدة عند سماعها، ويتنافس مع الآخرين عليها.

في نهاية هذا الفصل نهيب بالدارسين والمعنيين بقضايا السلوك الاجتماعي الإيجابي أن يولوا دراسة السلوك الإيثاري لممارسة زيارة الأربعين المباركة إهتماماً يليق بضخامته وفاعليته، وأن يعملوا على نشر معطياته إلى العالم، فقد اتضح لنا عبر المعالجات المتقدمة أصالة هذا السلوك الاجتماعي الإيجابي عند جمهور الزيارة المبارك، وقد أكدنا على المكاسب الإنسانية المترتبة عليه بشكل مفصل، ومن الضرر أن تبقى هذه الإمكانيات والطاقات الأخلاقية العظيمة مجهولة لدى الناس.

٤. العمل التطوعي

يحتل العمل التطوعي في البلدان المتطورة حيزاً كبيراً، ولا يقل الاهتمام بشؤونه عن الاهتمام بالعمل الرسمي، حيث تترتب على إسهامات المتطوعين مكاسب إقتصادية وإجتماعية وصحية ضخمة، وقد تمكنت تلك البلدان - عبر التوفر على منظمات متخصصة في القطاع ذاته - من توظيف تلك الجهود والطاقات بغية خدمة مجتمعاتها بل والمجتمعات الإنسانية بعامه، وقد ظفرت نتيجة التنظيم والدعم على تطوير العمل ذاته بنتائج أحدثت تغييرات حقيقية في عدة مجالات. ومن دراسة بعض مفاصل ممارسة زيارة الأربعين المباركة يمكن القول: أن العمل التطوعي يعد من أهم وأبرز المعطيات التي أفرزتها ممارسة زيارة الأربعين المباركة، وهذا ما يضيف الى الممارسة عينها قدراً عظيماً من التقدير والإكبار بسبب إسهاماتها الإنسانية والحضارية الجادة.

نحاول أن نشير الى أهم المجالات ذات العلاقة بمحور البحث عبر الموضوعات التالية:

١.٤ العمل التطوعي اقتصادياً

يلاحظ - حسب الدراسات المختصة في المجال ذاته - أن البلدان الغربية وبعض البلدان الاسيوية تتوفر على جيوش من العاملين المتطوعين الذين لا يتقاضون أجراً مقابل ما يقومون به، وبكافة الأصناف والمستويات، من مساعدة العجزة وكبار السن الى تقديم المحاضرات والإشراف على الدراسات العليا في الجامعات العالمية المشهورة. ولك أن تتصور مقدار المال الذي يدخل على المؤسسات المعنية بسبب مساهمة هؤلاء

المتطوعين، فلو أن هناك ألفاً من العاملين الذين يعملون عشرة أيام من السنة تطوعاً، في كل يوم خمسة ساعات، وكانت أجرة الساعة الرسمية - على أقل تقادير الأجور المدفوعة بالغرب - عشرة يورو (€ 10)، فإن مجموع ما يحصل عليه الألف عامل من المال مقابل هذا الوقت المتواضع هو خمسون ألف يورو (€ 50000). فما بالك لو كان عدد العاملين يبلغ مئة ألف أو مليون عامل، وبمقدار مئة ساعة أو مئتين ساعة في السنة، وأن أجر الساعة يصل إلى عشرين، أو ثلاثين أو حتى مئة يورو أو أكثر بالنسبة إلى أصحاب الاختصاصات الهامة، فإن المبالغ سوف تتجاوز عشرات الملايين. وكيف لو وصل عدد المتطوعين لأكثر من مليون متطوع وبمعدل مئتين ساعة لكل فرد في السنة؟!!!.

ولا يقف الأمر عند الجانب المالي وعائداته النقدية فحسب، فإن المنجزات الإنتاجية والعلمية والاجتماعية المترتبة على العمل التطوعي تتجاوز اقتصادياً الجانب المالي بمعدلات كبيرة جداً، ذلك أن الربح والنمو الاقتصادي لا يقاس فقط على العائدات المالية أو على استغناء العاملين عن مستحقاتهم المالية فحسب، بل تتدخل في تقييمه جوانب متعددة منها: الإنتاجية، التوفر على العمالة، زيادة الخبرات، رفع مستوى الحالة المعنوية أو الدوافع الذاتية للعمل، ولا ننسى أن الخسائر المادية الضخمة التي تسبب بها البطالة وفقدان العمل - كما سوف نتطرق إلى ذلك في الموضوعات الآتية - على صحة الأشخاص مما يدفعهم إلى العلاج ويعرضهم للإصابات المزمنة أمر ينبغي ملاحظته بجدية فائقة، يُضاف إلى ذلك أن ما يقدمه العمل - سواء أكان تطوعياً أم بأجر - يسهم في تخفيف الطلب على المساعدات الطبية ما يسهم بدوره من تقليل النفقات المادية بهذا القطاع (OECD, 2006)، وهي نفقات باهضة جداً، وتتسبب بأزمات كبيرة في القطاع الصحي وبخاصة في الجانبين المالي والمهني، ما ينعكس بدوره على تقديم الخدمات إلى المواطنين.

ومن الجدير بالإشارة الاستشهاد بما طرحه أحد أقطاب النهضة الإسلامية في القرن

المنصرم مالك بن نبي حول أهمية عنصر الوقت، وفاعلية توظيفه في بناء الحضارة الإسلامية والإنسانية، حيث طالب الطفل والمرأة والرجل بتخصيص نصف ساعة يومياً لأداء واجب معين، وعندما يتحول هذا الأداء الى ممارسة منتظمة، وبرنامج حياتي ثابت، «فسوف يكون لديه في نهاية العام حصيلة هائلة من ساعات العمل لمصلحة الحياة الإسلامية في جميع اشكالها العقلية والخلقية والفنية والاقتصادية والمنزلية» (بن نبي، ١٩٧٩).

إنها بالفعل لفكرة عظيمة أن يقتطع المسلم جزءاً من وقته ويهبه الى الصالح العام، بل قد لا يحتاج أن يقتطع شيئاً من وقته، فكل ما عليه هو أن يغترف بضعاً من الدقائق والساعات والأيام المهدورة من عمره دونما اية عمل أو هدف أو استثمار، ويسكبها في حقول المصالح الإسلامية والإنسانية. ولعلّ في التجربة الآتية التي ينقلها لنا بن نبي ما يدفع بقناعتنا الى التصديق بجدوى وفاعلية مثل هذه الأفكار التأسيسية والمشاريع التنموية العملاقة، حيث ذكر تجربة الشعب الألماني المشهورة في مجال العمل التطوعي، وهي تجربة جديرة بالقراءة والتطبيق. يقول: ولا بد لنا في خاتمة هذا الفصل أن نورد تجربة قريبة منا، وواقعة تحت أنظارنا، وهي أيضاً في متناول المقاييس العملية، هذه التجربة هي ما حدث في المانيا عقب الحرب العالمية الثانية، تلك الحرب التي خلّفت ورائها المانيا عام ١٩٤٥ قاعاً صفصفاً، حطمت فيها كل جهاز للإنتاج، ولم تبق لها من شيء تقيم على أساسه بناء نهضتها، وفوق ذلك فقد تركتها لتصرف شؤونها تحت احتلال أربع دول، فلما بدأ النشاط يسري في نفس الشعب الألماني في مستهل سنة ١٩٤٨، كان ساعئذ في نقطة الصفر من حيث المقومات الاقتصادية الموجودة لديه.

واليوم وبعد عشر سنوات تقريباً نرى معرض المانيا يفتح أبوابه بالقاهرة في شهر مارس ١٩٥٧ فتذهلنا المعجزة، إذ ينبعث شعب من الموت والدمار، وينشيء الصناعات الضخمة، التي شهدناها.

ولو أننا حللنا تلك المعجزة لوجدنا فيها عوامل شتى لا سبيل الى إنكارها، من بينها الاقتصاد في الجهاز الإداري، وفي التكاليف الإدارية، فقد أصبح كثير من أعمال الحكومة يقوم به أفراد الشعب كواجب عليهم، ولكن العامل المهم من هذه العوامل جميعها هو: الزمن.

فقد فرضت الحكومة عام ١٩٤٨ على الشعب الألماني كله نساءً وأطفالاً ورجالاً، التطوع يومياً ساعتين، يؤديها كل فرد زيادة على عمله اليومي وبالمجان، من أجل الصالح العام فقط.

ولقد سمي هذا التجنيد العام (Roboter Arbeit) وهو العمل للمصلحة العامة. فهذه المعجزة الاجتماعية التي أتت بها ألمانيا، قد كان للزمن في إخراجها حظ موفور، ويمكننا أن ندرك قيمة الوقت مباشرة في عودة الحياة الاجتماعية والاقتصادية لشعب لم يبق لديه من الوسائل إثر الحرب الثانية إلا العناصر الثلاثة: الإنسان، والتراب، والزمن (بن نبي، ١٩٧٩).

إن استيحاء مثل هذه التجارب الإنسانية الناجحة وتمثلها بغية التشجيع على تنمية السلوك التطوعي أمر بالغ الأهمية بالنسبة الى شعوبنا الإسلامية التي تعاني من التأخر في شتى المجالات، فالسلوك الحائم على الذات، والبحث الفاحش على النفع الشخصي لن يخلق نهضة، ولا يحقق استقلالاً من الإرتهان المقيت للإستكبار العالمي، وسوف يقضي شيئاً فشيئاً على أواصر التلاحم والانتماء للأمة وللوطن وللإنسان نفسه.

٢.٤ العمل التطوعي اجتماعياً

وأما من الناحية الاجتماعية فإن المكاسب تفوق نظيرتها المادية، حيث يساعد العمل التطوعي على تعزيز الشعور بالمسؤولية الاجتماعية، ونبذ السلوك اللابالي أو ما يدعى بالاغتراب داخل أسوار الوطن، ويعمل على تماسك المجتمع، وإشاعة روح التعاون

والتعاطف والإنسجام، والأهم من كل ذلك: تنمية الشعور بالآخر (الغيرية) أو ما يسمى بـ (الإيثار) حيث يصبح التحسس بالآخر هو الأساس بدلاً من التمرکز حول الذات والتفكير النفعي إلى درجة عدم الإسهام بأي عمل دون الحصول على جزاء حياله، وقد تطرقنا بالفصل السابق إلى بعض المسائل المتعلقة بالسلوك الإيثاري. وهذا ما من شأنه أن يعمل على تفكك المجتمع وإنهيار أواصر الانتماء الاجتماعي، وذلك أن الانتماء إلى مجموعة ما سواء أكانت صغيرة كالأُسرة، أو متوسطة مثل الجمعيات الخيرية والثقافية والأحزاب السياسية، أو كبيرة مثل الأمة أو المجتمع الإنساني يمنحك الإحساس بالمسؤولية تجاهه، مما يدعك تخرج من أسوار الذات وتنطلق إلى الخارج، فتصبح اللذة الذاتية الخالصة في إسعاد ومساعدة الآخرين، وليس الإشباع الشخصي. وبهذا يصل المجتمع إلى أعلى مستويات الإيجابية حيث يحتل التفكير بالمجتمع والمصلحة العامة المرتبة الأولى بدلاً من التفكير والاهتمام بالمصلحة الفردية.

ومن جانب آخر، فقد توصلت الدراسات المختصة بتأثير العمل على الحياة الاجتماعية للأشخاص الذين لا يمارسون أعمالاً إلى نتائج خطيرة للغاية، مما يتحتم على المعنيين التوقف عندها والاستفادة منها بغية تفادي حصولها في مجتمعاتنا الإسلامية، حيث أشارت الدراسات المهمة بعلاقة العمل على وظائف الفرد الاجتماعية وتفاعلها مع محيطه المباشر إلى أن عدم العمل يتسبب بالعنف الأسري والطلاق (Machers & Schofield, 1998) وازدراء الآخرين بالشخص الذي لا يمارس عملاً ما، لا فرق في ذلك بين العمل بأجر أو العمل التطوعي وفقاً للدراسات المعنية بهذه الجوانب، بمعنى أن الشخص الذي يقوم بعمل تطوعي يحظى بنفس الأهمية التي يوفرها العمل بأجر بالنسبة إلى تجنب الوقوع في الأعراض المذكورة. وهذا ما يمكن تصوره والإقناع فيه لأنه يكشف عن وقائع حقيقية، تحدث بنحو مستمر في الحياة الاجتماعية، وقد لامست شخصياً جانباً من هذه الوقائع في حياتي العملية، حيث كان وراء الكثير من حالات الطلاق، والمشاكل

الأسرية التي يتم فيها الإعتداء على الزوجة وعلى الأولاد هو فقدان الزوج للعمل، ومكثه في البيت لمدة طويلة دونما أداء شيء يعود عليه بالنفع المادي والمعنوي.

يُضاف الى ذلك جميعاً، أن ثمة برامج ومشاريع وخطط ضخمة ترعاها الدول الغربية لتشجيع العاطلين عن العمل بغية عودتهم الى العمل من جديد، تُدعى تلك المشاريع بـ (إعادة الإدماج) أو (reintegration programs)، تنفق البلدان المذكورة على تلك البرامج أموالاً طائلة ادراكاً منها بأهمية تلك البرامج وفائدتها الكبيرة على المجتمع بعامته، وقد أكّدت الدراسات المتعددة على أن الفوائد المادية المترتبة على تلك البرامج تفوق المصاريف المبذولة عليها أو ما يصطلح عليه بـ (التكاليف والفوائد) (the costs and benefits).

من هذه الدراسات الهامة دراسة أجريت في الولايات المتحدة الأميركية لمقارنة (التكاليف والفوائد) على برامج التأهيل المهني (vocational rehabilitation) فقد توصلت الدراسة نفسها إلى أن الفوائد المالية المترتبة على إعادة تأهيل العاملين وتشغيلهم تقدّر بضعفين ونصف ٢٥ على ما بذل عليها من أموال (Dean, Dolan & Schmidt 1999).

وأما الدراسة التي أجريت في المملكة البريطانية المتحدة، فقد توصلت الى أن حجم الفائدة يقدر بين ٢ إلى ٥ مرات مقابل ما بذل على البرامج من أموال (Greenberg & Davis, 2007) وهذا ما يشير إلى جدية المكاسب المترتبة على المشاريع التأهيلية ذات المنحى التطوعي.

وفي هذا الصدد تذكر الدراسات العديد من الحقائق التي تعود بالنفع على المجتمع بنحو عام، ربما أن الكثير من تلك الحقائق لا يمكن فهمها إلا في سياق الحياة الغربية، فهي شديدة الصلة بواقع الحياة الغربية وما حقته حكوماتها من إنجازات خدمية ورفاهية لمجتمعاتها، ومن هذه الحقائق ما يتعلق بنوعية الفوائد المترتبة على برامج إعادة العاطلين عن العمل أو الفاقدين للعمل من قبيل: تقليل نفقات المساعدات الاجتماعية، تخفيض أقساط التأمين، تخفيض الضرائب، ارتفاع الشعور بالعدالة الاجتماعية نتيجة

اتاحة فرص التساوي في العمل، وغير ذلك من مسائل تتعلق ببرنامج الحكومة ذاتها، وبأصحاب العمل والشركات والأفراد أنفسهم حيث يحصلون على الاستقلالية، والثقة، وتحسن المستوى الاقتصادي، والوضع النفسي، والصحي العام. والدراسات المشار إليها تؤكد على النفع المعنوي المترتب على مثل تلك المشاريع فهي لا تقل أهمية وإيجابية عن الفوائد المادية، وربما تفوقها نفعاً في الحسابات المستقبلية للمجتمع، إذ يكفي ما تحققه من سعادة لهذه الشريحة من المجتمع (Kok et al, 2006). وهي شريحة العاطلين عن العمل، وانعكاس السعادة ذاتها على عوائلهم بخاصة وعلى المجتمع بنحو عام.

٣.٤ العمل التطوعي صحياً

فيما يخص الصحة: فإن انعكاس العمل بنحو عام على الصحة - بفرعيها الجسمي والنفسي - أمر مفروغ منه ولا يحتاج الى الكثير من التوقف عنده، حيث تعتبر الحركة عاملاً مهماً للصحة الجسمية، والعمل أحد مصاديق الحركة، ومؤشر قوي على توفر الحيوية والنشاط، والتخلص من الخمول والكسل المسببان لجملة من الأمراض الجسمية وأهمها الترهل، وعدم التخلص من الطاقة الفائضة في الجسم كالدهون والأملاح والسكر... الخ ما يؤدي إلى انسداد الأوعية والشرابين، وإلى الأضرار وتعطل بعض الغدد الهامة عن أداء وظائفها.

وأما تأثير العمل على النشاط الذهني فهو من الأهمية بمكان، فالتفكير الذي يصاحب العمل وبمختلف مستوياته: تصور، تحليل، فحص، مقارنة، ربط، قرار، إبداع... الخ من شأنها أن تحافظ على حيوية الدماغ واستمرارية أداء وظائفه، ذلك أن الدماغ أشبه ما يكون بعضلة، تُصاب بالضمور نتيجة عدم استخدامها.

وفيما يخص الجانب النفسي فإن العمل يُعد من الأسباب الهامة للشعور بالقيمة الذاتية، والكل يخبر ما يعانیه الإنسان العاطل عن العمل من مشاكل نفسية خطيرة، حيث يفرز

عدم القيام بشيء نافع يعود على الفرد بنفع مادي أو معنوي شعوراً بالتفاهة والضعفة وعدم الجدارة، ما يتسبب في نكسة نفسية حادة جراء الإصابة بأمراض نفسية متعددة لعل (الكآبة) هي العنوان الأكبر الذي سوف تتجمع تحته أغلب الأمراض النفسية.

وفي الواقع هناك العديد من الدراسات الأكاديمية التي أجريت على تأثير البطالة على الصحة، وقد أظهرت الدراسات وجود علاقة قوية بين عدم العمل وتدهور الوضع الصحي بالنسبة إلى الأفراد الذين لا يمارسون العمل. إن فقدان العمل يتسبب في تدهور الحالة الصحية العامة، وإن البقاء بدون عمل لفترة طويلة يضاعف من سوء الحالة الصحية ذاتها، ولذلك يمكن الإستنتاج وفق المعطيات المذكورة أن الأشخاص الذين يعملون هم أفضل من الناحية الصحية من العاطلين عن العمل (de Koning, Collewet & Ligthem, 2008) بل أكثر من ذلك حيث أظهرت الدراسات أن العمل لا يؤثر فقط على صحة الأشخاص الذين يعملون أو لا يعملون فحسب إذ تصل تأثيراته السلبية على الصحة والرفاه الاجتماعي بالنسبة إلى الأشخاص الذين يعيشون في نفس بيئة الأشخاص العاطلين عن العمل وبخاصة الزوجة والأولاد (Machers & Schofield, 1998).

كما قد أشارت إحدى الدراسات إلى أن البطالة أو فقدان فرصة العمل يتسبب في مضاعفة نصيب الموت، تردي وضع الشخص العام، وتردي صحته النفسية (Wadden & Burton, 2006).

ولا يفوتنا التذكير بأن الدراسات تشير إلى أن العمل ينجز بعض وظائف العوامل النفسية والاجتماعية (psychosocial) فقد أظهرت الدراسات المختصة بدراسة تأثير العمل على الصحة والرفاه الاجتماعي بالنسبة إلى الأشخاص الذين لديهم حالات نفسية مزمنة إلى أن العمل هو أصلح إجراء لتحقيق واستكمال عدة وظائف نفسية واجتماعية (psychsocial) فالعمل يمنح الثقة بالنفس، التنظيم اليومي، والتواصل الاجتماعي (Goodwin & Kennedy, 2001).

لهذا بالذات تشجع الكثير من الحكومات والمؤسسات العالمية المواطنين على العمل التطوعي في حالة عدم الحصول أو عدم الانشغال بالعمل الرسمي بغية منح الجميع فرصة العمل من أجل تجنب التعرض الى الإصابة بأمراض الكآبة، الوحدة، الخوف، وغيرها من الحالات النفسية والاجتماعية المترتبة عليها. الى جانب الأمراض الجسدية (McKee-Ryan e.a. 2005; Machers & Schofield, 1998)، والكثير من الدول الغربية تقدّم مساعدات مالية - كما ألمحنا الى ذلك سلفاً - إلى أصحاب العمل الذين يستقبلون المتطوعين للعمل (العاطلين عن العمل) بغية تشجيعهم على تشغيل هذه الشريحة الاجتماعية الكبيرة، لكي تمنح مواطنيها أحد أهم الحقوق الإنسانية المتمثل بحق العمل أو ما يسمى بالمشاركة في الفرص والمساهمة (participation) والى دفعهم بنحو غير مباشر الى العودة الى العمل والمساهمة في المجتمع (de Koning, Collewet & Ligthem, 2008) من خلال ممارستهم للعمل التطوعي.

٤.٤ زيارة الأربعين المباركة والعمل التطوعي

تأسيساً على ما سلف نقول: إذا تسنى لنا معاينة ما يقوم به المؤمنون والمؤمنات العراقيون وغيرهم من جنسيات متعددة أثناء موسم زيارة الأربعين المباركة، لوقفنا حيال مشروع جماهيري لا نظير له في حقل الممارسة والتشجيع على العمل التطوعي، حيث يتوفر الموسم نفسه على مئات الآلاف من المتطوعين، يتوزعون على عشرات الآلاف من الفرق والهيئات الميدانية أو ما يصطلح عليه في ثقافة الزيارة بـ (المواكب) على كافة الطرق المؤدية إلى كربلاء، ومن بدايات الحدود العراقية، وبخاصة الطريق الطويل الذي يربط بين محافظات جنوب العراق وبين كربلاء المقدسة والذي أحب أن أنعته بـ (طريق النخوة العراقية) حيث تظهر على هذا الطريق كل أشكال الأصالة والمروءة والقيم العراقية الكريمة التي تلخصها مفردة (النخوة العراقية).

وبالعودة الى متابعة الموضوع نقول: ينبغي الاعتراف بعدم إمكانية - عبر هذه الأسطر السريعة - إحصاء ما يقوم به المتطوعون أنفسهم من نشاطات، كما لا يمكننا إحصاء ما يبذلونه من وقت، ومن جهود، ومن أموال، حيث تتطلب مثل هذه العملية الإحصائية التأسيس لدائرة إحصائية متخصصة بل لأكثر من دائرة إحصائية.... نظراً لضخامة حجم الظاهرة وتشعب أنشطتها وأدواتها وازدياد عناصر المشاركين فيها خدمةً وممارسةً... ففي كل عام تشترك عناصر جديدة لإحياء الممارسة ذاتها، وفي كل عام تتجدد أنشطة وأشياء وأشكال مختلفة، وفي كل عام نكتشف أنواعاً من الأنشطة التطوعية التي يبتكرها المؤمنون والمؤمنات دون أن نعلم بها مسبقاً، فعلى سبيل المثال: لقد إشتراكنا في المشي مع بعض الزوار الأجانب القادمين من البلدان الغربية، وأحبوا في ليلة عودتهم - والتي كانت قبل إنتهاء المراسيم بأيام - أن يمشوا على طريق كربلاء من جديد ولو لبعض الفراسخ، وذلك لتعلقهم ومحبتهم ومعرفتهم بقيمة هذه الممارسة.... فلبينا رغبتهم ومشينا ابتداءً من مدينة النجف الأشرف، وكانت حركتنا قرب المغرب، فتفاجئنا بالعديد من الرجال والنساء وهم يعترضون طريق المشاة، طالبين منهم الذهاب معهم الى منازلهم ليستريحوا ويستحموا ويأكلوا ويناموا ثم يعيدونهم في سياراتهم الى الأماكن التي توقفوا عندها ليستأنفوا رحلتهم الى كربلاء المقدسة... والمذهل في الأمر أنهم كانوا يتوسلون بحرقة وجدية تحجل المقابل من رفض طلبهم. المرأة تطلب من المرأة والرجل يمسك بيد الرجل يناشدونهم بالله النزول عندهم ليتشرفوا بخدمتهم... فسلتني - حينها - إحدى الأخوات الهولنديات أن أترجم لها ما تريده منها إحدى المتطوعات، ممن قدمن لإصطحاب الزوار الى منازلهم، فشرحت لها الأمر، وقبل أن أنتهي من الكلام شاهدت دموع المرأة الهولندية تنهمر بغزارة، وقد انفعلت انفعالاً عاطفياً شديداً، وأمتزج انفعالها بإبتسامة بريئة أطلقتها في وجه تلك المرأة العراقية المتوسلة بها، فإغتنمت الفرصة وطلت الزائرة الهولندية:

ماذا تقولين بهذا المشهد؟

فأجابت على الفور - وكانت امرأة كبيرة بالسن ولديها خبرة في الحياة والثقافات... :-
لم أشاهد ولن أشاهد مثل هذا المشهد المفعم بالطيبة والسخاء وصدق المشاعر في حياتي.
وكانت تتمنى أن تحضر كل عام للمشاركة في ممارسة زيارة الأربعين المباركة، فقد
أوضحت لي بأنها لم تنعم براحة روحية وسعادة نفسية نظير ما حظيت به على طريق
كربلاء.

والجدير بالذكر في السياق ذاته، فقد نقل لي أحد المؤمنين ممن شاهدوا ما يصنعه هؤلاء
المتطوعون حينما يأخذون الزوار الى بيوتهم، والحكايات أصبحت بالرغم من أسطوريتها
الكبيرة مألوفة بالنسبة الى متابعين ممارسة خدام زوار الأربعين، حيث يقدمون لهم ملابساً
جديدة هدية لهم، ويقومون بغسل ملابسهم، ويضعون لهم موائد عامرة بالطعام،
ويضيفوا أرصدة لهواتفهم النقالة، والسهر على راحتهم الى درجة لا يجدوها في أرقى
الفنادق العالمية، ولا عند مشاهير أصحاب الكرم والضيافة.

في الواقع، إن الدارس يحير فيما يذكر ويسجل من أعمال تطوعية لهذه الأمة من الناس
حتى إن بعض المتطوعين يتفننون في أعمالهم الى درجة الإبداع، وإن كانت بعض الأعمال
العفوية ما يشدني إليها أكثر، وذلك لصفاء وإخلاص طبيعتها وعدم تكلفها، فلقد
شاهدت على الطريق إسكافياً جالساً بالعراء يخيط أحذية المشاة (الزائرين) مجاناً، ووجهه
يتهلل فرحاً بما يقوم به، وكانت هذه حالته طيلة موسم الزيارة، فلم أتمالك نفسي من
التأثر والبكاء لذلك المشهد الإنساني العظيم.

ولقد شاهدت رجلاً يدفع بكرسي متحرك، كانت تجلس عليه امرأة بدى لي أنها عاجزة
عن المشي، وفي أثناء المشي وصل إلى رجل كان يقدم كاسات من اللبن للزوار، فأخذ
الرجل كأساً منه، وقد أرتبك نوعاً ما بسبب انشغاله بالكأس ودفع الكرسي المتحرك،
وإذا بشاب يأتي صوب ذلك الرجل لياشر دفع الكرسي بكل عفوية، طالباً منه أن يشرب

على مهله، وكنت أرصد ملامح ذلك الشاب من زاوية نفسية فلاحظت الإنسيابية والطبيعية والتجرد من التكلف والتصنع والتمثيل. ليس هذا فحسب، فهناك الكثير من القول حول هذا المشهد المترشح بالمعاني الإنسانية، وربما يجد البعض أن مشاهدة مثل هذه السلوكيات في ممارسة زيارة الأربعين المباركة أشياء مألوفة، بيد أنها تثير بدلالات مكثفة الغنى والاعتبار، فإن سلوك ذلك الشاب ينم عن إحساس فوق مستوى الرهافة، وذوق رفيع، وأريحية أخاذة، وتضامن إلى أدق التفاصيل. إنها حالة مثالية منصهرة بالمثل والقيم والأخلاق الفاضلة.

نحن إزاء ثروة بشرية هائلة من الناشطين في حقول العمل التطوعي رجالاً ونساءً وأطفالاً وحتى المعاقين، يقدمون إسهامات لا تقوى دولة على تقديمها، إسهامات بمختلف المجالات وبشتى المستويات بدءاً بالضيافة، ومروراً بالحماية والرعاية، وانتهاءً بالثقيف والترشيد، مع تفاصيل لا حصر لها من تقديم الخدمات والتحضيرات والأعمال اللوجستية المعقدة.

والشيء الملفت، أن هذه المناسبة تتيح فرصة العمل للآلاف من الناس سواء أكانوا أصحاب أعمال أو ممن لا يملكون أعمالاً، وتعمل على خلق فرص عمل لهم خارج إطار المناسبة. إلى جانب توفرها على ورشة عمل واسعة لتعليم العديد من المهارات الاجتماعية والمهنية، كما أنها تشكل مصدراً مهماً من مصادر توليد السعادة وشعور الرضا والثقة بالنفس.

وأما المكاسب المالية فالحديث عنها طويل جداً، حيث تتحرك السوق العراقي بل وأسواق الدول المجاورة في موسم الزيارة تحركاً لا نظير له طوال العام، وينتفع المجتمع بعمامة من الأعمال التي تبذل في الموسم ذاته، والموسم نفسه - كما سوف نتوقف عند ذلك في تضاعيف الدراسة يشكل أحد أهم مصادر السياحة الدينية في المنطقة عامة.

٥.٤ مقارنة العمل التطوعي بين خدام الحسين عليه السلام وغيرهم

إن أهم ما يمكن تسجيله من ملاحظات في إطار المقارنة بين العمل التطوعي الذي يقوم به المؤمنون أثناء موسم زيارة الأربعين المباركة، وبين غيرهم من المتطوعين هو:

١.٥.٤ الدوافع الذاتية

إن عمل هؤلاء المؤمنين صادر عن دوافع ذاتية خالصة دون أن تكون هناك يدٌ للمحفزات الخارجية، وأعني بها تشجيع المؤسسات سواء أكانت حكومية أم مؤسسات المجتمع المدني المتخصصة بالشأن ذاته. علماً بأن العمل التطوعي في أغلب بلدان العالم لا يتجرد كلياً عن المكافآت المادية والمعنوية، حيث تدفع العديد من المؤسسات أجوراً بسيطة لتسديد نفقات النقل بالنسبة إلى المتطوعين الذين تبعد سكناهم عن أماكن العمل. والحق يقال أن البعض لا يأخذ هذه الأجور. كما تضاف الأعمال التي يقومون بها إلى الخبرات العملية التي يجيدها الفرد، مما يمنح سيرتهم العملية أو الذاتية (C V) نوعاً من الاعتبار وتأخذ بجدية في تقييم المتقدم إلى العمل، وفي الكثير من الحالات يكون العمل التطوعي مقدمة للحصول على عمل بأجر، فالكثير من المتطوعين المتميزين في أدائهم يتم تعيينهم وابقائهم في نفس الأعمال التي كانوا يعملون فيها تطوعاً. وغير ذلك من أمور من قبيل: منح المؤسسات الحكومية المساعدات الاجتماعية (رواتباً شهرية) إلى العاطلين عن العمل مقابل المساهمة في الأعمال التطوعية، وفي بعض الدول الغربية تمنح الحكومات مساعدات مالية وإعفاءات ضريبية لأصحاب العمل (شركات، مصانع، متاجر أو محلات فردية صغيرة) لمن يوظف أو يقبل بتشغيل المتطوعين. بينما تكاد تتمحض أعمال المتطوعين أيام موسم زيارة الأربعين المباركة لله - سبحانه وتعالى - من خلال حبهم المقدس لسيد الشهداء عليه السلام ولزواره، فلكل يتنافس على بذل أقصى الجهد من أجل

الحب المذكور، والهدف الحقيقي الكامن في تعلقهم بهذا الحب والعمل هو نيل رضا الله تعالى، فليس هناك مكافآت، ولا شهادات تقديرية، ولا نوايا ضمنية، ولا إعفاءات من بعض الواجبات التي تحفز المتطوعين على خدمة زوار سيد الشهداء عليه السلام غير الاعتبارات الأخرى المذكورة أعلاه.

٢.٥.٤ حرية اختيار العمل التطوعي

تقوم بعض المنظمات والمؤسسات في بعض الدول الغربية، وبخاصة في الولايات المتحدة الأميركية على إلزام أتباعها بالعمل التطوعي، حيث تفرض المدارس المتوسطة، الجامعات، والشركات الطلبة والعاملين المنتمين إليها أن يقدموا شيئاً للمجتمع تطوعاً، ولا تقبل أحداً يعمل معها إلا بعد الموافقة على الطلب المذكور (Aronson et al, 2007).

يعتقد أصحاب هذه الرؤية بأن الغرض من البرامج المخطط إليها في حقل فرض العمل التطوعي على أفرادها هو التشجيع على العمل التطوعي، حيث سوف يعزز من دفع المتطوعين للاستمرار في تقديم المساعدة حتى لو غادروا تلك المنظمات والمؤسسات التي يعملون فيها، فمن خلال فرضها العمل التطوعي على أفرادها، وذلك عبر توجيههم للعمل بعضاً من الوقت لصالح بعض الفئات والمؤسسات من قبيل: الملاجيء المخصصة لمن لا مأوى لهم، المصحات الطبية، ومراكز الرعاية النهارية، سوف تزداد احتمالية ممارستهم للعمل التطوعي في المستقبل. والسبب - حسب نفس الرؤية أعلاه - إن حمل الناس على ممارسة الأعمال التطوعية ولو لبعض الوقت كفيل بالتشجيع على ممارسة العمل التطوعي ذاته، لأننا سوف نجعل من الناس يلمسون فوائد هذه الأعمال الإيجابية بنحو عملي.

بيد أن معطيات علم النفس تتعارض مع الطموحات المرتقبة لرؤية المؤسسات المشار إليها، حيث تفترض المعطيات النفسية في حقل دراسة الدوافع الإنسانية بأن تقديم بعض

المحفزات الخارجية لممارسة أحد النشاطات، سوف يؤدي الى إضعاف الاهتمام الداخلي بها.

ومن الجدير الإشارة الى أن المعنيين في حقل دراسة الدوافع الإنسانية يصنفونها إلى نوعين: الدوافع الداخلية، والدوافع الخارجية (Zimbardo, Johnson & Weber, 2008).

الدوافع الداخلية: هي التي تنطلق من داخل الفرد، من إيمانه بإيجابية وظرافة العمل الذي يسعى للقيام فيه، دون أن تكون ثمة محفزات خارجية مثل من يقدم المساعدة لأنه مؤمن بعمل المساعدة ذاته، وليس من أجل أن يحصل على تقدير من الناس أو مكافأة من أحد، ولهم في توضيح ذلك مثال مستمد من الحياة الغربية، حيث يضربون مثلاً على الدوافع الداخلية بمن يحب ممارسة كرة القدم لأنه يحب هذه الرياضة، لا لأنه يريد أن ينال الفوز من خلال اللعب، بل الدافع هو حبه للرياضة نفسها، وليس للسعي على تحقيق التغلب، بمعنى آخر إن الفوز أو عدمه لا يقف وراء ممارسته لهذه الرياضة.

وأما الحوافز الخارجية: فهي عكس الدوافع الداخلية، حيث أن الإندفاع إلى العمل لا يأتي من قناعة الفرد بقيمة العمل، وإنما يأتي نتيجة السعي للحوافز التي تترتب على القيام بالعمل، ففي المثال المتقدم يكون السعي إلى الفوز هو الدافع، وليس حب الرياضة لذاتها، أو بسبب الإكراه كما في الحالة التي نحن بصدد دراستها. ولا شك أن الحوافز الداخلية هي الأشد فاعلية، والأكثر ضماناً باستمرارية الممارسة، حيث يعتبر ارتفاع الأسباب التي تدفع للقيام بعمل ما سبب في التوقف عن ممارستها، على العكس من الإنطلاق من الدوافع الداخلية.

لهذا بالذات فقد توصل الباحثون الى أن: كلما كان شعور الأفراد شديداً بأن ما يقومون فيه من عمل تطوعي متأني عن الواجبات الخارجية، كلما كان توقع ممارسة أعمالهم للأعمال التطوعية في المستقبل ضعيفاً (Batson, Coke, Janoski, & Hanson, 1978; Kunda & Schwartz, 1983; Stukas, Snyder & Clary, 1999).

النصيحة التي يقدمها المعنيون الى هذه المنظمات والمؤسسات بهذا السياق تتحدد في أخذ الحيلة التامة بفرض الأعمال التطوعية، فكما ألمحنا - قبل قليل - الى أن الناس إذا شعرت بان ما تقوم فيه من أعمال هو بسبب الواجب المفروض عليها، سوف تقل ممارستها في المستقبل لهذه الأعمال.

إعمل على تشجيع الناس على فعل العمل التطوعي، وبنفس الوقت أمنحهم الشعور بأنهم يمتلكون حرية الاختيار في ممارسة العمل التطوعي أو رفضه، فقد أظهرت إحدى الدراسات بأن هذه الطريقة ذات تأثير ايجابي على نوايا الناس في ممارسة العمل التطوعي مرة أخرى (Stukas et al, 1999).

من جديد نعود للتأكيد على أن عمل المتطوعين في زيارة الأربعين المباركة يستمد حوافزه من الدوافع الذاتية، من إيمان عشاق الحسين عليه السلام بقيمة العمل لذاته، لا لشيء مفروض عليهم أو لأسباب خارجية توجبها المصالح الوقتية. لذلك وجدنا أن مواصلة هؤلاء المتطوعين لأداء أعمالهم التطوعية، وعدم إنقطاعهم عنها في أصعب الظروف التي مرت على أتباع أهل البيت عليهم السلام في العراق تكمن في دوافعهم الذاتية الحقيقية، وهذه من المكاسب المعنوية الثمينة التي تتمتع بها ممارسة زيارة الأربعين المباركة.

٣-٥-٤ التنافس الرسالي

تشهد خارطة الاجتماع الإنساني صراعات على كافة الأصعدة والمستويات - قديماً وحديثاً - ليس بين أسرة دولية وأخرى، بل وحتى في داخل الأسرة الواحدة، وليس أشكال تلك الصراعات هو العنف والسلاح كما هو مألوف في الحروب الداخلية والخارجية فحسب، بل الصراعات الحزبية والطبقية والدينية من خلال الادبيات المقروءة والمسموعة هو الأكثر حضوراً، وتمتد الصراعات لتشمل الأندية الثقافية، والرياضية، والعلمية، والحقل الاقتصادي من صغار التجار وكبارها، حتى شهدنا في

الغرب قبل عشر سنوات - ولازلنا نشهد - ما يعرف بحرب الأسعار، وهي حرب تجري في إطار تخفيض الأسعار بين الأسواق والمتاجر بغية كسب المستهلك. وأحياناً تدور الصراعات بين أكثر النشاطات الاجتماعية إيجابية من قبيل مؤسسات المجتمع المدني التي تسعى لتقديم المساعدات الاجتماعية، وبالرغم من أن ثمة جهود توعوية كبيرة لتثقيف العاملين بمختلف القطاعات المذكورة، لإستبدال مفهوم الصراع بمفهوم التنافس، وإخضاع عملية التنافس للشروط الشريفة إلا أن الواقع يشهد عكس ذلك، فلا زالت المقولة الاجتماعية المشهورة تفرض هيمنتها «عَدُوُّ الْمَرْءِ مَنْ يَعْمَلُ بِعَمَلِهِ» مع تحفظنا على مضمونها المتقاطع مع مبدأ السلمية وقيم التعاون التي يؤكد عليها الإسلام، حيث يتصارع الجميع من أجل إنجاح مشروعه على حساب الآخرين، الأمر الذي يتسبب في زيادة رقعة الكراهية والتوتر والهدر للجهود بين الناس.

من هنا تبرز قيمة اعتبارية أخرى لخدام الحسين عليه السلام على سواهم في ممارسة خدمة زيارة الأربعين المباركة، فبالرغم من كثرة الهيئات (المواكب) واختلاف توجهاتها وانتماءاتها العرقية والقبلية والدينية والمذهبية والثقافية إلا ان السمة الغالبة عليهم هي التآلف، والتعاون ونكران الذات، فلا تحصل صراعات فيما بينهم بالمرة، بل هناك حالة تسود أعمالهم اشبه ما تكون بروح الفريق الواحد، وهناك نوع من التنافس الشديد بينهم في تقديم الخدمات، وكسب محبة الزائرين، ونجاح العمل، لكنه تنافس شريف، وضمن الأطر المقبولة، والسبب بكل بساطة يتحدد في وضوح الهدف، ووحدة الرسالة، وهي خدمة زوار سيد الشهداء عليه السلام وإنجاح ممارسة الزيارة للوصول الى مرضاة الله عبر هذه الوسيلة الإيمانية. وهذا اللون من التنافس يعد من أشرف وأطهر وانصع ألوان التنافس على الإطلاق لأنه مصداق لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْحَيَاتِ﴾ (البقرة: ١٤٨).

٤.٥.٤ الحالة التعبوية

الجانب الأشد نصوعاً - فيما تقدم من مقارنات - هو الحالة التعبوية العالية للمتطوعين، إلى درجة الإستفاضة والزيادة على تلبية الحاجة من المتطوعين لتقديم الأعمال، على العكس من حالة المؤسسات التطوعية الأخرى التي تشكو من النقص وانخفاض الدوافع بالنسبة إلى المتطوعين، وكلنا يعلم أن المسؤولين على الأعمال التطوعية في موسم زيارة الأربعين المباركة لا يندرجون ضمن مؤسسات منظمة، ولا ينفقون مبالغاً وجهوداً من أجل ترغيب المتطوعين وتحفيزهم للأنخراط في برامج خدمة الزائرين، بل لا تعثر على إعلان واحد يشير إلى طلب المتطوعين أو الحاجة اليهم. وهذا وحده ما يدعو للدهشة والدراسة الجادة، حيث أن معرفة أسباب هذا الإستقطاب الجماهيري دراسياً وعلمياً يقودنا للاستفادة منها في مشاريع أخرى تعود بالفائدة على المجتمع بعامه.

لذلك جميعاً، لا بدّ من الوقوف قليلاً لرفع تحية إجلال وتثمين وتكريم لهؤلاء العاملين الأخيار والى ما يقدمونه سنوياً من إسهامات تستحق الإشادة الدولية، فهم من مفاخر الإنسانية، ذلك ان عملهم منطلق من صميم الأعمال الإنسانية الخالصة ويصب في صالح الإنسان، كما يتعين علينا الاستفادة من خبراتهم ومعنوياتهم وعطاءاتهم المباركة، فهم من أروع الأمثلة التي ينبغي أن يحتذى بها في مجالات العمل التطوعي، وبرامج التدريب على أخلاقية الإيثار والشعور بالآخر، وخاصة طرائقهم المتفوقة في استقطاب وتعبئة وتنظيم العاملين، وتوظيف طاقاتهم ضمن فريق عمل مشترك مع الاختلاف الكبير في الأعمار، الجنس، العرق، التحصيل العلمي، والمواقع الاجتماعية.

٦.٤ طموحنا في العمل التطوعي

كلّنا أمل في استمرار جذوة العمل التطوعي بالتوقّد خارج أيام ممارسة الزيارة الأربعينية المباركة، ليمتد نورها الى مجالات اجتماعية نحن بأمس الحاجة اليها، فما أعظم درجة النفع لو قدّر لهذا السيل من الطاقات العاملة بالتدفق والعطاء خارج إطار وسقف الموسم الأربعيني المبارك؟ من المؤكّد سوف نكون قد حققنا منجزات كبيرة لخدمة مجتمعاتنا وقضايا ديننا الإسلامي الحنيف. فعلى سبيل المثال: لو أن كل شخص من المتطوعين لخدمة الزوار - ولا أقول الزوار أنفسهم - يخصص يوماً من أيام السنة للأعمال التطوعية سواء كان يتبرع بأجرة عمله أو يذهب لإحدى المؤسسات من أجل تقديم العمل التطوعي... لكنّا قد حصلنا على قرابة المئة ألف يوم من الأعمال التطوعية حيث يقدر عدد المتطوعين لخدمة الزيارة الأربعينية بأكثر من مئة ألف عامل. علماً بأن ثمة مجالات بأشد الحاجة الى المساعدة بنحو جماهيري نظير نزول خدام الحسين أيام الزيارة الأربعينية أو بكلمة أخرى: نحن بحاجة الحماسة الثورية التي يتوفر عليها أحباب الحسين وخدام زيارته المباركة لمعالجة جملة من المجالات الاجتماعية التي تعاني منها بلداننا بعد أن فقدت الثقة بمعالجة حكوماتها لها.

وأما لو أستطعنا إقناع جميع جمهور الزيارة بضرورة العمل التطوعي خارج إطار موسم ممارستها انسجاماً مع رسالتها ومبادئ صاحبها عليه السلام الذي قدّم نفسه وأهل بيته وخيرة أنصاره من أجل مصلحة الأمة العليا، فأننا لاشك سوف نكون من أعز وأمنع وأغنى مجتمعات العالم، ذلك لما ينطوي عليه جمهور الزيارة المبارك من جدية وعزم وإخلاص، وتنوع في المواهب والقدرات، وزخم هائل من الإمكانيات والاعتبارات. وهذا هو الطموح الذي ينبغي أن نعمل عليه للإفادة الصحيحة من معطيات وبركات الزيارة الأربعينية الكريمة، وقد بدأت - بالفعل - بعض ثمار الطموح المذكور بالأيناع،

وذلك من خلال المشاركة المصيرية والتأريخية لجمهور الزيارة في تكوين ودعم الحشد الشعبي الذي استجاب لفتوى المرجعية المقدسة في تصديه لقوى الشر من جميع أنحاء العالم، وهذا ما سوف تكون لنا معه وقفة خاصة في تضاعيف دراستنا، فقد افردنا له فصلاً خاصاً.



٥- الإحساس العبادي الطويل

ينطوي العنوان أعلاه على بعض من الموضوعات الهامة في بناء الشخصية المؤمنة روحياً ومعرفياً، نعرض لها عبر العناوين التالية:

١.٥ زيارة الأربعين المباركة والإحساس العبادي الطويل

تتيح ممارسة زيارة الأربعين المباركة فرصة الشعور العبادي المتواصل، مثلها مثل ممارسة الحج أو الصيام حيث تنتظم هذه الممارسات ضمن شوط عبادي طويل، تتآزر نشاطاتها المكثفة فيما بينها لتمنح الممارس وعياً وإحساساً وتفاعلاً عبادياً مستمراً، فالمتوجه الى زيارة سيد الشهداء عليه السلام مشياً يشعر بالحضور القلبي والعقلي، ويعيش حالة من الوعي المستمر لما يقوم فيه، حيث تعهدت له النصوص الشرعية بأنه يُثاب على كل خطوة يخطوها في طريقه الى أبي عبد الله الحسين عليه السلام. ولهذا تجد أن الجميع يحث الخطى دون كلل أو تعب للإستزادة من إقتطاف الأجر الذي أشارت اليه النصوص الخاصة بزيارته عليه السلام مشياً، ومن هذه النصوص رواية أبي الصامت، قال: «سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول:

مَنْ أَتَى قَبْرَ الْحُسَيْنِ عليه السلام مَاشِياً كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ، وَحَا عَنْهُ أَلْفَ سَيِّئَةٍ، وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ دَرَجَةٍ» (ابن قولويه، ١٣٥٦هـ: ١٣٣).

وفي رواية أخرى عن علي بن ميمون الصائغ، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «يا علي، زُرِ الْحُسَيْنَ وَلَا تَدَعُهُ.

قال: قلت: ما لمن أتاه من الثواب؟

قال: مَنْ أَتَاهُ مَا شِئَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ حَسَنَةٍ، وَحَى عَنْهُ سَيِّئَةٌ، وَرَفَعَ لَهُ دَرَجَةً» (ابن قولويه، ١٣٥٦هـ: ١٢٤).

وعن الحسين بن ثوير بن أبي فاخته، قال «قال: أبو عبد عبد الله عليه السلام يا حسين مَنْ خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ يَرِيدُ زِيَارَةَ قَبْرِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا إِنْ كَانَ مَا شِئَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ يَكُلُّ خُطْوَةً حَسَنَةً وَحَى عَنْهُ سَيِّئَةٌ حَتَّى إِذَا صَارَ فِي الْحَايِرِ كَتَبَهُ اللَّهُ مِنَ الْمَصْلُحِينَ الْمُتَجَبِّينَ حَتَّى إِذَا قَضَى مَنَاسِكَه كَتَبَهُ اللَّهُ مِنَ الْفَائِزِينَ حَتَّى إِذَا أَرَادَ الْإِنْصِرَافَ أَتَاهُ مَلَكٌ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرُنُكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ لَكَ: إِسْتَأْنِفَ الْعَمَلَ، فَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا مَضَى» (ابن قولويه، ١٣٥٦هـ: ١٣٢).

وقبل أن ندخل في تحليل الروايات المذكورة وربطها في الموضوع نفسه، ينبغي الإشارة إلى أن الإسلام يسعى إلى رفع مستوى الوعي العبادي لدى أتباعه - عبر حزمة من الممارسات - إلى درجة الوصول إلى حالة الحضور المتواصل مع الله سبحانه وتعالى، واجتناب التعرض إلى الغفلة والغياب عنه سبحانه وتعالى، مما يحول وجود الفرد المؤمن إلى حالة من التفاعل والانفتاح والتسامي المستمرة مع عالم السماء الذي لا حدود لمداياته وتجلياته... إنها رحلة نحو آفاق القرب في تصاعد وعروج لا تصل عند محطة حتى تستأنف التحليق صوب محطة جديدة... وهذا يبلغ الإنسان تحقيق شروط العبودية لله تعالى وأداء وظيفته العبادية التي خلق من أجلها، متحرراً - في نفس الوقت - من كل القيود الدنيوية التي تعيق انطلاقه نحو خالقه...

لهذا بالذات، وجدنا أن ثمة العديد من التشريعات الإسلامية التي تهدف إلى تدريب المؤمنين على المعاشة العبادية المستمرة مثل: الصلاة الواجبة والمستحبة والصوم الواجب والمستحب والحج والعمرة والدعاء والتسبيح وتلاوة القرآن، والتفكير في خلق الله وغيرها، مشرطة في أداء الأعمال المشار إليها التوفر على (نية التقرب إلى الله تعالى)

والحضور القلبي وعدم الغفلة والشرود الذهني... الخ بل أن التوصيات تشير إلى أن على المؤمن أن تكون له في كل عمل يقوم فيه (نية) وهذه من أرفع مستويات النضج العبادي التي يصل بها الإنسان إلى التواصل الفعلي مع الله سبحانه وتعالى، فقد وروي عن النبي الأكرم ﷺ في وصيته لأبي ذر رضي الله عنه أنه قال: «يا أباذر: ليكن لك في كل شيء نية، حتى في النوم والأكل» (العالمي، ١٤١٤، ١: ٤٨).

وكان من تأكيد التوصيات على مسألة النية أن جعلت العمل هو النية، حيث روي عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال: «والنية أفضل من العمل، ألا وإن النية هي العمل، ثم تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ يعني على نيته» (العالمي، ١٤١٤، ١: ٥١).

وزيارة المراقد المقدسة تهدف إلى كل ما تقدمت الإشارة إليه من دلالات عبادية تتميز بالطابع التواصل والمعيشة الروحية الطويلة، وتأتي ممارسة زيارة الأربعين المباركة في مقدمة الممارسات الزيارية العاملة على الأهداف المذكورة، حيث تتيح هذه الممارسة فرصة التواصل الروحي والإحساس العبادي العميق، ذلك أن زمن أدائها يمتد - أحياناً - إلى أيام متعددة، ويستمر الانشغال بأنشطتها لساعات طويلة في اليوم الواحد، فبالرغم من وجود توقيت خاص لبعض الزيارات الموسمية إلا أن أبواب العتبات المقدسة مفتوحة في كل وقت، وبإمكان الزائر اللبث والإستغراق في الدعاء والمناجات إلى ما شاء...

والملاحظ أن ممارسة زيارة الأربعين المباركة تتفرد عن بعض الممارسات العبادية الطويلة بعدة جوانب، أبرزها: أنها غير مصحوبة بالتوتر النفسي الناجم عن الخوف من الإخلال بالأداء أو العمل من قبيل الأخطاء التي تتسبب بفساد بعض شعائر الحج وممارساته والتي يترتب على بعضها القضاء ودفع الكفارات كما تشير بذلك كتب مناسك الحج للفقهاء المكرمين، وكذلك الحال فيما يتسبب بالأفطار وفساد الصوم من أخطاء ومخالفات... وهذا ما يتسبب - بالنسبة لشريحة واسعة - بالضغط النفسي خشية عدم الأداء بالنحو المطلوب، بينما تأتي ممارسة الزيارة مشياً لتمنح الإنسان المؤمن - كما

المحن سلفاً - قدراً كبيراً من المعيشة العبادية الطويلة دون أن تكون مصحوبة بالتوترات المشار إليها، وليس هناك ما يخل بالممارسة إلا ارتكاب الأثم... فكل ما هو مطلوب من الزائر يتحدد في أن ينطلق بنية خالصة لله تعالى، وأن يستحضر مأساة سيد الشهداء عليه السلام وآله الأطهار مع التوفر على بعض الشروط المذكورة في آداب الزيارة، وهذا بالذات ما يجعله في راحة نفسية نتيجة إحساسه المتواصل مع الله سبحانه وتعالى عبر تفاعله مع قضية المزور عليه السلام المتوجه إليه، حيث سوف تستولي عليه فكرة التقرب إلى الله عز وجل من خلال كل خطوة يخطوها نحو كعبة العاشقين وحرَم العارفين ومرقد سيد الشهداء والصدّيقين عليه السلام، فهو توجه إلى الله وسعي باتجاهه جلّ وعلى. وقد أشارت العديد من نصوص الزيارات إلى هذا المعنى وبخاصة نصوص الزيارة الجامعة، ومنها النص التالي:

«السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَئِمَّةَ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَادَةَ الْمُتَّقِينَ... وَأَنْوَارَ الْعَارِفِينَ... وَمَنْهَجَ الْإِيمَانِ، وَمَعَادِنَ الْحَقَائِقِ، وَشُفَعَاءَ الْخَلَائِقِ» (المشهدى، ١٤١٩ هـ).

وفي نص آخر من الزيارات الجامعة جاء أكثر دلالة على ما نتوخى التأكيد عليه:

«السَّلَامُ عَلَى الَّذِينَ مَنْ وَالَاهُمْ فَقَدْ وَالَى اللَّهُ، وَمَنْ عَادَاهُمْ فَقَدْ عَادَى اللَّهُ، وَمَنْ عَرَفَهُمْ فَقَدْ عَرَفَ اللَّهَ، وَمَنْ جَهِلَهُمْ فَقَدْ جَهِلَ اللَّهَ» (المشهدى، ١٤١٩ هـ).

وفي الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام:

«بِنَا عُرِفَ اللَّهُ، وَبِنَا عُبِدَ اللَّهُ. نَحْنُ الْإِدْلَاءُ عَلَى اللَّهِ، وَلَوْلَانَا مَا عُبِدَ اللَّهُ» (المجلسي، ١٩٩٤: ٢٦: ٢٦٠).

٢.٥ الإحساس العبادي الطويل نفسياً

ليس من شك في أن الممارسة العبادية تفصح عن صحة الممارس نفسياً، وتؤكد على سوية شخصيته بنحو عام شريطة أن تكون الممارسة العبادية مستوفية للشروط العبادية الحقيقية، وأن يقوم بها الممارس على الوجه الذي نصت عليه النصوص الشرعية، والأحكام الفقهية. وبالرغم من أن الدراسات والتجارب النفسية المهتمة بدراسة علاقة الممارسات والشعائر الدينية على الصحة النفسية قليلة جداً بسبب الموقف السلبي لأغلب الباحثين الغربيين النفسيين من الدين وتأثر الباحثين العرب والمسلمين للأسف بهم... إلا أن ثمة دراسات وملاحظات هامة أثبتتها بعض النفسانيين الغربيين والإسلاميين في الصدد نفسه، تشير تلك الدراسات إلى فاعلية الممارسة العبادية على الصحة النفسية وتخفيفها لبعض الآلام والحالات العصبية، ومنها ما توصلت إليه مجموعة من الدراسات العلمية التي أجريت في ماليزيا على بعض مرضى اضطراب القلق العام ومرضى الاكتئاب الجسيم (Axhar et al, 1994). حيث تبين أن المتدينين يحتاجون إلى جرعات دوائية أقل، مقارنة بغير المتدينين، وذلك بسبب ما يقومون فيه من ممارسات عبادية، مع ملاحظة الفترة الزمنية للممارسة العبادية وتأثيرها الإيجابي - وهو ما نسعى للتأكيد عليه - على المصابين ببعض الأمراض النفسية «وتلخصت أساليب العلاج الديني تلك في ما يمكن اعتباره إسباً للوضوء وفي إطالة مدة الصلاة من خلال إطالة مدة الركوع ومدة السجود، وكذلك في قراءة بعض الآيات من كتاب الله عز وجل» (أبو هندي، ٢٠٠٣).

كما أثبتت الملاحظات التي قمنا بها على مجموعة من المصابين ببعض الأمراض النفسية مثل التوتر الشديد، وعصاب الوسواس القهري، والكآبة أن الممارسين لبعض الشعائر الدينية سرعان ما تظهر عليهم مشاعر الارتياح، والهدوء النفسي نتيجة للأسترخاء الذي تقود إليه الممارسات العبادية ما يفسر من الناحية العلمية عملية انخفاض سريع في هرمون

التوتر الكورتيزول (Cortisol) في الدم (Lovallo, 2005). لاحظنا ذلك عبر صلاة الجماعة، الأدعية الجماعية، والمشاركة في الشعائر الحسينية، وبخاصة ممارسة المشي في موسم زيارة الأربعين المباركة، حيث كان تأثير المشي والمشاركة لفترات طويلة على المعانين من تلك الأمراض تأثيراً مدهشاً، فطالما كان الممارسون في المشي والمشاركة طالما كانوا في ارتياح واسترخاء نفسي. وهذه من أهم الملاحظات التي نريد لفت اهتمام الباحثين عليها، فالمكث والإستغراق والمعايشة الطويلة كان لها علاقة قوية في تخليص المعانين من الأمراض المشار إليها، وبخاصة المعانين من العصاب القهري، والتوتر المزمن، والكآبة. وهنا يبرز دور الجماعة والأنشطة الاجتماعية في التخفيف عن المريض ومساعدته في التوقف عن الانشغال بتداعيات المرض، وبخاصة الأشخاص المصابين بعصاب الوسواس القهري (أبو هندي، ٢٠٠٣).

كما يبرز الدور الفعّال للعلاج الجماعي (Group therapy or Group psychotherapy) وهو عبارة عن مشاركة مجموعة من المعانين بمرض ما للنقاش وتبادل الخبرات فيما بينهم، حيث يعتبر هذا النوع من العلاج أحد الطرق المؤثرة في حمل المريض على مواجهة الناس والإفصاح عن تجربته الخاصة مع المرض الذي يعاني منه، فقد انتشر تداوله - منذ أكثر من عقدين - في البلدان الغربية بنحو ملحوظ، وقد أظهرت التجارب فاعليته في تحسين المصابين ببعض الأمراض والمشاكل الذهنية والنفسية.

وما يهمننا من التطرق الى الموضوع ذاته، هو ما تمتاز فيه زيارة الأربعين المباركة - مع غيرها من الممارسات العبادية الجماعية - من توفر على نوع شبيه إلى بعض الشيء بخطوات العلاج الجماعي، ويقوم ببعض أدواره، ووظائفه بنحو عفوي بعيد عن التكلف والخوف من الآخرين، وأهم ما يقدمه هو إخراج المريض من عزلته، وتشجيعه على المشاركة في النشاطات الاجتماعية، وتقديم الدعم المعنوي له، وفي مقدمة ذلك الدعم هو الدعاء له، ولطالما شاهدنا وقرأنا وسمعنا بالكرامات الإلهية التي تنهال على المشاركين بهذه

الممارسات العبادية، وبخاصة المتضرعين إلى الله تعالى بشفائهم وكشف كربهم. للأهمية أعلاه، أمكن القول: إن المشاركة في زيارة الأربعين المباركة تدخل - وبكل جدارة - في لائحة طرائق العلاج النفسي والعقلي والسلوكي فهي لا تقل أهمية عن العديد من الطرائق المتداولة، ولعل هذه الطريقة العلاجية تقارب بعض وجوه ما يعرف بـ (العلاج السلوكي المعرفي) أو (cognitive behavioral therapy)، ولا مجال - عبر هذه الدراسة السريعة - للمقارنة بين هذين المنهجين. لذا نلفت عناية المشتغلين بالحقل الطبي وبخاصة المعالجين النفسانيين بتوظيف ممارسة الزيارة الأربعينية في معالجة المراجعين المشتكين من الأمراض التي ألمحنا إليها، أو وضعها كمرحلة من مراحل برنامج العلاج الذي يمرُّ فيه المراجع، حيث كما المحنا سلفاً بأننا قد أجرينا بعض الملاحظات الدراسية على المعانين من بعض الأمراض والأضطرابات، وأرشدنا بعض مراجعينا للمشاركة في ممارسة زيارة الأربعين المباركة فوجدنا نتائجاً إيجابية مشجعة.

كما نطلب من المتخصصين في المجالات الصحية التوجه الجاد في دراسة هذا المحور الهام، وتعميم معطياته العلمية بغية الاستفادة منها، والتدليل على أصالة الممارسة ذاتها وفق طرائق البحث العلمي الرصينة.

٣.٥ الإحساس العبادي الطويل اجتماعياً

من ملامح المجتمع الإسلامي انه مجتمع (متعبد)، يعمل على أداء الوظيفة العبادية التي خلق من أجلها ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦). وهذه الوظيفة تتوزع على كافة السلوك والنشاط الإنساني - سواء ما يتعلق بينه وبين نفسه، بينه وبين الآخرين، بينه وبين الطبيعة، وبينه وبين ربه - ومن بين السلوك والنشاطات الهامة سلوكه التواصل مع الله تعالى عبر الشعائر العبادية ذات الطابع الجماعي، والأبعاد الاجتماعية بنفس الوقت، مثل صلاة الجماعة، الحج، والزيارة... الخ حيث أكّدت

التوصيات الإسلامية على ممارسة بعض العبادات بنحو جماعي (وليس جماعة) كما ندبت على أن تؤدي بعضها بشكل جماعي كما هو الحال في صلاة الجماعة، وجعلت الأداء الشعائري لتلك العبادات من صفات المؤمنين ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ (الفتح: ٢٩).

والواقع إن التواصل العبادي الطويل - بنحو جماعي - يخلق مناخاً جمعياً اخذاً يعكس تأثيراته الإيجابية بقوة على المجتمعين، ويدفعهم باتجاه مراجعة سلوكهم والعمل على تعديله، وكلما أزداد المكث والممارسة العبادية كلما أزداد تأثير الشعور الجمعي على «تصعيد العواطف النقية، بحيث يتحسس الجميع بتزكية نفوسهم وصقلها وانسلاخها من الواقع الاجتماعي المصحوب بالتوترات والانحرافات...» (البستاني، ١٩٩٤: ٢١٣).

ولا تقف تأثيرات التواصل المشار اليه عند رقعة المجتمعين فحسب، بل تمتد إلى كل مشاهد أو سامع لتلك الممارسات المباركة حيث تأخذ الإيحاءات الروحية طريقها متسربةً إلى داخل النفس بكل سهولة لتمنحها الهدوء إلى درجة التخدير، بيد أنه تخدير يحتفظ بنشاط الشعور وعدم غياب الوعي.

وخلاصة ما نريد أن نتوصل إليه: أن للتواصل العبادي الطويل تأثيرات روحية على المجتمع، ومن الممكن الاستفادة منها في مجالات التأثير في حقل الدراسات المختصة في السلوك الاجتماعي، لأننا لاحظنا نتائج ذلك التأثير بنحو لا يقبل التشكيك. وبمعنى أكثر وضوحاً، إن الممارسات العبادية الجماعية الطويلة تلفت انتباه المجتمع بعامه، ونتيجة الانتباه نفسه تبدأ عملية التذكير بالله تعالى، وتحسيس الغافلين عنه بضرورة تعديل سلوكهم، والالتحاق بقافلة السالكين إليه تعالى، ذلك أن الإشعاعات النورانية المنبعثة من الممارسات المذكورة تفرض تأثيراتها الإيمانية على من حولها من الناس، وهذا ما يساعد على المحافظة على سلامة فطرتهم، واستمرارية رسالتهم التوحيدية. ومن جانب آخر فإن وجود مثل هذه الممارسات - بحد ذاتها - في شرايين المجتمع كفيلاً بإنزال رحمة الله

(عز وجل) على ذلك المجتمع بأسره، بل وعلى كافة الموجودات حسب قابلية استيعابهم للرحمة المذكورة.

٥-٤ الإحساس العبادي الطويل كاستراتيجية مواجهة للشيطان وحزبه

من معطيات الممارسات العبادية الجماعية الطويلة أنها تمثل استراتيجية مواجهة حقيقية للصراع بين الشيطان وحزبه، حيث طالما نبهنا القرآن الكريم إلى أن الصراع مع الشيطان صراع جبهة وخط وحضارة يحتاج إلى تنظيم قوانا وتوحيدها وتحشيدنا ضده، من أجل فهم طبيعة حركته وأدوات حربه، وأن لا نكتفي بمقارعة فرادى، فاتحادنا ضده يمنحنا القوة والتمكن والعزة. يقول الله سبحانه وتعالى في المجال ذاته: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر: ٦). فالى جانب الإشارة إلى أن له حزب، جاءت التوصية لمواجهة بنحو جماعي ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، ويقول تعالى مفصلاً عن العاملين تحت قيادة الشيطان: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِمَّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ٢٧). وقد تكرر التأكيد على حزب الشيطان: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (المجادلة: ١٩). وإلى مواجهة أوليائه بنحو جماعي مضافاً إلى المواجهة الفردية، مثلما يواجهون المؤمنين بنحو جماعي يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٧٦). ومادام صراعنا معه طويل فنحتاج إلى استراتيجية تتيح لنا مواجهة طويلة معه، وعلى نحو من التعاضد فيما بيننا، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر وتثبيت بعضنا البعض الآخر، وأكد استشعر أن خروج المؤمنين والمؤمنات على هيئة الحشد المقدس لزيارة الأربعين المباركة يصيب الشيطان وحزبه بالهلع

والهزيمة، ويبعدهم عن التفرد بمحاربة المؤمن والهجوم عليه، مما يدفعنا من تكثيف حالة الخروج عليه بنحو جماعي والتأكيد على تكثيف وتمديد هذه الممارسة للظفر بأكبر قدر من إبعاد الشيطان وحزبه من ساحاتنا وإحاق الهزيمة بهم. وكل ابتعد نزع الشيطان وحزبه عنا كلمًا تضاعف الإحساس العبادي لدينا، وهذه من جديد: واحدة من أهم بركات الإحساس العبادي الطويل الذي توفره لنا ممارسة زيارة الأربعين المباركة.

٦. تأثيرات المشي على الصحة النفسية والعقلية

تطرقنا في الفصل الثاني عن بعض عناصر المعطى النفسي المتأني عن ممارسة الزيارة بنحو عام، والآن نأاول أن نعرض الى جانب آخر من المعطيات النفسية المترتبة على ممارسة الزيارة وبخاصة زيارة الأربعين المباركة، حيث تتميز هذه الزيارة بظاهرة المشي على الأقدام الى مقام سيد الشهداء عليه السلام حرصاً من المؤمنين والمؤمنات على الزيادة في الأجر والثواب، وتعظيماً لمقام السبط الشهيد عليه السلام إستجابةً للنصوص الواردة عن أهل البيت: في الندب الى ممارسة إتيانه عليه السلام مشياً، وقد أشرنا الى بعضها سلفاً.

١.٦ المشي والعلاج النفسي والعقلي

إن ظاهرة المشي حافلة بالعديد من العناصر النفسية الإيجابية التي يمكن الاستفادة منها في حقن علاج الأمراض النفسية والعقلية الصعبة، فإن عملية المشي لوحدها تعد من الأنشطة الصحية العامة، حيث تقي من أمراض القلب، الأوعية الدموية، مرض السكر، ضغط الدم، والسمنة... وقد أثبتت الدراسات النفسية تأثير المشي بنحو خاص على إعتدال المزاج، معالجة أمراض الكآبة، وعصاب الخوف، وذلك من خلال مساعدة الجسم على توليد بعض العناصر الكيميائية المعروفة بالناقلات العصبية (السيروتونين والاندورفين) أو (neurotransmitters serotonin and endorphins) والتي ينتج عنها الشعور بالراحة والفرح وتدخلها بتنظيم العديد من الناقلات العصبية الهامة، وقد توصلت بعض الجامعات العالمية التي درست علاقة المشي بالصحة الى مجموعة من النتائج العلمية في الصدد نفسه، منها ما توصلت إليه جامعة أوترخت الهولندية حيث أشارت

في دراساتها إلى أن المشي ينفع الأشخاص المصابين بأولى مراحل الخرف (Dementia)، وهو من الأمراض العقلية الشائعة عند كبار السن والتي يعاني المصاب بها من إختلال الذاكرة، ونتيجة للجهد الكبير الذي يبذله المريض في حفظ الأشياء والسيطرة على ما حوله من قضايا بسبب مرض الخرف، يصاب بالإحباط أو الكآبة (depression) والتوتر (stress)، ومن خلال المشي يحصل على الراحة وإنخفاض التوتر مع الشحن العصبي من جديد (Gezonder, slanker en gelukkiger door wandelen, 2014).

كما توصلت جامعة ستيرلينغ في اسكتلندا University of Stirling in Schotland الى أن الأشخاص المصابون بالكآبة هم أسرع من غيرهم في التخلص منها، فيما لو مارسوا عملية المشي، وقد أشارت كذلك إلى أن الإنسان يحتاج على الأقل أن يمشي عشرة آلاف (١٠,٠٠٠) خطوة في اليوم لكي يتمكن من أن يعيش حياة صحية (Wandelen helpt tegen depressies, maar Amerikanen kunnen nergens lopen, 0212).

٢.٦ المشي والتنظيم الذاتي

من النتائج الدراسية الهامة في مجال الصحة النفسية وارتباط عامل المشي فيها ما نشره قسم علم النفس في جامعة كاليفورنيا من دراسة لمجموعة من الباحثين النفسانيين والمستندة على إختبارات و إحصاءات تحظى بالوثاقة العلمية. الدراسة تتحدث عن علاقة المشي بالتنظيم الذاتي (SELF-REGULATION) وإعتدال المزاج والسلوكيات الأخرى، حيث أجريت تجربة للأشخاص المدمنين على التدخين وللأشخاص الذين لا يستطيعون التحكم بأنفسهم من تناول الوجبات الخفيفة من قبيل (الحلويات والأطعمة الصغيرة)، والتجربة تلخص في قيام هؤلاء الأشخاص بالمشي السريع لمدة خمسة دقائق قبل اقتراب وقت الحاجة الى التدخين أو تناول إحدى الوجبات الخفيفة، ولمدة ثلاثة أسابيع. حيث إتضح من خلال تقييم الأشخاص الذاتي لأنفسهم قبل التمرين وبعده

بأن المشي ينتج المزيد من الطاقة في الجسم، ويقلل من الحاجة الى التدخين والأكل للوجبات الخفيفة، فلقد تضاعف الوقت بالنسبة إلى طلب التدخين أو إلى الطعام عن الوقت الطبيعي بالنسبة إلى الأشخاص أنفسهم، فبدلاً من كل ساعة - على سبيل المثال - أصبحت الحاجة إلى التدخين أو الطعام تستغرق ساعتين.

البحث المذكور يشير إلى إمكانية اعتماد المشي لمعالجة التدخين والسمنة واعتدال المزاج عبر تقوية التنظيم الذاتي المرتبط بممارسة المشي والحركة الجسمية المعتدلة، مما يعني الإستهناء عن تناول العقاقير الطبية، وغيرها من الوسائل العلاجية المعتمدة في الحقل الطبي، والتي عادة ما تتسم بالتعقيد، والأعراض الجانبية والكلفة المالية العالية.

Mood and Behavior (Smoking and Sugar Snacking) Following Moderate Exercise:

A Partial Test of Self-Regulation Theory. (Robert et al,1992)

وهناك طريقة علاج متخصصة في المشي، تُدعى: (running therapie) يتم من خلالها معالجة العديد من الأمراض العصبية والنفسية وبالتحديد معالجته للتوتر (Stress)، وقد تأكدت نتائجها العلمية (2015, running therapie).

٣-٦ المشي والتشجيع عليه

من المعلوم، إن ممارسة المشي كعلاج لا يتطلب أموالاً باهظة، ولا ظروفًا خاصة، ولا إجراءات معقدة، فبإمكان الجميع القيام به وفي أي وقت شاء. لذلك توجد الكثير من الحملات الدعائية في بلدان العالم الغربي لغرض التشجيع على تحسين الصحة عبر ممارسة المشي، ووضعها ضمن البرامج اليومية للفرد. ولها في الصدد ذاته مشاريع حضارية كبيرة من قبيل زيادة مساحة الأماكن الخضراء، وإنشاء الطرق الخاصة بالمشي واختيارها الصحيح مثل محاذاتها للأبنية والبحار والحدائق الكبيرة. إلى جانب تنظيمها للعديد من مواسم المشي الجماعي على شكل كرنفالات ومسابقات شعبية.

والمشي بعد ذلك كله من الممارسات المساهمة في الحفاظ على البيئة، حيث بدلاً من الإفراط وعدم الضرورة في استخدام وسائل النقل المتسببة في تلوث البيئة، وهذا من الأسباب الغير مباشرة في التأثير السلبي على الصحة العامة - وإن كنا نعتبرها واحدة من الأسباب المباشرة.... تعمل ثقافة المشي على تقليل نسبة التلوث المذكور عبر الاعتماد عليها بالتنقل ولو بنحو جزئي، مضافاً إلى ما تسببه ممارسة الإفراط في وسائل النقل من اختناقات مرورية تشكل هاجساً ومعاناة حقيقية للعديد من سكان المدن العالمية، وتعد واحدة من أهم أسباب الانفعالات والتوترات الحادة لدى الكثير من البشر.

والملفت أن تشجيع المشي يحظى باهتمام البرامج الحكومية الغربية وخطط التخطيط العمراني بدرجة تسترعي التوقف في مراجعتها، وذلك نتيجة وعي الشعوب بضرورة فاعليته على مصير الإنسان، الطبيعة، ورفاهية المعيشة إلى درجة أصبح ترتيب أولوية استخدام الطرق بالدرجة الأولى لصالح المشاة، وعلى الشكل الآتي: ١. المشاة ٢. سائقي الدراجات الهوائية ٣. وسائل النقل العامة ٤. سائقي السيارات. وقد ارتفعت الأصوات المطالبة بالعمدة (المحافظ) الماشي - أي الرفض لاستخدام السيارة داخل المدينة - بعد أن توفروا على العمدة المستخدم للدراجة الهوائية (Kruyswijk, 2017). وهناك وفرة من البحوث المنصبة على ما يعرف بـ (القدرة على المشي داخل المدن) أو (walkability) وإعادة الاعتبار إلى المشي من خلال تحسين ظروفه، وتوفير مستلزمات الراحة والسلامة له بعدما قللت برامج النقل القديمة من أهميته (Litman, 2003). بل استطاعت بعض الحكومات المحلية عبر الأحزاب المناصرة للبيئة أن تنجح في إبعاد السيارات من التنقل داخل المدن وتحويل المئات من مواقف السيارات لصالح المشاة لأنهم يعتقدون بأن المشاة عامل أساسي في بقاء المدينة، إلى جانب الفوائد الاقتصادية والاجتماعية المترتبة على ممارسة المشي، كما تحقق بعض ذلك في مدينة امستردام، والتطلعات في طريقها نحو التقدم (Kruyswijk, 2017).

٤.٦ المكتسبات الصحية لممارسة المشي في زيارة الأربعين المباركة

تأسيساً على ما تقدم، تعتبر ظاهرة المشي أثناء زيارة الأربعين المباركة فرصة حقيقية لمعالجة الأمراض المشار إليها، وبخاصة الأمراض النفسية المعقدة مثل الكآبة والخوف والتوتر، ويتميز علاج المشي في زيارة الأربعين المباركة بعناصر لا تتوفر خارج نطاقه، حيث يلعب السلوك الجمعي أو المشاركة الجمعية دوراً ملحوظاً في فاعلية العلاج، فلا شك أن مشاركتك للملايين من الناس في أداء هذه الممارسة، سوف تختلف طبيعتها ونتائجها عن ممارستك للمشي بنحو فردي ومنعزل عن الآخرين. إن المشي ضمن هذه المسيرة المليونية يزيد من ألفة الممارسة، ويمنح الشعور بالأمن، كما يرفع من معنويات الممارس ببذل الجهد المضاعف، والمواظبة، والاستمرار.

إلى جانب ذلك، فإن الخدمات التي تقدم أثناء الطريق من قبل المتطوعين كالطعام والشراب والمسكن أو محطات الاستراحة والتحفيز المعنوي الذي يتبادلّه الجمهور المؤمن يكاد أن لا يتوفر نظير له في جميع أنحاء العالم، بل حتى في نفس المنطقة وداخل أسوار الثقافة الشيعية - ولكن خارج نطاق ممارسة زيارة الأربعين المباركة -، فالحقائق المذكورة تعتبر من خصوصيات زيارة الأربعين المباركة، ومما إنفردت به عن سائر الممارسات الدينية والاجتماعية.

والأهم من كل ذلك، إن المشي في زيارة الأربعين المباركة يتميز بشرف النية العبادية، فالماشي لا يمشي لمجرد الرياضة أو تحسين حالته الصحية فحسب، بل ينطلق من نية التقرب الى الله - عز وجل - من خلال الممارسة عينها، وهذا ما يمنحه زخماً من التفاعل، ومواصلة الأداء، والشعور بالرضا المزدوج، حيث يحصل جراء العمل وفق النية العبادية على رضا الله، وهو ما يترتب عليه الرضا النفسي والنظرة الإيجابية في تقييم المرء لذاته،

ومن جهة أخرى فإن الآثار الموضوعية المترتبة على ظاهرة المشي بالنسبة الى كل ممارس، سوف ينعم بها صاحب النية العبادية كنتيجة طبيعية أيضاً. ولا حاجة للتذكير بنبيل المقصد وما ينعكس به النبيل ذاته على المشارك في المشي بالنسبة الى ممارس المشي خلال زيارة الأربعين المباركة، فهو يعتقد بمواساته لموكب الطهر والصبر والإباء والشهداء، موكب زين العابدين عليه السلام والخوراء زينب عليها السلام الذين اقترنت رموز وطقوس هذه الزيارة بهما، وإقتداءً بكل ولي ومؤمن مارس شعائر زيارة الأربعين المباركة منذ بداية تأريخها وحتى اليوم، وقد أشرنا على حجم الثواب الذي وعدت به النصوص المطهرة في كل خطوة يخطوها زوار الحسين عليه السلام وهذا ما يبعث على السرور والتفاؤل وتقدم حالة المريض باتجاه التحسن والشعور الصحي.

ولا ننسى أن ثمة نصوص وردت عن أهل البيت: تشير بنحو مباشر وصريح الى أن زيارة الحسين عليه السلام تعالج مرض الأكتئاب وحالة الحزن والتنفيس عن الهموم وقضاء الحوائج. نعرض لبعضها فيما يلي:

روى الفضيل بن يسار قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: إنَّ إلى جانبكم قبراً ما أتاه مكروب إلاَّ نفَّس الله كُربته، وقضى حاجته» (الشيخ ابن قولويه، ١٣٥٦: ١٦٧).

وعن إسماعيل بن جابر، عن أبي عبد الله عليه السلام «قال: سمعته يقول إنَّ الحسين عليه السلام قُتل مكروباً، وحَقِيقٌ على الله أن لا يأتيه مكروبٌ إلاَّ رَدَّه الله مُسروراً» (الشيخ ابن قولويه، ١٣٥٦: ١٦٧).

وعن محمد بن عليّ الحلبيّ، عن أبي عبد الله عليه السلام «قال: إنَّ الله عرض ولايتنا على أهل الأمصار، فلم يقبلها إلاَّ أهل الكوفة، وإنَّ إلى جانبها قبراً لا يأتيه مكروبٌ فيصليّ عنده أربع ركعات إلاَّ رجعه الله مسروراً بقضاء حاجته» (الشيخ ابن قولويه، ١٣٥٦: ١٦٨).

وعن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام «قال: إنَّ الحسين صاحب كربلاء قُتل

مظلوماً مَكْرُوباً عَطْشَاناً لَهْفَاناً، وَحَقُّ عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَنْ لَا يَأْتِيَهُ لَهْفَانٌ وَلَا مَكْرُوبٌ وَلَا مُذْنَبٌ وَلَا مَغْمُومٌ وَلَا عَطْشَانٌ وَلَا ذُو عَاهَةٍ ثُمَّ دَعَا عِنْدَهُ وَتَقَرَّبَ بِالْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ إِلَّا نَفْسَ اللَّهِ كُرْبَتَهُ، وَأَعْطَاهُ مَسْأَلَتَهُ، وَغَفَرَ ذَنْبَهُ، وَمَدَّ فِي عَمْرِهِ، وَبَسَطَ فِي رِزْقِهِ، فَاعْتَبَرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ» (الشيخ ابن قولويه، ١٣٥٦: ١٦٨).

وهذه من الكرامات والمنح الإلهية التي أختص بها زوار أبي عبد الله الحسين عليه السلام وقد لمسها وأحس بها جمهور الزيارة منذ بداية زيارته عليه السلام وحتى هذه الأيام، وسوف ينعم بها المؤمنون حتى قيام الساعة.

٥.٦ المشي الجماعي والرفاه النفسي

لا يفوتنا التذكير - مرة أخرى - بمعطيات الزخم الجماهيري وانعكاساته على الصحة النفسية، حيث تعزز مشاركة المشي مع الآخرين شعور الانتماء الاجتماعي، والألفة، والقرب من الآخرين، بدلاً من الانطواء على الذات، والصراع مع مشاعر الوحدة والعزلة والوحشة التي تقود كما أشرنا سلفاً إلى المرض والموت. وعادة ما ينجم عن مشاركة المشي مع ذلك الجمهور الكبير صداقات حميمة، وحوارات قصيرة تترك أثراً طيبة على النفس ما ينعكس على الفرد بأحاسيس الرضا والسعادة.

كما أن ثمة ظاهرة أخرى تبعث على سرور المشاركين في الممارسة عينها، وهي الإشادة بالزوار (المشاركين في المسيرة الراجلة) ونثر الكلمات والإبتسامات المفعمة بالتكريم على أسماعهم ووجوههم، حيث يعمل المتطوعون في كل موكب من خلال المكبرات الصوتية - وعلى طول الطريق - بتحية الزوار وتشجيعهم معنوياً بكلمات تترشح بالمروءة والشرف والإكبار ما يرفع من معنويات الزائرين وتحسيسهم بقيمة ما يقومون به من أعمال. يُضاف إلى أن المسافة الشاسعة التي يقطعها الزائر تمنحه الشعور بالإنجاز وتحقيق الهدف نظير ما يشعر الصائم به عند الإفطار أو الحاج بعد إتمام حجه، أو كل عامل بعد إتمام عمله،

علماً أن بعضهم يقطع مئات الكيلومترات من أمثال القادمين من المحافظات الجنوبية العراقية، وهذا بحد ذاته إنجاز حركي منتظم على صعيد الأداء الفردي والجماعي، وقد نقلت القنوات التلفزيونية مشاهدات متعددة للزوار الذين قدموا مشياً من خارج حدود العراق، من مدن الأهواز ومن أصفهان ومن الكويت... ولو كانت الأوضاع الأمنية بحالة آمنة ومستقرة لشهدنا الملايين من الزوار القادمين مشياً على الأقدام الى سيد الشهداء عليه السلام من جميع بلدان العالم.

والمحصلة أن عملية المشي ضمن إطار ممارسة زيارة الأربعين المباركة تتضمن عناصراً وأبعاداً ومعطيات نفسية في غاية الأهمية، وهي - في الجملة - من الممارسات التفاعلية، وليست عملية جسمية صامتة، تعتمد على حركة الرجلين واليدين، حيث تشترك العناصر العقلية والنفسية المتأتية عن التواصل مع الله والآخرين في مشهد تفاعلي مستظل بمناجات السماء، ومكسو بطهر التراب الملامس لإقدام الزائرين، ومضمخ بأنفاس عشاق كربلاء، مع تردد موسيقى الندب الولائي الهادرة في أجوائه ب: يا حسين... تشترك كل تلك الأشياء لتمنح هذه الممارسة طابعاً روحياً متميزاً غير قابل للتقليد والاستنساخ ولا تعرض عليه ما تعرض على الممارسات الحياتية من قبيل الإشباع والملل والقِدم، فإن نكهة هذه الممارسة وطعم تذوقها تصل بالنسبة الى المتعاطي معها الى درجة الإدمان، وهي في الوقت ذاته وصفة علاجية مجربة للعديد من أمراض الروح.

٧. المعطيات التربوية والتعليمية والإصلاحية

لزيارة الأربعين المباركة

من القضايا التي تستأثر بإهتمام المختصين في حقل التربية، وتفرض نفسها بقوة على الدراسات المعنية بالحقل ذاته هي مسألة السياق الاجتماعي، وما يضطلع فيه من دور رئيس على مسرح العملية التربوية، فالتربية لا تجري في منطقة فراغ بين المربي والشخص المراد تربيته (Malschaert & Traas, 2008). فالملاحظ أن العملية التربوية تحدث داخل المجتمع والسياق الاجتماعي هو من يحدد طبيعتها ويرسم ملامحها ويؤثر باتجاه مساراتها. وليس كما يتصور البعض حيث حصروا وظيفتها ومصادر فاعليتها بالأسرة، المنزل والأصدقاء، ولا أحسب أن ثمة من ينكر أهمية الأسرة، المدرسة والأصدقاء في المجال التربوي، بيد أن الميادين المذكورة تستمد فاعليتها من المحيط الاجتماعي أو السياق الاجتماعي الخاص، ذلك أنها متولدة عنه وتعيش حياتها سابحة في فضاءاته ومتفاعلة مع جزئياته، فعلى سبيل المثال: ان قانون التعليم الإلزامي الذي تفرضه بعض المجتمعات بقوة يوضح مدى تأثير السياق الاجتماعي على نجاح المهمة المناطة بالمدرسة من أجل أداء وظيفتها التربوية، فلو لا انها تلزم الأسرة بالتعاون مع المدرسة عبر إرسال الأولاد إليها وتعاقب الغير ملتزمين بعقوبات مادية ومعنوية قاسية، لوجدنا تخلف وغياب أعداد كبيرة من الأطفال في متابعة المدرسة.

ومن أمثلة دور السياق الاجتماعي ظاهرة التسامح بتشغيل الأطفال دون السن القانوني عند بعض المجتمعات وبأعمال خطيرة مثل تصليح السيارات والبناء والمعامل...

الخ أو ظاهرة التدخين بالنسبة الى الأطفال دون سن البلوغ. ولا تقف المسألة عند هذه الأمثلة فحسب، بل تشمل أنماطاً متعددة من السلوك والظواهر الفردية والاجتماعية من قبيل: العنف، المسالمة، التكاسل، المثابرة، الجودة، الوثاقة، التطور، الإنفتاح، الفردانية، الاجتماعية، التعاون، الأنانية... بل وحتى مسائل من قبيل: الطلاق، السمينة، الإدمان، الإنجاب، والإستهلاك.. الخ فكل هذه السلوكيات والظواهر متأثرة عن فاعلية، وحراك السياق الاجتماعي، وتدخله المباشر على واقع الفرد والمجتمع الى مستوى السيطرة على جانب كبير من سلوكه وثقافته ونمط تفكيره وتشكيل هويته الخاصة.

١-٧ السياق الاجتماعي الإسلامي

ما يهمننا من التطرق إلى قضية الدور الذي يلعبه السياق الاجتماعي في العملية التربوية هو إبراز أهمية القضية المذكورة وحضورها الفاعل في صياغة سلوك الفرد والمجتمع، وتحريكهما، ومنح كل مجتمع صبغته وهويته الخاصة. لنأخذ على سبيل المثال أهمية دور القيم الاجتماعية التي يتكون منها السياق الاجتماعي وحجم تأثيرها على تعاملات الانسان وطرائق تفكيره، فإذا كان الناس في مجتمع معين يجدون أن بذل (الجهد أو المثابرة) و (النجاح أو التطور) من القيم المهمة في الحياة، فسوف تنصب جهودهم باتجاه تحقيق القيم ذاتها، وبمعنى آخر فستجد أن الطابع العام للسلوك الاجتماعي عند ذلك المجتمع هو السعي الجاد لتحقيق المنجزات المادية او المعنوية التي تحركهم قيمة المثابرة عليها. إن هذه القيم وغيرها من قيم تشترك في تكوين ثقافة المجتمع وتشكل انعكاساً طبيعياً لآراء المجتمع العامة، الآراء التي يؤمن بها ويسعى لتحقيقها، ويجد حرجاً في التنكب عنها.

إن الطفل الذي يقوم من مقعده في حافلة النقل العامة ليعطيه إلى شخص كبير لا يجد مقعداً يجلس عليه، يعكس أحد معايير المجتمع الأخلاقية في احترامها للكبير، والقيمة التي يوليها المجتمع لمثل هذا التعامل.

بيد أن الدارس في قضية السياق الاجتماعي في المجتمعات الغربية والمجتمعات الإسلامية بغية عقد المقارنة بينهما يجد أن تأثير السياق الاجتماعي في الغرب يتمثل بالخطوط العامة لمسار المجتمع من قبيل تشريع القوانين، المراقبة وحماية الأثر الحضاري لها. وفي قضايا التربية بالتحديد، فيكاد أن ينعدم دور السياق الاجتماعي حيث تتركز مصادر التربية بالأسرة، المدرسة، الأصدقاء، وبعض المؤسسات المعنية بالشؤون التربوية مثل المراكز الرياضية، الفنية والثقافية. والملاحظ أن دور السياق الاجتماعي يعيش انحساراً وتراجعاً يوماً بعد آخر حتى بلغت المجتمعات الغربية أقصى حالات الفردانية (individualism) وحتى اشتكى العديد من مفكرها ومثقفها مما آلت إليه مجتمعاتهم من فقدان الترابط والروح الاجتماعية، ولم يعد حتى للدولة تأثير على ثقافة المجتمع والتدخل في صياغة سلوك أفرادها وتحديد هويتهم (Felling, Peters & Scheepers, 2000).

وغاية ما تقوم فيه الدولة فيما يخص التربية، نتيجة مطالبة الأحزاب اليسارية والدينية بذلك، هو تكثيف الجهود نحو تحسين طرائق التعليم والتركيز على الجانب الإنساني مثل نبذ العنف والكراهية، وتعزيز روح التسامح والسلام، والتدريب على التعاون والتعارف على الشعوب والحضارات. بيد أن المفارقة تقع في أن المدرسة لا تجد اسناداً ولا حافزاً اجتماعياً يرسخ المبادئ الإيجابية المذكورة، ذلك أن دور السياق الاجتماعي في تبني مثل هذه المبادئ يكاد أن يكون منعدماً، فالحركة الاجتماعية تسير باتجاه قيادة الفرد لنفسه وعدم تدخل المجتمع في شؤونه. إن العملية التربوية اسرياً ومدرسةً بحاجة إلى دعم المجتمع لها، وتشجيعه عليها، وما لم تنبع القيم المراد تربية الأطفال عليها من رحم السياق الاجتماعي، فمن الصعوبة خلق جيل أو أفراد متربين عليها.

لهذا بالذات، تبرز قيمة المجتمعات الإسلامية في التأكيد على دور السياق الاجتماعي الكبير في العملية التربوية بالذات وفي المحافظة على الأثر الحضاري من القيم والمبادئ الأساسية للمجتمع، حيث يتعين على المجتمع الإسلامي التوفر على الشعور بالمسؤولية

وممارستها عملياً من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب الظروف المتاحة، يقول تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤) ويقول عز وجل: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، والعمل على تقديم النصيحة الى الآخرين وهي من أجل عمل الأنبياء ومن تبعهم باحسان، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (الأعراف: ٩٣) وقوله تعالى: ﴿أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٦٢) والأحاديث الشريفة تؤكد على أن الدين النصيحة...

والى جانب ذلك تقوم مؤسسة المسجد بدور فعال في التربية الأساسية للفرد والمجتمع، فهي من نعم الله الكبرى على المسلمين، فالمسجد من أعظم مؤسسات التربية والثقيف، وقد لعب - ولا زال - دوراً بالغاً في صنع الحضارة الإسلامية وبناء عقيدة وأخلاق المسلمين، كما يشكل المسجد واحداً من أهم عناصر المقاومة لحماية الكيان الإسلامي من أمراض الحضارات الأخرى وافرازاتها السلبية...، ففيه يجتمع المسلمون من أجل الإقبال على الله تعالى، منتزعين أنفسهم من شباك الدنيا وحبائلها طالين من الله عز وجل أن يهديهم ويمدهم بفيوضاته المباركة...، وفيه يستمعون المواعظ والدروس من قبل الخطباء ورجال العلم...، وفيه يعيشون حالة مشاطرة هموم الأمة وما يواجهها من تحديات...، وفيه يلتقون مع بعضهم البعض الآخر متواصين بالحق والصبر ومساندة أحدهم للآخر... ليعودوا - بعد ذلك - الى ميدان الحياة وهم متسلحون بالتقوى والوعي والمعنويات الإيمانية العالية.

٧-٢ المعطيات التربوية لزيارة الأربعين المباركة

من نعم الله الكبرى على أمتنا الإسلامية وعلى أتباع أهل البيت ومحبيهم: تحديداً هو وجود أهل البيت: في حياتنا، ومن هذا الوجود المشع بالخير واليمن والبركة ما يكمن في زيارة مراقدهم المقدسة، وبخاصة زيارة سيد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام التي ركّز عليها جميع أهل البيت: وأولوها عناية فائقة للغاية، والحديث عن هذا الجانب من الوضوح بمكان عظيم، وقد تطرقنا الى الموضوع ذاته بنحو مستوعب في دراستنا المعنونة بـ (ثقافة الزيارة عند أتباع أهل البيت).

ومن بين هذه الزيارات الحافلة بالمعطيات والمكتنزات هي (زيارة الأربعين المباركة) التي نحن بصدد دراستها، وقد تناولنا في الفصول السابقة بعض معطياتها، والآن نتحدث عن الجوانب التربوية لها، فقد حفلت هذه الزيارة بعناصر تربوية في منتهى الفاعلية، ولم تقتصر آثارها التربوية على شريحة محددة، لا من حيث العمر ولا من حيث الجنس ولا من حيث المستوى الثقافي، فالكل متاح له أن يتربى على مبادئها صغاراً وكباراً، رجالاً ونساءً.

٧-٢-١ ترسيخ مكانة سيد الشهداء عليه السلام في النفوس

وأول المعطيات التربوية هي ترسيخ مكانة سيد الشهداء عليه السلام في النفوس، فقد تمكن السياق الاجتماعي في جغرافية أتباع أهل البيت: عبر قرون طويلة من صياغة إحياء مناسبات أبي عبد الله الحسين عليه السلام وبخاصة زيارته المباركة على شكل قيمة اجتماعية عُلّيا، يحظى المتصف بها بالتكريم والتقدير، ويوصم المتخلف عنها أو الرافض والمناهض لها بالعداء والانحراف الفكري والمرض القلبي. ولنقرأ في هذا المعنى بعض النصوص،

من قبيل النص الوارد عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «مَنْ لَمْ يَأْتِ قَبْرَ الْحُسَيْنِ عليه السلام مِنْ شِيعَتِنَا كَانَ مُتَّقِصَ الْإِيمَانِ، مُتَّقِصَ الدِّينِ، وَإِنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ كَانَ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ» (ابن قولويه، ١٣٥٦: ١٩٣).

وعن أبي بكر الحضرمي عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «سَمِعْتُهُ يَقُولُ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَعْرِضْ حُبَّنَا عَلَى قَلْبِهِ، فَإِنْ قَبِلَهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ كَانَ لَنَا مُحِبًّا فَلْيَرْعَبْ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، فَمَنْ كَانَ لِلْحُسَيْنِ عليه السلام زَوَّارًا عَرَفْنَاهُ بِالْحُبِّ لَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْحُسَيْنِ زَوَّارًا كَانَ نَاقِصَ الْإِيمَانِ» (ابن قولويه، ١٣٥٦: ١٩٣).

وعن علي بن ميمون، قال: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الصَّادِقَ عليه السلام يَقُولُ: لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ حَجَّ أَلْفَ حَجَّةٍ ثُمَّ لَمْ يَأْتِ قَبْرَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عليهما السلام لَكَانَ قَدْ تَرَكَ حَقًّا مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى، وَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: حَقُّ الْحُسَيْنِ عليه السلام مَفْرُوضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ» (ابن قولويه، ١٣٥٦: ١٩٤).

وهذه القيمة بحد ذاتها من المعطيات التربوية الهامة، حيث تعمل على ترسيخ مكانة أهل البيت: في النفوس والانتفاء اليهم، والدعوة الى زيارة سيد الشهداء عليه السلام كانت المنطلق لزيارة سائر الأئمة والأقتراب من تراثهم الفكري وعطائهم الإسلامي، وقد لعبت المضمونات الفكرية في نصوص زيارة الحسين دوراً بالغاً في ترسيخ هبة ومكانة ومنزلة سيد الشهداء في نفوس اتباعه ومحبيه، ويكفي أن نمرّ سريعاً على ما استهل فيه النص الوارد في زيارة الأربعين المباركة من معاني فائقة القدر، حيث جاء «السَّلامُ عَلَى وَلِيِّ اللَّهِ وَحَبِيبِهِ، السَّلامُ عَلَى خَلِيلِ اللَّهِ وَنَجِيبِهِ، السَّلامُ عَلَى صَفِيِّ اللَّهِ وَابْنِ صَفِيِّهِ، السَّلامُ عَلَى الْحُسَيْنِ الْمَظْلُومِ الشَّهِيدِ، السَّلامُ عَلَى أَسِيرِ الْكُرْبَاتِ وَقَتِيلِ الْعِبَرَاتِ، اَللّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهُ وَلِيُّكَ وَابْنُ وَلِيِّكَ وَصَفِيُّكَ وَابْنُ صَفِيِّكَ الْفَائِزُ بِكَرَامَتِكَ، أَكْرَمْتَهُ بِالشَّهَادَةِ وَحَبَوْتَهُ بِالسَّعَادَةِ، وَاجْتَبَيْتَهُ بِطَيْبِ الْوِلَادَةِ، وَجَعَلْتَهُ سَيِّدًا مِنَ السَّادَةِ، وَقَائِدًا مِنَ الْقَادَةِ، وَذَائِدًا مِنَ

الذادة، وأعطيته مواريث الأنبياء، وجعلته حجة على خلقك من الأوصياء» (المشهدى، ١٤١٩ هـ) ويعلن الزائر بعد ذلك بأنه يبرأ من أعدائه، ويشهد الله على توليه: «فَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ قَتَلَكَ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ ظَلَمَكَ، وَلَعَنَ اللَّهُ أُمَّةً سَمِعَتْ بِذَلِكَ فَرَضِيَتْ بِهِ، اَللّٰهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُكَ أَنِّي وَلِيُّ لِمَنْ وَالَاهُ وَعَدُوٌّ لِمَنْ عَادَاهُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ» ويتنقل النص في ختام فقراته الى مخاطبة أهل البيت: جميعاً «وَأَشْهَدُ أَنِّي بِكُمْ مُؤْمِنٌ وَبِإِيَابِكُمْ، مُوقِنٌ بِشَرَايِعِ دِينِي وَخَوَاتِيمِ عَمَلِي، وَقَلْبِي لِقَلْبِكُمْ سَلَمٌ وَأَمْرِي لِأَمْرِكُمْ مُتَّبِعٌ وَنُصْرَتِي لَكُمْ مُعَدَّةٌ حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ لَكُمْ، فَمَعَكُمْ مَعَكُمْ لَا مَعَ عَدُوِّكُمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَعَلَى أَرْوَاحِكُمْ وَأَجْسَادِكُمْ وَشَاهِدِكُمْ وَغَائِبِكُمْ وَظَاهِرِكُمْ وَبَاطِنِكُمْ آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ».

وهذا ما اردنا التأكيد عليه بقولنا أن زيارة الحسين (عليه السلام) كانت ولا تزال المنطلق لترسيخ مكانة سائر شخصيات أهل البيت:، فمن خلال توجيه الجمهور المؤمن الى زيارة سيد الشهداء وبيان أهميتها والعطاء المترتب عليها في الدنيا والآخرة، ومحاولة تمرير العديد من المفاهيم العقيدية عبر نصوص الزيارة الخاصة به (عليه السلام) - النصوص المخصصة للدعاء في مشاهد الأئمة - وقدرتها على تأجيج حالة التعلق العاطفي به... أقول: أمكن لها بعد ذلك جميعاً أن تثير إهتمام ورغبة الجمهور لفهم حقيقة دور الإئمة الآخرين والإنشداد العقلي والعاطفي معهم كحركة جماهيرية شكلت ولا زالت حالة استثنائية في مسار التبني الجماهيري العام للرموز العقائدية.

٧-٢-٢ الجرعة الولائية الوقائية

ثاني المعطيات التربوية المتفرعة عن القيمة المشار إليها أعلاه هي الولاء لأهل البيت: والوقوف إلى جانبهم من خلال الاعتقاد بمفهوم الإمامة وضرورتها في الحياة الإسلامية وفق الشروط والمواصفات التي أشار إليها الكتاب والسنة، والبراءة من أعدائهم وكل ثقافة تحاول تهيمش دور الأئمة المعصومين: في حياة المسلمين، ولم يكن ولاء أتباع أهل

البيت: لأهل بيت الطهارة والعصمة في يوم من الأيام ولاءً عاطفياً فحسب بل كان للولاء الفكري والعقيدي والثقافي مكانته السامية.

في ضوء ذلك، أمكن القول: إن زيارة سيد الشهداء عليه السلام وبخاصة زيارة الأربعين المباركة تمثل لأبنائنا جرعة تلقيح ولائية، وظيفتها تحصينهم من الانحراف الولائي والابتعاد عمّن أمرنا الله بالتمسك في ولايتهم ومودتهم ونهجمهم المشرق، وقد عشنا تجربة الزيارة بأنفسنا، فكانت من أبلغ عوامل التربية الولائية التي حمتنا من الإنزلاقات والتخبطات والشبهات العقائدية.

إلى جانب ذلك، فإن زوار سيد الشهداء عليه السلام يستحضرون - وهم يمشون ساعات وأياماً متطاولة - مفهوم الإمامة ولو بنحو اجمالي، والحشد الجماهيري يعمل على تعزيز هذه المكانة في نفوس أبنائنا من الأطفال والشباب وبنحو مكثف من الزخم العاطفي، ويحملهم الزخم نفسه على التعمق في معرفتهم والتزود من آثارهم، فيكبرون على التمسك بموالات أهل البيت: والتبري من أعدائهم، أعداء الدين والإنسانية.

٧-٢-٣ التربية الإيجابية

ثالث المعطيات التربوية لزيارة الأربعين المباركة هي التربية الإيجابية ونقصد بها المنهج القائم على الاهتمام بالسلوك السوي والتشجيع عليه دون التركيز على السلوك السلبي ومحاولة التصدي له، ذلك أن التشجيع على السلوك الإيجابي يتكفل بمعالجة السلوك السلبي بنحو تلقائي، فبدلاً من أن نتحدث عن مساوئ الكذب وعواقبه، نعزز الصدق ونكافئ المتصفين به، وبدلاً من أن نشجب البخل، نمدح الكرم ونقدّر الممارسين له... وهذا لا يعني أن لا يكون لنا موقفاً اتجاه السلوك السلبي، ومحاربتة، والكشف عن نتائجه... بقدر ما نعتمد معالجته بطريقة أخرى، وهي التركيز والدفع إلى ممارسة السلوكيات الإيجابية، ومكافأة من يمارسه معنوياً، وقد ألح رسولنا الكريم صلى الله عليه وآله إلى جانب هام مما نحن فيه عبر جوابه عن العقل ماهو وكيف هو وما يتشعب منه بقوله:

«ومن المداومة على الخير كراهية الشر» (المجلسي، ١٩٨٣، ١: ١١٧). فالشخص الذي يتدرب على الأعمال الإيجابية (الخير) سوف يصل الى مرحلة نبذ الأعمال السلبية (الشر)، وممارسة زيارة الأربعين المباركة تمثل مسرحاً يحتشد بالسلوكيات الإيجابية والتشجيع عليها، وتكاد أن تنعدم فيه السلوكيات السلبية، لذلك أمكن اعتبارها أحد مصاديق التربية الإيجابية التي تطرقنا إليها.

٤-٢-٧ التربية العملية

رابع المعطيات التربوية لزيارة الأربعين المباركة هي تربية الأطفال والشباب على الأخلاق والأعمال والمبادئ الحسنة بطريقة عملية حية ملموسة قابلة للمحاكاة والتقليد، حيث يتيح موسم زيارة الأربعين المباركة عرض حزمة من السلوك السوي بنحو مستمر من قبيل السخاء والإيثار والتعاون والوفاء والإحترام...، مما يسهل على الأطفال مشاهدته وملاحظته، والتحفيز على تقليده فيما بعد، ذلك أن الطفل يحاول تقليد سلوك وطرائق تعامل الآخرين من خلال النظر والملاحظة بخاصة إذا كان السلوك الذي يشاهده مصحوباً بالإعجاب والإثارة أو يتم تقييمه من قبله بالنجاح (Zimbardo, Johnson & McCann, 2013).

وتعتبر المحاكاة من أهم مصادر عمليات التعليم بالنسبة الى الأطفال، ولعلها من أكثر الطرق التربوية فاعلية وخطورة في اكتساب الأطفال للسلوكيات الجديدة وبخاصة السلوك العدواني، حيث أجريت العديد من الدراسات حول تأثير مشاهد السلوك العنيف على ممارسة الطفل للعنف، فتوصل الباحثون الى تأكيد هذه الفرضية، ومن أشهر التجارب في هذا المجال تجربة النفساني المعروف ألبرت بندورا (Albert Bandura) فقد أخضع بعض الأطفال في مختبره لمشاهدة مجموعة من البالغين وهم يركلون ويضربون شخصية من البلاستيك على هيئة مهرج، فكان سلوكهم بعد هذه المشاهدة أكثر عنفاً من الأطفال الذين لم يشاهدوا السلوك العنيف (Bandura et al., 1963).

٧-٣ الإعلام وعنف الأطفال

الموضوع الذي نحن بصدد التطرق اليه من الموضوعات الاجتماعية الهامة، وقد استدعى اهتمام العديد من الباحثين الذين حاولوا دراسة تأثيرات العنف في الإعلام على المشاهدين، وأغلب الدراسات في المجال المذكور أثبتت وجود علاقة قوية بين مشاهدة العنف وممارسة السلوك العنيف من قبل المشاهدين له (Huesmann & Moise, 1996; Primavera & Heron, 1996). ويتزايد هذا التأثير على الأطفال والمراهقين بنحو شديد، وحوادث العنف والقتل الحاصلة لهذه الشريحة بالذات في العالم الغربي متواصلة وبخاصة في المجتمع الأمريكي، فبين الفترة والأخرى تطلعننا الأخبار بسيناريو دموي أبطاله من المراهقين وضحاياه من نفس الشريحة، وحادثة أو قل حمام الدم الذي وقع في كلية كولمبينة في لنتون (The Columbine High School) عام ١٩٩٩ تعكس صورة العنف وتأثير الإعلام على سلوك الأطفال والمراهقين في تلك المجتمعات حيث قتل إثنان من الطلاب اثني عشر زميلاً لهم مع أحد المدرسين، مضافاً إلى قتلها أنفسهما، والمحصلة قتل خمسة عشر شخصاً، وثلاثة وعشرين جريحاً، وكان المخطط حسب وصيتهم في تسجيل الفيديو الذي شرحا به دوافعهما قتل (٢٥٠) شخصاً، ومن بين أسباب هذا الحادث الرئيسة حسب دراسة آرنسون هو تأثير الإعلام ومشاهد العنف على الأطفال والمراهقين (Aronson, 2000).

إن المعطيات العلمية في المجال الذي نحن بصده مفزعة وتثير القلق والمخاوف على الأطفال، بل وعلى المجتمع الإنساني بأسره ذلك بسبب ما يتعرض له الأطفال من الإعلام الغير مسؤول. فقد أشار أحد علماء النفس الاجتماعي الى حقيقة في غاية الخطورة، حيث قدّم إحصائية عن كمية وشدة العنف الذي يحصل عليه الطفل الأمريكي من خلال التلفزيون، فكانت النتيجة أن معدل ما يشاهده الطفل عند نهايته للدراسة

الابتدائية هو ثمانية آلاف حالة قتل (٨,٠٠٠) وأكثر من مئة ألف (١٠٠,٠٠٠) حالة من أعمال العنف (Eron, 2001). وهذه الأرقام تكشف عن شدة تفشي العنف في المجتمع، وفي نفس الوقت تعطي - الإحصائية المذكورة - تصوراً أولياً لطبيعة سلوك هؤلاء الأطفال في المستقبل.

وهناك العشرات من الدراسات التي تشير الى أن (٥٨) بالمئة من البرامج التلفزيونية تحتوي على العنف، و (٧٨) بالمئة منها لا تتضمن عرضاً لتوبة المجرمين، نقدم، أو معاقبتهم (Seppa, 1997) بمعنى أن النسبة المذكورة تشير للبرامج التلفزيونية المقدمة لمظاهر العنف من قتل وشجار ونهب ومطاردات... دون أن يكون هناك تعليق أو نقد لها من أجل تحذير وردع الناس عن ارتكابها،... الخ والغريب أن إحدى الدراسات تذكر بأن قرابة (٤٠) بالمئة من حوادث العنف التي عرضت لعام واحد من قبل الأبطال والشخصيات الفنية المشهورة كانت مخصصة للأطفال فقط (Cantor et al., 2001).

خطورة مثل هذه المعطيات تكمن في قابلية محاكاة الأطفال لهذه النماذج وتمثيلها في الحياة العملية ولو بعد حين، حيث تؤكد الدراسات المتعددة حول هذه المسألة الى أن كلما ازدادت مشاهدة الطفل الى العنف، كلما ازدادت ممارسته للعنف حينما يصل مرحلة المراهقة والشباب (Eron, 1982; Eron, Huesmann, Ickowitz & Walder, 1996). بل وأكثر من ذلك، حيث أوضحت إحدى التجارب التي قام بها الباحثان روبرت ليبرت و روبرت بارون (Robert Liebert & Robert Baron) سرعة تأثير الأطفال بمشاهد العنف، والتجربة بغاية البساطة فقد قسموا مجموعة من الأطفال الى قسمين. قسم عرضوا له حلقة من مسلسل بوليسي عنيف، والقسم الثاني عرضوا له فيلماً رياضياً مثيراً ولكن خال من العنف، وبعد ذلك أخرجوا الأطفال وسمحوا لهم باختيار الغرف المعدة للعب والترفيه مع أطفال آخرين، فلاحظوا أن الأطفال الذين شاهدوا المسلسل البوليسي كانوا أكثر عنفاً من الأطفال الذين شاهدوا الفيلم الرياضي (Liebert & Baron, 1972). وقد

أجريت تجارب مشابهة متعددة حول نفس الموضوع من قبيل تجربة وندي جوزيفسون على الرياضة وغيره، فجاءت النتائج متوافقة فيما يتعلق بالتأثير المباشر للمشاهدات العنيفة على ممارسة العنف بالنسبة الى الأطفال.

٧-٤ التأثير الإعلامي الإيجابي

إلى جانب الحقائق المخيفة والمقلقة التي تطرقنا إليها في الموضوع السابق، فهناك من الدراسات التي تشير إلى الدور الإيجابي للإعلام السوي في تحفيز الأطفال على محاكاة السلوك الإيجابي، وتعلم المبادئ الضرورية والالتزام بها عبر تقليدها وتطبيقها في المجالات الحياتية المختلفة (Zimbardo, Johnson & McCann, 2013). ولا تسمح مقاصد الدراسة من التوسع في طرح التجارب والدراسات في هذا المجال. بيد أن الإشارة إلى بعض الحقائق العلمية بغية تزويد الباحثين بها في هذا السياق يفرض علينا ذلك، ومن الحقائق المشار إليها هي توظيف القطاع التربوي والتعليمي للتلفزيون عبر ما يعرف في بعض الدول الغربية بـ (المدرسة التلفزيونية) وهي برامج تعليمية مساندة للمواد الأساسية في المناهج الدراسية، تقدّم عبر برامج مسلية وترفيهية، وتشمل مراحل الابتدائية والمتوسطة، وذلك لإدراك القطاع التربوي والتعليمي حجم مساحة التلفزيون في حياة الأطفال وتفاعلهم معه. ولا تفوتنا الإشارة إلى أن الباحثين في مسألة (الهوية الذاتية) أو (self identity) للأشخاص وجدوا أن من بين الطرائق الهامة لتشكيل الهوية الذاتية -بمعنى الفوارق التي تميز شخصيتك عن الآخرين بالتفكير والسلوك- هي ما يعرف بالتطابق أو السعي للتشابه مع الشخصيات المشهورة في الحياة (الكتب الأدبية، الأفلام، الفن، والتلفزيون). فمن المعروف عند النظرية الإعلامية أن المشاهدين لديهم رغبة في التطابق مع الشخصيات الرئيسة المتمثلة بالصور المثالية للأبطال والبطلات. إن العاطفة التي تبعثها عملية التطابق تمنح المشاهد اللبنة الأساسية -وبنحو وقتي-

لتشكيل هويته الذاتية، فنحن نريد أن نكون تماماً مثل هؤلاء الأبطال أو ضدهم... إن هذه العملية ونقصد بها التطابق تجري مع الجميع الأطفال والبالغين (Frankenhuis, van der Hagen en Smelik, 2007). من الواضح أن الأطفال يبحثون بنشاط على القدوة في الحياة عبر الآباء، المدرسين، النجوم الفنية، الكتاب وفي قسم كبير من ذلك يحصلون عليها عبر الإعلام، فهم يعكسون تلك النماذج المثالية ويحاولون أن يتطابقون معهم، فهم بصراحة ينظرون إلى أنفسهم - يقيمون ذواتهم - وإلى الآخرين من خلال هذه النماذج المثالية عندهم. إن صورة الطفل لذاته مستمدة بجزء كبير من نظرة الآخرين لهم، والصور التلفزيونية في الحقيقة تمثل نظرة وموقف الآخر النموذجي للناس والأشياء، ولهذا يتأثر بها الأطفال وبخاصة في عملية تشكيل الهوية الذاتية.

من هنا تشير بعض الدراسات إلى الدور الإيجابي لبعض وسائل الإعلام في مساعدة الأطفال والشباب في عملية تشكيل الهوية الذاتية عبر مشاهدة المسلسلات والبرامج والخاصة، فهي توضح لهم الأمثلة الصحيحة والسلوكيات الإيجابية وتسلط الإضاءة النقدية على الشاذ والمنحرف والغير طبيعي.

ما يهمننا عبر كل ما تقدم هو الإشارة إلى تأثير الإعلام المحلي في تغطية ممارسة زيارة الأربعين المباركة على سلوك أطفالنا وانشدادهم إلى محاكاة الأعمال التي يقوم بها المتطوعون في خدمة زوار سيد الشهداء عليه السلام فبالرغم من عدم توفرنا على دراسات واسعة بهذا المجال لكننا لاحظنا تأثير ذلك من خلال أطفالنا في الغرب، حيث تشدهم المشاهدة إليها، وتدفعهم إلى محاكاتها والإلتحاق كل سنة في ممارستها، وقد بدأت أكثر من مجموعة شبابية في أكثر من مدينة أوروبية بنقل وتقليد ثقافة زيارة الأربعين المباركة إلى العالم الأوروبي، وذلك بنصب سرادق تقديم الأشرطة الساخنة والفاكهة على غرار أعمال المواكب الحسينية في موسم زيارة الأربعين المباركة، فكان لها وقع في نفوس الأوروبيين، والمسلمين المغتربين، وسبب مباشر في دفعهم للتعرف على شخصية سيد الشهداء عليه السلام.

ولتوثيق الحقائق فإن تأثر الشباب بثقافة سخاء الزيارة الأربعينية المباركة، والعمل على تقليدها وتبنيها لم ينحصر بالأنموذج المتقدم من أبنائنا في الغرب، فقد سبقهم أبناء أتباع أهل البيت (عليه السلام) في العديد من البلدان التي يسكنوها وأصبحت جزء أصيلاً من ممارساتهم الشعائرية، وقد أقمنا ببعض البلدان الإسلامية قبل عقدين من الزمن، ولم نلاحظ نشاطات الثقافة المذكورة في أيام الأربعين - وامتداهما الى المناسبات الأخرى - من نصب السراشق والتنافس في تقديم الخدمات.

ومن جديد، إن دور ممارسة زيارة الأربعين المباركة في التأثير السلوكي على الأطفال ومحاولة تقليد الأطفال إلى ما يشاهدونه من أعمال ايجابية لا يشك فيه إلا من لا خبرة له بفاعلية الزيارة نفسها، وقد عشنا التجربة نفسها حينما كنّا صغاراً، والآن بوسعنا أن نتحدث عمّا لمسناه من آثار وبركات على سلوكنا بنحو عام، ولعلي لا أبالغ إن قلت: إن زيارة الأربعين والشعائر الحسينية المباركة تمثل إحدى أهم مصادر ولائنا الأساسية لأهل البيت: والسبب الأصيل فيما نحن عليه من استقامة - إن جاز لنا أن نصف أنفسنا بالاستقامة - ومناعة وثبات ووضوح في الرؤية، وذلك لما ذكرناه سلفاً من أنها تمثل بوابة الأنفتاح على حقائق الإسلام التي جسدها سلوكهم المقدس (صلوات الله عليهم أجمعين).

٧-٥ المعطيات التعليمية لزيارة الأربعين المباركة

أفردنا لموضوع التعليم عنواناً خاصاً للتمييز بينه وبين موضوع التربية الذي كنّا قد تطرقنا إليه سلفاً، حيث سوف نعرض لبعض المهارات الاجتماعية والتعليمية التي يتم اكتسابها عبر موسم زيارة الأربعين المباركة، وهي من المهارات الضرورية التي تحظى بإهتمام المعنيين في الحقل التربوي والنفسي، وأول هذه المهارات هي:

٧-١.٥ المهارات الاجتماعية

يعاني الكثير من الناس - صغاراً وكباراً - من الصعوبة و- أحياناً - المشاكل في علاقته مع الآخرين، وذلك بسبب افتقاره للمهارات الاجتماعية. ولعل من المناسب إعطاء تعريف مبسط للمهارات الاجتماعية نفسها، لتكوين تصور عام عن الموضوع الذي نحن في صدد، لذا أمكن القول: أن المهارات الاجتماعية هي القدرة على التعامل مع الناس ببراعة وحذق ونجاح، وهي حاجات ضرورية للفرد والمجتمع. للفرد: لأنها تجنبه التوترات والمشاكل مع محيطه الاجتماعي وتجعله أكثر تكيفاً واندماجاً مع المجتمع، وتعكس نظرة إيجابية عن ذاته...، والمجتمع لأنها تحافظ على تواصل العلاقات الاجتماعية بطريقة إيجابية، وتعزز من مكانة الفرد وتأثيره في المجتمع وتماسك نسيج المجتمع بنحو عام نتيجة ممارسة المهارات الإيجابية من قبل أفراد. ومن أمثلة المهارات الاجتماعية:

- الاستماع الى الآخر.
- المحافظة على استمرار الحوار.
- الشناء على الآخرين بسبب قيامهم بأعمال جيدة.
- إعطاء وجهة نظرك الخاصة.
- الجرأة على رفض أمر ما.
- التغلب على الخجل.
- تقبل نقد الآخرين.
- تقديم النقد الى الآخرين.
- الجرأة في الدفاع عن نفسك وحقوقك دون إيذاء الآخرين بغير داع.

- الحساب الى مشاعر الآخرين في التعامل معهم.
- القدرة على استخدام المهارات الغير كلامية. (Hargie, 1997) كما سوف نتطرق الى ذلك في الموضوعات الآتية.

الملاحظ أن ثمة العديد من المراكز والشخصيات العلمية المهمة بمعالجة موضوع المهارات الاجتماعية، وان ثمة مبالغ ضخمة تنفق من قبل الحكومات والشركات والأشخاص على التعريف بهذا الموضوع وعلى ورشات العمل والتدريبات المعدة لإكتساب المهارات المشار اليها، إيماناً منهم بضرورته الكبيرة في الحياة الاجتماعية بعامه، وقطاعات العمل والحياة الاقتصادية بخاصة، في حين يفتقر العالم العربي على هذه المراكز وعلى الاهتمام بها من قبل المعنيين.

لذلك بالذات تبرز قيمة ممارسة زيارة الأربعين المباركة في مجال المهارات الاجتماعية، حيث بإمكاننا القول: أن موسم زيارة الأربعين المباركة من أضخم الورشات العملية في التدريب على المهارات الاجتماعية في العالم، ومن أكثرها نجاحاً، ذلك لأنها تتميز بـ:

- خلوها من التعقيدات التي تصحب عملية الانضمام الى المراكز المخصصة للتدريب في المجالات المذكورة، من قبيل: التحرج، البحث على المكانات الموثوقة، التسجيل، الوقت، وغيرها.

- سهولة الأداء وألفته، فهو يبدأ من ممارسات بسيطة جداً من قبيل: إلقاء التحية والسلام، الشناء، الإستماع والتعبير عن الرأي من خلال المشاركة في حديث، أو الانضمام الى مجموعة تشد بعض الأهازيج الشعبية الحماسية، أو الهتاف ببعض الشعارات المنдدة بالظلم والعدوان، وغيرها من نشاطات... كل هذه الأمور تكاد أن تكون مألوفة ومحبة عند مجتمعاتنا، ومن السهل ممارستها، وتطويرها للوصول الى مستويات أعلى وأوسع.

- تغيير الوجوه والحركة المستمرة بالنسبة الى الممارسين من الزوار ترفع عقبات التخرج من الآخرين، خلافاً فيما لو كانت الشخصيات التي يتدرب الشخص معها متكررة وثابتة، فالثناء على شخص أو السلام عليه، أو الإمتناع من تقبل شيء ما من شخص وأنت ماش أو هو مار عليك كما تمليه طبيعة ممارسة الزيارة أمر يساعد على ممارسة التدريب على المهارات الاجتماعية، وعدم الإنكماش منها مقارنة بالأشخاص الذين تربطك علاقات اجتماعية وعملية معهم.
 - الطابع الجماهيري، حيث يلعب حجم الممارسين لهذه المهارات دوراً كبيراً في تحفيز الآخرين على أدائها وكسر حاجز الخوف والتردد والخجل من ممارستها بالنسبة الى المعانين من الافتقار اليها، فللسلوك الجمعي في هذا المجال بصماته الإيجابية الواضحة.
 - مجانية التدريب، فالتدريب على هذه المهارات الاجتماعية لا يتطلب دفع أجور عليها كما هو الحال خارج إطار موسم زيارة الأربعين المباركة مما يشكل عائقاً للكثير من الشرائح الاجتماعية من ذوي الدخل المحدود.
- وفي سياق الحديث عن المهارات الاجتماعية وعلاقة موسم زيارة الأربعين المباركة في إسهاماته العملية على تفعيلها وتطويرها تجدربنا الإشارة الى الإحتكاك المباشر مع التقاليد والأعراف الاجتماعية لمجتمعاتنا الإسلامية المختلفة، ومنها على وجه التحديد المجتمع العراقي الذي يحتضن موسم الزيارة ويشارك فيه مشاركة قياسية، فقد لاحظنا أن الموسم عينه يمثل ميداناً واسعاً للتعرف على التقاليد والأعراف والأثر الثقافي لهذه الشعوب، فالناس لا تقارب الممارسة بمعزل عن ثقافتها وطرائقها الخاصة في التعامل والتفاعل مع الأشياء، وهذا ما يضيفي على الممارسة إثراءً ومتعة وحيوية، والكثير من الناس يحب معرفة التقاليد والأعراف التي ينتمي اليها أو حتى التي لا ينتمي اليها من أجل حب الإستطلاع، والبعض الآخر يسعى الى نقل تلك التقاليد الى الأجيال من أجل المحافظة

على الهوية الاجتماعية والطابع المميز لثقافته عن سائر الثقافات الأخرى، وإسلامياً لا غبار على هذه المسألة شريطة عدم تعارض تلك التقاليد والأعراف مع التصور الإسلامي للأشياء، وأغلب التقاليد والأعراف التي نحن بصددتها نابعة - والحمد لله - من المنظومة الإسلامية، ولكن بصبغة وطريقة اجتماعية خاصة بتلك الشعوب من قبيل: الضيافة، العزاء، المواساة، الحماسة، النجدة والمروءة... الخ

ومن أهم المهارات الاجتماعية ما سوف نعالجه في الموضوع المستقل التالي:

٧-٢٠ المهارات الكلامية (فن التخاطب)

الناطقية هي السمة المميزة للإنسان عن سائر المخلوقات، وهي الوسيلة الأكثر تأثيراً في تفاعل الفرد مع الآخرين ومع محيطه الاجتماعي، وهي الأداة السريعة في توصيل الأفكار وممارسة النصح والتعليم ونشر المعارف... وفي رأي أن تعلم هذه المهارة من الضرورات، حيث لا يكفي أن نمتلك القدرة على الكلام من دون تعلم مهاراتها واتباعها بنحو علمي. وفي رأي أيضاً أن تعلم المهارات الكلامية لا يتوقف عند مرحلة من مراحل العمر ولا على مستوى محدد، فالإنسان الناجح يبقى في مراجعة مهاراته الكلامية بنحو مستمر، ذلك أن التطور والمواكبة في المجال عينه لا يقف عند مستوى أو درجة معينة.

وفي الواقع، لسنا بصدد التعمق في هذا الحقل الواسع بقدر ما نهدف إلى إبراز مساهمة موسم زيارة الأربعين المباركة في مساعدة المشتركين فيها لتعلم وتنمية مهاراتهم الكلامية، حيث يلاحظ أن المرحلة الحضارية التي نعيشها تعرقل عمليات تنمية المهارات الكلامية، بل تعمل على وأد الكلام المنطوق ولا تتيح له مواصلة الحياة، وهذه واحدة من أفرات العالم الغربي المدمرة لحياة الإنسان الاجتماعية، فبدلاً من اجتماع الناس بعضهم مع البعض الآخر للتواصل والمحادثة وتبادل الأفكار والتخفيف عن همومهم

من خلال الشكوى والتنفيس عما يعتل في بواطنهم لبعضهم البعض الآخر، أصبح الجميع محققاً بالشاشات الصغيرة لأجهزة الهواتف الذكية وغيرها من أجهزة الحاسوب لساعات طويلة دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة، حيث يجلس بعضهم مع أفراد العائلة أو الأصدقاء دون أن يتحدث بجملة واحدة، بل وربما لا ينظر أحدهم في وجه الآخر... ليس بسبب الأدب والإحترام ولكن بسبب الانشغال بالهاتف! وهذا ما ساعد على توسيع دائرة العزلة والاعتزاف والأفتقار إلى المعاشرة الحميمية مع الآخرين، والأهم من جميع ذلك أن الوضع الراهن خلق لنا جيلاً مصاباً بإعاقة كلامية، وتسبب بفقدان الكثير للمهارات الكلامية، حيث أن الشخص منا يجلس مع أشخاص تجاوزوا العقد الثالث من العمر وهم لا يجيدون إجراء محادثة بسيطة أو القدرة على كسر حالة الصمت من خلال فتح حديث مع الآخرين أو طرح سؤال، وكثيراً ما يصاب أحدهم بالتلعثم حينما توجه له سؤالاً بسيطاً من قبيل: ما هي أخبارك؟... الخ.

دراسياً إن البيئة الغنية بالكلام تساعد الطفل على نجاح تطور قدراته الكلامية (Bil, 2007)، كما تشجع مثل هذه البيئة على ممارسة الكلام بالنسبة الى من تنخفض عنده الرغبة في ذلك بسبب الخجل أو التخوف أو قلة الممارسة، وموسم زيارة الأربعين المباركة يتوفر على ثروة هائلة من المحادثات الكلامية، والمفردات الاجتماعية، وطرائق أداء كلامية في منتهى الطاقة التعبيرية والتوصيلية والجاذبية... وبخاصة فيما يتعلق بجوانب:

- التحية.

- طريقة فتح الكلام.

- طرح السؤال.

- الإشادة.

- التشجيع.

- الإفصاح عن مشاعر المودة والتقدير والتعاطف، حيث تهدر حناجر خدام زوار الحسين عليه السلام بسيل من المفردات الزاخرة بالعاطفة النبيلة، وتتفرد بطرائق خاصة من الإلقاء، تبهر المتلقي وتمز مشاعره وتفرض عليه الاستجابة لها.

إن جملة صغيرة لا تتعدى الخمس مفردات يطلقها طفل صغير أمام مجموعة من الزوار الكبار بالسن، تكفي لإياقفهم عن المشي ونزولهم عند رغبته، فيكفي أن يرفع صوته ليحييهم باللهجة العراقية الشعبية: (هلة بزوار «أبو» علي) أو (هلة بزوار «أبو» السجاد) ليفتح بوابات وجدانهم، ويصل الى مقصده بأسرع الطرق، ولديهم أساليب خاصة في الإقناع بحيث لا يسع المشاة (الزوار) الإفلات من محاولة أحد المتطوعين من خدام الزيارة في دعوتهم للإستضافة وتقديم المساعدة. وقد شاهدت الكثير من الأطفال على طريق كربلاء ممن يجيدون استخدام المهارات الكلامية بنحو ملفت للنظر، ولعل الكثير من المثقفين والمسؤولين ومن يعملون في الحقل الاجتماعي لا يرقون الى مستويات مهاراتهم المذكورة.

يُضاف الى ذلك، المحاضرات، الخطب، الشعر، الأهازيج (الهوسات) التي تعج بها طرق احتضان الممارسة...

لا شك إن جميع هذه العناصر ترفع من إمكانية تطوير المهارات الكلامية عند المتلقين لها، وتتيح لهم أيضاً فرصة ممارستها... فكل سنة نشهد دفعات جديدة من الخطباء، المنشدين، الشعراء، والمتطوعين... منتشرين على محطات ممارسة الزيارة بعفوية ودافعية وفاعلية... وكل سنة تتولد طاقات وصدقات وتطبيقات... وكل سنة تزداد الحوارات والمحادثات والمباحثات بين الزائرين الكرام.

٧-٣ المهارات الغير كلامية

لا تفوتنا الإشارة الى المهارات الغير لفظية (non-verbal) المصاحبة للكلام أو ما

يستغنى بها أحياناً عن الكلام، وهي من الأهمية بمكان كبير، حيث يتوسل من خلالها بإنجاح عملية التواصل والتفاعل بين الناس.

يمكن إعطاء بعض الأمثلة على أهم هذه المهارات من قبيل:

- حركات اليد مثل: الإشارات المتعارفة على الموافقة، الرفض، النصر، الهزيمة، تحديد الاتجاه، وغيرها الكثير.

- التلاعب بحدة الصوت ارتفاعاً وانخفاضاً وإلقاءً مثل التلفظ بكلمة (تفضل) حيث يتدخل عامل الصوت في نطقها لتحديد عدة دلالات لها، فاذ قيلت بصوت مرتفع تختلف فيما لو قيلت بنحو هادئ، او متوسط، فقد يراد من الحالة الأولى: الغضب والأستياء، وفي الحالة الثانية: الضيافة أو تقديم حاجة ما بكيفية مؤدبة، وربما تشير الحالة الثالثة: لعدم التفاعل مع الموضوع أو عدم الرغبة الجادة من استخدامها أو أحياناً تطرح بلغة تهكمية...

- طريقة النظر حيث تلعب العين في التواصل مع الآخرين دوراً رئيسياً ومن الصعب توصيل بعض الانطباعات من دون الإعتماد عليها من قبيل: النظر للمتحدث بغية التعبير عن الاهتمام بالموضوع أو عدم تقبله، وغيرها من الأشياء التعبيرية.

- تقاسيم الوجه فإن أغلب ما يعبر فيه من مشاعر يتم عن طريق لوحة الوجه، حيث بالإمكان التعرف على المشاعر الأساسية وهي ستة: الفرح، الحزن، الخوف، الغضب، التعجب، والإشمئزاز من خلال الوجه في جميع أنحاء العالم، ومن دون أن ينطق الشخص كلمة واحدة، فلغة الوجه هي لغة عالمية، كما أكدت ذلك العديد من الدراسات ومنها دراسة ايكمان وزملائه التي استغرقت عشرات السنين على مختلف الثقافات (Ekman &

Friesen, 1969; Ekman, 1993; Ekman & Davidson, 1994).

ويذهب بعض الباحثين النفسانيين إلى أن استخدام اللغة الغير كلامية (non-verbal)

أو الإستعانة بها في التواصل الاجتماعي يفوق حجم استخدام اللغة اللفظية (verbal) فقد وصلت نسبة تداولها حسب إحدى الدراسات المختصة والمعتبرة الى (٩٨ ٪) (Tiemeijer, 2009). بمعنى أن ما يجري من تواصل بين الناس في الغالب هو لغة حركية جسمية مشاعرية غير كلامية، فما نعبر فيه عبر اللغة الجسمية أسرع وأصدق مما نستخدمه من كلمات ولغة محكية، علماً بأن مشاعرنا لا نستطيع التعبير عنها بالكلمات في الغالب، ولهذا يشدد المعنيين في حقل دراسات التواصل على ضرورة اتقان هذه المهارات وتطبيقها بصورة صحيحة من أجل التأثير الإيجابي على عملية التواصل مع الآخرين.

والملاحظ أن موسم الزيارة الأربعينية المباركة يتوفر على كم هائل من مزاولة هذه المهارات الغير لفظية وعلى تنوعها وتكررها، ويشكل فرصة نادرة للإحتكاك بها وتعلمها وتطبيقها، سواء أكان ذلك بصورة واعية أو غير واعية، كما يتيح فرصة التعرف على الكثير من الحقائق والصور النمطية ذات الصلة بالموضوع، حيث غالباً ما تتكون لدينا بعض الانطباعات النمطية (المسبقة) عن بعض الأشخاص بسبب نوعية نبرات كلامهم أو ملامح تعابيرهم الوجهية أو حركاتهم الجسمية، مما يدفعنا للإبتعاد عنهم أو عدم التقرب منهم أو أخذ فكرة سلبية عنهم، بيد أن ممارسة الزيارة تكشف لك صورة أخرى عن هؤلاء الناس، فكثيراً ما تشاهد المتطوعين لخدام الزيارة ممن تنطبق عليهم الصور المذكورة ولكنهم بمنتهى الأخلاق الإنسانية الرفيعة، ولا علاقة ببعض الملامح على طبيعة السلوك، أو التعرف على أن بعض تلك الحركات والإشارات لها دلالات معينة غير التي كان الشخص يفهمه منها. وهذا ما يعمل على تصحيح الأفكار والتصورات بين الناس.

لذلك كله، نجد أن ثمة أكثر من سبب على تأكيد قناعتنا بأهمية ممارسة زيارة الأربعين المباركة في الحقل التعليمي وبخاصة الجانب التطبيقي منه. وللأمر نفسه نوصي المعنيين في الجوانب المشار إليها للإفادة من المعطيات التعليمية نفسها، والعمل على تطويرها،

وتقديمها كوسائل وتقنيات جديدة في الأوساط المختصة بهذه الشؤون.

٦-٧ المعطيات الإصلاحية لزيارة الأربعين المباركة

ما نقصده من إصلاح في العنوان أعلاه هو إمكانية تعديل السلوك المرضي عند بعض الشخصيات، وتهذيب وتزكية أنفسها وأعمالها من خلال زيارة مرقد أهل البيت: وبخاصة زيارة سيد الشهداء عليه السلام ولنكون أكثر تحديداً: تقديم العلاج الإصلاحي من خلال الزيارات ذات الطابع الجماهيري الكبير، فقد ثبت من خلال الملاحظة العلمية الميدانية، والشهادات الموثقة لعدة من العلماء والمهتمين أن للزيارة وبخاصة زيارة الأربعين المباركة تأثيراً قوياً على إصلاح الشخصيات ذات السلوك السلبي والانحرافي.

١.٦-٧ رؤية علم النفس الإجرامي للانحراف

نشير في السياق ذاته الى بعض الحقائق التي زودنا بها علماء السلوك التربوي ومناهجهم في معالجة السلوك الإجرامي لدعم تصورنا في تأثير ممارسة الزيارة على معالجة السلوك المنحرف عبر العديد من الدراسات الأكاديمية الرصينة، حيث تؤكد الدراسات المهمة بتفسير السلوك المنحرف (جنح وجرائم) عند الشباب وحتى من تجاوز مرحلة الشباب على أن أهم أسباب الانحراف ما ينجم عن إنقطاع الترابط بين الشخص والمجتمع، وهو ما يضعف عملية تأثير الضبط الاجتماعي على الشخص نفسه، وأشهر الدراسات والنظريات حول هذا الموضوع - حسب تتبعنا - هي أعمال الباحث النفساني هيرشي Hirschi وبخاصة نظريته الموسومة بـ (نظرية الضبط الاجتماعي) أو (The social control theory). وقد أكد على المعطيات ذاتها جملة من الباحثين في نفس المجال، منهم: ليبلانك (Leblanc) في نظريته الموسومة بـ (أنموذج المسار الحياتي) أو (the life cycle model) (Leblanc, 1997)، و تورنبري (Thornberry) صاحب النظرية التفاعلية للانحراف أو

(The interactional theory of delinquency) (Thornberry, 1987)، وكاتالانو وهاوكينس (Catalano and Hawkins) في نظريتهما الموسومة بـ (أنموذج التنمية الاجتماعية) أو (The social development model) (Catalano and Hawkins, 1996) فالبينة الاجتماعية هي من تقدم الفرصة إلى ممارسة السلوك الاجتماعي الإيجابي عبر التواصل مع العناصر الإيجابية وتعلم المهارات المفضية إلى السلوك الإيجابي، وتعزيزها لممارسة ذلك السلوك من خلال مكافأته، ونقصد بها تثمين البيئة للسلوك السوي وتقديره، وبنفس الوقت فإن البيئة التي تقدم فرصة العلاقات الغير إيجابية، والمهارات التي تعمل على السلوك المنحرف وتشجيعها لمثل تلك التصرفات، فإن حدوث السلوك الغير إيجابي أمر متوقع.

٢-٦-٧ نظرية الضبط الاجتماعي social control theory

تؤكد نظرية الضبط الاجتماعي - والبعض يطلق عليها نظرية الترابط الاجتماعي - على وجود صلة متينة بين الترابطات الاجتماعية وبين جنوح الشباب وممارستهم للسلوك الإجرامي. والفكرة المركزية التي تنطلق منها هذه النظرية تكمن في أن السلوك المنحرف يأتي في الوقت الذي تضعف أو تنقطع فيه علاقة الشاب مع المجتمع.

حاول هيرشي تطبيق نظريته من خلال أربعة عناصر رئيسة هي كل من: التعلق، الالتزام، المشاركة، والإعتقاد.

التعلق Attachment: يحوم هذا العنصر حول التعلق العاطفي بالأشخاص الآخرين، فمن خلال هذا الرابط العاطفي تصبح لديك حساسية أو إحساس بأفكار ورغبات الأشخاص الذين تتعلق بهم.

الالتزام commitment: يحوم هذا العنصر حول إلترام بالواجبات، والتي يلزم الشخص بها نفسه للمحافظة على علاقته مع المجتمع وتجنب فقدانها، وهي التزامات عقلية أخلاقية بالدرجة الأولى سواء أكانت قانونية أم عرفية، فإذا كان الشاب يرغب

في الحصول على عمل أو شهادة مستقبلية - على سبيل المثال - فسوف يخسر الكثير متى ما خالف القانون عبر ارتكابه إحدى الجرائم لأنها سوف تؤخره وتسيء إلى سمعته....

المشاركة involvement: يحوم هذا العنصر حول عدد الواجبات والأنشطة لدى الشخص (المواعيد، الخطط، ساعات العمل...)، فكلما كان الشخص منشغلاً بالالتزامات والنشاطات، كلما أنعدم لديه الوقت للنشاطات الانحرافية.

الإعتقاد Belief: يحوم هذا العنصر حول الإيمان بصلاحيّة القوانين الاجتماعية، فكلما قلّ إيمانك بوجوب إتّباع القوانين الاجتماعية في كل الأحوال، كلما ازدادت فرصة مخالفتك لها (Hirschi, 1969).

المخالفون للقوانين هم أشخاص يعلمون بمخالفتهم للنظام القيمي العام للمجتمع، لكنهم يفتقدون الإحترام لتلك القيم وليس لديهم موقفاً إيجابياً منها. (Goethals, 2007).

لهذا بالذات تؤكد النظرية أعلاه على أن الترابطات بين العناصر الأربعة المذكورة إذا ضعفت، فإن احتمال حدوث الجريمة سوف يزداد، فهناك علاقة قوية بين ترابطات الشخص بالمجتمع وبين تنكبه ومخالفته للقيم والقوانين العامة.

الى جانب ذلك، فالباحثون يؤكدون على أن الشباب الذين يشعرون بارتباطهم مع المجتمع تقل خطورة تعرضهم للمشاكل السلوكية، كما أن موقفهم من الحياة يكون إيجابياً، ولديهم عقيدة كبيرة بتأثيرهم على الحياة، ويتحملون المسؤولية (Bil & Bil, 2007). وبعمامة فإن ثمة نتائج إيجابية تترتب على الفرد الذي يشعر بارتباطه في المجتمع الذي يعيش فيه، هذه النتائج تعود على الفرد نفسه، وعلى المحيط القريب له، وعلى المجتمع بنحو كلي.

٣-٦-٧ معالجة الزيارة للانحراف السلوكي

إن ما نخصنا من الاستشهاد بالحقائق المشار إليها في الموضوع السابق هو دعم دور موسم زيارة الأربعين المباركة في تصليح علاقة بعض أصحاب السلوك المنحرف بالمجتمع، والتي يتأسس عليها إصلاح سلوكهم المنحرف نفسه عبر نفس آلية إعادة صلة الترابط بالمجتمع، فممارسة الزيارة تقرّبهم من المجتمع بل وتعيدهم اليه، راميةً إياهم في أحضان أشرف شرائح المجتمع، وفي قلب حركة المثل والفضائل، وأكثر الأوقات تقرباً إلى الله تعالى حيث يعج مجتمع الزيارة بالمؤمنين، وبالسلوكيات الأخلاقية العظيمة، وبالأجواء العرفانية والروحانية، وهذا ما يحدث صعقة إيمانية وصحوة عقلية عند بعض المنحرفين ما ينعكس على مراجعة سلوكهم ومحاولة تعديله، وتعرضهم إلى رحمة الله تعالى التي تنزل على هذه الأمة من المؤمنين والمؤمنات. ومن البديهي الإشارة إلى النصوص المؤكدة على غفران ذنوب زوار سيد الشهداء عليه السلام فهي من الكثرة بمكان ضخّم. نذكر بعضها للكشف عن أصداء تأثيراتها العلاجية على النفوس التي تلوثت في يوم ما ببعض السلوكيات المنحرفة، فهي تغسل أدران التلوث وتفتح أمام الفرد باباً من أبواب الحياة الجديدة، وفيما يلي بعض من تلك النصوص الشريفة:

١. عن أبي عبد الله عليه السلام «قال: إن زائر الحسين جعل ذنوبه جسراً على باب داره ثم يعبرها، كما يخلف أحدكم الجسر وراءه إذا عبّر» (إبن قولويه، ١٣٥٦، ١٥٢).

٢. وعن بشير الدّهان، عن أبي عبد الله عليه السلام «قال: إن الرّجل ليخرج إلى قبر الحسين عليه السلام فله إذا خرج من أهله بكلّ خطوة مغفرة من ذنوبه، ثم لم يزل يقدّس بكلّ خطوة حتى يأتيه، فإذا أتاه ناجاه الله عزّ وجلّ فقال: عبدي سلني أعطك، أدعني أجبك، أطلب مني أعطك، سلني حاجتك اقضيها لك، قال: وقال أبو عبد الله عليه السلام: وحقّ على الله

أن يعطى ما بذل» (إبن قولويه، ١٣٥٦، ١٥٢).

٣. وعن الحارث بن المغيرة، عن أبي عبد الله عليه السلام «قال: إنَّ لله ملائكة مؤكِّلين بقبر الحسين عليه السلام، فإذا همَّ الرَّجُلُ بزيارته أعطاهم ذنوبه، فإذا خطا محوها، ثمَّ إذا خطا ضاعفوا حسناته، فما تزال حسناته تضاعف حتى توجب له الجنة، ثمَّ اكتنفوه وقدَّسوه، وينادون ملائكة السماء أن قدَّسوا زوَّار حبيب حبيب الله، فإذا اغتسلوا ناداهم محمدٌ ﷺ: يا وفدَ الله أبشروا بموافقتي في الجنة، ثمَّ ناداهم أمير المؤمنين عليه السلام: أنا ضامنٌ لقضاء حوائجكم ودفع البلاء عنكم في الدنيا والآخرة، ثمَّ اكتنفوهم عن إيمانهم وعن شمائلهم حتَّى ينصرفوا إلى أهاليهم» (إبن قولويه، ١٣٥٦، ١٥٣).

٤. وعن جابر الجعفي «قال: قال أبو عبد الله عليه السلام - في حديث طويل: فإذا انقلبت من عند قبر الحسين عليه السلام ناداك منادٍ لو سمعت مقالته لأقمت عُمرَكَ عند قبر الحسين عليه السلام وهو يقول: طوبى لك أيها العبد؛ قد غنمت وسلِّمت، قد غفَّر لك ما سلف فاستأنف العمل - وذكر الحديث بطوله» (إبن قولويه، ١٣٥٦، ١٥٣).

٥. وعن الحسين بن محمد القمي «قال: قال أبو الحسن موسى عليه السلام: أدنى ما يثاب به زائر الحسين عليه السلام بشاطئ الفرات إذا عرف حقه وحُرَّمته وولايته أن يغفر ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر» (إبن قولويه، ١٣٥٦، ١٥٣).

٦. وعن عبد الله بن يحيى الكاهلي، عن أبي عبد الله عليه السلام «قال: مَنْ أراد أن يكون في كرامة الله يوم القيامة وفي شفاعة محمد صلوات الله عليه وعلى آله، فليكن للحسين زائراً ينال من الله أفضل الكرامة وحسن الثواب، ولا يسأله عن ذنب عمَّله في حياته الدنيا ولو كانت ذنوبه عدد رملٍ عالٍ وجبال تهامة وزبد البحر، إنَّ الحسين [بن عليٍّ] قُتِلَ مظلوماً مُضطهداً نفسه، عطشاناً هو وأهل بيته وأصحابه» (إبن قولويه، ١٣٥٦، ١٥٣).

٧. وعن عبد الله بن مُسكان «قال: شهدتُ أبا عبد الله عليه السلام وقد أتاه قومٌ من أهل خراسان فسألوه عن إتيان قبر الحسين عليه السلام وما فيه من الفضل، قال: حدّثني أبي، عن جدّي أنّه كان يقول: مَنْ زاره يريد به وجه الله أخرجَه الله من ذنوبه كمولود وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، وشَيَعْتُهُ الملائكة في مسيره، فَرَفَرْتُ على رأسه قد صَفَّوا بأَجْنَحَتِهِمْ عليه حتّى يرجع إلى أهله، وسألتِ الملائكة المغفرةَ لَهُ مِنْ رَبِّهِ، وَغَشِيَتْهُ الرَّحْمَةُ مِنْ أَعْنَانِ السَّمَاءِ، وَنَادَتْهُ الملائكة: طِبْتَ وَطَابَ مَنْ زُرْتَ وَحُفِظَ فِي أَهْلِهِ» (إبن قولويه، ١٣٥٦، ١٥٤).

وقد أشار السيد محمد سعيد الحكيم حفظه الله - أحد مراجع النجف الأشرف المعاصرين - في أحد بحوثه الى تأثير إحياء مناسبات أهل البيت وبخاصة مناسبات سيد الشهداء عليه السلام في إصلاح أخلاق أتباع أهل البيت: والتأثر بسلوكهم وفضائلهم (الحكيم، ٢٠١٠). كما قد ذكر أستاذنا العلامة الآصفي رحمته في الموضوع ذاته ما تجدر الإشارة اليه حيث قال: «وأعرف شباباً وكهولاً وشيوخاً مثقلين بالذنوب والمعاصي محجوبين عن الله ورحمته، ذهبوا الى زيارة الحسين عليه السلام وحشروا أنفسهم في جماهير زوار الحسين عليه السلام، فرجعوا خفافاً، قد شملتهم رحمة الله ومغفرته، وقد عاهدوا الله ألا يعودوا إلى ما كانت تقترفه أيديهم من الذنوب من قبل، وعامة الناس يشهدون ويسمعون ويتناقلون هذه البركات في زيارة الحسين عليه السلام فيزدادون إقبالاً وشوقاً إلى هذه الزيارة» (الآصفى، ٢٠١٤). ونحن نؤكد أيضاً على هذه الحقائق، حيث لاحظنا آثار هذه الزيارة على تعديل سلوك بعض من كنّا نعرفهم ممن كانوا يعانون من الانحرافات السلوكية، فتعافوا منها بسبب المشاركة في زيارة سيد الشهداء عليه السلام.

والأمر الأكثر أهمية أن موسم الزيارة يطرح البديل الإيجابي للسلوك من خلال ما عرضنا له في الموضوعات السابقة من معطيات إيجابية، وهذا من أهم أدوات العلاج، حيث يعمل التعرض، والمعايشة، والإحتكاك بالسلوكيات السوية على اكتسابها وإحترامها وتمثلها في الحياة، وغالباً ما يفتقد المنحرفون الى عنصر التزود بالأمثلة الخيرة،

والنماذج المشرقة، فيتأسون بها ويسيرون على هديها، حيث يضع الشاب بعض النماذج (الصالحة أو الغير صالحة) نصب عينيه كأمثلة يحتذى بها بوعي أو غير وعي، وتعمل مجموعات الإحتكاك المباشرة وحتى الغير مباشرة من المعارف والأصدقاء والمناسبات على دفعه بقوة للتأثر بها كما أكّدت العديد من الدراسات على ذلك، فالإحتكاك بالمجموعات الصالحة يقود للسلوك الإيجابي، والعكس أيضاً صحيح، فالإحتكاك بالمجموعات المنحرفة يقود إلى الانحراف (Elliott, et al, 1979).

ولا شك أن الإحتكاك بجمهور زيارة الأربعين المباركة ومعايشة سلوكياتهم عن قرب يسهم في تعلق البراعم والشباب وغيرهم من الفئات العمرية بها، واتخاذها أمثلةً ونماذجاً في الحياة، وبخاصة أن المشارك لا يشعر بالعزلة أو النبذ أثناء إحتكاكه مع الجمهور الحسيني، فالجمهور الحسيني يتعامل مع كل المشاركين بسواسية من حيث التكریم والإحتفاء والتعاطف، ولا يُعنى بتأريخ الشخصيات وهوياتهم وأعمالهم السابقة، فإن جميع المتواجين مكرمون من قبل الجميع، فإن عين تواجدهم على ميدان ممارسة الزيارة يعد سبباً كاف للتعامل معهم بمنتهى التقدير، وهذه من جملة ما تتفرد بها طرائق زيارة الأربعين المباركة ومناخها الخاص، بل أن حجم الإحترام والاهتمام من قبل المشاركين يزداد بالإخوة الذين استجابوا إلى ربههم، ورجعوا إلى حضيرة المؤمنين من أصحاب السوابق الغير محمودة، كما شاهدنا ذلك عن قرب، وهذا ما يسهم بقوة في دفع الشريحة المذكورة للعمل على إصلاح سلوكها وتعزيز إنتمائها بالجمهور المؤمن.

٨. مكاسب زيارة الأربعين المباركة والسلوك المعتاد

يأتي هذا الفصل إستجابة لطلب معرفي عرضه بعض المهتمين بقضايا زيارة الأربعين المباركة، والطلب يتلخص بالسؤال التالي:

كيف يحافظ المشارك الكريم في ممارسة زيارة الأربعين المباركة سواء كان زائراً أو كان عاملاً متطوعاً في خدمة الزائرين على مكاسب الزيارة التربوية بعد انتهاء موسم الزيارة؟ والسؤال أعلاه من النداءات الجادة التي تصب في صميم رسالة الزيارة وتؤكد على أهمية دور التنمية البشرية الذي تستبطنه أدواتها الفاعلة، حيث يلاحظ أن الكثير من السلوكيات الإيجابية التي تظهر على ميدان الممارسة تضر وتكسر وتراجع بعد انتهاء الموسم الأربعيني مع بالغ الأسف، مما يتطلب منا التوقف إزاء الموضوع نفسه بالدراسة والتحليل والمناقشة المعمقة. بيد أن المهمة نفسها محفوفة بالمصاعب والجهود المضنية، وتتطلب صبراً من الباحث والمتلقي بغية إنجازها وفقاً للشرط العلمية، والإنتهاء الى نتائج عملية تستثمر معطياتها في شتى مجالات الحياة. وهذا ما نعتزم خوضه في الصفحات التالية مستهدفين معالجة إحدى أعقد مسائل الدراسات النفسية المتمثلة بـ(العادات السلوكية) حيث سوف نسلط الإضاءة على طبيعتها، طرائق عملها، وظائفها، إمكانية تغييرها، علاقتها بالاشعور، وغير ذلك من مسائل حساسة.

ولعل البعض يتساءل عن علاقة هذه المسألة بالسؤال الذي استهلينا به البحث، فنجيبه: إن موضوع (العادات) أو ما نفضل تسميته بـ (السلوك المعتاد) يتكفل بالإجابة على نسبة كبيرة من السؤال ذاته، حيث يستولي السلوك المعتاد على مساحة واسعة من

خارطة السلوك الإنساني، وهذا ما يفسر عدم استقرار الإيجابيات الجديدة والرجوع الى السلوكيات التي ألفناها بالرغم من إرادة التغيير المتوفرة لدينا، فمن دون التوفر على وعي مكثف وقناعة حقيقية فلن تستطيع الإرادة أن تحقق أهدافها. وهذا ما سوف نتناوله بالتحديد، علماً بأن المسألة نفسها قد شغلت إهتمام علماء السلوك المعاصر، ودفعت برامج الدول الغربية في ترشيد سلوك مواطنيها للمحافظة على الصحة وتقليل الإستهلاك وحماية البيئة... لبحثها بنحو جاد، مما يجدر بنا متابعة النتائج التي اسفر عنها البحث والانتفاع من معطياته المتوافقة مع التصورات الإسلامية في المسائل عينها. ولهذا بالذات اخترت من بين الأعمال الكثيرة في حقل دراسات (السلوك المعتاد) جانباً من الدراسة التي قدمتها جامعة أمستردام عن (علم النفس والسلوك الاختياري) للدكتور المتخصص في علم النفس الاجتماعي (هنك ارتس) من أجل الإنطلاق في مناقشة المسألة نفسها، نظراً لأهميتها ووضوح الإطار المنهجي الذي اعتمدته، علماً بأننا لم نقتصر عليها في معالجتنا للسلوك المعتاد، فقد استعنا بعدة مصادر ذات صلة بالمسألة المطروحة.

١.٨ نظرة عامة حول العادات السلوكية

يعتبر علماء السلوك البشري أن العادات السلوكية من الضرورات الوظيفية لأدائنا اليومي ذلك لأنها تمكننا من القيام بالعديد من الأفعال دون بذل الانتباه والتركيز. تصور لو أن الطباعة على لوحة الهاتف، سياقة السيارة، ارتداء الملابس تحتاج في كل مرة من القيام بها إلى تسليط الانتباه والتخطيط المركز، أو التعلم، لا شك سوف تكون العملية بالغة الصعوبة. فكلما فوضنا اللاشعور لأداء العديد من السلوكيات، كلما حصلنا على مساحة أوسع من النشاطات العقلية للأشياء التي تتطلب الانتباه الواعي.

وعليه فإن العادات مفيدة للغاية في تسير الكثير من المهام اليومية، بيد أن بإمكان العادات كذلك أن تعيق من تحركنا الإيجابي في الحياة، فقد تصبح عملية تغيير السلوك

نتيجة لسيطرة العادات أمراً في غاية الصعوبة.

إن الأنماط اللاشعورية والمتجذرة في أعماقنا من الصعب تغييرها، فللعادات قوة لا يستهان بها. ولعل أقرب تفهم لما نقصده الإشارات الواردة عن أمير المؤمنين عليه السلام إلى المعنى عينه والتي سوف نقف عندها في تضاعيف الدراسة، يقول عليه السلام: «العادة طبع ثان». (الري شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٢: حرف العين). وعنه عليه السلام: «للعادة على كل إنسان سلطان» (الري شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٢: حرف العين). وعنه عليه السلام: «العادة عدو متملك» (الري شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٢: حرف العين).

إن خطورة تدخل العادات المباشر في توجيه السلوك البشري ينعكس على صحة وسلامة وأمن المجتمع بأسره، ولا يقف عند حدود الشخص الخاصة، وهذا ما يفرض على الجهات المسؤولة التعامل معه بجدية عالية، فهناك العديد من المشاكل الاجتماعية التي تكلف المجتمعات البشرية الكثير من الخسائر المادية والمعنوية لا يمكن حلها من دون تغيير البشر لعاداتهم السلوكية من قبيل: المشاكل الصحية، إهدار الوقت، الإستهلاك الغير عادل للموارد الطبيعية، الإنفاق الغير ضروري، التواصل السيء مع الآخرين أو ما يمكن وضعه في ملف التصرفات الغير أخلاقية.

من هنا بالذات تبذل الكثير من دول العالم وبخاصة الدول الغربية جهوداً ضخمة في مجال السياسات العاملة على تحقيق أهدافها الرامية إلى تغيير العادات الخاطئة عند مجتمعاتها، وذلك من خلال سن القوانين، الحوافز المالية، البنى التحتية، نشر الوعي والتعليم (Tiemeijer, Thomas en Prast, 2009).

القصد من الوسائل المذكورة هو ترشيد السلوك الإنساني واخضاعه للشروط الصحيحة بغية صناعته بنحو مدروس وواع، فمن خلال تغيير نوايا الناس (التخطيطات الواعية) من قبيل التأكيد على منافع السلوك المرغوب فيه، وإظهار مضار السلوك الغير مرغوب فيه،... يتأمل المعنيون بتغيير السلوك الغير سوي عند الناس. بيد أن الافتراض

المذكور - حسب رأي أحد المختصين - لا يصح في كل وقت، ذلك ان نشر الوعي والتعليم يقودان الناس الى تكوين النوايا الصالحة من قبيل: تأثر المشاهد ببعض المعلومات الصحية، فيقرر على اثرها تناول الطعام بنحو غير مفرط أو بتناول الطعام الصحي، أو بالإمتناع عن التدخين،... لكن ينبغي ملاحظة أن نشر المعلومات العلمية لا علاقة له في تفاصيل المسائل العلمية المتعلقة بطبيعة تكرار السلوك الاجتماعي الغير مرغوب فيه. فالملاحظ أن تكرار السلوك يقود الى تشكيل ما يعرف بـ (العادة)، وإذا شكّل المرء (عادة) من العادات السلوكية يصبح الاختيار المستقبلي للسلوك ذات الصلة بالجوانب الحياتية في الغالب تلقائياً.

إن تأثير النوايا أو المقاصد الواعية - حسب ما يدعي المختصون بدراسة العادات - في تلك المجالات يكاد أن يكون ضئيلاً أو منعدماً في الكثير من الأحيان. فحينما ينوي أحدنا الذهاب الى العمل أو الخروج للتسوق تقفز السيارة كوسيلة نقل في ذهنه بنحو تلقائي، بالرغم من معرفته المسبقة بأن المشي أمر صحي، أو أن استخدام السيارة يتسبب في صنع الزحام المروري، أو أن استخدام المواصلات العامة أرخص بالنسبة اليه وأنفع للبيئة. كما أن أحدنا إذا دخل المطعم فإن طلبه لوجبة الطعام سوف تكون من الأكلات التي إعتاد على تناولها، وليس الأكلات الخالية من الدهون أو المحتوية على الخضروات الضرورية، وهكذا الحال حينما نتزوار وتوضع امامنا الحلوى والمشروبات الغازية أو المحتوية على نسبة عالية من السكر والكافئين فإننا سوف نأكل ونشرب دون مراعاة المضار المترتبة على ذلك، والسبب يعود إلى تلقائية الاختيارات التي تصدر بدافع من العادات المرتكزة في العقل، وقد شبه بعض الباحثين طبيعة عمل العادات عند السلوك الإنساني بعمل الطيار الذي يضغط على المفاتيح والأزرار الموضوعة أمامه في غرفة القيادة بينما يراقب أجهزة الرادار وشاشة التلفاز والأجهزة الأخرى بنحو سريع وتلقائي أثناء قيادته للطائرة، ذلك لأنه إعتاد على عمله.

من هنا، أرتفعت أصوات المختصين بالسلوك البشري إلى الإلتفات الجاد لدور العادات في الأداء الوظيفي للسلوك البشري، ذلك لأن التأثير به، وتنظيمه يتطلب رؤية دقيقة للدور نفسه. ومن أجل فهم الدور المذكور لا بد من طرح الأسئلة التالية، ومحاولة الإجابة عليها:

كيف تنشأ العادات؟ وبأي وسيلة تبقى متعلقة وثابتة؟ وكيف يتسنى لنا كسر هذه العادات؟

ما هو الدور الذي يلعبه اللا شعور (اللا وعي) في توجيه سلوكنا واجراءه؟
كيف نؤثر بالعادات؟ وكيف نستطيع استبدالها من خلال المعطيات النفسية؟

٢.٨ ما هي العادات

١.٢.٨ تعريف العادة لغةً واصطلاحاً

عرّف صاحب لسان العرب العادة بـ (الديدن) «والديدن الدأب والاستمرار على الشيء، سميت بذلك لأن صاحبها يعاودها أي يرجع إليها مرة بعد أخرى، وجمعها عادات وعوائد» (ابن منظور، ١٩٧٠: ج ١: ٩٥٩).

وقال صاحب مفردات القرآن: «العود الرجوع الى الشيء بعد الانصراف عنه إما انصرفاً بالذات، أو بالقول والعزيمة. قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ (الأنعام: ٢٨)... والعادة: اسم لتكرير الفعل والانفعال حتى يصير ذلك سهلاً تعاطيه كالطبع، ولذلك قيل: العادة طبع ثان» (الأصفهاني، ١٤٢٤هـ: ٤٩٤).

وأما من حيث الإصطلاح فقد عرفها بعض المختصين بالفقه الإسلامي بتعاريف متعددة لا تخلوا من نقد، حيث سوى البعض بينها وبين مصطلح (العرف) وهذا أمر مرفوض وتعوزه الدقة، فقد ذهب صاحب كتاب (القواعد الفقهية الكبرى) الى أن

العادة مرادفة للعرف (السدلان، ١٤١٧ هـ: ٣٣٣) وجاء في (الموسوعة الفقهية) حينما تعرضت الى مصطلح العادة تحت مادة العرف «وفي الاصطلاح هي: ما استمر الناس عليه على حكم المعقول وعادوا اليه مرة بعد أخرى. وقال ابن عابدين: العادة والعرف بمعنى واحد من حيث الماصدق وان اختلفا من حيث المفهوم» (الموسوعة الفقهية، ١٩٩٤: ٢٠: ٥٣). وقد لخص باحث معاصر القول فيها، فقال: «وللعلماء اتجاهات في تعريفها اصطلاحاً - يقصد العرف والعادة -: الاتجاه الأول: إن العرف والعادة لفظان مترادفان، فتعريف أحدهما تعريف للآخر... والاتجاه الثاني: قصر العادة على نوع من العرف وهو العرف العملي... والاتجاه الثالث: كون العادة أعم من العرف مطلقاً فالعرف يطلق على العادة الجماعية فقط، والعادة تطلق عليها وعلى الفردية، فالعرف أخص والعادة أعم، وعليه فكل عرف عادة وليس العكس.» (الكفراوي، ٢٠٠٢: ٥١٠). ولا يهمننا التعرض لذلك، فقد كشف عن خلل مثل هذه التعريفات وتداخل المفاهيم أكثر من باحث، فالعرف مفهوم لا علاقة له بمفهوم العادات السلوكية، ذلك أن المقصود بالعرف هو القوانين التي تسامت عليها المجتمعات سواء أكانت إيجابية أم سلبية، وليس السلوك الفردي الذي يسيطر على الشخص ويتكرر في اختياراته بنحو غير واع كما سوف نوضح ذلك.

ومن التعاريف التي أستوقفني ما أشار اليه صاحب كتاب التقرير والتحجير في شرح التحرير حيث عرفها بـ «الأمر المتكرر من غير علاقة عقلية» (الحلبي، ١٩٩٩: ١: ٢٨٢). فالتعريف الأخير يشير بنحو صريح الى تدخل اللا شعور بالعادة.

وأهم ما ورد في تعريفها والكشف عن حقيقتها ما أثر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حيث قال:

«العادة طبع ثانٍ» (الري شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٢: حرف العين). فهذا التعريف بالرغم من اختصاره يفصح عن كل ما يراد أن يقال في وصف العادة، فهي طبع ثان

والطبع هو السجية والصفة التي يجبل ويفطر عليها المرء حتى تغلب على سلوكه وحتى يعرف بها مثل الشجاعة والسخاء والتسامح، وفي قوله طبع ثان إشارة الى قوة رسوخها الى درجة وصولها الى مرتبة الطبع. وقد ورد عنه عليه السلام ما يشير الى أن العادات غالباً ما تمثل هوية للشخص، فهي تحدد ملامحه العامة التي يعرف بها، قال عليه السلام في وصيته للحسين عليه السلام: «ومن أكثر من شيء عُرف به» (الحراني، ١٩٦١: ٥٩).

ومن جميع ما تقدم، يمكن القول بأن العادة هي تكرار السلوك بنحو تلقائي غير واع، وذلك بسبب تطبع لإنسان عليها وارتكازها في عقله حتى تصبح طابعاً يعرف به. والآن نتجه وجهة الدراسات الاكاديمية المتخصصة بهذا الجانب لنرى ماذا تقول بهذا الشأن.

٢.٢.٨ العادة في الدراسات الأكاديمية

يحتفظ مفهوم (العادة) في ميادين العلوم الاجتماعية بجملة من التوصيفات والتعريفات، لهذا لا يوجد تعريف موحد يمكن الاعتماد عليه، فكل فرع له وجهة نظر خاصة به.

الاجتماعيون على سبيل المثال: يطلقون على العادات مصطلح (الأنماط المنظمة للسلوك) والتي هي نتيجة للتفاعل بين المجتمع والأفراد، والعادات عندهم تضطلع بوظيفة المراقبة لشكل واستقرار الحضارة والثقافة، فالاجتماعيون يطبقون تعريفاً واسعاً على مفهوم العادات حيث تدخل: التعاملات، التقاليد، المعايير والقيم ضمن نفس المفهوم (Camir, 1986). ولعلّ تفسير علماء الاجتماع للعادات تشابه مع ما تقدم في مباحث علماء الأصول المسلمين لمفهوم العرف، وبخاصة في جوانب دراسة دور السياق الاجتماعي في صياغة القوانين الاجتماعية.

وأما أصحاب المنهج النشؤي (الداروينيون) فقد استخدموا مصطلح (العادات) لوصف السلوك الأساسي للأنواع الأدنى من المخلوقات كالحشرات وغيرها، فالمقاربات

كانت ذات صلة بالحقل الباحث عن موضوعات (الغريزة) أو (الفطرة) والتي يتطرق بها الى التصرفات الكامنة في الكائنات الحية، مما يفرض عليها أن تسلك بعض السلوكيات المحددة من قبيل: غريزة التكاثر، التودد، حفظ النفس وغيرها. ثم استخدم مفهوم العادة فيما بعد كمترادف لردة الفعل التي تجري عند الحوافز الحركية في الجسم والتي تنشط عبر الخلايا العصبية المتأثرة بالحافز الخارجي من قبيل أن تنقر على محل الركبة فتتحرك الساق متأثرة بذلك على نحو ردة فعل سريعة (Fearing, 1930)..

والمحصلة ان المفهوم أعلاه يشير الى الأنماط السلوكية الثابتة المتولدة عن العمليات البيولوجية والاجتماعية.

وأما في علم النفس فيذهب النفسانيون الى أن التحليل والدراسة تنصب على الفرد قبل كل شيء. حيث ان موضوع البحث هو العمليات العقلية التي يركز عليها تشكيل، تنفيذ، وثبوت العادات. الباحثون يحاولون تفهم كيفية تعلم وتنفيذ السلوك المعتاد من دون انتباه أو إعمال الوعي من قبيل: قيادة السيارة الشخصية إلى العمل، تناول المشروبات الغازية والأكلات السريعة كلما دخلنا إلى محلات الإستراحة (الكافتريا) وغيرها من سلوكيات صادرة عن الأعتياد والتلقائية.

إن البحث ينصب على وظيفة السلوك التلقائي بحيث يختفي دور الانتباه الواعي والصدور عن نوايا مدروسة كنتيجة طبيعية للتعلم المسبق والتمرين والأعتياد... وعلى التعطل الوظيفي للسلوك التلقائي نفسه بحيث تعمل العادات على إعاقه عملية تغيير السلوك. وفي كلتا الحالتين فإن السلوك المعتاد يمثل شكلاً من أشكال السلوك التلقائي الهادف - المتجه لتحقيق هدف معين - والذي يأتي من خلال الدربة والتكرار، فالإنسان يسعى عبر السلوك المعتاد إلى تحقيق هدف حتى لو لم يكن متنبهاً لذلك في لحظة أداء العمل.

٣-٨ تعلم وتنفيذ العادات

يصنف الباحثون العادات من حيث تعلمها - بنحو عام - إلى مستويين. المستوى الأول هو: طريقة التعلم المبتنية على المثيرات والاستجابات، والمستوى الثاني هو: التعلم الهادف أو الموجه لتحقيق هدف معين. وفي الموضوعات التالية سوف نرى كيف عالج علماء النفس كلتا الآليتين ونحاول أن نعالجها بنحو معمق.

١٣-٨ السلوك المعتاد كترابط بين المثيرات والاستجابات

البعض يجد أن العادات بعد تحليلها ودراستها يمكن اعتبارها كنوع من الترابطات بين المثيرات والاستجابات، مستندين بذلك على معطيات الاتجاه السلوكي المشهور في دراسة هذا الجانب، حيث يذهب السلوكيون إلى أن كل شكل من أشكال (التعلم) في جوهره يرجع إلى الإقتران (التداعي) بين المثير والاستجابة. هذه الترابطات أو الاقترانات تنشأ وتتأكد من خلال المكافآت أو الثواب الذي يعقب تنفيذ بعض الاستجابات كردة فعل على بعض المثيرات (Skinner, 1938). فالطفل الذي يرفع الهاتف ويجد أن المكالمات التي أجراها ظريفة، سوف يرفع من احتمالية رفع الهاتف عنده حينما يرن مجدداً. وكذلك يمكن للعقوبات أن تفعل نفس التداعي من قبيل إقتران رفع الهاتف بصعقة كهربائية، حيث سوف يؤثر ذلك سلباً على إقبال الطفل على رفع الهاتف بالمرات المقبلة، على اختلاف في فاعلية آليتي الثواب والعقاب في عملية التعلم كما هو موضح في الدراسات المختصة بهذا المجال.

على أية حال: إذا ما أعقبت هذه المكافآت - بنحو منتظم وثابت - استجابة محددة على مثير ما، فسوف تتشكل بين المثيرات والاستجابات اقتران أو ترابط قوي. هذا الترابط

يمكن اعتباره الشكل الأساسي للعادات.

المكافآت المعنية - حسب رأي الباحثين النفسانيين أنفسهم - يمكن أن تنشأ من مصادر مختلفة، وتتخذ أشكالاً مختلفة أيضاً، حيث يمكن على سبيل المثال: أن تعطى من خلال الآباء، والمعلمين، وكذلك من خلال الدولة من أجل التشجيع على تعلم المهارات الأساسية في الحياة. وهذا ما له علاقة بالتعليم الإجرائي (Operant Learning).

فمن خلال استخدام التعليم الإجرائي تستطيع الأعمال المقبلة أن تأتي بنحو تلقائي إن عززت بواسطة المكافآت، بينما يمكن عبر التقنيات البافلوفية التقليدية ان يتم تعليم العديد من العلاقات المعقدة بين المثير المصحوب بالمكافآت، والمثير الغير مصحوب بالمكافآت.

والآن يجدر بنا أن نعيد قراءة طريقتي التعليم التي يعتمد عليهما الاتجاه السلوكي، وهما: التعليم الشرطي، والتعليم الإجرائي، ولو بنحو سريع.

التعليم الشرطي (Classical Conditioning)

يعود هذا النوع من التعليم إلى العالم الروسي الشهير إيفان بافلوف (Ivan Pavlov 1849 - 1936). والمفهوم الأساسي في بحث بافلوف هو اهتمامه في الاستجابات المتأتبة عن الأفعال الإنعكاسية الفطرية السهلة مثل افراز اللعاب، ردة فعل الركبة، وردة فعل رفة العين. ففي الظروف الطبيعية يتسبب المثير البيولوجي الهام بمثل هذه الاستجابات من أجل تحقيق بعض الأهداف الضرورية لنا. إن ردة فعل رفة العين - على سبيل المثال - تشكل مصدراً هاماً لحماية العين من الأجسام المنصدة بها، وكذلك ردة فعل افراز اللعاب يساعد على هضم الطعام.

في الحقيقة، إن أهمية اكتشاف بافلوف لهذا المبدأ تكمن في أن هذه الاستجابات

الإنعكاسية النسبية يمكن أن تربط مع مثير جديد لا علاقة بيولوجية له مع الاستجابات الإنعكاسية مثلما علم كلابه افراز اللعاب بمجرد استماعهن لصوت معين مثل صوت ملعقة الطعام أو الجرس.

لكي نفهم كيف يتكون مثل هذا الإشراف بين الاستجابات الإنعكاسية، أجرى بافلوف مع فريق عمله تجربة سهلة جداً، وذلك بعد ملاحظته بأن الكلاب تفرز اللعاب بمجرد سماعها صوت قدوم الحارس بالطعام، حيث كان يوضع الطعام بعد أن يطلق صوت الجرس، وبعد أن تكررت العملية بدأ الكلب يفرز اللعاب بمجرد سماع الصوت حتى ولو لم يقدم له الطعام.

من هنا بالذات، اكتشف بافلوف بأنه متى ما يقرن المثير المحايد (وهو مثير من طبيعته أن لا يثير استجابة مثل الصوت أو الضوء) مع مثير طبيعي (الطعام) فإن الاستجابة المحايدة (الشرطية) سوف تكون بعد تكرار الفعل مطابقة للاستجابة الطبيعية لردة الفعل الأصلية كما في مثال سيلان اللعاب عند سماع الصوت المصاحب لتقديم الطعام.

وبفضل الإقتران الشرطي فقد تعلم الإنسان - حسب ما يدعي أصحاب الاتجاه البافلوفي - الكثير من التداعيات مثل اقتران رائحة الدخان مع النار، وكذلك ما يحصل لنا من تداع حينما ننظر أو نسمع بالزهور أو تداع اللذة في الشوكولاته. ليس هذا فحسب، فإن تعلم الكثير من السلوكيات الإيجابية والسلبية يأتي نتيجة للإشراف مثل حب المدرسة لإقترانها بالمربي المحب للتلميذ، وتعلم بعض السلوكيات المرضية مثل المخاوف والفوبيا والنفور أو كراهية بعض الأشياء والأشخاص، بل وأكثر من ذلك، حيث وظفت المعطيات الشرطية على العلاج النفسي والعقلي من قبيل استبدال الأدوية الحقيقية المهدئة أو المحفزة لبعض الوظائف الدماغية بأدوية (محايدة أو وهمية placebo) غير محتوية على مواد كيميائية، فكان لها مفعولاً على الجسم مثل مفعول الأدوية المعززة بالموائد الكيميائية الحقيقية.

وبعامة فإن نظرية بافلوف تستند إلى عملية الارتباط الشرطي التي تؤكد على إمكانية اكتساب المثيرات البيئية المحايدة القدرة على التأثير في وظائف الجسم الطبيعية والنفسية في حالة تزامنهما بمثيرات مغايرة تثير بطبيعتها استجابة انعكاسية طبيعية.

التعليم الإجرائي Operant Learning

ينطلق هذا النوع من التعليم على الاستجابات الإرادية التي تصدر عن الشخص بعد أن كان قد تعلمها، ومحور هذا التعلم هو ما يعرف بـ (التعزيز Reinforcement) عواقب أو نتائج مبدأي الثواب والعقاب للاستجابة وليس المثير، فهما - الثواب والعقاب - من يؤثران على فرصة تكرار السلوك الذي يعقبانه، ومن جملة عواقب مبدأ الثواب المتداولة في الحياة هي: المال، المديح، الطعام، والدرجات العالية في الامتحانات، وبالنسبة إلى المؤمنين فلا شك أن تحقيق رضا الله تعالى يمثل أهم أشكال الثواب المحركة للسلوك... هذه الأشياء تعزز القيام بالسلوك فيما لو استتبعته، وهي ما يعرف بالتعزيز الإيجابي مثل حصول العامل على أجرته فور انتهائه من عمله أو تكريم شخص قام بمساعدة إحدى مؤسسات رعاية الأيتام. وأما أمثلة التعزيز السلبي وهو عبارة عن إزالة ألم أو شيء غير مرغوب فيه مثل استخدام المضلة (الشمسية) في الخروج تحت المطر، فهو أحد أشكال تعلم السلوك المنطوي تحت عنوان التعزيز السلبي، فالمستخدم للمضلة يعمل على تجنب مثير غير مرغوب فيه (البلل من المطر)، وهي نفس آلية استخدام سائقي السيارات الحديثة لحزام الأمان بمجرد جلوسهم خلف المقود تجنباً للإزعاج الحاصل من منبه السيارة، فالمستخدم يريد إسكات الصوت الذي يطلقه الجهاز المختص بتنبيه السائقين لضرورة تركيب الحزام، فالتعزيز السلبي ينشأ من خلال إزالة الصوت المزعج. وعليه فإن مصطلح التعزيز الإيجابي يعني إضافة أو تقديم شيء بينما يقصد بالتعزيز السلبي إزالة أو سحب شيء ما عقب حدوث استجابة معينة ما يؤدي لإقترانها فيها.

والمهم في هذا السياق معرفة أن مفهوم التعليم الإجرائي يتضمن جانبين:
الأول: ان التعليم الإجرائي يمكن تطبيقه على عدة أنماط سلوكية، وبهذا فهو أوسع نطاقاً من التعليم الشرطي.

الثاني: إن التعليم الإجرائي يشكل تفسيراً يمكن تعقله لطريقة تعلم الكائنات الحية للسلوكيات الجديدة والمعقدة، ولا تعتمد فقط على الأفعال الإنعكاسية الفطرية كما لاحظنا في التعلم الشرطي، فأنت تستطيع تعليم الطفل أو الكبير في السن القيام بعدة سلوكيات جديدة من خلال إثابة أو معاقبة الاستجابات وردود الأفعال الصادرة عن أفعاله، ومن محض إرادته.

من الحقائق المعروفة إن أول من عمل على هذا المفهوم داخل الاتجاه السلوكي هو (إدورد ثورندك 1898 - 1998) صاحب المبدأ التعليمي المعروف (التعلم بالمحاولة والخطأ trial and error Learning)، وهو أحد أشكال التعلم الاستثابي أو الإجرائي حيث يحمل التلميذ على أن يكتشف الاستجابة الصحيحة من خلال تكرار السلوك محاولةً لإيجاد الطريقة الصحيحة والاحتفاظ بها لأنها أدت إلى نتيجة جيدة، وقد طور خليفة العالم السلوكي الشهير بورهوس فريدريك سكينر Burrhus Frederic (1904 - 1990) Skinner) المبدأ نفسه، فهو يتفق معه في الخطوات الأساسية وقد بنى نظريته السلوكية على أفكاره حيث يؤمن بأن العواقب (التعزيزات) المتأتية عن البيئة تؤثر على الاستجابات المستقبلية للسلوك.

أهمية الترابطات بين المثيرات والاستجابات

لجميع ما تقدم، فقد أشار الباحثون في مجال دراسة العادات إلى أن التقنيات الشرطية المشار إليها توضح لنا الآليات الأساسية المسؤولة عن تشكيل عمليات المثيرات والاستجابات للعادات والتي يرمز إليها في الأوساط العلمية بـ (S-R) أو (م - س).

ينبغي التذكير بأن هذه الآليات تعمل في حياتنا اليومية بنحو تلقائي ومن دون سؤال. إن الحاجات الحيوية (البيولوجية) والاجتماعية من قبيل: (العطش، الجوع، المكانة الاجتماعية والتقدير...) تقود الى تناول الموضوعات أو القيام بالأفعال التي من شأنها أن تلبي الحاجة إليها أو اشباعها ولو بنحو جزئي مثل: تناول (الماء، الطعام، الحصول على المركز...) حيث ينظر الى هذه الأشياء على كونها مكافآت محتملة أو لنعبر عنها بطاقات تحفيزية كامنة، ولهذا بوسعها أن تحفز الناس الى القيام بالأعمال التي تقلل من الحاجة الحاجات واشباعها (Berridge, 2007). إن شرب كأس من الماء يعتبر مكافأة إذا كان المرء عطشاً، ولهذا فإن مشاهدة الكأس تستطيع أن تدفع السلوك نحو تناوله وشرب الماء.

والملاحظ أن المثير يستطيع بنفسه أن يحفز السلوك للقيام بعمل ما حتى ولو لم تكن هناك حاجة مثل حاجة العطش المذكورة تواءم، فيكفي أن ترى قنينة الماء فتتحرك نحوها، والسبب يكمن في اختزان المعلومات المتعلقة بنفس تأثيرات المثيرات والاستجابات كما في مثال رؤية قنينة الماء المعلبة بشكل مثير، ولهذا أيضاً يوظف المسؤولون على تسويق المنتجات المعطيات المذكورة لتظهر المنتجات بشكل يتمتع بالجاذبية ما يحرك رغبة الآخرين إليها، وهذا ما يفسر سبب قوة الإغراءات التي نتعرض إليها في حياتنا اليومية من مواجهة السلع والمواد مثل الطعام، المشروبات الغازية، المال، الجنس، الملابس وغيرها حسب رأي خبراء السلوك (Tiemeijer, Thomas en Prast, 2009).

إن المكافآت تلعب دوراً حاسماً في تعلم العادات المتوكئة على مبدأ المثيرات والاستجابات (م-س). ولخطورة هذا الأمر يقول الباحثان دكنسون و بالين: بمرور الزمن لا تعد ثمة من حاجة إلى المثيرات لتحقيق الاستجابات، ذلك متى ما اكتمل تشكيل الترابط بين العادات (المثيرات والاستجابات م-س) وأقترنت بالذاكرة (Dickinson en Balleine, 1995) وبخاصة إذا ما كان التداعي والإقتران بدرجة عالية من القوة، فإن أدنى ملاحظة للمثيرات تكفي لاستمرار الاستجابات التلقائية. إن هذه العملية تحدث دون

أن يكون هناك انتباه أو قصد (نية)، ففي هذه المرحلة يختفي دور المكافأة التي كانت في وقت سابق الدافع نحو السلوك أو الممارسة ذاتها. وهنا بالذات يكون الحديث عن (العادة) التي تولدت عبر الترابطات (م-س) الثابتة والمتجذرة في عمق العقل والجهاز الذهني.

بيد أن بالرغم من ثبوت الترابطات (م-س) في أسس العادات، فينبغي أن ندرك أن مثل هذه الترابطات تعمل بنحو أقل صرامة مما قد نتخيل. إن تنشيط وتفعيل الكثير من الترابطات (م-س) يعتمد على أهدافنا في حالات محددة حسب رأي هوميل (Hommel, 1998). فعلى سبيل المثال: إن من يضع منبه الساعة لغرض إيقاظه إلى وقت العمل يومياً في ساعة ما، سوف لن يذهب - بمجرد استيقاظه على صوت المنبه - إلى الحمام ليذهب بعدها إلى عمله كما هو المعتاد في أيام العمل... بل سنجده في يوم عطلة نهاية الأسبوع سوف يذهب إلى احضار الجريدة من صندوق بريده. حيث سوف ينقطع الترابط بين صوت المنبه والذهاب إلى الإستحمام. هذا ما يؤكد هوميل في إمكانية تفكيك الترابط الذي تبتني عليه العادات، فاعتماداً على الهدف الذي يحمله الشخص في حالة معينة (العمل أو العطلة) يستطيع نفس المثير (منبه الوقت) اليومي أن يستثير استجابات مختلفة، وعلى هذا الأساس يمكن النظر الى العادات على أنها سلوك متعلق أو معتمد على هدف.

٢.٣.٨ العادات كمهارات معتمدة على هدف

يقول أحد الباحثين (ارتس): حينما تكون الأعمال بسيطة مثل الذهاب الى الباب عندما نسمع جرس الدار، فإن المرء يمكن له أن يعتبر (العادات) كتداعيات أو إقترانات (م-س) بسيطة، بيد أن أغلب سلوكياتنا الحياتية اليومية من قبيل إعداد الشاي أو السياقة الى العمل هي أكثر تعقيداً، ومع كل هذا التعقيد فإننا نتعامل معها كعادات تمارس من دون انتباه.

كيف نتعلم مثل هذه المهارات المعتادة؟ وما هو الشكل العام لبنيتها الأساسية؟
 يجيبنا كوير وشاليس على هذين السؤالين، حيث أوضحا بأن هذه المهارات يمكن وصفها بسلسلة من الاستجابات التي توضع من قبل الأهداف نفسها (Cooper en Shallice, 2006)، فعلى سبيل المثال: إن التعود (العادة) على إعداد الشاي بعد العشاء يمكن أن تُنشط من خلال الهدف ذي الصلة (وهو شرب الشاي بعد العشاء) حيث تجد أن هناك سلسلة من الاستجابات الموضوعة في طريق تحقيق ذلك الهدف، كل إستجابة تُنشط التالية: إن وضع الماء في إبريق الشاي يستتبع فتح النار تحته، وبعدها انتظار غليان الماء، وبعد ذلك وضع أوراق الشاي في الماء وهكذا... إن في مثل هذا التسلسل يتم تحديد الخطوة المقبلة من خلال الخطوة السابقة بغض النظر عن النتيجة في كل خطوة. الباحثون في هذا المجال يطلقون على هذه الخطوات (العملية ذات المسار المفتوح - open-loop-process).

تعتبر هذه العملية من الأساليب الجيدة في تنفيذ الإجراءات المعقدة، بحيث لا يوجد وقت للنظر إلى العواقب، ولا يسعك معالجة التقويمات أو ردود الأفعال، فعلى سبيل المثال: إذا أردت أن تطبع رسالة على آلة جهاز الحاسوب في تسلسل سريع حسب معرفتك المسبقة في أماكن الحروف، فإن الأمر يتطلب أن تكون مواضع الحروف ثابتة ومتطابقة في كل مرة، ذلك أن أدنى تغيير أو إنحراف في مواضع الحروف وأماكنها سوف يقطع أداء التسلسل.

ربما يتصور البعض حسب المعطيات أعلاه أن من السهل كسر العادات، وذلك من خلال القيام ببعض الأعمال أو إحداث التغييرات الصغيرة في المحيط وبخاصة المحيط ذات العلاقة بصدور الأفعال. وهذا بصراحة تبسيط للمسألة، حيث يدعي الباحثون حول هذه الأمر بالتحديد أننا بسبب ما نجره يومياً من مجموعة أفعال هائلة في محيط متغير (مكان العمل، السوق، البيت: الصالة، الغرفة، المطبخ، الحمام... الخ) فإننا

مجهزون بأنموذج داخلي يُدعى بـ (عملية المسار المغلق) أو (closed-loop-proces)، في مثل هذه العملية يتم توجيه الأفعال الأدنى من قبل الأهداف العليا (Power, 1973). فنحن نقارن النتائج أو العواقب الملاحظة المترتبة على أعمالنا مع النتائج المتوقعة، ونلائم بعد ذلك أعمالنا المقبلة حتى نحصل على النتائج المرغوب فيها، فمثلاً: إذا أردنا صباحاً أن نذهب إلى العمل، نأخذ السيارة الشخصية تلقائياً ونقطع الطريق بالسياسة. الإجراءات التي نحتاجها لكي نصل إلى العمل في الغالب هي نفسها (تشغيل السيارة، الاتجاه نحو اليمين بعد إشارة المرور، عبور الجسر، وهكذا) بيد أن هذه الإجراءات تتعرض إلى ظروف متغيرة، حيث أحياناً ما تكون (إشارة المرور) حمراء بدلاً من أن تكون خضراء، أو حدوث مطر شديد،... الخ) ففي (عملية المسار المغلق) يتم استخدام ملاحظة الظروف من أجل تقديم الاختيار والملائمة للإجراءات المقبلة.

لهذا أمكن القول: بأن سلوكنا يتسم بالمرونة وأن البشر لديهم استعدادية لبلوغ أهدافهم تحت مختلف الظروف. إن القول: بأن الأهداف تلعب دوراً قيادياً في فاعلية السلوك المعتاد (المبني على العادة) لا يعني أن تنفيذ مثل هذا السلوك يحتاج إلى انتباه أو استحضار للوعي المركز (Fournier et Jeannerod, 1998). فحينما نتعلم سيطرة السيارة، فإن بداية التعلم تستدعي منا أن نبذل إنتباهاً كبيراً لاختيار الإجراءات المناسبة من قبيل تغيير التروس، الكاسبات، الدواسات، والإشارات الخ، لكن متى ما تدربنا على هذه المهارات بنحو كاف وأصبحت جزءاً من الأمور التي نحسن أدائها، لا تعد ثمة من حاجة إلى المزيد من الانتباه حينما تتطلب الحاجة ممارستها. إن السلوك سوف يسير على أسس عملية المسار المغلق (closed-loop-proces)، وسوف يصبح التنفيذ أكثر فاعلية ولا يحتاج المزيد من الانتباه والوعي المركز.

من الضروري التذكير بأن الأدلة العلمية (الأكاديمية) على الفكرة المتقدمة تطرح في إطار البحوث المهمة بـ (أداء المهمة المزدوجة dual task performance). في مثل هذه

البحوث يبدو أن الإنسان اذا ما واجهته مهمة محددة مثل : طباعة سلسلة متكونة من أربعة حروف على لوحة مفاتيح الحاسوب كاستجابة على أربع مثيرات مختلفة، وتدرّب عليها لبعض من الوقت، سوف يقوده ذلك التدرّب إلى انخفاض حالة التشويش والتداخل في وقت أدائه للمهمة الثانية، وان تطلب أداء المهمة الجديدة (الثانية) إلى الانتباه وتبسيط الوعي مثل (حل المسائل الحسابية). إن التداخل والتشويش في المهمة الثانية يحدث بوجه خاص في حالة عدم التدرّب على أداء المهمة بنحو سهل، بمعنى عدم وصولها إلى مرحلة العادة (Pashler en Johnston, 1998).

وبكلمة مختصرة، على العكس من المهارات الغير معتادة الجديدة، فإن المهارات المعتادة (التي أصبحت عادات) تعمل بنحو فعّال في نفس الوقت الذي يؤدي المرء فيه مهمة أخرى معها، وإن كانت هذه المهمة تتطلب انتباهاً ووعياً، من قبيل التحدث في الهاتف لحل قضية ما، وبنفس الوقت تسوق في السيارة، وعلى العكس فأنت لا تستطيع أن تطبع لأول مرة على الحاسوب، وبنفس الوقت تتحدث بالهاتف لحل مشكلة ما.

تجدر الإشارة إلى إن علم الأعصاب المعرفي يقدّم -أيضاً- دليلاً على أن المهارات المعتادة أو لنسميها بالمهارات الموجهة لتحقيق هدف معين تتطلب أقل انتباهاً ومراقبة للوعي (Kelly en Garavan, 2005).

في بحوث علم الأعصاب المعرفي يقدّم الباحثون صورة عن التشريح الوظيفي للمهارات المعتادة من خلال تقنيات التصوير العصبي مثل التصوير المقطعي بالأصداق البوزيترون تومغرافي (PET) والتصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي (fMRI). وبشكل عام يفترض الباحثون أن قشرة الفص الجبهي (pfc) (cortex)، القشرة الأمامية (anterior cingulate cortex) (acc)، والقشرة الخلفية الجزئية (ppc) (posterior partial cortex)، أهم المناطق القشرية الدماغية التي تتحكم بالانتباه والمراقبة الواعية مما يعني ان هذه المناطق تتدخل في تعلم وتنفيذ الأشياء الجديدة.

البحوث تظهر بأن الفرد كلما كرر أداء مهمة من المهام الى درجة تحولها الى عادة، فإن المناطق القشرية الأمامية تصبح شيئاً فشيئاً أقل نشاطاً في وقت أداء المهمة نفسها، في حين أن هناك نشاطاً كبيراً يتواجد في المكونات الدماغية المسؤولة عن تنظيم المهارات المعتادة مثل القشرة الأولية والثانوية الحسية والقشرة الحركية (primary and secondary sensory and motor cortex)، وهذا ما يسمى بـ (إعادة التوزيع الوظيفي)، فمن خلال التدريب يحدث تحول في المناطق الدماغية لتأخذ مهمة تنفيذ الأعمال نفسها.

٣.٣.٨ العادات، الاختيارات والسلوك الموجه لتحقيق هدف معين

حينما يريد المرء بلوغ هدف محدد، يتطلب ذلك منه - قبل كل شيء - أن يلائم المهارات المعتادة مع الظروف المتغيرة حسب ما يشير علماء السلوك. ففي الغالب يتمكن المرء في هذه العملية من اختيار خيارات متعددة في الأنماط السلوكية حيث يستطيع المرء أن يتوفر على - سبيل المثال - على سيارة أو دراجة هوائية للذهاب بهما الى محل عمله. كلتا الوسيلتان تتطلبان تسلسل الإجراءات المتبعة، إن تحقيق الهدف المنشود (الوصول الى العمل) يبدأ مع الانتقاء الواعي من خيارات الوسيلتين (السيارة أو الدراجة الهوائية)، وبعد التكرار والثبات على اختيار نفس العمل (الخيار) سوف لا نحصل على تسلسل الإجراءات وتتابعهما فحسب، بل سوف يصبح اختيار السلوك أمراً تلقائياً ألياً (Aarts en Dijksterhuis 2000; Bargh et al. 2001). بمعنى أن السلوك سوف يقترن بشدة مع الهدف، فبمجرد أن يكون الهدف ذات صلة بالسلوك تنطلق سلسلة من الإجراءات التي بُني عليها السلوك بنحو تلقائي.

مثل هذه الأهداف التلقائية تتواجد عند البشر كمخططات تصورية تحفظ على شكل رسومات معلوماتية في العقل، وذلك بسبب تكرارهم لهذه المخططات في الماضي حتى أصبحت المخططات نفسها (عادة) حقيقية، بمجرد ما تُنشط المخططات التصورية يعمل

السلوك الموجه لتحقيق الهدف ذات الصلة من دون أن يشكل الشخص في البدء نية أو قصداً للسلوك نفسه. وقد بُرهن على هذا المدعى عبر العديد من التجارب، فقد ظهر أن البشر يميلون تلقائياً لاستخدام الدراجة الهوائية أو السيارة بمجرد أن يكون لديهم هدفاً للتسوق، بيد أن ذلك لا يكون إلا إذا كانوا قد اختاروا استخدام إحدى تلك الوسيلتين في الماضي بنحو كبير كوسيلة للتنقل (Aarts en Dijksterhuis, 2000).

الباحثون الغربيون يؤكدون على أن الاختيارات التلقائية تفرض نفسها على عدة مجالات، وليس فقط بالمجال المذكور سلفاً، فقد أظهرت إحدى الدراسات التي أجريت على الطلبة في إنكلترا بأن المعتادين على شرب الكحول يختارون المشروبات الكحولية على غير الكحولية من دون تفكير حينما يكون هدفهم الترفيه مع الأصدقاء (Sheeran, Aarts et al. 2005).

وبكلمة مختصرة: إذا تطورت لدينا عادة قوية، فإننا نستطيع أن نبلغ أهدافنا بنحو تلقائي ولا نحتاج حينها للتفكير المصحوب بالوعي والانتباه لانتقاء الإجراء المناسب وتنفيذه.

ينبغي التنبيه بأن الفكرة الذاهبة إلى أن الانتباه الواعي والنية أو القصد تلعب دوراً محدوداً في السلوك المعتاد الموجه لتحقيق هدف معين، قد خضعت للدراسة أيضاً في حقل الدراسات المختصة بـ (التنبؤ عن السلوك) أو معرفة السلوك المسبقة، وقد أسفرت الدراسات عن نتائج هامة بهذا المجال. والسؤال الرئيس الذي كانت تنطلق منه الدراسات هو:

هل يسير السلوك الموجه الآن بنحو قصدي أو عاداتي (وفق العادة) ؟ وبكلمة أخرى: هل من الأفضل أن نتنبأ بما يقوم به البشر من أفعال في حياتهم الفعلية من خلال مقاصدهم (نواياهم) أو من خلال عاداتهم ؟

هل يمكنني معرفة ما سوف يأكله (محمد) مسبقاً في دعوة الغداء - المدعو لها من قبل أقرباءه - والمتنوعة الأكلات من خلال معرفتي بسلوك محمد المعتاد أم من خلال عزمه ونيته بأنه سوف يتناول الأكل الصحي فقط ويتجنب الأكل الدسم ؟

للإجابة على هذا السؤال تم بحث مجموعة كبيرة من السلوكيات الموجهة لتحقيق أهداف معينة والتي تتميز بطبيعة تكرارية - تحدث بتكرار في حياة الأشخاص من قبيل: التغيب عن الدوام، استهلاك الوجبات السريعة، ارتداء حزام الأمان أثناء السياقة، الهرولة الرياضية، مشاهدة التلفاز، الذهاب الى العمل بالسيارة الشخصية، إعادة تدوير النفايات من خلال عزل الزجاج عن الورق وعن البلاستيك.

في مثل هذه الدراسات يُسأل الناس ابتداءً: الى أي مدى كانت لديهم (نية) في المستقبل للقيام بسلوك محدد ذات طبيعة موجهة (سلوك هادف مثل المشي لمدة نصف ساعة يومياً). والى أي مدى أجروا السلوك نفسه بالماضي فعلياً، من أجل استخلاص مقياس لقوة العادة. وعلى أساس أجوبتهم - وبمساعدة التقنيات الإحصائية - يتم التنبؤ بدرجة قيامهم بالسلوك ذات الصلة في المستقبل أم لا. يقارن بعد ذلك هذا التنبؤ مع مقياس درجة القيام بالسلوك فعلياً، وعلى طوال فترة زمنية محددة.

ومحصلة هذه الدراسات توضح أن الأكتشاف أو النتيجة القياسية في مثل هذا النوع من الدراسات هي: أن كلاً من النية والعادة تقدمان مساهمة مستقلة للتنبؤ بالسلوك المستقبلي للإنسان (Arts, Verplanken en Van Knippenberg, 1998).

هذه المساهمة المستقلة للنية وللعادة توحى بأن بعض أجزاء السلوك التكراري تتطلب إنتابهاً ووعياً بيد أن الأجزاء الأخرى تسير دون إنتابه أو وعي، حيث يمكن للشخص أن يقرر بوعي الذهاب الى العمل كهدف من الأهداف، لكن بعد ذلك يأخذ سيارته الشخصية تلقائياً ويتجه الى العمل حسب الرتابة المعتادة. ربما يستعين وقت الرحلة من حين الى آخر بنظام المراقبة الذاتي (The feedback control system) أو نظام التحكم

المغلق (Closed loop) من أجل رعاية بلوغ المقصد وهو - كما في المثال المذكور - الوصول الى العمل . وبتعبير أوضح: ان تنفيذ السلوك المعتاد المعقد نسبياً يعتمد على الهدف الحالي الذي نسعى لتحقيقه . والسؤال الذي ينبغي أن يطرح هو:

هل أن السعي والتنفيذ للسلوك الهادف المعتاد بحاجة في كل وقت إلى الانتباه الواعي والنوايا أو أن المبادرة والتنفيذ يمكن أن يأتي عن طريق اللا وعي؟

لقد ألفت مجموعة من الدراسات المهمة بالمعطيات المذكورة الضوء على هذا السؤال المثير، فكانت الفرضية التي قد انطلقت منها تقضي أن السلوك الموجه لتحقيق هدف معين إذا ما أجري بمرات متعددة (غالباً) فانه سوف يصبح عادة، ولهذا فان العلاقة بين النية (المقصد) والسلوك المستقبلي سوف تصبح ضعيفة.

الباحثون قد درسوا هذه الفرضية في دراسة تناولت استخدام وسائل النقل (Arts, Verplanken en Van Knippenberg, 1998).

فقد وزعت استمارة استبيان على سكان بعض المدن الهولندية (Wijchen Velden) لغرض قياس (نواياهم) و (عاداتهم) بالنسبة الى استخدام وسائل النقل العامة (القطار وحافلات النقل) واستخدام السيارات الشخصية للذهاب إلى إحدى المدن الكبيرة المجاورة لهم، وهي مدينة نايميخن (Nijmegen) حيث أعطوهم مفكرة لتدوين يوميات السفر حتى يتضح بنحو محدد من في الغالب يسافر إلى مدينة نايميخن من خلال السيارة الشخصية، ومن قد استخدم المواصلات العامة.

النتائج أسفرت عن أن العادة تتفاعل مع النوايا في تنبأ السلوك، فإذا لم يطور الفرد عادة ما بنحو قوي كما هو الحال في استخدام السيارة الشخصية أو المواصلات العامة في ذهابه إلى العمل أو أي مكان آخر... فيمكن التنبؤ بوسيلة النقل المستقبلية له من خلال نيته، وإذا كان الفرد قد طور عادة ما بنحو قوي في المجال نفسه (من قبيل استخدام

السيارة الشخصية أو المواصلات العامة) فانه لا يمكن التنبؤ بوسيلة النقل المستقبلية له من خلال (النية)، حيث لا يمكن التعرف مسبقاً بأن الشخص نفسه سوف يذهب بالسيارة أو المواصلات العامة.

إن النوايا لا تمتلك - دائماً - قيمة تنبؤية بالسلوك المستقبلي حسب ما كشفت عن ذلك الدراسات التي أجريت على السلوكيات الموجهة لتحقيق أهداف معينة من قبيل: تناول الوجبات السريعة، تناول المشروبات الكحولية أثناء زيارة المقاهي، وطريقة التعامل بين الناس في العمل والمدرسة.

الظاهرة المشار إليها تحدث بنحو خاص عندما يكون السلوك الموجه مستمر ومتماسك في نفس البيئة والحالة التي يجري (ينفذ) بها (Danner, Aarts en De Vries, 2008). ولهذا يمكن التنبؤ به، وأما السلوك المتقطع أو الذي يحدث بالصدفة والحالات النادرة، أو البيئة والحالة التي لا تشابه بيئة وظروف السلوك المعتاد، فالتائج المذكورة لا تصلح له.

٤.٨ التطلع الغير واع للأهداف

صرّح بعض الباحثين بأن الفكرة الذاهبة الى أن السلوك الموجه يمكن له عبر تشكّل العادة أن يسير بنحو كامل من دون وعي، قد أوصلتنا الى أننا لا نختار أهدافنا ولا نتطلع إليها في كل وقت بأنفسنا. فقد تبين أن في بعض الأحيان ينشط المحيط والحالة بعض الأهداف عندنا، وإذا نشط الهدف في مرة من المرات عندنا بنحو غير واع، فإنه سوف يؤثر على سلوكنا، فيما لو تعرضنا لنفس الظروف والحالات التي كان قد نشط بها نفس الهدف.

فإن بارغ (van Bargh) وزملائه أثبتوا هذه النظرية من خلال دراستهم حول التنشيط المباشر للهدف من أجل أداء السلوك المرغوب فيه. فلقد أجروا دراستهم على العديد من طلاب جامعة نيو يورك، فأظهرت النتائج أن الطلاب الذين تعرضوا بطريقة بارعة الى

الكلمات المختصة بالأداء أو بذل الجهد مثل: أحرز، أجتهد، انجز، أنتصر، تنافس... كانوا أفضل وأقوى من غيرهم في بذل قصارى جهودهم في مهمة (حل اللغز) التي أعقبت سماع تلك الكلمات (Bargh et al. 2001).

استتلت هذه النتائج المثيرة للإهتمام إنطلاق العديد من البرامج البحثية المنصبة على دراسة تأثير المحيط الاجتماعي على السلوك التلقائي الهادف، فلقد أتضح بأننا نأخذ الأهداف التي نراها في سلوك الآخرين بنحو غير واع (Aarts, Gollwitzer en Hassin, 2004). فعلى سبيل المثال: إذا كان هناك شخص يشتري أسهماً ويحقق أرباحاً كبيرة، فسوف نعدى تلقائياً بهدف كسب المال، حسب رأي نفس الباحثين. ذلك أن الهدف المُعدي يعمل بقوة متى ما كان الهدف متأثراً من سلوك الآخر الى مجموعتنا الخاصة (Loersch, Aarts, Payne en Jefferis, 2008).

هذا الأمر يشير الى أن السلوك المُعدي بين الناس يمثل وسيلة فاعلة لإنسجام السلوك الإنساني مع بعضه البعض الآخر، وتسهيل العمليات الجماعية، كما أن ملاحظة أعضاء بعض المجموعات ممن يقترون ببعض الأهداف (الأعمال) الخاصة، يستطيعون إثارة سلوكياتنا الموجهة لتحقيق هدف معين بنحو غير واع (Aarts, et al. 2005; Custers et al. 2008). إن رؤية الممرضة يقودنا بنحو تلقائي الى التفكير بأنها تسعى لمساعدة الآخرين، بينما نعمل على الالتزام بالقوانين المرورية بعد أن نرى الشرطي ماراً في نفس الطريق الذي نسوق عليه. إن تفاعلنا مع الناس المهمين بالنسبة لنا مثل: الوالدان، الزوج أو الزوجة، الأقرباء، الأساتذة، وعلماء الدين يقود الى السلوك الموجه، السلوك الذي يتداعى لنا نتيجة الإقتران بالآخرين الذين أشرنا اليهم في مثال الممرضة والشرطي (Fitzimons en Bargh 2003; Shah 2003).

وليس فقط المحيط الاجتماعي من يستطيع بنحو غير واع أن يحرك دوافعنا الى السعي لبعض الأهداف، فالمحيط المادي أو البيئة الطبيعية (الحسية) لها أيضاً تأثير علينا، فرائحة

المنظف أو مواد التطهير تدفعنا الى المحافظة على نظافة المحيط المباشر والاعتناء به، دون أن نعي الرائحة نفسها والهدف الذي نشطته (Holland, Hendriks en Aarts, 2005).

٥.٨ علم النفس وتغيير السلوك المعتاد

ما تقدم من موضوعات توحى بأننا نعلم الكثير حول ما يصطلح عليه بـ (علم نفس العادات)، بيد أن المثير للغرابة - حسب رأي علماء النفس - هو قلة البحث المنهجي الذي يعرض بوضوح الى كيفية كسر السلوك المعتاد وتعديله. فالبحوث الموجودة في المجال المذكور بالفعل تنصب على معرفة حجم إمكانية تغيير العادات التي تعمل وفق مبدأ الترابط بين المثيرات والاستجابات (م - س).

إن الإطار العام لهذه الدراسات يؤكد على أن العادات المتأصلة بقوة وفق مبدأ الترابط بين المثيرات والاستجابات (م - س) من الصعب السيطرة عليه من خلال الانتباه الواعي والنوايا، ذلك أن هذه العادات غالباً ما يكون مقرها في شكل تلقائي وغير واعي من الذاكرة التي تعمل بنحو مستقل من أعلى الإدراك والوعي.

من الأمثلة النموذجية التي تطرح في هذا السياق هي تجربة (تأثير ستروب Stroop effect) نسبة الى الباحث الإنكليزي John Ridley Stroop. حيث أظهرت تجربته بأن البشر يجدون صعوبة في تسمية لون الكلمة حينما تكتب هذه الكلمة في لون غير متطابق مع معناها من قبيل: كتابة كلمة أحمر في لون أزرق. توضح هذه التجربة بأن العقل يعالج معنى الكلمة أسرع من لون الكلمة (اللون الذي كتبت فيه الكلمة). فإذا رأيت كلمة أزرق مكتوبة باللون الأحمر، فسوف يفكر العقل مباشرةً بمعنى الكلمة دون أن يلتفت الى اللون، مما يضطر لتصحيح نفسه مرة أخرى عبر القول (أحمر). كما توضح التجربة نفسها قوة تجذر معاني الكلمات وتمثلها في العقل الى درجة تنشطها وتدخلها بنحو تلقائي حينما يطلب منا تسمية اللون. الاختبار التالي يوضح ما نحن بصدد شرحه.

لو تحاول تسمية الألوان في سرعة بالشكل (أ)، فسوف لن تجد صعوبة،

ذلك أن معنى الكلمة واللون متطابقان، بينما سوف تجد تسمية ألوان الكلمات في الشكل (ب B) أصعب، وذلك لأن اللون يختلف عن معنى الكلمة، وهذا ما شرحناه في الأعلى.



على أية حال: نعود لمواصلة الموضوع الرئيس، فبقدر ما كانت العادات أكثر توجيهاً لتحقيق هدف معين، والسلوك يصبح أكثر تعقيداً، فإن هناك العديد من البواعث من أجل التوجيه والتغيير. وفيما يلي نعرض لثلاثة من الإمكانيات التي ينصب عملها لكسر العادة، وهي كل من:

١. رفع الانتباه الواعي فيما يتعلق بالاختيار السياقي.

٢. تشكيل ما يعرف بتنفيذ النوايا.

٣. التغيير في أولويات الأهداف الغير واعية.

١.٥.٨ رفع الانتباه

كلما اتخذ الشخص اختياراً محدداً واجراه في الغالب من قبيل الذهاب إلى العمل بالسيارة الشخصية، فسوف تصبح عملية القرار التي تسبق هذا الاختيار شديدة التلقائية، حيث تقل شيئاً فشيئاً عملية الاختيار الواعي لنفس الاختيار.

في الواقع أن مثل هذه التلقائية للإختيارات تعد مسألة وظيفية للغاية، فهي تتكفل بتوفير الوقت والجهد الذهني، وليس ثمة من حاجة إلى إجراء الموازنات العقلية في كل مرة نعتزم فيها القيام بنفس الأعمال، وتتيح لنا تسليط الوعي والانتباه على القضايا التي تتطلب الانتباه المركز، بدلاً من أن نقف أمام مفتاح ضوء الحمام وننتبه إلى كيفية الضغط عليه حينما نريد إيقاده أو إطفائه، فإننا قد نفعل ذلك ونحن مشغولون بالحديث مع شخص آخر عبر الهاتف. ومن وجه آخر، فإن إهتمام الشخص يقل في اعتبار الاختيارات أو الأعمال المعتادة أموراً تتطلب اتخاذ قرارات أو تحتاج إلى تفكير، ولذلك فمن المحتمل بأن الشخص المعني سوف لن يلاحظ التغيير النافع في البدائل والسياق الذي يجري فيه

السلوك (Meykamp en Aarts, 1997).

تصور على سبيل المثال: سائقاً عريقاً (يمارس السياقة منذ عشرين سنة) بسبب التغيير في الطرق المروية أو بسبب ارتفاع الوقود، سوف ينتفع بالنسبة الى الوقت والتكاليف المالية إذا ما اختار وسيلة نقل أخرى مثل المواصلات العامة... فهل يترك استخدام سيارته الشخصية أم يبقى على نفس السلوك ؟

الكثير من محاولات تغيير العادات - حسب تصور علماء النفس - تصطدم بالسلوك المعتاد نفسه، وبخاصة من خلال إعاقة التنفيذ وتشجيع السلوكيات البديلة. من هنا تبرز أهمية (رفع الانتباه) في إنجاح مهمة كسر العادات، ومن الطرق الأقل مباشرة في كسرها هي جعل عملية الموازنة والتروي أكثر بروزاً وملاحظة قبل ممارسة السلوك.

هذه الإستراتيجية من الأساليب الفاعلة في عملية التغيير، فحتى الأشخاص الذين كانوا قد طوروا عادات مستحكمة، فسوف تكون لديهم بواعث في بعض الظروف على اجراء عملية الموازنة والتروي لبعض السلوكيات المعتادة بفضل استراتيجية (طريقة) رفع الانتباه وبخاصة إذا كان السلوك مستتبعاً لنتائج هامة.

خذ على سبيل المثال: التقدم إلى خطبة فتاة ذات مواصفات عالية تتطلب إتخاذ قرار بترك التدخين، أو اقدمك على مقابلة عمل هامة تقود الى إعادة التفكير بوسيلة النقل التي تعودت على استخدامها. فلا شك أن الشخص حينها يضاعف من رفع إنتباهه، ويتوقف عن الإنسياق لنفس العادة، ويعيد التفكير بالجوانب الأخرى للقضية، ويسلط الوعي على مكامن النفع والصلاح فيها... سوف يعمل على التغيير ومجاهدة السلوك المعتاد. ولنأخذ مثالا آخرًا: إن الشخص المعتاد على السهر، ويحصل على فرصة عمل ممتازة، لكنها تتطلب الشروع في العمل صباحاً مبكراً مما يعني تغيير عادة النوم، فإنه ومن خلال إبراز الفوائد المترتبة على الظفر والاستمرار بفرصة العمل سوف يتمكن من مجاهدة عادة السهر ويقلع عنها.

يولي علماء النفس الاجتماعي لهذه الإستراتيجية (الطريقة) في تغيير السلوك اهتماماً بالغاً، ولها تطبيقات في عدة مجالات (Cialdini 2001; Zimbardo en Leippe, 1991). فمن المعلوم أن المعلومات إذا هضمت بعمق ودقة بحيث يشعر الشخص بعلاقته بالموضوع أو يعلم بأنه سوف يحاسب بعد ذلك على الاختيار الذي اتخذه... فإن هذا الأمر سوف يشجعه على إختيار البدائل الأفضل.

الإمكانية الأخرى لكسر العادات تكمن في توعية الناس بـ (السياق الاختياري). وهو الظرف الذي يجري فيه السلوك غالباً. عبر هذه الطريقة نستطيع - حسب رأي بعض النفسانيين - أن نوعي الآخرين بالجوانب الخاصة بالسياق الذي يتواجد فيه السلوك المعتاد. أحد الأمثلة المطروحة في هذا المجال هي الدراسة التي أجريت على السائقين سيئي السمعة، وبالتحديد على سلوكهم المتعلق باستخدام السيارة. لقد طلب منهم بصراحة ووضوح وتحديد - قبل أن يستخدموا اية وسيلة نقل في تنقلاتهم - أن يفكروا بخصائص السفر مثل الظروف الجوية، المسافة، وعدد الأشخاص الذين يصطحبهم في السفر (Aarts et al. 1998). أوضحت النتائج أن السائقين الذين يتعرضون الى هذا النوع من التنبيه أو التوعية العالية للسياق الاختياري، فإنهم في البدء ينظرون الى مثل هذه الجوانب بعين الاعتبار وقت اتخاذ اختياراتهم، لكنهم ينساقون من جديد وبسرعة كبيرة دون تدبر وتفكير مع الطريقة المعتادة.

يقول النفسانيون في هذا السياق: إن البشر إذا كانوا قد طوروا لهم بالفعل بعض العادات السلوكية المحددة، فإنهم من المؤكد يتنبهون الى خصائص السياق الاختياري عندما يوجه انتباههم بنحو واضح الى هذه الأمور، لكن هذا التأثير وقتي للأسف.

تأسيساً على هذه الحقيقة فإن عملية تغيير العادات تنجح إذا كان الانتباه المركز طويلاً ومستمراً. إن الطريقة المذكورة من المرجح أن تعمل بنحو جيد في نطاق صغير نسبي في الحالات المشار إليها، حيث يتعرضون الى الإشارات أو الحوافز المنبعثة من السياق

الاختياري لمدة طويلة ومستمرة.

يشير الباحثون - أيضاً - إلى أن البشر يصبحون على وعي كبير بالسياق الاختياري إذا حدث تغييرٌ جذري في محيطهم، بحيث يجعل التغيير نفسه تحقيق العادات القديمة لأهدافها المنشودة أمراً غير ممكن. وبهذا السياق أجريت إحدى الدراسات على مجموعة من الطلبة لبحث إمكانية تغيير عاداتهم فيما لو غيروا أو انتقلوا عن مساكنهم القديمة بالسكن في أماكن أخرى (Wood, Tam en Wit, 2005). وقد كان على الطلبة أن يوضحوا في استمارة الإستبيان عن نواياهم وعاداتهم بالنسبة إلى النشاطات اليومية التي يقومون بها مثل: (قراءة الجريدة، تناول الوجبات السريعة، الرياضة)، واحتفظوا بعد ذلك بمفكرة يومية يسجلون فيها تلك الأنشطة بعد انتقلهم أو عدم انتقلهم.

النتائج أظهرت بأن عادات معينة مثل الرياضة كانت قد أختفت كنتيجة للانتقال، فعلى سبيل المثال أن النادي الرياضي لم يكن قريباً كالسابق من البيت، ولهذا حدث التغيير... بيد أن العادات الأخرى (تناول الوجبات السريعة) بقيت موجودة، وذلك أن الظروف والحالات التي تتواجد فيها لم تتغير تغييراً جذرياً قوياً، حيث أن الطريق إلى العمل قد تغير جزئياً، لكن المطعم الذي كان يشتري منه الوجبات السريعة لا يزال على نفس الطريق.

لقد كشفت الدراسة أعلاه عن حقائق مثيرة للأهتمام ومنها: أن التغيير في المحيط يتكفل من جديد بإمكانية التنبؤ بالعادات من خلال النوايا. هذه النتيجة توحي بأن التغيير في المحيط قد جعل عملية الموازنة والتروي قبل أداء السلوك أكثر بروزاً وملاحظة، ولهذا فإن البشر أكثر انفتاحاً واستعداداً لتغيير عاداتهم.

٢٠٥٨ نوايا التنفيذ

تغيير السلوك عبر رفع الوعي بالسياق الاختياري - في الواقع - موجه لتشجيع الناس على اتخاذ موازنة جديدة وتروي وتفكير في سلوكهم المعتاد، لكن لا يُوجه الى تغيير نفس الأفضليات من قبيل (من الآن فصاعداً سوف أذهب في الدراجة إلى عملي بدلاً من السيارة)، لذلك يجب تغيير نوايا الناس عبر وسيلتي نشر الوعي والتعليم. حيث يبدو للأسف أن قوة النوايا الجديدة غير كافية لكسر تلقائية العادات (Webb en Sheeran, 2006).

أظهرت البحوث الحديثة المعروفة بـ (نوايا التنفيذ) نتائجاً واعدة في كسر العادات، فنوايا التنفيذ تحدد الطريقة التي ينفذ بها السلوك الجديد. مثل هذه النوايا تتخذ الشكل التالي: إذا واجهت الحالة (أ) فأني أعمل (ب)، حيث يتضح بإنها تحدد النية للسلوك الجديد، على سبيل المثال، لنقرأ النية التالية: (يتعين عليّ أن أتحرك كثيراً في عملي من أجل المحافظة على صحتي) هذه النية ينبغي أن توضع في مستوى واضح ومحدد لكي يمكن تنفيذها، وهذا ما يستتبع الصياغة التالية للنية نفسها: (سوف أستخدم الدرج بدلاً من المصعد الكهربائي أثناء العمل).

الفكرة تحوم حول متى، أين وكيف يخطط الناس لتنفيذ السلوك الجديد. إن الشخص المعتاد على استخدام المصعد الكهربائي للوصول الى الطابق الثالث - ولأسباب صحية يريد استخدام الدرج - سوف ينتفع من وضع خطة يطبق بها الطريقة التالية: متى: (بمجرد الدخول الى المبنى) أين: (عند الباب) وكيف: (سوف أمشي باتجاه اليسار وادخل المصعد)، هكذا يطبق السلوك الجديد، فبالرغم من أن وضع مثل هذه الخطة وتطبيق الخطوات الثلاثة يتطلب بالفعل انتباهاً واعياً ووقتاً إلا أن فرصة كسر العادات كبيرة جداً.

الباحثون يشيرون الى أن السبب وراء فاعلية (تنفيذ النوايا) بقوة يكمن بأنها تفوض السيطرة على السلوك الجديد الى المحيط، فتشكيل (تنفيذ النوايا) يؤثر على عمل جهازنا المعرفي من خلال طريقتين:

الأولى: إنها (تنفيذ النوايا) تعمل على تقوية الترابط بين السلوك الجديد والحالة المستقبلية التي يجب أن ينفذ بها السلوك نفسه.

الثانية: من خلال صياغة تنفيذ النوايا أو التعبير عنها بوضوح يصبح السلوك ذو العلاقة والحالة أكثر يسراً للوصول إليها في الذاكرة، بمعنى سهولة استحضارها واستذكارها. فمن خلال الترابط القوي ورفع درجة الإنفتاح على الذاكرة سوف يتم معرفة الحالة مسبقاً، وإن السلوك المخطط له سوف يجري بتلقائية مسبقة كذلك.

وفي نفس الوقت توجد العديد من الدراسات التي أظهرت مفعول (تنفيذ النوايا) في سياق العمل، التعليم، الصحة، والبيئة (Gollwitzer en Sheeran, 2006). مضافاً الى ذلك فهناك بعض الدراسات التي أظهرت أن (تنفيذ النوايا) لا يستطيع كسر السلوك المعتاد فحسب، بل ويستطيع أيضاً المساعدة على تعليم العادات الجديدة أيضاً، فقد بحثت إحدى الدراسات التي أجريت على العاملين في مكاتب العمل موضوع تنفيذ النوايا فيما يخص إمكانية تغيير عادة رمي الورق والبلاستيك سوية في سلة المهملات إلى استبدالها بعادة عزلها عند الرمي في حاويات خاصة، يعزل فيها الورق عن البلاستيك والزجاج أيضاً لغرض تدوير هذه النفايات وإعادة إستخدامها من أجل حماية البيئة. ولحسن الحظ فقد تأكدت هذه المسألة، حيث أستمريت العادات الجديدة بوجودها وفعاليتها بعد شهرين على تشكيل (تنفيذ النوايا) (Holland, Aarts en Langendam, 2006). النتائج المذكورة تعزى في جانب كبير منها الى حقيقة أن السلوك الجديد استعان من الخدمات الجيدة الموجودة في تلك المكاتب لتسهيل تشكيل العادة الجديدة، كما يمكن نسبة إجراء السلوك الجديد إلى سهولة العملية بالمقارنة بالسلوك القديم (رمي المهملات سوية)،

فالعامل الذي يريد أن يرمي البلاستيك ويجد أمامه أن هناك حاوية مخصصة لهذا الأمر في نفس المكان، سوف لن يجد صعوبة في ممارسة هذه المهمة الجديدة، مما يرشحها في أن تكون عادة جديدة في حياته.

٣.٥.٨ تغيير الأولوية في الأهداف اللا واعية

مثلاً تقدم سلفاً، فإن الكثير من العادات ذات طابع موجه أو صاحبة هدف محدد، فنحن على سبيل المثال: نأخذ السيارة الشخصية من أجل الذهاب إلى العمل، ونحن نذهب إلى أماكن الإستراحة وتتناول المشروبات الكحولية مع الأصدقاء - حسب رأي الباحث الغربي-، ونحن نأكل الشوكولاته والبطاطس المقلية لأننا نجدها لذيدة. وبإختصار، فالناس تطور أو تصنع العادات ويجعلون من سلوكهم تلقائياً من أجل التوفر على أهدافهم الشخصية. مضافاً إلى ذلك، لقد لاحظ الباحثون أن الأهداف التي تدفع بالعادات إلى الظهور تستطيع أيضاً أن تؤثر على سلوكنا من دون وعي، وبخاصة إذا تم تنشيطها من خلال المحيط الاجتماعي والمادي. وهذا ما يجعل من تغيير السلوك المعتاد أكثر صعوبة، وذلك لأن الناس عادة ما لا يعون الأهداف التي توجه السلوك المعتاد، ولهذا بالتحديد لا يمكن مخاطبتهم عبر التوعية والتعليم والمسار العقلائي.

يشير الباحثون النفسانيون إلى أن بإمكان الأهداف المنشّطة من خلال اللا وعي أن تعيق تحركنا بنحو شديد، فعلى سبيل المثال: إن الشخص الذي يعمل على تخفيض وزنه سوف لن يتنفع من نية تخفيض الوزن حينما تُنشّط شهيته من دون وعي حينما يرى قطعة من الشوكولاته اللذيذة. وهكذا بالنسبة الى الطالب الذي قرب أداء امتحاناته ويتوجب عليه القراءة سوف يدفعه هدف الخروج مع الأصدقاء المنشّط من دون وعي بسبب مشاهدته إحدى مصطبات المقاهي الممتعة في الطريق، دون أن ينتبه الى نتائج هذا السلوك على مستقبله الدراسي.

من هنا يأتي السؤال فيما لو كان من الممكن إستبدال مثل هذه الأهداف المنشّطة من دون وعي وقتياً عبر أهداف أخرى من قبيل الزيادة من الأهداف المرغوب فيها والتي تُنشّط من دون وعي لتقوم بإستبعاد الأهداف الغير مرغوب فيها، ذلك لأنها سوف تتصارع معها وتتمكن من إزالتها. إذا قدّر لهذه المحاولة أن تنجح، فإن السلوك المعتاد سوف يتغير أيضاً، وذلك لأننا لا نستطيع أن نعمل بأكثر من شيء واحد في نفس الوقت (Aarts, Custers en Holland, 2007; Shah, Friedman en Kruglanski, 2002). بمعنى أن السلوك الإيجابي إذا كان أكثر حضوراً عند الشخص، فليس هناك مجال لأداء سلوك سلبي في آن واحد.

بالرغم من أن هذه الطريقة لا تزال في مراحلها الأولى، فإنها حققت نتائجاً مثيرة للإهتمام، ففي واحدة من الدراسات التي أجريت لإمتحان الفكرة نفسها تعرضت مجموعة من الطلبة - قبل أسبوع من أداء امتحانهم الدراسي - من دون وعي الى تنشيط الهدف المتعلق بالخروج مع الأصدقاء للتسلية وقضاء الوقت، حيث كانت قد أظهرت الدراسات السابقة بأن مثل هذا التنشيط الغير واع يستتلي ظهور السلوك المعتاد بنحو تلقائي. المدهش ان تأثير مُنشط السلوك اللاّواعي يزول حينما يُنشّط السلوك المنافس (الدراسة من أجل الامتحان) بنحو مباشر وبمجرد بدء تحريك السلوك اللاّواعي.

وبكلمة أخرى: إن تفعيل الهدف المنافس (الدراسة) من خلال المحيط يجمع عمل الهدف المنشّط مسبقاً (الخروج مع الأصدقاء) وبهذا يتم كسر السلوك المعتاد، ويعزز السلوك الهادف المرغوب فيه (Aarts et al. 2007).

كما أن الفكرة القائلة بتغيير أولويات الأهداف اللاّواعية من خلال استعمال صراع الأهداف فيما بينها أيضاً بحثت وأمتحت معطياتها عبر الدراسات المختصة بالسلوك الصحي، وتقليل الوزن (النحافة). فتقليل الوزن من المهمات الصعبة والتي في أغلب الأحيان تنتهي بالفشل، فنحن نأكل الكثير من الطعام المليء بالدهون ولا ننجح في

ممارسة الأكل الصحي، فالأغراءات على هذه الممارسة كبيرة جداً.

بعمامة يفترض بان مقاومة الأغراء يتطلب قوة الإرادة، ذلك لأن النداء يجب أن يتوجه إلى الانتباه الواعي وإلى النوايا من أجل تحقيق الهدف وعدم الضعف أو الرضوخ للأغراء. وحسب اغلب النظريات المشهورة أن تقليل الوزن لا ينجح إلا اذا انطلقنا من نية واعية للمهمة نفسها.

ولكن هل بالفعل أن هذه هي القصة الحقيقية؟ كما يقول أحد الباحثين، هل أن ما تقدم هو كل شيء أم أن هناك أمور أخرى؟

إن الكثير من العازمين على انقاص أوزانهم، يريدون حقيقة التقليل من وزنهم، لكن الحياة العملية اليومية تكشف عن أن تقرير مثل هذا الهدف الواعي لا يعمل حقاً.

أين ياترى يقع الخطأ؟ وهل يمكننا تحسين ذلك الأمر؟

في بحث حديث لمجموعة من العلماء الهولنديين أتضح أن تقليل الوزن غالباً ما يُمنى بالفشل لأن هناك صراع بين الهدف الحائم على الأكل اللذيذ وبين تقليل الوزن، وان الأكلات الشهية في محيطنا تطرد او تستبعد هدف ممارسة تقليل الوزن.

ان رؤية الكعك اللذيذة، الشوكولاتة، ورقائق البطاطا المقلية تثير الرغبات الغير واعية لتناول الطعام المذكور (Papies, Stroebe en Aarts, 2007).

كما إن الإلحاح على تناول الطعام الشهى يجمع أو يستبعد الهدف المتصارع وهو (تقليل الوزن) و النتيجة اننا بسرعة وسهولة نغير آراءنا في المسائل المذكورة، وهناك العديد من الدراسات التي تدعم هذه الفكرة (Papies, Stroebe en Aarts 2008a. 2008b; Stroebe, 2008).
(Papies en Aarts, 2008)

بالرغم من أن الكشوفات العلمية المذكورة مدعاة للإحباط إلا أنها لحسن الحظ تحمل أيضاً أملاً، حيث يمكن تعويض جزء من التأثيرات السلبية الناجمة عن مشاهدة الأطعمة

اللذيذة من خلال تنشيط الهدف المختص بتقليل الوزن مجدداً، وذلك من خلال رؤية الميزان أو النظر الى رجل نحيف. وهكذا أيضاً يتم تغيير أولوية الأهداف الغير واعية من خلال استدعاء موضوع تقليل الوزن من الذاكرة مجدداً، وبهذا تطرّد فاعلية السلوك المنشط باللاواعي (الأكل الشهي).

خلاصة : إمكانيات تغيير العادات السلوكية

كسر العادات السلوكية صعب ويتطلب الدقة، و بسبب أن الأهداف المادية والاجتماعية للمحيط وتنفيذ السلوك المعتاد بعد ذلك يجري عبر اللاواعي، فهناك بعض الإمكانيات لتغيير السلوك المعتاد، وهي حسب الترتيب التالي:

١. من خلال رفع الانتباه بالسياق الاختياري الذي يجد الهدف مكانه فيه، نستطيع تشجيع الناس من جديد للوصول الى موازنة (تفكر) جديدة.
٢. وإذا كان الناس منفتحون مرة ما لتقبل اجراء مثل هذه الموازنات، فبامكانهم عبر التوعية والتعليم محاولة تشكيل النية للسلوك المرغوب فيه أو تقوية السلوك نفسه.
٣. هذه النية للسلوك الجديد بامكانها ان تتلقى الدعم من تشكيل نوايا التنفيذ و التي بدورها تجعل من السلوك الجديد امراً ممكناً، ومن الممكن اختصار هذه السلسلة من الانتباه إلى التخطيط عبر تغيير أولوية الأهداف اللاواعية، من خلال وسيلة تنشيط الأهداف المنافسة (المرغوب فيها)، والتي تبدأ بالسلوك الجديد.

٦.٨ التوصيات الإرشادية للمؤسسات التنفيذية :

بناء على ما تقدم يمكن تقديم ثلاثة توصيات إرشادية منطلقة من المناهج النفسية لتغيير العادات السلوكية حسب ما توصل اليها الباحثون النفسيون عبر البحث المتقدم، وهي:

١.٦.٨ استخدام اللحظات التي يصنع فيها الناس الموازنات الجديدة

الإجراءات المتخذة لتغيير السلوك المعتاد تمتلك فرصة النجاح فيما لو أخذ الناس عند موازناتهم الإمكانيات و المعوقات للوصول إلى الاختيار الصحيح. ان اللحظة التي تجرى فيها عملية الموازنة لا يمكن تحديدها بسهولة، فهي تختلف من حالة الى حالة ومن شخص إلى شخص. واحدة من الاستراتيجيات المتوفرة باليد هي مخاطبة الناس من خلال حملة بالإعلام العام من أجل حملهم على تحمل المسؤولية وتوعيتهم بسلوكهم، فهذا ما يشجع الناس على اتخاذ موازنات جديدة في اختيار السلوك السوي.

الإستراتيجية الأخرى في نفس الإطار هي توظيف التغيير في الحالة من قبيل الانتقاء في السكن أو إيجاد عمل جديد، ففي مثل هذه الحالات يحدث انكسار وقتي للعادات، ذلك لأن السلوك الجديد ضروري فالمرء مجبر على سلوك مسار جديد للوصول إلى العمل بسبب تغيير السكن أو العمل نفسه، وكذلك الحصول على خدمات مطعم العمل الجديد لتناول الغذاء.

الحكومة (المعنيون بتغيير سلوك الناس) تستطيع أن تشجع على مخاطبة الناس بمثل هذه الأوقات و توجههم إلى الإمكانيات التي يستطيعون من خلالها بناء العادات الأكثر مرغوبة. وفي هذه العملية ليس من المهم فقط جعل العادات القديمة أقل جاذبية، بل المطلوب هو جعل البدائل أكثر جاذبية، و ميسرة لفترة طويلة، حتى تكون المحافظة على السلوك ممكنة. هناك على سبيل المثال العديد من النتائج التي ظُفر بها في مجال السلوك الشخصي الذي جعل من إعادة استخدام النفايات المنزلية أمراً ممكناً من قبيل وضع الزجاج المراد التخلص منه في حاويات خاصة بالزجاج (Geller, Winett en Everett, 1982). وكذلك في عزل النفايات في بيئة مكاتب العمل (Holland et al. 2006).

و من التجارب الحديثة الواعدة في كسر (عادة استخدام السيارة الخاصة) هي منح بطاقة التنقل المجاني في نفس الوقت الذي يجري فيه الناس تغيير أماكن سكنهم أو الذين يغيرون أعمالهم (Futjii en Kitamura, 2003).

٢-٦-٨ شجّع الناس على التخطيط للسلوك الجديد

الناس يصنعون الموازنات حينها لا توجد هناك بعد عادة او حينها تكون العادة قد انكسرت مؤقتاً.

في كلتا الحالتين يعتبر من الضروري لتغيير السلوك الفعّال ان يشكل الناس نوايا أخرى في صالح السلوك الجديد.

فاذا كانت عادة الناس أن يذهبوا إلى العمل بالسيارة الشخصية، ونحن نريد منهم من الآن وصاعداً أن يأخذوا حافلة النقل العام أو الدراجة الهوائية، فيجب عليهم أيضاً أن يعتزموا على استخدام البدائل و هي استخدام الحافلة او الدراجة الهوائية.

يلاحظ أن تغيير النوايا فقط لا يكفي، ذلك أننا غالباً لا ننفذ نوايانا الواعية، إذا كنا قد شكلنا فعلياً عادات أخرى، وقد عملنا بها لفترة من الزمن. ولهذا يمكن للناس أن تنتفع من ربط السلوك الجديد مع المحيط الحالي (الجديد) حتى يتكون تداعي أو ترابط بين السلوك الجديد و المحيط نفسه، فمتى ما يكون التداعي او الترابط ولو لمرة واحدة فان المحيط سوف يستثير السلوك الجديد بنحو تلقائي، كما قد أشرنا في البحوث السابقة المتطرفة إلى أن تشكيل (تنفيذ النوايا) بإمكانها تشجيع هذه العملية بنحو بالغ، ففي المحيط الذي يحصل به السلوك الجديد على دعم طويل، يتحول السلوك نفسه إلى عادة جديدة.

مواصلةً لما تقدم، إن البحوث التي أجريت في مجال (تنفيذ النوايا) تؤكد على أهمية

التخطيط للسلوك المراد تغييره، حيث كان قد سُئل الناس - من خلال البحوث الميدانية - بصراحة ووضوح أن تكون لهم خطة تدور حول: متى، أين، وكيف ينفذ السلوك الجديد، فالناس لا يملكون الرغبة والوقت في كل وقت لوضع مثل هذه الخطة المحددة، وبالتأكيد إذا طلب منهم عمل مثل هذه الخطة في كل يوم ولكل سلوك جديد.

لهذا من المفيد أن نتخذ خيارات نحدد بها أي السلوكيات الجديدة التي ينبغي لنا أن نخطط لها من جهة، ومن جهة أخرى، إيجاد طريقة تخطيط تجري بسهولة وسرعة في الوقت الذي يتطلب أن يصنعون فيه الناس الموازنات (التفكير) الجديدة، وينون تنفيذ السلوك الجديد.

ولو سُئلنا: أي السلوكيات الجديدة التي ينبغي أن نحظى بالتشجيع الكبير؟ فالإجابة وفقاً للمتخصصين بالسلوك المعتاد هي: إن هذا الأمر يعتمد على النتائج المترتبة على السلوكيات نفسها من قبيل حجم ضرورتها والآثار الاجتماعية السلبية المترتبة عليها.

وتأسيساً على ذلك، فإن الدول الغربية كثيراً ما تتطرق في برامجها حول (تعزيز الصحة والوقاية من الأمراض) إلى تأثير الموضوعات التالية على حياة المواطنين: (الحركة، التدخين، تناول المسكرات، التغذية، والإسترخاء).

لهذا بالذات، يرى الباحثون أن الفاعلية العملية لصنع (تنفيذ النوايا) تتطلب أن ينصب الاهتمام باتجاه الطرائق التي تمكن الناس من استخدامها بسهولة وتكرار. ومن هذه الطرائق على سبيل المثال: الإستعانة بالحاسوب (الكمبيوتر) في التخطيط للسلوكيات الجديدة، وذلك من خلال حصول العمال على واجبات صغيرة عبر برنامج كمبيوتر خاص من أجل التخطيط للسلوكيات الجديدة، من قبيل تنبيه جهاز الحاسوب لمستخدمه بضرورة القيام لأداء بعض التمارين الرياضية أو تذكيره ببعض الحقائق التي يتعين عليه تنفيذها. وقد أشار أحد البحوث الحديثة إلى أن التخطيط السريع والسهل لسلوك معين مثل السير بطريق جديد بدلاً من السير على الطريق المعتاد من خلال المهام (الواجبات

الكمبيوترية) يجعل من فرصة ظهور ذلك السلوك كبيرة جداً، مما يسهل عملية تبديل العادات القديمة بالعادات الجديدة (Papies, Aarts en De Vries, 2009).

ومن الجدير بالاهتمام أن تنفيذ النوايا يمكن لها أن تطبق من خلال النشاطات الجماعية من قبيل الجمعيات و الأندية والأعضاء المشتركين ضمن شبكات مؤسسات المجتمع المدني فان تشكيل السلوك الجديد عبر الجماعة يسهل من إمكانية حضوره وتعزيزه، ذلك ان ميزة هذه الإستراتيجية تكمن في أن القيم الجماعية المسيطرة على مجموعة ما تستطيع ان تعزز من صنع الخطة و فاعليتها في حالة تنافس الأهداف.

٣-٦-٨ إستفد من العمليات اللا واعية

الكثير من السلوك المعتاد يجد له مكاناً في المحيط الذي لا يكون للمرء فيه وعياً أو إنتباهاً، فالأهداف تنشط حتى لو كانت على تصارع مع أهداف أخرى يريد الشخص تحقيقها. من الأمثلة في هذا السياق، ما كنا طرحناه من صراع بين الهدف المتعلق بالأكل اللذيذ و الهدف المتعلق بتقليل الوزن. فمن خلال رؤية الأكل الدسم الغير صحي ينشط هدف الأكل اللذيذ تلقائياً، مما يتسبب في نسيان هدف تقليل الوزن، كما لاحظنا ان إعادة تقديم هدف تقليل الوزن من خلال المحيط يكبح النزعة الملحة للأكل الشهي بنحو غير واع، و يسهم في رفع الانتباه من جديد بالسلوك الصحي.

و بأختصار إن العادات الموجهة من دون وعي، يمكن مكافحتها من خلال تنشيط الأهداف المنافسة لها.

المبدأ أعلاه يمكن وضعه كإستراتيجية تدّخل جديدة، فمن خلال تنشيط الأهداف المرغوب فيها، سوف تكبح الأهداف الغير مرغوب فيها، لكن ينبغي الانتباه إلى أن هذه الإستراتيجية تتطلب أمرين، وهما الدقة و التوقيت المناسب.

ومن مكاسب الإستراتيجية عينها إمكانية تطبيقها على نطاق واسع من الناس، وليس على نحو شخصي فحسب، حيث يمكن استخدامها في المطاعم ومحلات التسوق الغذائية، وذلك عبر مطالبة الناس بالانتباه إلى أهمية تقليل الوزن والأكل الصحي، بيد أن هذه الطريقة تصطدم ببعض المعوقات، فليس من السهل ان تضع في جميع الأماكن ملصقات تعمل على تنشيط الأهداف المنافسة للعادات الغير صحية، كما تتطلب مثل هذه العملية وجود سياسة تنسجم مع توجهات المؤسسات التجارية من أجل تكييف بيئة العمل مع نفس المطالب، لذلك يبقى التعويل على طريقة تنشيط الأهداف المنافسة من خلال الحالات الشخصية للناس أكثر فاعلية، حيث بإمكان كل فرد ان يضع ملصق على الثلاجة يذكره بهدف تقليل الوزن من قبيل كتابة العبارة التالية (أنا أعمل على تقليل وزني) أو (يجب تجنب الأكل الغير صحي) فمثل هذه الأمور أو غيرها تساعد على كبح أغراء الأكل الشهي و تحفيز أهداف تناول الصحي.

٧.٨ التصور الإسلامي إلى العادات

لم يهمل قادة التشريع الإسلامي موضوع العادات أو السلوك المعتاد، فقد توقفوا إزاءه عبر العديد من المواقف، وقد أشاروا الى خطورته وطبيعته وأهميته وطرائق تعديله والتخلص منه. وأول المصادر التي تناولت هذا السلوك هو القرآن الكريم، حيث عبر سبحانه وتعالى على شدة تحكم السلوك المنحرف للمشركين بقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (الأنعام: ٢٨) مما يوضح تكرار السلوك المعتاد عند المشركين. وقوله تعالى: ﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (الأنفال: ٥٢). حيث تشير الآية الى عادة السلوك المنحرف عند تلك الأقوام، وقد ذكر صاحب الميزان في تفسيره للآية ما يتعلق بمفهوم العادة الذي نحن بصدد: «الدأب والديدن: العادة وهي العمل الذي يدوم ويجري عليه الإنسان، والطريقة التي يسلكها، والمعنى كفر هؤلاء يشبه كفر آل فرعون والذين من قبلهم من الأمم الخالية الكافرة كفروا

بآيات الله وأذنبوا بذلك ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يضعف عن أخذهم» (الطباطبائي، ١٩٩٧: ٩: ١٠٣).

٧-٨-١ سلطة العادات

تطرق أهل البيت: الى مفهوم العادات بكل وضوح حيث ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام كما المحنا الى بعض من كلماته سلفاً: «العادة طبع ثانٍ» (الري شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٢ حرف العين).

وقوله «للعادة على كل إنسان سلطان» (الري شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٢: حرف العين).

وعنه عليه السلام «العادة عدو متملك» (الري شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٢: حرف العين).

وعنه عليه السلام: «العادات قاهرات، فمن اعتاد شيئاً في سره وخلوته فضحه في جهره وعلايته» (إبن أبي الحديد، ١٩٩٥: ٢٠: ٤٥٣).

وعنه عليه السلام: «لسانك يستدعيك ما عودته، ونفسك تقتضيك ما ألفته» (الري شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٢: حرف العين).

وعنه عليه السلام: «غير مدرك الدرجات من أطاع العادات» (الري شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٢: حرف العين).

وعنه عليه السلام: «لا تسرعن إلى الغضب فيتسلط عليك بالعادة» (الري شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٢: حرف العين).

وعنه عليه السلام: «أصعب السياسات نقل العادات» (الري شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٤: حرف العين).

إن النصوص أعلاه تفصح عن تسلط العادات على سلوك الناس، وتحذر من نفوذها

والاستجابة إليها، وعدم التصدي لتعديلها، ذلك لما يترتب عليها من نتائج مصيرية تتحدد من خلالها طبيعة الإنسان وآفاق مستقبله دنيوياً وآخرى.

٧-٨-٢ النجاح مرهون في غلبة العادات

أوضح أمير المؤمنين عليه السلام الى أن الشخصية الناجحة هي من تستطيع الانتصار على السلوكيات السلبية المسيطرة عليها بحكم العادات، فالفضائل والدرجات الرفيعة تتطلب التحرر من الإرتهان الى السلوكيات التي تحتجز الإنسان من التطور والتقدم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالأحاديث عينا تفصح عن إمكانية التغيير ولا تُيسر المرء من مواجهتها وهذا ما يتفق مع بعض الآراء الأكاديمية التي عرضنا لها في ما تقدم.

يقول عليه السلام: «الفضيلة غلبة العادة» (الري شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٢: حرف العين).

وعنه عليه السلام: «أفضل العبادة غلبة العادة» (الري شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٢: حرف العين).

وعنه عليه السلام: «بغلبة العادات الوصول إلى أشرف المقامات» (الري شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٢: حرف العين).

وعنه عليه السلام: «غالبا أنفسكم على ترك العادات تغلبوها، وجاهدوا أهواءكم تملكوها» (الري شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٢: حرف العين).

وعنه عليه السلام: «غيروا العادات تسهل عليكم الطاعات» (الري شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٢: حرف العين).

وعنه عليه السلام: «ذلّلوا أنفسكم بترك العادات، وقودوها إلى فعل الطاعات، وحملوها أعباء المغارم، وحلّوها بفعل المكارم، وصونوها عن دنس المآثم» (الري شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٣: حرف العين).

٧-٨-٣ العادات الإيجابية

عن رسول الله ﷺ: «الخير عادة» (الري شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٣: حرف العين).
وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «وعود نفسك السباح، وتخير لها من كل خلق أحسنه، فإن
الخير عادة» (الحراني، ١٩٦١: ٥٧).

وعنه عليه السلام: «كفى بفعل الخير حسن عادة» (الري شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٣: حرف
العين).

وقد شجّع على إكتساب جملة من العادات الإيجابية الكريمة حتى تكون سلوكاً تلقائياً
للمرء يمارسه دون إيجاد مشقة من قبيل قوله عليه السلام: «عود نفسك الجميل، فإنه يجمل عنك
الاحدوثة، ويجزل لك المثوبة» (الري شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٣: حرف العين).

وعنه عليه السلام: «عود نفسك حسن النية وجميل المقصد، تدرك في مباغيك النجاح» (الري
شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٣: حرف العين).

وعنه عليه السلام: «عود نفسك فعل المكارم، وتحمل أعباء المغارم، تشرف نفسك، وتعمّر
آخرتك، ويكثر حامدوك» (الري شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٣: حرف العين).

وعنه عليه السلام: «ذلّلوا أخلاقكم بالمحاسن، وقودها الى المكارم، وعودوا أنفسكم الحلم،
واصبروا على الإيثار على أنفسكم فيما تحمدون عنه» (الحراني، ١٩٦١: ١٥٧).

وعنه عليه السلام: «عود لسانك لين الكلام وبذل السلام، يكثر محبوبك ويقل مبغضوك»
(الري شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٤: حرف العين).

وعنه عليه السلام: «عود اذنك حُسن الإستماع، ولا تصنع إلى ما لا يزيد في صلاحك استماعه،
فإن ذلك يصدئ القلوب» (الري شهري، ١٤٢٧: ٧: ٢٩١٤: حرف العين).

٧.٨-٤ وقفات مع الدراسات الأكاديمية للسلوك المعتاد

عرضنا فيما سبق لفرضيات ونظريات ونتائج عدد من الدراسات الغربية حول موضوعات السلوك المعتاد، وبعضها كان يتسم بالصواب والبعض الآخر لم ينجح في تفسيره ومعالجته، وذلك بسبب المنطلقات المنهجية التي صدر عنها مما فرض علينا أن نشير لبعض الملاحظات السريعة على كل من المحاولات الصائبة والخطئة.

ملاحظتنا على الاتجاه السلوكي

ما تقدم من معطيات الاتجاه السلوكي حول تفسيره لطبيعة نشوء السلوك العام للكائنات الحية، ومنها الإنسان على وجه التحديد يفيدنا في تفهم دور العامل البيئي في اكتساب المهارات السلوكية ومبادئ التعليم الأساسية، كما يفيدنا بنحو خاص في تفهم عملية تشكيل العادات وطرائق تغييرها أو توجيهها، وهي - بطبيعة الحال - محور دراسة هذا الفصل، بيد أن من الضروري التنبيه إلى أن الاتجاه السلوكي لا يمثل التفسير الأوحـد والأكمل في فهم السلوك وأشكال التعليم، فهناك العديد من الاتجاهات التي حاولت إعطاء تفسيراتها المغايرة للوجهة السلوكية، وأهمها الاتجاه المعرفي الذي ناهض الاتجاه السلوكي ودحض العديد من آراءه التي سيطرت على المدارس النفسية لأكثر من مئة عام. وأول من قدّم ملاحظاته العلمية على الاتجاه السلوكي هو: كوهلر (Kohler) فلقد أوضح من خلال تجاربه المختبرية أن هناك العديد من المسائل السلوكية التي لا يمكن حلها أو التعامل معها إلا من خلال العمليات العقلية المعرفية، ولا يمكن تفسيرها من خلال السلوك الظاهري، ولهذا فقد اصطلح على فرضيته بـ (التعلم بالاستبصار) (Kohler, 1925). أكّد في نفس الإطار الباحث ادورد تولمان (Eduard Tolman) على دور القدرات المعرفية الفطرية في تعلم الكائنات الحية، وقد أثبت بأنه من الممكن أن تجري

الكائنات الحية العديد من السلوكيات دون أن يكون هناك دور للتعزيز، وهو ما تؤكد عليه المدرسة السلوكية بقوة، (Tolman, 1948). والنموذج الذي طرحه هو ما يعرف بـ: (الخارطة المعرفية العقلية) أو (Cognitive Map). لتقريب المفهوم: تذكر كم مرة حاولت أن تمشي في بيتك بالظلام أو أن تشرح لأحد الأشخاص كيفية الوصول الى عنوان معين (Zimbardo, Johnson & Weber, 2008).

إن مثل هذه الأمور تجري من خلال العمليات العقلية وهو ما اصطلح عليه تولمان بالخارطة المعرفية العقلية وهي في الحقيقة عبارة عن تمثيل أو تصور على المستوى الفكري للأشياء تستخدمها الكائنات الحية من أجل التأقلم مع محيطها، وهذا لا يجري من خلال آلية التعزيز بل يجري بنحو فطري، (Kamil et al., 1987). فنحن نكون ونحتفظ بصورة ذهنية عن كل محيط نزل فيه أو نتعرض له لكي نستطيع استحضار الصورة عينها والاستهداء بها في التعامل والتعايش مع المحيط الذي نتواجد فيه أو المشابه له.

على أية حال: لقد خرج تولمان على آراء واتسون، بافلوف، وبعد ذلك سكنر التي سيطرت على البحث النفسي بالرغم من اتفاقه معهم في وجوب عناية النفسانيين في دراسة السلوك الممكن ملاحظته أو السلوك الظاهر وليس السلوكيات الباطنية التي لا يمكن اثباتها (حسب إمكانيات ذلك العصر بطبيعة الحال وأما في الوقت المعاصر فقد تغيرت الإمكانيات)، لكنه لم يكتف بتفسيرهم للسلوكيات التي أجرى عليها ملاحظاته العلمية، فالتداعي والإقتران البسيط بين المثير والاستجابة تعجز عن تفسير ذلك، وقد اكتشف أتباعه بأن الخصائص المعرفية تلعب دوراً حتى في الأشكال الأولية التي يستند إليها مبدأ تعلم المثيرات والاستجابات مثل: التوقعات، التنبؤات، والتقييم، فالإنسان أو بعض أنواع الحيوان تنتظر من بعض الأفعال حدوث نتائج معينة ولهذا تقوم بأعمالها، وهي كذلك تجري تقييم لما تقوم فيه من أجل تعديله أو البقاء عليه (Balsam & Tomie, 1985). وكل هذه الإجراءات بطبيعة الحال أمور معرفية عقلية.

والمفاجأة الكبرى كانت على يد البرت باندورا (Albert Bandura) وهو في البدء كان من أتباع الاتجاه السلوكي ثم تحول إلى الاتجاه المعرفي، حيث أوضح من خلال نظريته في (التعلم الاجتماعي) أن التعزيز ممكن أن يعمل بنحو غير مباشر، وذلك من خلال التعلم بالملاحظة والتقليد للسلوك، وليس فقط من خلال المثير والاستجابة، فالكثير من السلوكيات تتشكل عبر التقليد والمحاكاة والملاحظة للآخرين.

ومن جميع ما تقدم، يظهر دور الفاعليات العقلية أو المعرفية المجهز بها الكائن الحي وبخاصة الإنسان في التعليم وممارسة السلوكيات المختلفة مثل الإدراك والذاكرة والتفكير، وهذا ما يتسق تماماً مع الخطوط العامة للتصور الإسلامي في المسألة ذاتها، فالإسلام يمنح الفطرة الخيرة دوراً هاماً في توجيه السلوك، يقول تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠).

ويشير - سبحانه وتعالى - إلى عملية الإلهام الذاتي لمبادئ الخير والشر عند الإنسان بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ والآية تؤكد - مرةً أخرى - على سوية النفس وحسن خلقها وطبيعتها الخيرة كأصل فطري، وقد أضاءت مفردة التزكية (زكَّاهَا) إلى عملية تزايد الخير عندها، فالتزكية تشير إلى التنمية كما يقول صاحب الميزان: «و الزكاة نمو النبات نمواً صالحاً ذا بركة و التزكية إنهاؤه كذلك» بينما توضح مفردة (الدسّ) إلى منع عملية التنمية ذاتها وهي أمر طارئ على طبيعة النفس الإنسانية. يقول العلامة الطباطبائي في نفس السياق: «و التدسي - وهو من الدس بقلب إحدى السينين ياء - إدخال الشيء في الشيء بضرب من الإخفاء، و المراد بها بقرينة مقابله التزكية: الإنماء على غير ما يقتضيه طبعها و ركبت عليه نفسها» (الطباطبائي، ١٩٩٧: ٣٠: ٣٣٩).

من هنا فقد ذهب أحد علماء المسلمين - وهو جعفر الشيخ ادريس - إلى أن الطبيعة

البشرية ليست محايدة كما يتبنى الفريق المناصر للوراثة أو الفطرة في ردهم على أصحاب الاتجاه البيئي وهم السلوكيون الذين قالوا بأن الإنسان يولد صفحة بيضاء والبيئة هي من تعمل على صياغة سلوكه... بل إنها - أي الطبيعة البشرية - متحيزة لفعل الخير والخير يسعدها والشر يشقيها «فإن الله تعالى صاغ الإنسان وكونه وركبه بحيث لا يصلح له إلا الخير» (الشيخ إدريس، ١٩٧٧).

ومما طرحه للرد على القائلين بالحياد أو كما يقولون: «إن للإنسان تركيباً نفسياً معيناً ولكنه تركيب محايد بالنسبة للخير والشر، وأنه يميل إلى هذا أو ذاك بعد أن يولد إما بإرادته الخاصة أو بسبب عوامل خارجية، ولكن هذا معناه أنه ليس في تركيبه النفسي ما يجعل الخير ملائماً له أو الشر مناقضاً له. وهذا معناه أن ما نسميه خيراً كالصدق والإخلاص والشكر وحب الحقيقة ليس خيراً بالنسبة لنفسه وكذلك ما نسميه شراً ليس كذلك بالنسبة لها. فكيف إذن يقنع نفسه بأن ذاك خير ينبغي أن يفعل وهذا شر ينبغي أن يترك؟ ما هو المعيار؟

إن الحياد بهذا المعنى يجعل النفس الإنسانية كالآلة فالسكين مثلاً لا يؤثر فيها فواكه قطعت بها أو أحشاء بريء مزقت بها. إنها معدة لأن تقطع فحسب. وكذلك النفس الإنسانية معدة لأن يفعل بها الخير أو يفعل بها الشر ولا تأثير لأحد الفعلين عليها هي. فهل هذا هو الواقع؟

كلا: فإن نفس الإنسان يشقيها ويعذبها الكذب والنفاق والاستكبار والبخل والهوان ويسعدها الصدق والإخلاص والتواضع والجود والعزة.

ثم لو كانت نفس الإنسان محايدة لم يكن هنالك معنى لعبارات الأمراض النفسية والصحة النفسية» (الشيخ إدريس، ١٩٧٧). ويسوق الشيخ أدريس عدة أدلة لأثبت ذلك الأمر، نكتفي ببعضها تجنباً للإطالة. يقول: «أن يولد الإنسان خيراً هو الأمر الذي تقتضيه رحمة الله تعالى وفضله وحكمته. تقتضيه رحمته لأن الرحمن هو الذي يعطي الخير

ابتداء كرماً منه وفضلاً ثم يجازي على الإحسان فبفضل الله ورحمته خلق الإنسان في أحسن تقويم وخلق له كل ما يناسب طبيعته ويفي بحاجاته من أرض وسماء وليل ونهار وأنهار وحيوان ونبات.

إن الذي خلق الجسم الإنساني حين خلقه سوياً معتدلاً وخلق له كل ما يناسبه من غذاء وكساء وهواء وضياء، لحري بأن يخلق النفس البشرية سوية، ويسهل لها كل ما يناسب استواءها الفطري هذا ويكمّله من آيات كونية وحجج عقلية وهداية سماوية.

وهو الأمر الذي يناسب حكمته لأن الحكيم لا يصنع شيئاً لغاية ما ثم يجعل طبعه غير ملائم لتلك الغاية أو غير مهياً لبلوغها. والله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليعبده ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فكيف يخلق له نفساً شريرة لا تناسبها العبادة، أو نفساً محايدة بين الخير والشر لا يضيرها أطريق عبادته سلكت، أو سلكت طريق التمرد عليه، كلا. من حكمة الله تعالى في خلقه كله أن يخلق سوياً وأن يهدي كل مخلوق إلى ما قدر له أن يخلقه ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (الشيخ إدريس، ١٩٧٧). وجميل قوله: «إن في الكلمات الدالة على الخير معاني الثبوت والاستقرار والأصالة واليجابية. وأما الكلمات الدالة على الشر ففيها معاني النفي، والتغيير، والسلبية وما ذلك إلا لأن الخير هو الأساس وأن الشر إنما هو نفي الخير... فالإصلاح إنما يكون للشيء الفاسد، والتوبة والأوبة رجوع عن شر، فهل يعني هذا أن الفساد والشر هما الأصل؟ كلا: فالإصلاح إزالة للفساد وعود إلى الأمر الطبيعي والتوبة والأوبة رجوع من طريق الشر إلى الطريق الطبيعي.

إن في القرآن الكريم والسنة المطهرة - إلى جانب تلك الكلمات - ما يدل بطريق الزوم على أن نفس الإنسان كجسمه حالها الطبيعية أن تكون سليمة معافاة وأن يطرأ عليها مما ينافي تلك الفطرة الأولى هو الأمراض كالأمراض التي تصيب الأبدان. وكما أن الصحة البدنية تكون في المحافظة على الحال الطبيعي وفي وقايتها من أسباب الأمراض

وفي معالجة البدن حين يصيبه المرض فكذلك صحة القلوب وسلامتها. ومهمة الدين هي المحافظة على هذه السلامة ووقايتها من الأمراض وعلاجها حين تمرض» (الشيخ إدريس، ١٩٧٧).

وهذا الخير الفطري لا يسلب الإنسان حرية الإرادة ومسؤولية الاختيار، ولا يفهم منه الجبر على الفعل، ولا يفهم منه ما تصوره المتساؤلون عن سبب إتيان فعل الشر مع القول بأصالة الخير عند الإنسان:

«إذا كان الإنسان مفطوراً على الخير فلماذا إذن يفعل الشر؟»

فهذه الشبهة من أشد الشبهات التي دعت البعض على أن يشغب بها على القول بأصالة الخير في النفس البشرية وهي التي تدعوهم إلى الأخذ بنظرية الحياد كما يقول الشيخ إدريس، فهي مبنية على تصور غير موضوعي.

«ولعل أساس هذه الشبهة هو التصور الخاطئ لمفهوم الفطرة. فعبارة الإنسان مفطور على الخير تعني عند هؤلاء: أنه مطبوع على إرادته وفعله طبعاً لا ينفك عنه. ولكن الواقع أنه ينفك عنه وإذن فهو ليس مفطوراً عليه، بل إنما يولد محايداً: إن شاء فعل الخير وإن شاء تركه وفعل الشر.

ولكن الفطرة لا تدل على هذا المعنى الذي يجعلها متناقضة مع المشيئة الإنسانية، والذي يسوي بين فعل الخير وحركات النباتات والجمادات التي لا إرادة لها.

فطر الإنسان على الخير معناه كما قلنا سابقاً:

(أ) إن الله تعالى صاغ الإنسان وكونه وركبه بحيث لا يصلح له إلا الخير.

(ب) وأنه تعالى تفضل فجعل المعرفة بهذه الحقيقة أمراً مستقراً في نفس الإنسان لا يحتاج لأن يتعلمه من الخارج. وإن كان العلم الخارجي يزيده قوة.

ولكن الله تعالى جعل الإنسان مخلوقاً ذا إرادة إن شاء سار في طريق الخير الذي تدل عليه فطرته، وإن شاء تمرد على فطرته كما يتمرد على الدلائل العقلية والآيات الكونية والرسالات السماوية.

إن الله تعالى يتفضل فيعرف الإنسان بالخير ويبينه له ويدعوه إليه دعوة تأتيه من داخل نفسه ومن دلائل عقله ومن الآيات الكونية ومن الرسالات السماوية ولكنه يتركه بعد ذلك حراً إن شاء قبل هذه الدعوة وإن شاء ردها كافراً.

وفي معنى هذا البيان الفطري يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان: ٣). ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٧-١٠) (الشيخ إدريس، ١٩٧٧).

٧-٨-٥ حقيقة الترابطات بين المثيرات والاستجابات

لم يتجادل الباحثون حول حقيقة وجود الترابطات بين المثيرات والاستجابات (م-س) ووظائفها عند الكائنات الحية، وبخاصة عند الإنسان، لكن الجدل كان منصباً حول توظيف هذه الحقيقة لأغراض فلسفية وايدولوجية كما فعل ذلك الماركسيون الذين زعموا بأن الإنسان لا يملك حقيقة ثابتة، وأن البيئة الاجتماعية هي التي تصوغ شخصيته وأفكاره وحتى مشاعره... مستندين بذلك على معطيات الاتجاه السلوكي (البافلوفي) في تفسيره للسلوك وفق مبدأ الترابطات بين المثيرات والاستجابات (م-س)، وقد تقدم شرحنا لها. وحتى المنكرين لهم، فقد كانت انتقاداتهم نابعة من الانتصار الفلسفي والإيديولوجي لقضايا الفطرة والوراثة والعقل وغيرها من مسائل. لذلك أجد أن المسألة تتطلب الهدوء في تناولها وعدم إستبعاد أحد الاتجاهين، فالجمع ممكن فيما لو أعدنا ترتيب بناء فهم المسألة، وهذا ما فعله المفكر الإسلامي الشهيد محمد باقر الصدر في دراسته المتميزة (فلسفتنا) وإن كان قد أسهب في نقد أسس الاتجاه السلوكي

من الجوانب الفلسفية والسيكولوجية وبخاصة فيما يتعلق بموضوع الغريزة والإدراك حيث رفض رفضاً قاطعاً أن يفسر الإدراك البشري على ضوء المبادئ السلوكية التي تجعل من الإدراك مجرد إستجابة للمثيرات السلوكية الخارجية. نقتبس من بحثه الطويل ما يلي:

«هذه هي نظرية العالم الفسيولوجي (بافلوف). وقد استغلّته السلوكية، فزعمت أنّ الحياة العقلية لا تعدو أن تكون عبارة عن أفعال منعكسة. فالتفكير يترّكب من استجابات كلامية باطنة، يثيرها منبّه خارجي. وهكذا فسّرت الفكر كما تفسّر عملية إفراز الكلب لعابه عند سماعه خطوات الخادم، فكما أنّ الإفراز ردّ الفعل الفسيولوجي لمنبّه شرطي، وهو خطى الخادم، كذلك الفكر هو ردّ الفعل الفسيولوجي لمنبّه شرطي، كاللغة التي أشرطت بالمنبّه الطبيعي مثلاً.

ولكن من الواضح: أنّ التجارب الفسيولوجية على الفعل المنعكس الشرطي لا يمكنها أن تبرهن على أنّ الفعل المنعكس هو حقيقة الإدراك، والمحتوى الحقيقي للعمليات، ما دام من الجائز أن يكون للإدراك حقيقة وراء حدود التجربة.

أضف إلى ذلك أنّ السلوكية في رأيها هذا - القائل بأنّ الأفكار استجابات شرطية - تقضي على نفسها وتنزع القدرة على الكشف عن الواقع والقيمة الموضوعية، لا من سائر الأفكار فحسب، بل من السلوكية ذاتها - أيضاً - بوصفها فكرة تخضع للتفسير السلوكي؛ لأنّ تفسير السلوكية للفكر الإنساني له أثره الخطير في نظرية المعرفة، وتقدير قيمتها، ومدى قدرتها على استكشاف الواقع. فالمعرفة - كلّ معرفة - لا تعدو وفقاً للتفسير السلوكي أن تكون استجابة حتمية لمنبّه شرطي كسيلان اللعاب من فم الكلب في تجارب بافلوف، وليست نتيجة للاستدلال والبرهان، وبالتالي تصبح كلّ معرفة تعبيراً عن وجود منبّه شرطي لها لا عن وجود مضمونها في الواقع الخارجي، والفكرة السلوكية نفسها لا تشدّ عن هذه القاعدة العامّة، ولا تختلف عن كلّ الأفكار الأخرى في تأثرها بالتفسير

السلوكي، وسقوط قيمتها، وعدم إمكان دراستها بأيّ لون من الألوان» (الصدر، ٢٠٠٩، ٤٤٧). ويضيف الشهيد الصدر ما يؤكد فيه أن الأفعال المنعكسة تعتمد على الإدراك في إثارتها وليس العكس «والواقع: هو عكس ما رامته السلوكية تماماً، فليس الإدراك والفكر فعلاً فسيولوجياً ينعكس عن منبّه شرطي نظير إفراز اللعاب، كما يزعم السلوكيون، بل نفس إفراز اللعاب هذا يعني شيئاً غير مجرد ردّ الفعل المنعكس، يعني إدراكاً، وهذا الإدراك هو السبب في إثارة المنبّه الشرطي للاستجابة المنعكسة. فالإدراك هو الحقيقة التي نتيّنها وراء ردود فعل المنبّه الشرطي، وليس لوناً من ألوان تلك الردود، ونعني بهذا: أن إفراز الكلب لعابه عند حدوث المنبّه الشرطي لم يكن مجرد فعل آلي بحت، كما تعتقد السلوكية، بل كان نتيجة إدراك الكلب مدلول المنبّه الشرطي. فخطوات الخادم باقترانها مع مجيء الطعام في تجارب متكرّرة أصبحت تدلّ على مجيئه، وأصبح الكلب يدرك مجيء الطعام عند سماعها، فيفرز لعابه استعداداً للموقف الذي يبشّر به المنبّه الشرطي» (الصدر، ٢٠٠٩، ٤٤٧).

وفي تصوري أن التزام السلوكية بمنهجية الملاحظة الخارجية للسلوك بغية تفسيره وعدم قبولها بكل ما لا يتوافق مع الإمبريقية (التجربة) وأدواتها المحسوسة هو الذي أدى بها إلى إنكار العمليات العقلية الفطرية بالرغم من أن قسماً كبيراً من الترابطات العقلية ينسجم مع مبدأ الترابطات بين المثيرات والاستجابات الذي نادى به السلوكية نفسها، ولكنها ترابطات تعتمد على الارتكاز الواعي وليس مجرد أفعال آلية، وإن كان الارتكاز الواعي في جانب منه يعد ارتكازاً إجمالياً وليس تفصيلياً من قبيل المثال الذي يطرحه الفقهاء في الرسائل العملية حول ضرورة التوفر على النية في بعض الأعمال حيث قالوا يكفي - على سبيل المثال - لو سأل من كان يغتسل الغسل الواجب ما الذي تفعل؟ فأجاب: بأنني أغتسل غسل الواجب. فهذه الإجابة دالة على وجود القصد أو النية أو ما أسميه بالوعي الإجمالي للفعل. وهذا ما تميل إليه أغلب الاتجاهات المعاصرة التي تقسم

السلوك الى نوعين:

١- السلوك الواعي: وهو السلوك الذي يحتل مساحة صغيرة جداً من سلوكنا حيث يتطلب مثل هذا السلوك التخطيط والتفكير المعمق حينما يتطلب الأمر منا إتخاذ قرار، إختيار، أو حل مسألة جديدة في حياتنا. وهو غالباً ما يتعلق بالمسائل التي لم نكن قد واجهناها أو المسائل التي تترتب عليها نتائج هامة حيث تفرض علينا المعرفة المسبقة بما سوف نفعله وكيف نفعله وبالمالذي يجب أن نحصل عليه. مثل من يتعلم السياقة لأول مرة فانه يركز وينتبه لكل حركة يريد القيام بها في أدوات السياقة... لكنه بعد ذلك يقوم في أفعال السياقة دون أن يفكر بماذا ولماذا وكيف يغير مفتاح السرعة أو الكابسات المختلفة وهي ما نسميه بالسلوك الغير أو اللا واعي

٢- السلوك اللا واعي: وهو السلوك الذي يحتل أكبر مساحة من سلوكنا، ويقصد به أداء السلوك من دون تفكير، بتلقائية، ودون انتباه مركز نتيجة لإعتيادنا عليه: تصور أنك تعمل في سوبرماركت مزدحم لساعات طويلة، لو تساءلت مع نفسك في يوم لاحق ما الذي فعلته بالضبط في اليوم السابق، فإنك سوف لا تتذكر بالدقة ما الذي صنعت... ذلك لأن الأعمال التي قمت بها أفعال تلقائية دون إعمال للتركيز والانتباه واستحضار الوعي.

هذا ما نلتزم فيه لمصطلح (اللا واعي) وهو عين قولنا اللا شعور... ولا علينا بما يعرفه الآخرون ولا نقصد به غياب الوعي فغياب أو فقدان الوعي يعني الغيوبة... وهذا ما لا نقبل به ولا نعينه بتاتاً، كما أننا لا نعفي الشخص عن مسؤوليات اعماله، فالإنسان يبقى مسؤولاً عن أفعاله حتى لو صدرت منه بطريقة تلقائية من قبيل ما يحدث أثناء الصلاة من سهو أو شرود للذهن، فعلى المصلي أن يصحح الأجزاء الغير متوافقة مع صورة الصلاة الصحيحة حسب ما حدد ذلك الفقهاء.

وقد تطرق الى المعنى عينه الشهيد الصدر في نهاية دراسته حول الفعل المنعكس الشرطي لكنه لم يتوسع في الشرح، حيث قال: «نعم إنَّ الإنسان قد يكتِّف أفكاره تكييفاً اختيارياً بالبيئة والمحيط، كما نادت بذلك المدرسة الوظيفية في علم النفس تأثراً بنظرية التطوُّر عند (لامارك) في البيولوجيا، فكما أنَّ الكائن الحيَّ يتكَيَّف عضوياً تبعاً لمحيطه، كذلك الأمر في حياته الفكرية.

ولكنَّا يجب أن نعلم: أولاً: أنَّ هذا التكيّف يوجد في الأفكار العملية التي وظيفتها تنظيم الحياة الخارجية، ولا يمكن أن يوجد في الأفكار التأملية التي وظيفتها الكشف عن الواقع. فالمبادئ المنطقية، أو الرياضية، وغيرهما من الأفكار التأملية، تنبع من العقل، ولا تتكيّف بمقتضيات البيئة الاجتماعية، وإلاَّ لكان مصير ذلك إلى الشكِّ الفلسفي المطلق في كلّ حقيقة؛ إذ لو كانت الأفكار التأملية جميعاً تتكيّف بعوامل المحيط، وتتغيّر تبعاً لها، لم يؤمن على أيّ فكرة أو حقيقة من التغيّر والتبدّل.

ثانياً: أنَّ تكيّف الأفكار العملية بمقتضيات البيئة وظروفها ليس آلياً، بل هو تكيّف اختياري، ينشأ من دوافع إرادية في الإنسان، تسوقه إلى جعل النظام المنسجم مع محيطه وبيئته، وبذلك يزول التعارض - تماماً - بين المدرسة الوظيفية، والمدرسة الغرضية في علم النفس.

وسوف ندرس في (مجتمعنا) طبيعة هذا التكيّف وحدوده في ضوء مفاهيم الإسلام عن المجتمع والدولة، لأنه من القضايا الرئيسية في دراسة المجتمع وتحليله. وفي تلك الدراسة سوف نستوفي بتفصيل كل النواحي التي اختصرنا الحديث عنها في بحث الإدراك هذا» (الصدر، ٢٠٠٩، ٤٥٢). لكن الظالمين لم يمهلوا مفكرنا من إكمال مشروعه الذي وعدنا به، فأغتالته يد الإرهاب قبل الشروع بدراسته عن المجتمع الإسلامي.

على أية حال، إن التفسير الذي أشرنا اليه سلفاً ينسجم مع بعض الآراء الحديثة لعلم الأعصاب أيضاً، حيث يمكن الجمع بين الاتجاهين - ونقصد بهما الاتجاه القائل بالترابطات

والاتجاه القائل بالعمليات العقلية الإدراكية - وذلك من خلال الإستعانة بمعطيات علماء الأعصاب الحديثة، وبخاصة ما ذهب إليه العالمان - في علم الأعصاب - إريك كانديل و روبرت هاوكينس (Eric Kandel and Robert Hawkins) الى أنه من الممكن مد جسور الترابط بين السلوكية القائلة بأن التعلم يعتمد على الترابطات بين المثيرات والاستجابات (م - س) وبين المعرفة القائلة بدور الإدراك والعقل في عمليات التعلم، وذلك من خلال اكتشافهما لبناء خطوط النقل العصبي في الدماغ. حيث اكتشفا بأن الحيوانات التي لديها جهاز عصبي بسيط نسبياً تمتلك نمط واحد من الخطوط العصبية، ما يمكنها من خلاله تعلم الاستجابات الحركية البسيطة فقط... بينما عثر الباحثون على وجود نوعين لنمطين آخرين من خيوط الخطوط العصبية في دماغ الثدييات والتي يبدو بأنها مسؤولة على الأشكال العليا من التعليم مثل الحافظة المسؤولة عن تسجيل الأحداث عند الإنسان وغيره... وأهمية مثل هذا الإكتشاف كما يتصور كل من كانديل و هاوكينس: إن قابلية التعلم تنقسم - حسب هذين الخططين العصبيين - إلى نوعين، وهو ذات الانفصال الذي جعل من السلوكيين والمعرفيين متعارضين لزم من طویل. حيث يبدو أن الخطوط العصبية البسيطة مسؤولة عن التعلم الذي لا يحتاج فيه إلى التفكير والانتباه مثل سيلان لعاب الكلب حين استماعه صوت الجرس أو تعلم شخص ما إحدى المهارات الحركية مثل سياقة الدراجة الهوائية أو تعلم رياضة الرمي الكروية بالنسبة إلى إحدى الرياضات الكروية (Clark & Squire, 1998). هذا النوع من التعلم يبدأ ببطأً ويتحسن كلما تكرر، ولعل هذا بالضبط ما كانت النظرية الشرطية الكلاسيكية ونظرية التعلم الإجرائي تشيران إليه.

وأما النوع الثاني للخطوط العصبية فيبدو بأنه مسؤول عن الأشكال المعقدة من التعليم... الأشكال التي تتطلب تشغيل الوعي والانتباه، وهذا ما كان يعنيه الاتجاه المعرفي المهتم بدراسة تشكيل المفاهيم، التعلم التبصري، التعلم الاجتماعي والذاكرة

المختصة ببعض الأحداث المتفردة (Zimbardo, Johnson & Weber, 2008).

من جديد: يؤكد الباحثون على مواصلة البحث في هذا المجال، بيد أنهم يشيرون الى افتراض مستقبلي في هذا الشأن حيث يقولون: إذا كان هذا العزل هو المؤثر في أسس إختلاف الجهاز العصبي، فإننا نستطيع القول: بأن كلاً من السلوكية والمعرفية كانا على حق في جزء ما من تشخيص الموضوع، فالإثنان يتحدثان عن الاختلاف في أسس أشكال التعليم حسب ما أوضحنا في اكتشاف الخطوط العصبية ووظائفها.

٧-٨ علماء الأصول ومباحث الترابطات

من الجدير - في بحثنا لموضوع الترابطات والإقتران الشرطي - الإشارة مجدداً الى جهود علماء أصول الفقه الإسلامي في تناوهم لهذه المسائل عندما تطرقوا الى (مباحث الألفاظ)، فقد تعمقوا في معالجة المسائل المذكورة ، وبخاصة مسألة (الوضع) ويقصد به دلالة الألفاظ على معانيها، ففي سياق التطرق الى بحث حقيقة الوضع ذهب السيد الخوئي الى تبني التفسير الداهب الى أن الوضع عبارة عن (التعهد والالتزام النفساني) بعد أن ناقش جملة من الاتجاهات القديمة في تفسيره. ولنقرأ بعضاً مما قدمه من شرح في المسألة ذاتها نظراً لإصالة الطرح العلمي والعمق التحليلي الذي تقدم فيه. يقول: «ويبان ذلك: إن الإنسان بما أنه مدني بالطبع يحتاج في تنظيم حياته - المادية والمعنوية - إلى آلات يبرز بها مقاصده وأغراضه، ويتفاهم بها وقت الحاجة، ولما لم يمكن أن تكون تلك الآلة الإشارة أو نحوها لعدم وفائها بالمحسوسات فضلاً عن المعقولات فلا محالة تكون هي الألفاظ التي يستعملها في إبراز مراداته من المحسوسات والمعقولات، وهي وافية بهما، ومن هنا خص - تبارك وتعالى - الإنسان بنعمة البيان بقوله عز من قائل: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ (الرحمان: ٣ - ٤).

«ومن هنا - أي: من أن الغرض منه قصد التفهيم وإبراز المقاصد بها - ظهر: أن حقيقة

الوضع هي التعهد والتباني النفساني، فإن قصد التفهيم لازم ذاتي للوضع بمعنى التعهد. وإن شئت قلت: إن العلة الوضعية - حينئذ - تختص بصورة إرادة تفهيم المعنى لا مطلقاً، وعليه يترتب اختصاص الدلالة الوضعية بالدلالة التصديقية، كما سيأتي بيانه مفصلاً من هذه الجهة إن شاء الله تعالى. وعلى ذلك فنقول: قد تبين أن حقيقة الوضع: عبارة عن التعهد بإبراز المعنى الذي تعلق قصد المتكلم بتفهمه بلفظ مخصوص، فكل واحد من أهل أي لغة متعهد في نفسه متى ما أراد تفهيم معنى خاص أن يجعل مبرزه لفظاً مخصوصاً - مثلاً - التزم كل واحد من أفراد الأمة العربية بأنه متى ما قصد تفهيم جسم سيال بارد بالطبع أن يجعل مبرزه لفظ الماء، ومتى قصد تفهيم معنى آخر أن يجعل مبرزه لفظاً آخر، وهكذا... فهذا التعهد والتباني النفساني بإبراز معنى خاص بلفظ مخصوص عند تعلق القصد بتفهمه ثابت في أذهان أهل كل لغة، بالإضافة إلى ألفاظها ومعانيها بنحو القوة، ومتعلق هذا التعهد أمر اختياري، وهو التكلم بلفظ مخصوص عند قصد تفهيم معنى خاص. (الفياض، ١٤١٩، ٥١).

وتطرق رحمه الله في مبحث علامات الحقيقة والمجاز، ومنها التبادر: «وهو خطوط المعنى في الذهن بمجرد سماع اللفظ وإطلاقه، من دون لحاظ أية قرينة وعناية في البين: من حالة أو مقالية. ومن الواضح أن مثل هذا التبادر معلول للوضع لا محالة، وكاشف عنه كشفاً إنياً» (الفياض، ١٤١٩، ١٢٨). وأضاف ما يفيدنا في بحث مسألة الترابطات في نفس مسألة التبادر، حيث قال: «أن التبادر وإن كان متوقفاً على العلم بالوضع لا محالة إلا أن ذلك العلم ارتكازي مكنون في خزانة النفس، وثابت في حافظة أهل كل لغة بالقياس إلى لغاتهم، وهم يستعملون تلك اللغات في معانيها حسب ذلك الارتكاز من دون التفات تفصيلي منهم إلى خصوصيات تلك المعاني من حيث السعة والضيق، فإذا حصل الالتفات منهم إلى خصوصيات تلك المعاني حصل لهم العلم تفصيلاً بها، وبذلك تحصل المغايرة بين العلمين» (الفياض، ١٤١٩، ١٢٨).

يلاحظ أن بحوث علماء الأصول في مسائل دلالة الألفاظ على معانيها شديدة الصلة ببحث عملية الترابطات وتفسير آلياتها، وإن اختلفت زاوية التناول، بل أن السيد الشهيد محمد باقر الصدر قد تناول عملية الترابط والفعل المنعكس الشرطي في بحث الأصول بنحو مباشر، كما كان قد تناوله في دراسته الفلسفية المشار إليها سلفاً. ونحيل المهتمين الى مراجعة تقارير المرجع السيد كاظم الحائري لأستاذه الشهيد الصدر المعنونة بـ (مباحث الأصول) حيث سوف يقفون على تفصيل واسع حول توظيف مبدأ الإقتران أو الترابط بالنسبة الى دلالة اللفظ على معنى معين في الذهن. يقول في هذا السياق: «أنّ الإحساس بشيء اقترن في الذهن بشيء آخر اقتراناً مخصوصاً يكون أيضاً سبباً لتصوّر ذلك الشيء الآخر، فترى أنّ من أحسّ بزئير الأسد مثلاً انتقل ذهنه إلى معنى الأسد، وكأنّ الإحساس بزئير الأسد إحساس بنفس الأسد. وأقصد بالإحساس بصورة الأسد أو زئيره مثلاً ما يشمل انتقال الذهن إلى صورة الأسد أو زئيره ولو من دون إحساس خارجي، وأقصد بالاقتران المخصوص أن تكون للاقتران خصوصيّة كمّيّة من قبيل كثرة اقتران زئير الأسد بالأسد، أو خصوصيّة كيفيّة بأن يكون الاقتران في ظرف مؤثّر وملفت للنظر كما لو اقترن سفر شخص إلى الحلة مثلاً بمرض شديد، فمتى ما تذكّر السفر إلى الحلة تذكّر المرض» ثم يقول في موضع آخر: «وهذا حقيقة الوضع التعيّنيّ الذي قالوا عنه: إنّهُ يحصل بكثرة الاستعمال، ثمّ أصبح البشر بالتدريج متعوداً على دلالة الأصوات على المعاني، وعلى الاستفادة من قانون المقارنة، فأصبحت الذهنيّة البشريّة مهيةً للوضع بمعنى إقران لفظ بمعنى في الذهن للدلالة عليه، فيقرن الإنسان لفظاً بمعنى من قبيل قرن لفظه «أسد» بمعناه، أو لفظه «حليب» بمعناه ونحو ذلك مرّة واحدة، لكنّه في ظرف مؤثّر من قبيل أن يقول: سمّيت ابني عليّاً، أو وضعت هذا الاسم عليه، أو اعتبرته عليّاً، وذلك أمام جماعة قد أنست أذهانهم من قبل بدلالة الأصوات على المعاني، والاستفادة من القرن، فيصبح هذا القرن في ظرف مؤثّر من هذا القبيل مُلفتاً للنظر، ويجعل اللفظ دالاً على المعنى، وتوجد بهذه العمليّة صغرى أخرى لكبرى القانون الثاني، وهذا حقيقة

الوضع التعينيّ، فالوضع التعينيّ والوضع التعينيّ كلاهما عبارة عن عملية إيجاد الاقتران بين اللفظ والمعنى حتّى يوجد بذلك صغرى من صغريات القانون الثاني، والفرق بينهما: أنّ الاقتران - الذي مضى: أنّه لابدّ أن يكون بنحو مخصوص حتّى يوجب الدلالة - يتمّ في الوضع التعينيّ بخصوصيّة كميّة، وفي الوضع التعينيّ بخصوصيّة كميّة، فروح الوضع والسبب الحقيقيّ للدلالة هو القرن بين اللفظ والمعنى في الذهن بنحو مخصوص. (الحائري، ١٤٢٨، ١٠١) وهذا كله يدور في إطار عملية الترابطات التي نحن بصددّها، ولكن كما ذكرنا من زاوية خاصة تقتصر على تفسير نشأة دلالة الألفاظ على معانيها، وإن كان السيد الحائري قد ناقش نظرية بافلوف في نفس سياق تقريراته لأستاذه الشهيد الصدر في بحث أصول الفقه وقارن بين النظريتين. مع ملاحظة أن الآراء المطروحة تصطدم بالتطور العلمي المعاصر، وبخاصة فيما قدمه علم الأعصاب المعرفي المعتمد على التصوير الدماغى (brain imaging). فقد أظهرت هذه التقنيات الحديثة - بكل وضوح - الفاعليات الدماغية المتعلقة بالمشاعر والتفكير وغيرها من أمور، وهي معطيات علمية لا تقبل الإنكار، ولا ذنب لها إن وُظفت في أغراض فلسفية غير سوية، بل هي صريحة في تأكيد الحقائق القرآنية التي وعدت بالكشف عن آيات الله ودلائل إعجازه في الكون وفي نفوس البشر ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣).

٧-٧.٨ نتائج دراسات العادات وزيارة الأربعين المباركة

نعود بعد هذه الرحلة الطويلة في عالم الدراسات الأكاديمية والإسلامية الى منطلق سؤال هذا الفصل الجاد:

كيف يحافظ المشارك الكريم في ممارسة زيارة الأربعين المباركة سواء كان زائراً أو كان عاملاً متطوعاً في خدمة الزائرين على مكاسب الزيارة التربوية بعد انتهاء موسم الزيارة؟

وقد تبين لنا بأن هذه المهمة الكبيرة تتعلق بمفهوم (العادات) أو (السلوك المعتاد) وهي من الموضوعات التي تستأثر بإهتمام الباحثين في مجالات السلوك لأنها من أعقد قضاياها، وتترتب عليها نتائج خطيرة على مستوى الفرد والمجتمع.

والشيء الباعث على الأمل أن الدراسات المذكورة تؤكد على إمكانية تغيير وتعديل وتشكيل العادات بالرغم من أعترافها بصعوبة هذه المهام، لكن ينبغي أن نضع في الحسبان أمرين هامين:

الأمر الأول: إن معالجة السلوك المعتاد يتطلب القيام بخطوات مدروسة، ويفضل أن يشرف عليه شخصيات متخصصة في مجال السلوك.

الأمر الثاني هو: توفر الرغبة الحقيقية في المتطلعين الى تغيير عاداتهم أو إكتساب عادات إيجابية جديدة.

وليكن في حسبان الجميع أن هذه المهام تتطلب صبراً من حيث الوقت والجهد، فهي ليست واحدة من العمليات الكيميائية أو الفيزيائية التي تأتي نتائجها فوراً، وهي كذلك تختلف من شخص الى آخر، وهذه من معضلات علم النفس الكبرى في تطبيق الإرشادات والقوانين النفسية، حيث لا يمكن تعميم جميع تطبيقاتها على كل الأشخاص بنفس الدرجة والشروط.

كيف ما يكون: إن على المشارك في زيارة أربعينية سيد الشهداء (عليه السلام) الاستفادة من معطيات الدراسات المشار إليها سلفاً، وبخاصة التوصيات التي خلص إليها، فقد تضمنت حقائقاً محايده من الممكن الانتفاع منها لكسر العادات السلبية عندنا والتشجيع على اكتساب عادات إيجابية جديدة. ومن أهم المعطيات هي المحاور الثلاث المتقدمة الذكر:

١. رفع الانتباه

كشفت الدراسات المتقدمة - بوضوح - عن عملية تشكيل السلوك التلقائي في حياتنا ووظائفه الضرورية حيث يتكفل بتوفير الوقت، الجهد، وتشغيل الوعي والانتباه في المهام المطلوبة لإجراء الموازنات الفكرية والتأمل والدراسة المعمقة. وقد أتضح لنا - بنفس الوقت - خطورة الدور الذي يلعبه السلوك ذاته فيما لو تشكل وفقاً لبعض العادات السلبية، حيث يترتب عليه خسائر كبيرة للفرد وللمجتمع.

لاحظنا أن الكثير من محاولات تغيير العادات يصطدم بالسلوك المعتاد نفسه، فالعادات تعيق التنفيذ وتمنع من تشجيع السلوكيات البديلة. ومن أجل التغلب على سيطرة العادات على سلوكنا البشري واستبدالها بالعادات الإيجابية يتعين علينا الإستعانة بما قدّمه علماء السلوك من استراتيجيات تساعد على إنجاح المهام المذكورة، ومنها:

عملية رفع الانتباه حيث تعتبر هذه الإستراتيجية من العوامل الفاعلة في عملية التغيير وكسر العادات، إنها تعمل على تحريك بواعث الإنسان في مراجعة نتائج الأعمال التي ينوي أن يقوم بها أو التي كان قد قام بها. ومهمة المشاركين في زيارة الأربعين المباركة - من زوار ومتطوعين - هي الألتفات الى أهمية هذه الإستراتيجية العملية، وأن يستفيدوا منها على المستوى الفردي والاجتماعي. حيث بإمكانهم على المستويين الفردي والاجتماعي إبراز المكاسب والأضرار التي تترتب على سلوكياتهم المبنية على العادات القديمة والجديدة، وينبغي أن تتكرر عملية رفع الانتباه لمرات متعددة، فتكرر التفكير والتروي بهذه المسائل يقود إلى القناعة وتبني مفاداتها، وهذا ما تعمله الإعلانات المتكررة عبر وسائل الإعلام والمصقات على الطرقات للعديد من الموضوعات التجارية والسياسية الهادفة إلى اقناع الناس بها، ولعل القرآن الكريم يسعفنا في التدليل على عملية التذكير

المستمر من خلال قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: ٥٥). وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (الغاشية: ٢١). فنحن بحاجة الى رفع مستوى التنبيه بنتائج العادات التي تصدر عنها أثناء موسم الزيارة الأربعينية وخارج نطاق موسم الزيارة زمانياً ومكانياً، وليستعن على المستوى الفردي بتسجيل الشخص أفعاله المتعلقة بالعادات المراد تغييرها في المذكرة اليومية من أجل مراجعة ما صنعه والتذكير بالأهداف المرسومة من قبله. وأما على المستوى الاجتماعي فينبغي الاستعانة بالحملات الإعلامية عبر القنوات الفضائية والمراكز العبادية من مساجد وأضرحة... الخ للتذكير بنفس الأهداف.

ومن جملة أعمال رفع الانتباه ما يكمن في توعية الناس بتدخل (السياق الاختياري) في سيطرة العادات على سلوك الناس. وهنا لا بد من توعية المشاركين في الزيارة الأربعينية على خطورة هذا الأمر فان السياق البيئي يلعب دوراً كبيراً في عملية تغيير السلوك، فلا شك أن بمقدور عملية التروي والموازنة والتأمل أن تعمل بنحو أكثر فاعلية فيما لو انتبهنا الى الدور الذي يلعبه المحيط في تكريس العادات عندنا، وبخاصة حينما نرجع من ممارسة الزيارة ونشتبك مع ما كنا ألفناه وأعتدنا عليه، ولا بد أيضاً من استثمار حالة انكسار العادات السلبيه المؤقتة بفضل أجواء موسم الزيارة، للتفكير بالإقلاع عنها كما ألمحت بعض الدراسات إلى ضرورة الانتفاع من تغير السياق المكاني المتسبب في كسر العادات والإنطلاق منه في تغيير العادات.

٢. نوايا التنفيذ

من الممكن الاستفادة من نتائج بحوث (نوايا التنفيذ) في عملية كسر وتعديل واستبدال العادات عندنا، فالدراسات النفسية المتخصصة بهذا المجال تعلق أهمية كبيرة على هذا الجانب. وعليه يتعين على المشاركين في ممارسة زيارة الأربعين المباركة أن

يقوموا بتوظيفها في عملية التغيير المنشودة، وذلك من خلال وضع خطة واضحة لتنفيذ السلوكيات الإيجابية، وتجنب السلوكيات السلبية، ويلزم أن تدور الخطة حول: متى، أين، وكيف ينفذ السلوك الجديد، ويفضل أن ينصب العمل على سلوك معين (عادة محددة) وبعد الإنهاء منها يبدأ بعادة أخرى.

إسلامياً تحظى مسألة توفر الإنسان على خطة معينة تجاه كل عمل يقوم فيه بمكانة رفيعة الى درجة أن المشرع الإسلامي لا يعترف بوجود العمل إذا لم تسبقه نية، فقد ورد عن الإمام علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «لا قول إلا بعمل ونية، ولا قول ولا عمل إلا بنية» (العالمي، ١٤١٤، ١: ٤٨).

وعن علي بن الحسين عليه السلام قوله: «لا عمل إلا بنية» (العالمي، ١٤١٤، ١: ٤٦).
وورد عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ في وصيته له: «يا أباذر: ليكن لك في كل شيء نية، حتى في النوم والأكل» (العالمي، ١٤١٤، ١: ٤٨).

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام في وصيته لأحد أصحابه ما يوضح دراسة الخطوات التي ينبغي أن يعتزم عليها الإنسان الملتزم قبل كل عمل، بحيث تكون له رؤية دقيقة عن كل أمر يشرع فيه. قال عليه السلام: «وَقِفْ عِنْدَ كُلِّ أَمْرٍ حَتَّى تَعْرِفَ مَدْخَلَهُ مِنْ مَخْرَجِهِ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِيهِ فَتَنْدَمَ» (الحراني، ١٩٦١: ٢٢٤).

وقال عليه السلام مستشهداً بكلام للسيد المسيح عليه السلام ما يحث فيه على تحمل صعوبة الإمتناع عن بعض الأمور من شهوات وصعوبات للظفر بالنتائج الطيبة والمحمودة، ولعل الإمتناع عن مواصلة أداء بعض العادات السلبيه ما يدخل ضمن إطار معالجة السلوك المعتاد الذي نحن في صده. يقول عليه السلام: «حق أقول لكم إنكم لا تصيبون ما تريدون إلا بترك ما تشتهون، ولا تنالون ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون» (الحراني، ١٩٦١: ٢٢٥).

وقد حذرت التوصيات الإسلامية من الإسترسال في الأعمال من دون تدبر الأمور ووضع خطط مسبقة تجاه كل ما نواجهه في الحياة. قال الإمام علي عليه السلام: «التدبير قبل العمل يؤمن الندم» (الري شهري، ١٤٢٢، ١٠: ٤٣١٢: ٣٨٦٢: حرف النون).
وعنه عليه السلام: «من أقلَّ الاستِرْسَالِ سَلِمَ، مَنْ أَكْثَرَ الاستِرْسَالِ نَدِمَ» (الري شهري، ١٤٢٢، ١٠: ٤٣١٢: ٣٨٦٢: حرف النون).

إلى جانب ما أشرنا إليه، ينبغي الاستفادة أيضاً من نتائج البحوث المختصة في (تنفيذ النوايا) ذات العلاقة بمساعدة تغيير المكان في كسر العادات ولو مؤقتاً، وممارسة زيارة الأربعين المباركة تتيح للمشاركين فرصة تغيير المكان، والابتعاد عن المحيط الذي يتسبب في أداء السلوك المعتاد ما ينتج عنه انكسار للعادات ولو مؤقتاً، وهذا نوع من الإنجاز ينبغي استثماره وتطويره. وهنا لا بد من تدخل بعض الفرق من المتطوعين الكرام على تنمية هذه الخطط وتسهيل أدائها لعامة المشاركين، وذلك عبر تقديم بعض الخدمات مثل: وضع حاويات النفايات على الطرقات، وضع شاشات متلفة كبيرة توضح خطورة التدخين، الأكل الغير صحي، عدم الغضب، التسامح، نبذ العنف، والتنبيه على ضرورة وضع خطة سلوكية لبعض العادات الإيجابية وتطبيقها خلال وبعد أيام موسم الزيارة.

ومن الأشياء الهامة التي زودتنا بها الدراسات المتقدمة الذكر أن تنفيذ النوايا يمكن لها أن تطبق من خلال النشاطات الجماعية من قبيل الجمعيات و الأندية والأعضاء المشتركين ضمن شبكات مؤسسات المجتمع المدني، فان تشكيل السلوك الجديد عبر الجماعة يسهل من إمكانية حضوره وتعزيزه، ذلك أن ميزة هذه الإستراتيجية تكمن في أن القيم الجماعية المسيطرة على مجموعة ما تستطيع ان تعزز من صنع الخطة و فاعليتها في حالة تنافس الأهداف، وهذا ما يجعلنا أكثر تفوقاً في تفعيل معطيات تنفيذ النوايا، وذلك بسبب توفرنا على عدد كبير من مؤسسات المواكب والهيئات الحسينية التي تحظى بتجاوب الجمهور الحسيني معها، وتمكنها من تمرير العديد من المفاهيم والعادات

الحسنة، ولا تفوتنا الإشارة الى أن الجانب الإيماني يسهم في تفاعل الناس مع عمليات الترشيد المذكورة، ذلك أن المكاسب المتحققة نتيجة الالتزام بها لا تنحصر في مساحة الحياة الدنيا بل تتجاوز ذلك لتشمل الحياة الأخرى، وهذا ما يشجع الناس على تحمل صعوبات التغيير للسلوك المعتاد.

٣. تغيير الأولوية في الأهداف اللا واعية

من الحقائق المؤكدة أن للبيئة الاجتماعية والمادية (الطبيعية) تأثير على سلوكنا، وغالباً ما يعمل هذا التأثير بنحو غير مباشر كما أوضحنا لعملية الترابطات بين المثيرات والاستجابات (م-س) وما يصاحبها من سلوك تلقائي. ولا شك أن البيئة الصالحة تعمل على تنشيط السلوك الإيجابي، بل وتتدخل في الحالة الإيمانية برمتها، والعكس صحيح كذلك إلا لمن يستطيع أن يحمي نفسه من تداعيات البيئة السلبية بالاعتماد على الوعي العبادي المكثف، وهذا ما لا يتوفر إلا عند أفراد محدودين من الناس.

ولهذا بالذات وردت العديد من التوصيات الإسلامية التي تحذر من مخاطر تأثيرات البيئة الاجتماعية وحتى البيئة العامة من مدن ومنازل وأماكن تتخذ لمعصية الله، وإن كانت التوصيات نفسها تتحدث عن التأثيرات المباشرة للعوامل البيئية إلا أننا نستطيع توقع المخاطر اللا واعية للعوامل ذاتها. نشير الى بعض التوصيات بنحو سريع خشية الخروج عن مقاصد الدراسة. يقول الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (النساء: ١٤٠).

ويقول الله تعالى أيضاً: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام: ٦٨).

وعن الإمام علي عليه السلام: «لا تجلسوا على مائدة يُشربُ عليها الخمرُ، فإن العبدَ لا يدري متى يُؤخذُ» (الري شهري، ١٤٢٢، ٢: ٥٢٢: ٥١٩: حرف الجيم).

وعنه عليه السلام: «إياك والجلوس في الطرقات» (الري شهري، ١٤٢٢، ٢: ٥٢٢: ٥١٩: حرف الجيم).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «لا ينبغي للمؤمن أن يجلسَ مجلساً يعصى الله فيه ولا يقدر على تغييره» (الري شهري، ١٤٢٢، ٢: ٥٢٢: ٥١٩: حرف الجيم).

وعن الإمام علي عليه السلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقوم مكان ريبة» (الري شهري، ١٤٢٢، ٢: ٥٢٣: ٥١٩: حرف الجيم).

وعن رسول الله عليه السلام: «قال: قال عيسى بن مريم للحواريين: تحبوا الى الله وتقربوا اليه.

قالوا: يا روح الله بماذا نتحبب الى الله ونتقرب اليه؟

قال: ببغض أهل المعاصي، وألتمسوا رضى الله بسخطهم.

قالوا: يا روح الله فمن نجالس إذا؟

قال: من يذكركم الله رؤيته، ويزيد في عملكم منطقته، ويرغبكم في الآخرة عمله» (الحراني، ١٩٦١: ٣١).

وعن علي بن الحسين عليه السلام: «مجالسُ الصالحين دأعيةٌ إلى الصلاح» (الري شهري، ١٤٢٢، ٢: ٥٢٨: ٥٢٤: حرف الجيم).

وعلى صعيد آخر فقد أشارت بعض النصوص الى الوعي الشديد لأئمة أهل البيت: من الوقوع في شباك العادات، والتنبيه على الوقاية من إفساح المجال الى النفس حتى فيما يتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد ورد عن الإمام علي عليه السلام: «لما أُتيَ بفالودج (نوعٌ من الحلواءِ تُهيأُ من الدقيقِ والماءِ والعسلِ) فوضع قدامه: إنك طيبُ الریحِ حسن اللون طيب الطعم،

ولكن أكره أن أُعوّد نفسي ما لم تُعتدّ» (الري شهري، ١٤٢٢، ٧، ٢٩١٦: ٣٠٠٣: حرف العين).

وورد أنه: «أتى أمير المؤمنين عليه السلام بخوان فالوذج، فوضع بين يديه ونظر إلى صفائه وحُسنه، فوجئ بإصبعه فيه حتى بلغ أسفله، ثم سلّها ولم يأخذ منه شيئاً، وتَلَمَّظَ إصبعه وقال: إن الحلال طيّبٌ وما هو بحرام، ولكني أكره أن أُعوّد نفسي ما لم أُعوّدها، ارفعوه عني، فرفعوه» (الري شهري، ١٤٢٢، ٧، ٢٩١٦: ٣٠٠٣: حرف العين).

ومن الجدير مراجعة ما توصل اليه البحث العلمي فيما يتعلق بتنشيط الأهداف المرغوب فيها لكي تغلق الباب في وجه الأهداف الغير مرغوب فيها، ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يقوم بأكثر من فعل واحد في وقت واحد، حيث يمكن توظيف هذه المعطيات في الحياة العامة، كما يمكن الاستفادة منها بأكبر قدر ممكن في أيام موسم الزيارة الأربعينية، من أجل رفع مستوى المشاركين عبادياً وثقافياً، ومساعدتهم في إيقاف ضغط العادات السلوكية عليهم، شريطة أن نلتزم بالدقة في التطبيق واختيار الوقت المناسب، وبالنسبة الى الوقت المناسب فان زمان الزيارة الأربعينية من أفضل أوقات توجه الناس وتقبلها لمواجهة التغيير.

وأما مسألة الدقة فهذا ما يتطلب ورشات عمل مسبقة يديرها جملة من المختصين النفسانيين والاجتماعيين، يتم من خلالها مناقشة الخطط المراد تمريرها، وتهيئة الأدوات التي تعمل على نجاح عملية التطبيق، فقد أكدت الدراسات على إمكانية تطبيق هذه الإستراتيجية على نطاق واسع من الناس، مما يتعين علينا عدم تضييع فرصة حضور مثل هذه الكثافة البشرية من الناس التي يجتذبها حب المبادئ والقيم، وتتطلع الى تهذيب أنفسها، والسير على منهج القادة الربانيين.

كما يمكن تعميم المعطيات ذاتها على جمهور زيارة الأربعين المباركة لتطبيقها بنحو شخصي، وحسب ما يجده الشخص من أولوية في التصدي للعادات المراد كسرها أو إكتسابها.

٨-٧-٨ التوصيات الأخيرة

تعرضنا الى أهمية السلوك المعتاد والى الدور الذي تلعبه العادات في حياتنا بنحو مفصل، وقد أتضح لنا أن الإجابة على سؤال الفصل الرئيس «كيف يحافظ المشارك الكريم في ممارسة زيارة الأربعين المباركة سواء كان زائراً أو كان عاملاً متطوعاً في خدمة الزائرين على مكاسب الزيارة التربوية بعد انتهاء موسم الزيارة» تعتمد على الإلمام بعمليات تشكيل العادات، وفهم آليات الترابطات بين المثيرات والاستجابات، وتدخل كل من البيئة الاجتماعية والطبيعية بنحو مباشر أو غير مباشر في توجيه السلوك المعتاد، الى جانب تطرقنا الى قسم من التطبيقات والبرامج والتوصيات الدراسية المساعدة على كسر العادات السلبية وإكتساب العادات الإيجابية.

والى جانب ما تقدم، لا بد من إضافة بعض التوصيات الخاصة لغرض معالجة موضوع العادات، وهذه التوصيات مستمدة - في بعضها - من إرشادات فقهاء المسلمين وعلماء المعرفة الإلهية، حيث درسوا بعمق ودقة جملة من الموضوعات ذات الصلة الشديدة بعمليات صياغة الوعي وتخليطه على محاولة تغيير العادات النفسية والعقلية المعقدة من قبيل: الغفلة، التفكير، الذكر، حضور القلب، الإرادة، العزم، المحاسبة، الموازنة، وغيرها من مسائل حساسة وهامة في معالجة الأمراض العقلية والنفسية، وتقديم الإرشادات المؤثرة في مجالات تقويم النفس ووقايتها. وقد أكدوا على أن عملية تهذيب السلوك أمر يسير وممكن، وليس بالأمر الخارج عن قدرات الإنسان، ذلك أن الله تعالى لا يأمر بالأمور الغير ممكنة، ولكن الشياطين يوحون الى الناس بأن الأمر مستحيل، ولا شك في أن الأمر عسير على من لا يجتهد في تزكية نفسه، ويتركها دون رعاية وترويض، وقد أشار أحد العلماء المتخصصين في هذا المجال ٢ حينما عالج موضوع حضور القلب في العبادات

وفي المعبود ما يلي: «إن تفرغ القلب من غير الحق يعد من الأمور المهمة... والسييل الى تحصيله ميسور وسهل، فمع قدر قليل من الانتباه والمراقبة نستطيع أن ننجزه.

يجب على الإنسان الذي يريد السلوك الى الله من إمساك الخيال فترة من الزمن، وإلجأه عندما يريد أن يتحول من غصن إلى غصن آخر - ويتشتت - وبعد مضي فترة من المراقبة يُدَجِّن الخيال ويهدأ وتزول عنه حالة التشتت ويصير الخير من عادته - والخير عادة - فينصرف فارغ البال إلى التوجه نحو الحق والعبادة» (الخميني، ٢٠٠٣، ٤٥٥). وهو في نفس الوقت من الأمور الاختيارية التي تقع تحت سلطة النفس، وبهذا أكتسب الانتباه واليقظة والوعي شرف القيمة الأخلاقية، لأنه لا يأتي بنحو قهري بل هو نابع عن اختيار الإنسان بحيث يمكن له أن يوجهه بوعي الى الأشياء النافعة ويجبسه عن الأشياء التي لا تعود بالخير عليه.

يلاحظ أن توظيف الجانب الديني في عملية تغيير السلوك يجعل من الآثار الإيجابية المتطلع إليها آثاراً مزدوجة، دنيوية وآخروية، وهذا ما يمنح عملية التغيير شحنات عالية من الوعي والتحرك بخلاف ما لو كان التطلع دنيوياً خالصاً. ولعل فاعلية الجانب الديني أشد تحريكاً عند المؤمنين من التطلع إلى المنافع الدنيوية الخالصة، وبخاصة حينما يكون التحذير في سياق الغفلة وإغراق الإنسان نفسه في الشهوات باللهجة التالية: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الحجر: ٣). أو حينما يشير كلام الله - عز وجل - إلى حالة تعطل مراكز الإدراك عند البشر بسبب ابتعادهم عن فطرتهم الأصيلة، وتدنيهم الى أسفل مراتب المخلوقات: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٩). وغير ذلك من الخطابات الواعدة بالعقوبات والخسران والنعيم والجنان للغافلين عن الوظيفة العبادية، وللمتبهين الى أهميتها.

كما ونوصي باستثمار موسم زيارة الأربعين المباركة لإحداث الترابطات والتداعيات بين السلوكيات الحسنة وبين أجواء المناسبة، وبخاصة عند الأطفال والشباب من أجل أن تتركز هذه الإقترانات في أعماق عقولهم، فإن موسم الزيارة الأربعينية يقدم لنا فرصاً نادرة في مجال إكتساب العادات الإيجابية وكسر العادات السلبية، فهو يمثل مصنعاً من مصانع التطبيع على العادات الإيجابية والأخلاق الحسنة، ومصدراً هاماً للتزويد بالصبر والصمود على مقاومة العادات والسلوكيات السلبية.

وينبغي الاهتمام برعاية برامج التربية المذكورة من خلال مراكز متخصصة في هذا الحقل الهام وبالتعاون مع مؤسسات التربية والتعليم والإعلام الملتزم ومراكز الإرشاد الديني التابعة لمؤسسة الحوزة العلمية الشريفة، ومواصلة البحث والدراسات النظرية والميدانية في ذات الموضوع، حيث ينتظرنا عمل كبير على حقل واعد بالمنجزات التنموية البشرية الهائلة.

٩. صيانة ممارسة زيارة الأربعين المباركة

تتعرض كافة الممارسات الدينية والاجتماعية والثقافية إلى الترهل والانحراف وسوء الاستخدام، مما يفقدها قيمتها وتأثيرها في الحياة، بخاصة الممارسات الجماهيرية التي يصعب السيطرة عليها، وممارسة زيارة الأربعين المباركة لا تشذ عن هذه القاعدة العامة بصفقتها واحدة من أبرز الممارسات العبادية والاجتماعية الجماهيرية، حيث تدخل عليها - نتيجة تطاول الزمن وسعة المشاركة - العديد من الأشياء المتعارضة مع مقاصدها المقدسة، والكثير من الأشياء الدخيلة تحدث بحسن نية - فنحن لا نتهم أحداً من عشاق هذه الممارسة ومن العاملين على إحيائها مطلقاً - لكن النصيحة والتنبيه وتوخي الحذر تجنباً من الوقوع في الخطأ من الأهمية بمكان كبير.

لهذا سوف نحاول الإشارة إلى أهم العناصر التي يتعين الالتفات إليها بغية المحافظة على هذه الممارسة المباركة نقية وطاهرة وفاعلة. ونبتدأ بـ:

٩-١ المحافظة على طابعها العبادي

الأمر الأول: إن أول ما يتبادر إلى الذهن حول العمل على صيانة ممارسة زيارة الأربعين المباركة هو المحافظة على طابعها العبادي، فلا بدّ من تمحّض خطوات المشاركين فيها لله - سبحانه وتعالى - وأن لا تشوبها شائبة تحدّش في سلامتها من قبيل: الرياء، العجب، المفاخرة وسائر الأعمال التي لا يُراد منها التقرب الخالص الى الله عزّ وجلّ، مما يتسرب من خلالها الشيطان، ويتسبب في ضياع العمل وترتب الآثام - والعياذ بالله - عليه.

إنّ على الزائرين الكرام وعلى المتشرّفين بخدمتهم أن يقبلوا على الله - سبحانه وتعالى -

بجميع سلوكهم، وأن يعيشوا بقلوبهم حالة الحضور في ساحته المقدسة، لكي يظفروا بالأجر وبلذة التواصل العبادي ويشعروا بالسعادة المطلقة المتأتية عن أداء عبادة الله تعالى.

٩-٢ مراعاة الأحكام الشرعية

الأمر الثاني: نبّه العديد من فقهاء الحوزة العلمية في النجف الأشرف الى ضرورة الالتزام بالواجبات الشرعية وعدم مخالفتها أثناء أداء ممارسة المشاركة في زيارة الأربعين المباركة من قبيل: الصلاة في وقتها، والتوقف عن المشي حينما يرفع الأذان، وعدم ترك العمل الوظيفي للمشاركة في أداء الممارسة دون أخذ الإجازة المسبقة من المسؤولين، حيث يُعدّ مثل هذا العمل مخالفة شرعية، ويترتب عليه تأخير أعمال الناس، والإضرار بمصالحهم وهو أمر تشجبه رسالة الزيارة وثقافتها المباركة. ومن المسائل الحساسة أيضاً الحشمة ومراعاة الحجاب الشرعي بالنسبة إلى الأخوات المؤمنات، وغض البصر بالنسبة إلى الإخوة المؤمنين، فلا يخفى على الجميع إن ممارسة الزيارة والمشي بالرغم من أهميتها العظيمة، وإيماننا بضرورتها تبقى من الأعمال المندوبة (المستحبة) بينما الأعمال المشار إليها هي من الواجبات الشرعية التي يترتب على الإخلال بها الحرمة الشرعية، ونحن نربأ بالمؤمنين والمؤمنات الكرام أن يغفلوا عن هذه الحقيقة، مما ينعكس على سمعة الممارسة نفسها، بخاصة أن ثمة الكثير من المتربصين للإساءة والنيل بالممارسة من خلال إلتقاط بعض الأعمال المخالفة للأحكام الشرعية أثناء المشاركة في أداء الزيارة، ونشرها بين الناس بغية الإساءة وضرب هذه الشعائر المقدسة.

٩-٣ الالتزام بمنطقاتها الأصلية

الأمر الثالث: ينبغي التشدد في الالتزام بمنطقاتها الأصلية ومضموناتها الحقيقية، فمن الضروري أن تبقى روح المأساة والمواساة حاضرة في جميع مفاصلها، ذلك أن مشاعر المأساة الحسينية تمثل وقود حركة التصحيح والإستنصار والتغيير الذي كانت ثورة الحسين عليه السلام تستهدفه، وهذا بالذات ما دعا أهل البيت عليهم السلام على توجيه الجماهير المؤمنة الى زيارة مشهد سيد الشهداء عليه السلام بأحاديث فاقت جميع ما ورد في حق مشاهد المعصومين الآخرين عليهم السلام، فليس من اللائق ولا من الوفاء لصاحب هذه الذكرى أن تتحول الى نزهة أو مجرد ممارسة من ممارسات التمتع وقضاء الوقت أو ميدان من ميادين المباريات الاجتماعية من قبيل المشاركة للحصول على السمعة والتقدير الاجتماعي. وقد تطرقنا الى آداب الزيارة بنحو مفصل في دراستنا ثقافة الزيارة عند أتباع أهل البيت (الساعدي، ٢٠١٥). ونضيف في هذا الموضوع التوصيات الآمرة بالإحساس العميق بالحنن على سيد الشهداء عليه السلام أثناء ممارسة الزيارة حيث جاء في الأبواب المتعلقة بـ (كيف يجب أن يكون زائر الحسين بن علي صلوات الله عليهما) التالي:

روى المفضل بن عمر، قال: «قال: أبو عبد الله عليه السلام تزورون خيرٌ من أن لا تزورون، ولا تزورون خيرٌ من أن تزورون».

قال: قلت قطعت ظهري. قال: تالله إن أحذكم ليذهب إلى قبر أبيه كئيباً حزيناً وتأتونه أنتم بالسُفْرِ! كلا حتى تأتونه شعثاً غبراً» (الشيخ ابن قولويه، ١٣٥٦: ١٣١).

وعن سعد بن عبد الله عن موسى بن صالح بن السندي الجهمال عمن ذكره عن كرام بن عمرو، قال: «قال: أبو عبد الله عليه السلام لكرام إذا أردت أنت قبر الحسين عليه السلام فزره وأنت كئيبٌ حزينٌ شعثٌ مغبرٌ، فإن الحسينَ قُتِلَ وهو كئيبٌ حزينٌ شعثٌ مغبرٌ جائعٌ عطشانٌ»

(الشيخ ابن قولويه، ١٣٥٦، ١٣٢).

إن هذه الروايات تريد التأكيد على طابع الحزن في زيارة الحسين عليه السلام والنهي عن تجريدتها من طابعها المأساوي عبر الاهتمام بالمظهر الخارجي للإنسان - كما تألفه الحياة العامة حينما يقصد أحدنا مكاناً مشهوراً أو يلتقي ببعض الناس - حيث يحرص الجميع بأن يكون على هيئة لائقة، مما يستدعي من الآخرين أن يتنافسوا فيما بينهم على الظهور بالشكل الأكثر جاذبيةً، وهذا ما يتسبب في فقدان التركيز على المقاصد الأصيلة من زيارة سيد الشهداء عليه السلام والتفاعل معها إلى درجة البكاء والندب والابتعاد عن كل ما من شأنه التأثير على إضعاف مشاعر الحزن. ومن هنا أيضاً ورد المنع في أكثر من رواية عن استخدام الطيب والمساحيق التجميلية في زيارة الحسين عليه السلام «ولا تدهن ولا تكتحل» وقد تناولنا الموضوع نفسه في كتاب ثقافة الزيارة حينما مرت بنا فقرة استخدام الطيب كواحدة من مفردات آداب الزيارة، وذكرنا ما قاله الشيخ المامقاني - رحمه الله - هناك حيث قال: «ورد الأمر به في زيارة أمير المؤمنين عليه السلام، والظاهر جريانه في غير سيد الشهداء عليه السلام من الأئمة: لكون استعمال الطيب محبوباً شرعاً، فيناسب حال الزيارة، وأمّا في زيارة الحسين عليه السلام فقد نهى الصادق عليه السلام أبا بصير عنه وعن الأدهان والاكتحال لمن أراد زيارته عليه السلام، والترك هو المناسب للحزن والكره المحبوب إظهاره في زيارته عليه السلام».

إن المراد من هذه التوصيات هو التأكيد على الاهتمام بالحزن والأسى على سيد الشهداء عليه السلام بخاصة أن رواية المفصل بن عمر أشارت إلى مفردة (السفر) وهي حمل الطعام والموائد معهم، كما أن (كرام) الذي يروي قول الصادق عليه السلام المتقدم نفسه، روى عنه أنه قال للصادق عليه السلام: «- جعلت فداك - إنّ قوماً يزورون قبر الحسين عليه السلام فيطيبون السفر.

قال: فقال لي أبو عبد الله عليه السلام أما أنهم لو زاروا قبور أمهاتهم وآبائهم ما فعلوا ذلك» (الشيخ ابن قولويه، ١٣٥٦: ١٣٠) وعبارة يطيبون السفر تدل على حمل أصناف الطعام،

ما يوحي بطابع تَّخيم عليه أجواء التعلل والتمتع بلذائذ الطعام.

مما يعني أن الإمام كان في صدد حماية مقاصد زيارة الحسين عليه السلام من الانحراف والذوبان والتحول إلى مجرد طقوس أو واحة من واحات الإستجمام بحيث يتزين القادمون إليها ويجلسون على موائد فيها ما لذ وطاب، والفرح يغمر وجوههم وكأنهم في مناسبة من مناسبات الأفراح، وهكذا يتناسون ما جرى في تلك البقعة من مأساة، وهذا ما يستتلي ا فراغ ممارسة الزيارة من زخها العاطفي ومن قدرتها الفذة على تفجير دوافع الإستنصار وأخذ الثار لسيد الشهداء عليه السلام.

وهذا ما يتطلب التثقيف وتذكير الممارسين طوال أوقات الزيارة - وخارج أوقاتها - بمضامين الممارسة وشعاراتها ورموزها المقدسة، والتحصن من انحراف أهدافها أو إدخال بعض الطقوس الدنيوية الغير منسجمة مع منطلقاتها الأصيلة.

٩-٤ عكس الطابع التقديسي

لعل الحديث عن الطابع المقدس لزيارة الحسين عليه السلام يعتبر من فضول القول وبدايته لدى عامة المسلمين فضلاً عن الملتزمين بنهجه وولائه عليه السلام فالحسين عليه السلام قد صرَّح الكتاب المبارك بقداسته وتطهيره وقبول عمله ونزول البركة عليه وعلى أهل بيته الطيبين والطاهرين، إلى جانب ما استفاضت به السنة المباركة في المجال ذاته حتى أن كبار الصحابة كانوا يتبركون به وبأهل بيته عليه السلام ... بيد أننا نستهدف وجهة أخرى من موضوع التقديس، حيث نحاول أن نضع جمهور الحسين عليه السلام خداماً وزائرين أمام مسؤولياتهم الكبيرة فيما يتعلق باظهار الطابع القدسي لهذه الممارسة المقدسة، وليس من شك أن الالتزام بالأحكام الشرعية وبخاصة في آداب الزيارة وتوصيات المرجعية المباركة كفيل بعكس قدسية الممارسة، والبرهنة على ارتفاع الممارسين إلى مستوى التعامل مع الجانب (الملكوتي) الذي تستبطنه زيارة الحسين عليه السلام وفهم شخصيته الإلهية الغيبية،

ودوره الرسالي والحضاري، ومن دون بذل الجهد في الالتزام المذكور سوف لن نحظى بقبالية الإنفتاح على العالم الملوكوتي من تلك الممارسة النفيسة، مما يعني مفروغية عدم ظهور السلوك المقدس لنا أثناء أداء الممارسة نفسها، وثمة أمر آخر قد لا يحتاج عكس السلوك المقدس أثناء ممارسة الزيارة كل ذلك الجهد والفهم العميق، ونقصد بذلك رعاية بعض الجوانب الظاهرية التي تعكس احترام الزائر للمزور عليه السلام والتأكيد على شدة حضور هيبته الروحية في نفوس المتفاعلين مع ممارسة زيارته من قبيل: النظافة والاهتمام بالبيئة وبخاصة في البيئة التي تقام عليها أنشطة الممارسة، فليس من الصحيح تصور أن الحرم المطهر هو الفضاء المقدس فحسب - مع أعترافنا بعلو شأن المرقد ووجود العديد من الخصوصيات والأحكام المتعلقة فيه - ففي حدود فهمي المتواضع أن الطرق التي أعتاد جمهور الزيارة أن يسلكها للوصول إلى المرقد المطهر هي كلها بيئة الحسين عليه السلام مما يحتم علينا الاعتناء بنظافتها وجماليتها نظير ما نعتني بالحرم المبارك، فهذا ما يعمل على تعزيز السلوك المقدس، ذلك أن الدراسات العلمية تؤكد على الدور الذي يلعبه المحيط المادي في حمل الإنسان على السلوك الإيجابي، حيث أشارت إحدى الدراسات إلى أن ثمة إشارات يحتوي عليها المحيط المادي (البناء، الطرق، التنظيم، الفوضى، الإضاءة، النظافة،... الخ) فلهذه الإشارات تأثير قوي على سلوك الناس وإمكانية توجيهه. فمن الحقائق الخاصة بالسلوك الإنساني أن تبني الناس لبعض القيم والنظم والأهداف لا يشكل ضماناً بتطبيقهم لتلك السلوكيات. إن تطبيقهم لها يعتمد على بعض الآليات وأهمها - حسب رأي بعض الباحثين - أن تكون تلك القيم والأهداف عملياً حاضرة بدرجة عالية في عقل الممارس في اللحظة التي تستدعي العمل فيها. لذلك تلعب الإشارات الموجودة في المحيط المادي دوراً حاسماً، حيث تعمل إما على تنشيط تلك القيم والأهداف أو تعطيلها، وغالباً ما يحدث ذلك دون أن يشعر المرء للأمر، فعلى سبيل المثال حالة الأماكن العامة: المحيط الفوضوي المليئة شوارعه بالأوساخ يعطل القيمة أو المبدأ الداعي إلى المحافظة على النظافة والتنظيم، وعليه فإن المرء الذي يشاهد الأوساخ تغطي

الأماكن سوف لا يكثر في رمي الأوساخ في الشارع (Cialdini et al, 1990). بينما يعمل المحيط المنظم والنظيف على تفعيل مبدأ النظافة، كمن يدخل في متنزه عام فيجده في غاية النظافة والترتيب، فحينها سوف لن يجرأ على رمي الأوساخ في غير الأماكن المخصصة لها (Tiemeijer, Thomas en Prast, 2009).

قد يقلل البعض من هذه الإشارات التي يطلقها المحيط، ويستقبلها الناس بنحو غير واعي، لكن الدراسات تؤكد على فاعليتها في تنشيط القيم السلوكية والحضارية، بل وأكثر من ذلك، حيث تعمل على القضاء على القيم الإيجابية واستبدالها بقيم سلبية، مثل الانحراف والكسل، والتعامل الإناني المقيت، وذلك من خلال إخضاع الأشياء جميعاً على مبدأ الربح والخسارة حتى فيما يتعلق بالقيم الاجتماعية العامة من قبيل عدم رمي الأوساخ في الأماكن الغير مخصصة لها (Lindenberg & Steg, 2007).

من الممكن توظيف مثل هذه المعطيات العلمية في محيط ممارسة الزيارة من أجل مساعدة الزائرين في تعديل سلوكهم الإيماني والحضاري، وتنمية الشعور بقداسة الممارسة عبر المحافظة على البيئة، والالتزام بمبادئ الصحة والتنظيم، وإحترام الآخرين من خلال تهيئة المحيط المتوفر على الشروط الإيجابية لأداء ممارستهم.

وبعيداً عن كل ذلك، فليس من الآثق أن تكتض تلك الطرقات بالنفايات والرمال، وان تكتسح الأراضي الجرداء معظم المساحات المخصصة للممارسة إلى درجة يتعسر بها أداء نشاطاتها. إن وجود مثل هذه الظواهر السلبية يسيء لقدسية الممارسة، ويقدم للمراقبين والمهتمين من مختلف بلدان العالم صورة غير حضارية عنها.

وما دمنّا قد تطرقنا إلى بعض الظواهر العاملة على تعزيز السلوك التقديسي، يتعين علينا الإشارة إلى مراعاة السكينة والهدوء والانشغال بذكر الله تعالى، واجتناب الضحك بصوت مرتفع، والشجار، والسباق في المشي، وحتى في تقديم الخدمات.

إن التأكيد على هذه المسائل وإن بدت للبعض بدايتها وضرورتها من شأنه أن يعكس قدسية هذه الممارسة المباركة للعالم وليس السعي في الوصول إلى أكبر مائدة طعام أو أكبر صلاة جماعة أو تحطيم الأرقام القياسية الأخرى مع تمييزنا وتقديرنا لتلك الأعمال ولا نشك أبداً في نبل منطلقاتها، فالهدف والتحدي والطموح في أن نصل إلى السلوك الذي يعكس قداستنا لهذه الممارسات العظيمة.

٩-٥ تنمية ممارسة زيارة الأربعين المباركة

بسبب إنشاق ممارسة زيارة الأربعين المباركة من قلب الحركة الجماهيرية المؤمنة، وبسبب وقوف الحكومات - عبر التاريخ - موقفاً معادياً لها، فقد إقترنت الممارسة ذاتها بالجمهور المؤمن، وتحسّس الجمهور من كل مقارنة للحكومات بقصد تقديم المساعدة والدعم في بعض المراحل التاريخية التي صعد بها عدد من الحكام الذين كانوا يسعون إلى كسب الجمهور المؤمن أو عقد هدنة مؤقتة معه. وهذا ما تسبب في تشنج العلاقة بين الجمهور والحكومات، وقد استمرت العلاقة المتشنجة والمريبة إلى زمن قريب، بل ولا زالت آثاره واضحة حتى هذه الأيام، وهذا ما تسبب كذلك بتأخر مشاريع التنمية الهادفة إلى الارتقاء بتقديم الخدمات وتطوير وسائل الراحة للزوار الكرام حتى يتسنى لهم أداء شعائرهم بيسر وانسيابية وسلامة. فمن المفروغ منه إن مشاريع التنمية الاستراتيجية لا تنهض بها إلا مؤسسات الدولة أو المؤسسات الاستثمارية الكبرى.

لذلك سوف ينصب اهتمام معالجتنا هذه - في الدرجة الأولى - على تدخل الحكومة العراقية المعاصرة في مجالات تنمية ممارسة الزيارة، ومن ثمة التطرق إلى الأعمال التنموية التي تقع على عاتق الجمهور المؤمن نفسه.

٩-٦ مشاريع التنمية الحكومية

يتعين على الحكومة العراقية أن تهتم بممارسة زيارة الأربعين المباركة بما يتناسب مع أهميتها العالمية المتزايدة عاماً بعد عام، وهذا ما يستدعي منها أن تدرجها ضمن أعمالها الإستراتيجية، وخططها الضرورية، وأن لا يقتصر إهتمامها بها من خلال علاقتها بالملف الأمني فحسب. إن تقديم الحماية للزائرين أمر لا نقاش فيه، ولكن ما تتضمنه هذه الممارسة بالنسبة إلى الحكومة وأجهزتها المختلفة أوسع من قضايا الملف الأمني.

إن على الحكومة العراقية أن تعمل بجهد ومثابرة على تنمية ممارسة الزيارة، وذلك من خلال دراسة كل ما يدخل في تقديم المساعدة وتسهيل أدائها للزائرين، وهذا ما يفرض عليها إستحداث وزارة خاصة تعنى بشؤون زيارة العتبات المقدسة في العراق، ليتسنى لها التنسيق العالي بين كافة أجهزتها الحكومية حول الموضوع ذاته، ولا يتحقق هذا وذاك ما لم تكن لديها سياسة خاصة، وواضحة في الشأن نفسه، وسوف نتطرق إلى موضوع الوزارة الخاصة بالزيارة بعد الانتهاء من الأعمال التنموية الضرورية في الوقت الحالي.

الملاحظ أن المشاريع الحكومية تكاد أن تكون منعدمة في مجال الزيارة بنحو عام، وزيارة الأربعين المباركة بنحو خاص، بالرغم من أبعادها الحضارية العالمية وخصوصياتها الدينية والقومية، وتوفرها على طاقات هائلة من إشاعة السلام وثقافة التسامح والعتاء داخل المجتمع العراقي الذي هو بأشد الحاجة إلى تلاحم أبنائه وتماسك نسيجه الداخلي، إلى جانب ما تدره على البلد من منافع مالية ضخمة عبر إستقطابها للملايين من الزائرين داخلياً وخارجياً، وعلى المسؤولين العراقيين أن لا ينظروا إلى هذا الحدث الكبير بنظرة ضيقة، كما كانت الحكومات السابقة تنظر اليه كممارسة دينية تختص بها طائفة من طوائف المسلمين، مما كانت تثير حفيظة المسؤولين الذين لا ينتمون إلى الطائفة نفسها،

وقد تعامل معها العديد من المسؤولين - كما سلفت الإشارة - بعدوانية لإعتقادهم بأنها تمثل خطراً سياسياً على حكوماتهم، أو أن تنمية ممارسة الزيارة تصب في مصلحة جزء ولون وهوية معينة، وهذا ما كانت لا تستسيغه، بل وتحارب حدوثه. إن هذا النمط من التعامل تسبب بهدر كبير في مجالات التنمية والاستثمار للبلد على كافة المستويات وبخاصة مستوى احترام قناعات الإنسان العراقي من خلال احترام مقدساته ورموزه الروحية بغية تعميق روابط الانتماء للوطن.

ينبغي أن يكون مستوى وعي وحرص وأمانة المسؤولين أرفع من ذلك في المرحلة المعاصرة، نظراً لحاجة المجتمع بل حاجة العالم كله إلى العمل بهذا الاتجاه حيث أن تداعيات ما يحدث في بلد معين لا تقف - في الوقت الحاضر - على حدود ذلك البلد بل تصل إلى أقصى بلدان العالم، والعراق يحظى - نتيجة عدد كبير من العوامل - باهتمام كافة دول العالم، يكفي أنه ومنذ عقود من الزمن يتصدر الأخبار العالمية سياسياً وأمنياً. لذلك فإن تصدير بعض جوانب ثقافة الزيارة المباركة الزاخرة بالقيم الإنسانية النبيلة بدلاً من تصدير ثقافة الكراهية التي تحتاج العالم يعتبر من المكاسب الكبيرة لهذا البلد المنكوب وللمجتمع الدولي.

١٠. محاور التنمية الحكومية

في الموضوعات التالية، نحاول الإشارة بنحو سريع إلى أهم محاور التنمية التي ينبغي على الحكومة العراقية أن تعمل عليها بغية النهوض بواقع الحدث ذاته وبواقع السياحة الدينية بعامة، والموضوعات هي:

١.١٠ مشكلة النقل

على الصعيد الداخلي لا توجد مشاريع خاصة في حل مشكلة النقل التي ترهق الزائرين في كل موسم، وتشكل بالنسبة لهم مصدراً من مصادر الإزعاج المزمّن، وهذا لا يتعلق بالزائرين داخل العراق فحسب بل حتى بالنسبة إلى الزائرين الوافدين من الدول العالمية، فشركات النقل العالمية تتخوف من تسيير رحلاتها إلى العراق بسبب الظروف الأمنية، وشركات النقل العراقية لا زالت متواضعة الخدمات، ونتيجة هذا الوضع المأزوم، فإن الزائرين من خارج العراق يخشون بين السفر على بعض الشركات العالمية الباهظة الثمن، وبين عدم السفر. لذلك يتطلب التفكير الجاد في وضع الحلول المناسبة في القطاع المتطرق اليه، علماً بأن المنشآت الخاصة في استقبال الرحلات ومنها المطارات غير قادرة على استيعاب حجم الوافدين إليها، وإمكانياتها على مختلف الصعد متواضعة إلى قدر يسيئ إلى سمعة البلد. مع ملاحظة الاهتمام بتنمية المهارات المهنية التي يجب أن يتوفر عليها منتسبو القطاع النقلي بمختلف درجاتهم الوظيفية نظراً للعلاقة الشديدة بين تحسين الأداء المهني وبين نجاح العمل بنحو عام، وبين عكس أخلاقية الشعب العراقي في احترام ضيوفه الكرام بنحو خاص. وهذا ما ينتج عنه تشجيع حركة السياحة الدينية، وتنمية القطاعات المرتبطة بها فضلاً عن الارتقاء بسمعة البلد، ورفع مستوى احترامه لدى شعوب العالم.

٢.١٠ مشكلة الفندقية

لا توجد مشاريع حكومية واضحة في قطاع بناء الفنادق - سواء في كربلاء أو المدن الواقعة على طريقها - وقد شاهدنا حجم معاناة الزائرين في العالم الماضي وهذا العام، واستغاثتهم في توفير المساكن لهم، حيث افترضوا شوارع النجف ومدينة كربلاء في أجواء باردة جداً، وجلهم من الزوار القادمين من خارج العراق.

إن قطاع الفندقية الحالي في العراق لا يسد عشرة بالمئة من حجم الحاجة المتزايدة عليه، ولم نلاحظ أية تدخل للدولة العراقية في هذا المجال، ونعني بذلك تدشينها لسلسلة من الفنادق المتمتعة بالمواسفات العالمية أو حتى من الدرجات المتواضعة، كما لم تعمل على تقديم التسهيلات للمستثمرين المحليين والأجانب في المجال نفسه، حيث اشتكى العديد ممن نعرفهم أو سمعنا بهم، من التعقيدات الإدارية وعدم تعاون المسؤولين العراقيين في تشجيع المستثمرين بغية دخول سوق السياحة الدينية، وبخاصة في مجال انشاء المشاريع الفندقية. وبصراحة فإن قانون الاستثمار الحالي لا يلامس حاجة المدن المقدسة، ولا ينظر إلى الواقع برؤية جادة، كما أن (الهيئة الوطنية للاستثمار) لم تتطرق في خططها السنوية بشكل مستقل وواضح إلى خصوصية المدن المقدسة، وهذه من المسائل التي تتطلب التفكير الجاد في تقديم الحلول الجذرية لها.

٣.١٠ تهيئة الطرق العامة

إن أهم ما يميز ممارسة زيارة الأربعين المباركة هو عنصر (السير على الأقدام) من خلال كل الاتجاهات المؤدية إلى مدينة كربلاء المقدسة، وأهم إتجاه هو الطريق الجنوبي الرابط لأغلب محافظات الوسط والجنوب، وذلك أن الثقل الأكبر من المشاركين ينحدرون من

محافظات الوسط والجنوب بسبب الطبيعة الديموغرافية للبلد، وإلى جانب ذلك، فإن جميع القادمين من خارج العراق يفصلون ابتداء سيرهم من مدينة النجف الأشرف، تيمناً بزيارة أمير المؤمنين عليه السلام ولأسباب أمنية وخدمية معروفة، والملاحظ أن الطرق المستخدمة للسير على الأقدام هي نفس الطرق الموضوعة لسير العجلات، فالمشاركون يسرون بالعادة على الطرق المحاذية لها، ولكن حينما يشتد تدفق المشاركين، ويكتظ الطريق المحاذي لطريق سير العجلات يتحول المشاركون لاستخدام الطريق العام، وهذا ما يتسبب بخلق العديد من المشاكل، أهمها سلامة المشاركين، وتعرض حياتهم للخطر بسبب دهس السيارات لهم، وقد شاهدت بعيني حادثاً مؤلماً أدى إلى موت أحد الزوار على الفور، وذلك أنه كان يسير على الشارع المخصص للعجلات، ولم ينتبه بسبب التعب والإزدحام من السيارة المارة بالرغم من عدم سرعة السيارة.

والمشكلة الأخرى هي عرقلة سير العجلات، بل وتعطيلها حينما تشتد ذروة الممارسة، وهذه ليست من الأمور الطبيعية التي تسمح بالسكوت عنها، فالممارسة تمتد لأكثر من أسبوعين، ولك أن تتصور حالة النقل بين أكثر من ستة محافظات على تلك الشاكلة من قطع الطريق وعرقلة انسيابيته، وعليه تعتمد الملايين من الناس، وفيهم المرضى وكبار السن والأطفال، ومن ترتبط أرزاقهم به. ناهيك عن أن الطرق المستخدمة (المحاذية والجانبية) غير صالحة للمشبي، حيث تتصف بالوعورة، وغير معبدة، ولا تتوفر على الإضاءة، ومناطق العبور المخصصة، كما لا تتوفر على مناطق استراحة كالتى توضع على الطرق الدولية في كل بلدان العالم، فمن الغريب أن تسير مسافة ٣٠٠ أو ٥٠٠ كيلو متر دون أن تعثر على مصطبة تجلس عليها لتناول الطعام واخذ قسطاً من الراحة، أو مضلة تستظل بها من حرارة الشمس أو زخات المطر، ما عدا ما يوفره المتطوعون من خدمات بالقرب من المدن والقرى، جزاهم الله خيراً.

يُضاف إلى ما تقدم، إن الطريق العام الممتد من الجنوب (البصرة) والمتصل بـ (النجف

وكرבלاء) يعد من الطرق الدولية الهامة، وإن أدنى مراجعه لواقعه تكفي بمعرفة الإهمال والتقصير في مجال البنى التحتية ذات العلاقة الماسة بتحريك عجلة الاقتصاد، وسلامة المواطنين والوافدين إلى البلد، فضلاً عن عكس سمعة الخدمات والعمران للبلد أمام العالم.

إن سلامة أرواح الزوار، وتقديم التسهيلات لهم بغية أداء شعائرهم وفق أرفع مستويات الخدمة المقدمة إلى عشاق الحسين عليه السلام مسؤولية تقع على عاتق الدولة العراقية، والجهود المبذولة من قبل المتطوعين (أصحاب المواكب والهيئات) لا يعني الدولة العراقية من القيام بمسؤولياتها تجاه الزوار، وإتجاه إحتضان هذا الحدث العالمي الذي ينفرد العراق بالتشرف به.

٤.١٠ الإسعاف الطبي

من المسائل التي ينبغي على الحكومة العراقية أن تنظر لها بجدية بالغة هي مسألة إسعاف الحالات الحرجة والخطيرة التي يتعرض لها الزوار وبخاصة المشاركون في السير إلى كربلاء المقدسة، فهناك من الحالات التي تتطلب تدخلاً سريعاً، وإلا فإن النتائج سوف تكون خسائراً في الأرواح الطيبة من جمهور عشاق سيد الشهداء عليه السلام، أو الإصابة بإعاقة، كان من السهل تجنبها لو كانت هناك خطط وتحضيرات مسبقة لإستقبالها ومعالجتها السريعة. إن المفاز الطبية المنتشرة بين مسافات طويلة لا تضطلع بوظيفة الإسعاف الطبي السريع، كما لا تسد الحاجة الطبية التي اعتادت أن تقوم بها من قبيل إجراء بعض الفحوصات الأولية أو تقديم بعض الأدوية والضمادات وذلك بسبب قلة العاملين إزاء ذلك الفيضان البشري، وضعف الإمكانيات، وغياب التخطيط والإستعدادات... الخ فنحن بحاجة إلى مستشفيات ميدانية متعددة وبشبكة واسعة من سيارات وطائرات الإسعاف لنقل الحالات الخطيرة إلى المستشفيات الكبرى في البلد، وأن تعيش المؤسسات الصحية في البلد عموماً حالة من أعلى درجات الأنداز، وإذا

كان الوضع الحالي لا يسمح بتلبية هذه الحاجة الضرورية فعلى المسؤولين أن يستعينوا بالجهود الخارجية، وذلك من خلال استئجار مستشفيات ميدانية أو فتح جسر جوي لنقل الحالات الخطيرة، فقد يتسبب انفجار أو عبوة أو سقوط قذيفة أو تفجير إرهابي لنفسه بقتل المئات من الأشخاص، وقد غصت بالفعل مستشفيات بغداد قبل أعوام (سنة ٢٠٠٥ م) في زيارة شهادة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بالضحايا، والكثير منهم ماتوا لأنهم لم يجدوا اسعافاً سريعاً، وأحياناً تحدث حالات دهس بسيطة أثناء الطريق، ولكن بسبب تأخر أو عدم وصول الإسعاف بالوقت المناسب، تكون النهاية كارثية بالنسبة إلى المصاب ولذويه، أو ما يحدث من جلطات قلبية ودماغية أو هبوط أو ارتفاع في السكر وفي ضغط الدم أو اختناق تنفسي... وغير ذلك من حالات لا تتطلب إلا تدخلاً بسيطاً من كوادر الإسعاف الطبي لإنقاذ حياة إنسان.

٥-١٠ وزارة زيارة العتبات المقدسة

أثبتت التجارب الطويلة - وبخاصة تجربة نظام الحكم الجديد في العراق، ونعني به مرحلة ما بعد سقوط النظام العفلي - أن ثمة حاجة ماسة لظهور وزارة ضمن وزارات الدولة الثابتة تتولى تنظيم شؤون زيارة العتبات المقدسة، والرقي في مستوى الخدمات المقدمة للزوار إلى أرفع درجات الجودة، وتطبيق سياسة الدولة في الشأن ذاته، فالملاحظ أن الدولة لا تمتلك في الوقت الراهن - ولا فيما مضى - سياسة خاصة فيما يتعلق بشأن الزيارة، وهناك تداخل واسع في المجالات الوظيفية إستتلى تهميش دور ممارسة الزيارة على صعيد التنمية والتخطيط، والتنفيذ، والتعامل مع قضاياها بنحو مستقل يتيح للأجهزة الحكومية بمختلف مستوياتها وأنواعها التنسيق والتعاون معها وإنجاح مهامها وأهدافها المرجوة، كما هو الحال بالنسبة إلى الوزارات الأخرى.

إن إلحاق ملف الزيارة - العتبات المقدسة - بديوان الوقف الشيعي من جهة، وتفويض الوقف الشيعي مزاوله قضايا الملف نفسه إلى أمانة كل عتبة من العتبات المقدسة من جهة

ثانية أدّى إلى فقدان الحلقة الهامة في هذا الشأن والمتمثلة بالطابع الرسمي في التعاملات المتعلقة في مسائل التنسيق والتعاون ومنح الإجراءات ذات العلاقة الماسة في أغراض التنمية والتنفيذ الطابع الحكومي الرسمي.

إن العاملين على إحتضان ممارسة الزيارة - وهم في الغالب من المتممين إلى أمانات العتبات المقدسة - يشكون كثيراً من عدم تعاون أجهزة الدولة المعنية معهم، وهذا أمر طبيعي بالنسبة إلى تلك الأجهزة والدوائر التي تعمل وفق قوانين وسياسات مرسومة من قبل الوزارات المسؤولة، ولا يمكن الخروج على السياقات المتبعة إلا بظروف طارئة وإستثناءات محدودة، ولكي نقرب ما نعمل على إيصاله، نذكر مثلاً واقعياً كنّا شاهدين عليه. حيث تقوم العتبة الحسينية المقدسة بتنظيم مهرجان سنوي تحت عنوان ربيع الشهادة، وقبل سنتين طلبوا مئداً دعوة بعض الشخصيات الأوربية للمشاركة في المهرجان المذكور، وقد دعونا بعض الشخصيات الأوربية المرموقة، وأقرب الموعد دون صدور الموافقة على منحهم سمة الدخول، وبعد تدخل ووساطة أصدر مكتب رئيس الوزراء أمراً بمنح هؤلاء المدعوين سمة الدخول، وحينما ذهبنا بالكتاب إلى السفارات العراقية اعتذر كل قنصل من منح سمة الدخول، بحجة أن السياق المتبع يتحدد في أن يتسلم الكتاب من الخارجية العراقية، والخارجية العراقية لم تبد إهتماماً مناسباً في الموضوع - لأنه ليس من الموضوعات السياسية على ما أحسب - والنتيجة لم ترسل الطلب، وتأخر الأمر مما تسبب في عدم مشاركة الأشخاص المشار إليهم، وقد ترك الموضوع ذاته إنطباعاً سيئاً في نفوسهم، وبالرغم من تقديم الاعتذار والوعود بتصحيح الموقف، فقد فقدنا التواصل معهم خجلاً مما حدث، فهؤلاء الأشخاص مرتبطون بأعمال ويشغلون مناصب هامة، ودخولهم إلى العراق في ظل الأوضاع الأمنية المتردية يُعد مكسباً إعلامياً عالمياً للبلد، ويعكس صورة لوجود الحياة فيه، لكن الموظفين المسؤولين في الأجهزة المعنية لا يعنون بمثل هذه الأمور ولا يخرجون عما هو مرسوم لهم من روتينيات وبيروقراطيات قد تتجاوزها الزمن، بل ولا تتساق مع طبيعة الظروف والتحديات التي يمر بها البلد.

على أية حال: هناك العديد من الأمثلة التي كنّا قد تدخلنا للوساطة فيها من أجل تسهيل منح سمة الدخول لبعض الزوار من أتباع أهل البيت: الذين كانوا ينوون زيارة العتبات المقدسة، ولكن لم تنجح أي من الوساطات بسبب إصرار الموظفين بالعمل وفق الأوامر الصادرة اليهم من الأجهزة التي يعملون ضمن إطاراتها. علماً بأن هناك العديد من الحالات والمواقف الضرورية التي تواجه الزوار - سواء كانوا من داخل العراق أو من خارجه - تتطلب تدخلاً سريعاً وتعاوناً ذات صيغة رسمية بين أجهزة الدولة المعنية وبين الأمانات العامة للعتبات المقدسة، كما يتطلب الأمر الحالي منح صلاحيات خاصة للأمانات المذكورة، بسبب أن الزوار تتوجه إليها تلقائياً في كل ما يواجهها من مسائل.

لذلك تعتبر عملية إستحداث وزارة خاصة في الشأن المذكور مطلباً حيوياً لجملة من الاعتبارات التي تطرقنا إليها ضمناً، ولا يفوتنا التذكير بأن العراق يتشرف بأضرحة ستة من أئمة أهل البيت: الذين تتجاوز نفوس أتباعهم في العالم إلى قرابة النصف مليار، وهناك العشرات من المزارات والأماكن المقدسة التي تشوق الملايين من أتباع أهل البيت: لزيارتها، مما يوضح - من جديد - مدى أهمية المطلب المذكور، ذلك أن ظهور وزارة خاصة لديها رسالة محددة، ورؤية واضحة، وأهداف مرسومة، ومهام جادة سوف يتقدم بتنمية أعمال الزيارة، وتقديم أفضل الخدمات لزوار العتبات المقدسة الكرام وصولاً إلى جعل فرصة التشرف بالزيارة ذكرى طيبة في قلوب الزوار تحثهم على تكرارها، وتزيد من إرتباطهم العاطفي في العراق.

طبيعياً، إننا لا نتوخى عبر المطالبة بمثل هذه الوزارة سلب الدور الذي تتمتع به العتبات المقدسة، والتدخل بأعمالها بقدر ما نهدف إلى تنمية الواقع العملي لممارسة الزيارة التي يعتبر تدخل الدولة في تنظيم شؤونها وتلبية احتياجاتها من المسائل الضرورية جداً، وهذا ما يسهم بدوره في نجاح أعمال الإدارات المسؤولة على خدمة العتبات المقدسة ذاتها.

١١ . الجمهور المؤمن وتنمية زيارة الأربعين المباركة

تطرقنا في الموضوعات المتقدمة عن الجهود التي بذلها الجمهور المؤمن في إحياء ممارسة الزيارة بنحو عام، وزيارة الأربعين المباركة بنحو خاص، وأكدنا على الطاقات التنموية الهائلة، والأعمال الإبداعية المدهشة التي قام بها أتباع أهل البيت عليه السلام في مجال تأصيل وتوسيع وتطوير ممارسة الزيارة، وبصراحة أن الجمهور المؤمن كان - ولا يزال - وفياً وسخياً ومبدعاً وعاشقاً ومتألقاً لممارسة الزيارة وبخاصة زيارة الأربعين المباركة، وإليه يرجع الفضل في المحافظة عليها، وإثراء نشاطاتها، وتقديم التضحيات الضخمة في سبيلها، ولا زلنا نتذكر قافلة شهداء إنتفاضة صفر المظفرة في الربع الأخير من القرن المنصرم حيث خرجت الحشود المؤمنة من مدينة النجف الأشرف متحدية الآلة العسكرية للنظام البعثي الذي أصدر أوامره بمنع ممارسة زيارة الأربعين المباركة وقتئذ، وقد سدت دبابات النظام الطريق مع تحليق للطائرات العسكرية في مشهد مرعب نظير ما يحدث في سوح المعارك، ولم تأبه الحشود المؤمنة بكل تلك المظاهر العدوانية والإنسانية وحينما انهمر عليها الرصاص واصطبغت الأرض بالدماء، إزدادوا إندفاعاً وإصراراً في الماضي، تتقدمهم راية كبيرة مكتوب عليها (يُ اللهُ فوق أيديهم) أدخلت على قلوب جيش النظام الرعب، مما جعلهم ينهزمون نفسياً أمام مسيرة المؤمنين العزل، ووصلت الحشود المؤمنة إلى كربلاء بالرغم من الحصار المفروض عليها من قبل قوات النظام.

على أية حال: إن الجمهور المؤمن مطالب في البقاء والمحافظة على الالتزام بممارسة زيارة الأربعين المباركة، وعدم الابتعاد عن مسؤوليته في تبنيها كواحدة من أهم قضاياها الحيوية، وعليه أن لا يرفع يده عنها حتى لو تدخلت الدولة في المشاركة بتنظيمها

وتطويرها، فزيارة الأربعين المباركة من تراث الجمهور المؤمن، ومن منابع طاقاته المعنوية، ومن أرصده الحضرية، وعناوينه الثقافية التي يعدّ التهاون في التفاعل معها فقداناً لدوره في الحياة الاجتماعية، ونكسة أخلاقية تشير بموت ضميره والعياذ بالله.

لذلك لا بد من الاشتغال في أعمال التنمية الذاتية، والتأسيس لورشات عمل تضطلع بالتخطيط ورسم الإستراتيجيات المتعلقة بتطوير ممارسة الزيارة.

وفيما يلي، نشير إلى أهم الموضوعات التي ينبغي العمل عليها في إطار تنمية ممارسة زيارة الأربعين المباركة بالنسبة إلى الجمهور المؤمن ومؤسساته الشعبية، وأولها:

١.١ المؤتمر الدولي للمواكب والهيئات الحسينية

تشتد الحاجة إلى إقامة مؤتمر دولي يضم أهم الناشطين المحليين والأقليميين والبلدان الأخرى لدراسة ملفات ممارسة زيارة الأربعين المباركة، وتبادل الأفكار من أجل التنسيق وتنظيم الجهود فيما بينهم، فقد آن الأوان للتفكير الجاد باتخاذ مثل هذه الخطوة الهامة التي تسجّل غياباً تنظيمياً يؤثر على سمعة وأداء الممارسة نفسها، فمن غير المقبول أن تبقى هذه الأعمال الجبارة، وهذا الكم الهائل من المتطوعين، دون أن تشهد إنشاق رابطة أو منظمة عالمية تنطلق من صميمها بغية العمل على التنسيق والتشاور والتعاون بين الناشطين في إطارها... صحيح أن جميع الجهود المبذولة تصب في إحياء شعائر الزيارة وخدمة الزائرين، لكن التعاون والترابط والتخطيط المشترك ضرورة تفرضها مصلحة الممارسة نفسها. وفي تصوري أن التأسيس لمؤتمر دولي من قبل الوسط الناشط في إحياء الممارسة عينها، سوف يتقدم أشواطاً في مسارات تنمية ممارسة زيارة الأربعين المباركة، وأنا على يقين بأن الوسط نفسه يتوفر على أصحاب مواهب وكفاءات عالية تستطيع أن تخلق حالة وواقعاً وأفقاً جديداً من الخدمات والطرائق والأنشطة الهادفة على نشر الثقافة الحسينية، شريطة أن يولد المؤتمر المذكور، وأن تتولى إدارته مجموعة ممن لديهم رغبة حقيقية في

إنجاحه، وشريطة أن ينطلق العاملون في أعمال المؤتمر بنفس الروح الحسينية الشعبية، وأن يتعدوا عن بروتوكولات وروتينيات المؤتمرات المألوفة، فقد عهدنا العاملين في مجالات الخدمة الحسينية وبخاصة المتطوعين لخدمة زوار الأربعين... أنهم أصحاب عمل وإنتاج وليس أصحاب تنظير وكلام مع إحترامنا للتنظير والكلام ودعوتنا إليهما. ونقترح أن يستضيف المؤتمر شخصيات متخصصة في العمل الاجتماعي والنفسي والإعلامي ومن الشخصيات الحوزوية، وأن لا تكون المشاركة مقتصرة على الشخصيات المحلية، وذلك أن البعد العالمي للممارسة يحتم دعوة أكبر عدد من المشاركين، كما أن طبيعة التلون والتعدد الديني والمذهبي والثقافي الذي لمسناه في السنوات الأخيرة يفرض على العاملين في تنظيم المؤتمر المشار إليه دعوة كل عشاق الحسين وخدام الممارسة من الإخوة المذكورين (المذاهب الإسلامية، والديانات الأخرى، والثقافات البشرية) والعمل معهم سوية لتنمية وتطوير الممارسة ذاتها.

٢.١١ الأعمال الثقافية

تشكّل ممارسة زيارة الأربعين المباركة واحداً من أهم الأحداث الثقافية في العالم، فليس ثمة حدث أو مهرجان ثقافي شعبي في جميع أنحاء العالم يحمل عناصر حدث زيارة الأربعين المباركة الثقافية، ربما ثمة مهرجانات شعبية عالمية تقترب أو تزيد نسبة المشاركة البشرية فيها على زيارة الأربعين المباركة، لكن النسبة البشرية ليست هي كل شيء، حيث يدخل عنصر الوقت ليميز بين حدث ممارسة زيارة الأربعين المباركة وبين سائر الأحداث والمهرجانات والنشاطات العالمية، فلم نعر على نشاط يستمر أكثر من أسبوعين ليلاً ونهاراً وبدون إنقطاع ولو لساعة واحدة إلى جانب عنصر الجغرافية والمساحة الأرضية التي تجري عليها فعاليات الممارسة، وتنوع هويات وثقافات وأعراق المشتركين، والخدمات التطوعية، وغيرها من العناصر التي تطرقنا إليها بإسهاب في

الموضوعات السالفة، مضافاً إلى مضمون المشاركة الذي يسمو على جميع مضمونات المهرجانات العالمية، فهو من أرفع وأقدس المضمونات الإنسانية حيث يعبر بأنصع ألوان التعبير عن هموم الإنسانية وركائزها المصيرية من قبيل: الكرامة والعدل والحرية.

لجميع ذلك، ينبغي استثمار فرصة الحدث المذكور، وتنمية أنشطته وإثراء مضموناته بما ينسجم مع أهداف الحدث والجهود المبذولة عليه، وأن لا تقف عند حدود تقديم الخدمات للزوار من قبيل الطعام والشراب والسكن والعلاج والنقل... الخ كما هو عليه الوضع الحاضر حيث أن القسم الأكبر من النشاطات تتوزع على الخدمات المذكورة، ولسنا بصدد التقليل من أهميتها فهي من الأعمال المباركة والعظيمة، بيد أننا نؤكد على استثمار فرصة الحدث نفسه لتقديم الأعمال والنشاطات الثقافية، فهي من الفرص الثمينة التي لا تعوض، كما أن الحدث هو بالإساس مناسبة ثقافية وموسم ضخم من مواسم التفاعل الثقافي الجماهيري الذي يتوجب مراعاة خصوصياته، وعدم التركيز على العناصر الجانبية وإهمال الأهداف الأساسية.

إن على أصحاب المواكب والهيئات الحسينية المرابطة على إحياء وخدمة ممارسة زيارة الأربعين المباركة أن تخصص جزءاً صغيراً من وقتها لتقديم الأعمال الثقافية المنسجمة مع روح المناسبة أو ذات العلاقة الماسة بالشأن العام، من قبيل:

١-٢-١١ إستضافة بعض الرموز الفكرية - الحوزوية والأكاديمية - لإلقاء المحاضرات العلمية أو للحوار معها في ندوة مفتوحة تتيح للجمهور فرصة النقاش والمداخلة في كل ما يطرح من أفكار و موضوعات.

٢-٢-١١ إقامة الأمسيات الشعرية الملتزمة والهادفة في الأوقات التي يتوقف بها الزوار للإستراحة، حيث يتفاعل الجمهور الحسيني مع الشعر ويستجيب له بنحو كبير، وهي فرصة مناسبة لتكريم شعراء أهل البيت والإحتفاء بهم.

١١-٢-٣ إجراء المسابقات الثقافية التي تعتمد على تحفيز المشاركين على القراءة من خلال توزيع الجوائز المعنوية والمادية، حيث نجحت عدة جهات اعتمدت على هذه الطريقة في تمرير العديد من الموضوعات الهامة، واستغلال الوقت في تحصيل المعلومات الجديدة.

١١-٢-٤ توزيع المنشورات الضوئية الصغيرة التي تسعى إلى تقديم المعلومة المنتخبة بعناية وحسب أولوية الأهمية وبطرائق مبسطة ومركزة في نفس الوقت، وحبذا لو تخضع تحت إشراف بعض المختصين في صياغة النصوص والإخراج الفني المحترف لإحداث التفاعل في الإقبال عليها.

١١-٢-٥ تقديم بعض المواكب الحسينية الكتب كهدية بدلاً من الطعام، حيث لدينا الآلاف من المواكب التي تقدّم الطعام والشراب للزوار، فكم هو جميل لو توفرنا على بعض المواكب التي تعمل على تقديم الكتاب الإسلامي والثقافي إلى الزوار، علماً إن سعر الكتاب بالجملة لا يتجاوز الخمسة آلاف دينار عراقي، وهو مساوي أو أقل من ثمن وجبة الطعام المقدمة إلى الزائر الواحد، وبهذا نكون قد أسهمنا في نشر الوعي والمعرفة والتشجيع على القراءة التي تعاني من انخفاض حاد بمستوياتها في منطقتنا العربية والإسلامية بعامة.

١١-٢-٦ العمل على توثيق ما يقع أثناء الزيارة من حوادث ملفقة وسلوكيات متفردة وبخاصة حصول بعض الكرامات التي يظفر بها الزائرون وخدام سيد الشهداء عليه السلام. ومن المؤكد أن هذا العمل - التوثيق - لو أُتيح له أن يرى النور فسوف نتوفر على أرشيف ضخم من المعلومات الهامة والقصص المدهشة، وأتذكر أن أحد المواكب قد إستضافنا قبل ثلاثة سنوات (٢٠١١)، وحدثنا بأنهم إستضافوا - قبل ليلة من مجيئنا عندهم - مجموعة من الزوار الإيرانيين الذين جاؤوا سيراً على الأقدام

من مدينة أصفهان إلى العراق، قاصدين مدينة كربلاء وقد استغرقت رحلتهم أشهراً، وذلك أن المسافة المقطوعة تبلغ آلاف الكيلو مترات، ولا يفوتنا التذكير بتوثيق قصص الشهداء الذين كانت رحلتهم تمرّ بمناطق يسيطر عليها الأربابيون من قبيل أتباع أهل البيت عليه السلام الساكنين في مدينة الموصل والمدن المجاورة لها، وسامراء وديالى وبغداد وغيرها، حيث كانت تزرع لهم العبوات الناسفة، ويُرْمون بالقذائف ويهاجمون من قبل التكفيريين،... فتحدوا الأرباب وأنصروا عليه بنيلهم درجة الشهادة في الآخرة والذكر المحمود في الدنيا، مستجيبين ومُلبّين لنداء داعي الله، حينما استنهض الأمة لنصرته، في رسالته الخالدة التي يقول فيها «من لحق بنا إستشهد، ومن تخلف عنا لم يدرك الفتح».

إن مثل هذه القصص والحوادث تستحق التوثيق والأرشفة والنشر لتكون علامات مضيئة للإنسانية كافة، كما أنها تعد من المصادر الأساسية لإخراج أعمال درامية كبيرة، ففي كل سنة يشهد طريق زوار أربعينية الإمام الحسين عليه السلام قصصاً إنسانية عظيمة، حيكت تفاصيلها وأُعتمدت فصولها على الحقيقة والواقع، وليس على الفانتازيا والصناعة، مما يمكن توظيفها عبر أعمال المسرح والسينما والمسلسلات التلفزيونية الهادفة، وهذا ما سوف نلمح إليه بالفقرة التالية.

٣.١١ الأعمال الفنية

بالرغم من توفر عناصر متعددة لتفعيل الأنشطة الفنية خلال ممارسة زيارة الأربعين المباركة، ونقصد بذلك أثناء عملية السير على الأقدام الممتدة على مساحة واسعة جداً، حيث يمكن توظيف تلك المساحة كمعرض جماهيري مفتوح أو مسرح فني متنقل... علماً إن الأبنية الموجودة بين مدينة النجف وكربلاء على شكل حسينيات ومقرات للمواكب والهيئات تصلح أن تكون صالات واسعة للعرض المسرحي والفني،...

أقول بالرغم من توفر ذلك كله لكننا للأسف لم نشهد ظهور مثل هكذا أعمال ولا مبادرات، والغريب أن حدث الزيارة بالرغم من ضخامته واحتوائه على سيل من الغرائب والنوادر والإستثناءات المشبعة بالعاطفة الإنسانية والمواقف النبيلة التي من الممكن أن تحظى بإعجاب عالمي فيما لو قُدِّر لها أن تظهر للعالم ويطلَّعوا عليها - من خلال الإعلام أو الأعمال الفنية -... بالرغم من كل هذا لم تسجِّل الكاميرا الفوتوغرافية الفنية حضوراً حَرَفِيّاً متميزاً وسط فضاء ممارسة الزيارة، فضلاً عن إفتتاح معرض فتوغرافي أثناء الممارسة، يتيح للزوار التوقف عنده والإستمتاع والتأثر فيه، وهي فرصة لاكتشاف المواهب الفنية، ورعايتها، وتشجيع الفنانين الآخرين لعرض أعمالهم ضمن أعمال هذا الحدث الجماهيري الكبير، دون أن يصطدموا بعراقيل العرض والتسويق والإعلان الذي تحتكره بعض المؤسسات والأسماء الفنية المشهورة، مما يتسبب بموت العديد من المواهب والطاقات الفنية، وعدم الانتفاع منها.

ولا يفوتنا - التأكيد مرةً أخرى - على توظيف ما يحصل للزوار من تجارب ومواقف في مجال الأعمال الفنية السينمائية والدرامية، فهي تعد - بحق - مادة فنية رفيعة الحساسية، وذات قيمة إنسانية عظيمة.

ونقترح في السياق ذاته، أن تتنوع الأغراض الفنية التي من المؤمل طرحها بما يتلائم مع تنوع الأغراض الفنية نفسها، سواء أكانت مسرحاً أو فيلماً أو دراما أو لوحة أو صورةً فوتوغرافية أو أعمالاً يدوية أو أي شكل من الأشكال الفنية الملتزمة، وأن لا تقتصر على وحي المناسبة فحسب - وأن يُفَضَّل أن تُعطى الأولوية للمناسبة - بل يتعين عليها أن تنفتح على جميع هموم الإنسان المعاصر، وبخاصة الإنسان المسلم المسكون بالأوجاع والقهر والحيف، لتعكس للعالم إنسانية الفنان المسلم ورسالته المخلصة في الحياة إتجاه الإنسان والطبيعة والوجود.

٤.١١ الأنشطة الخاصة بالطفولة

تخطى ممارسة زيارة الأربعين المباركة بمشاركة كبيرة للأطفال من كافة المراحل العمرية (٠ إلى ١٤ سنة) حيث يصطحب الكثير من الآباء أبنائهم معهم أثناء مشاركتهم في الممارسة نفسها، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لمن يعيش أجواء المناسبة وبالتحديد سكان المحافظات والمدن التي يستوطنها أتباع أهل البيت عليه السلام في العراق. فالملاحظ أن المحافظات المذكورة تفرغ بالكامل من السكان، بسبب حرص أتباع أهل البيت عليه السلام على المشاركة في إحياء المناسبة، علماً بأن السنوات الأخيرة شهدت مشاركة الأطفال القادمين من عدت دول عالمية.

والمؤاخذه التي نعزم تسجيلها لغرض تنمية الممارسة المذكورة تتعلق بإفتقار الأنشطة الموجودة إلى نشاط خاص بالطفولة. إن جميع الأنشطة المتداولة في فضاء حدث الزيارة تستهدف شريحة البالغين وكبار السن، ولا تكاد أن تعثر على نشاط خاص بالطفولة في مختلف فقراتها. في حين إن الحدث المذكورة يمثل فرصة عظيمة للعمل على تقديم بعض الأنشطة المخطط إليها بإحكام في اتجاه تربية الأطفال وتأهيلهم، وإعطائهم جرعات من الوقاية المستقبلية، وإكسابهم بعض الانطباعات والذكريات الطيبة التي تسكن في ذكرياتهم وتعمل على حب زيارة الأربعين المباركة والتفاعل معها. كما حصل بالنسبة لنا في الصغر - حينما كنا نشترك مع أهلنا في المشي إلى سيد الشهداء عليه السلام وأعمارنا لا تتجاوز العاشرة - بالرغم من بساطة الأساليب حينئذ، لكنها كانت فاعلة ومؤثرة لمن هو بأعمارنا، حيث كان لسخاء خدمة الحسين عليه السلام عبر تقديم الأطعمة والشراب والكلمات المشجعة دوراً ملحوظاً في تحفيز من هو بعمرنا للتحمس على المشاركة في كل عام، إلى أن بلغنا مرحلة النضج والوعي، فأصبحت لذتنا بالحوافز الروحية والعطاءات الربانية لا تشابهها كل حوافز الدنيا ومتعتها المادية.

أقول: إن تجمع مثل هذا الكم الوافر من الأطفال يعتبر مكسباً عظيماً ينبغي استثماره والتعامل معه بمتنهى الحرص والجدية، وأن لا ندع الوقت - في كل عام - يمر دون العمل على الانتفاع منه فيما يتعلق بتقديم البرامج الهادفة للبراعم المؤمنة. وهنا لا بد من الاستعانة بالتربويين والنفسانيين والأطباء وكل من له علاقة بعالم الطفولة من تقديم الدراسات والتوجيهات في مجال تنمية الأعمال الخاصة بهذه الشريحة الواعدة.

٥.١١ الأنشطة النسوية

تقدم الحديث عن توصيات أهل البيت عليهم السلام الآمرة في زيارة الإمام الحسين عليه السلام للرجال والنساء فهي فرض وعهد على كل مؤمن ومؤمنة، وقد أفرد الشيخ ابن بابويه - رحمه الله - باباً خاصاً لهذا الموضوع في كتابه الشريف - كامل الزيارات -، ومن هذه الروايات ما رواه بسند متصل عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «مُرُوا شِيعَتَنَا بِزِيَارَةِ قَبْرِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، فَإِنَّ إِثْبَانَهُ مُفْتَرَضٌ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ يَقِرُّ لِلْحُسَيْنِ عليه السلام بِالْإِمَامَةِ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» (ابن قولويه، ١٣٥٦هـ: ١٢١).

وعن أم سعيد الأحمسية عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قالت: «قال لي: يا أم سعيد، تزورين قبر الحسين؟»

قالت: قلت: نعم.

فقال لي: زوريه، فَإِنَّ زِيَارَةَ قَبْرِ الْحُسَيْنِ وَاجِبَةٌ عَلَى الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ» (ابن قولويه، ١٣٥٦هـ: ١٢٢).

وعن عبد الرحمن بن كثير مولى أبي جعفر عليه السلام، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ حَجَّ دَهْرَهُ ثُمَّ لَمْ يَزُرْ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام لَكَانَ تَارِكاً حَقّاً مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ وَحُقُوقِ رَسُولِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ حَقَّ الْحُسَيْنِ عليه السلام فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ» (ابن قولويه،

١٣٥٦هـ: ١٢٢).

وزيارة الأربعين المباركة كواحدة من أكبر الزيارات وأهمها تحظى بمشاركة العنصر النسوي بكثافة عالية، ولعلّ حضور المرأة المؤمنة في هذه المسيرة الولائية الخالدة يفوق حضور الرجال بالعدد والعمل فضلاً عن مساواتها لهم، وقد سجّلت المرأة المومنة وفائها لعهداها مع إمامها عليه السلام عبر مختلف العصور، وأشدّها بطشاً، ولازلت أتذكر أيام الخوف والظلم والإرهاب في حكومة المقبور (صدام) حيث كانت مشاركة الرجل في السير على طريق كربلاء تعني تعرضه للأذى وربما للإعدام، إلى جانب إجبار أبناء الشيعة على حرب جائرة ضد الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وذلك ما أدّى إلى إنحسار نسبة الممارسة بالنسبة للعنصر الرجالي، وكادت تتعطلّ الممارسة لولا تدفق العنصر النسوي في المشاركة، وقد كنت أخرج بصحبة جدتي للسير إلى سيد الشهداء عليه السلام وأنا لم أتجاوز الثانية عشر من العمر، وكان الطريق يومها مزدحماً بالنسوة والأطفال مما أخرج رجال الأمن وأصابهم بالشلل، حيث لم يستطع جلاوزة النظام الصدامي من التعرض لهم أو منعهم، وهذا ما أسهم في مواصلة مسيرة الولاء لسيد الشهداء دون انقطاع في مرحلة تعتمد بها أُمويون العصر من وأد ثقافة كربلاء ومعاينة كل من ينتمي إليها.

أقول: إن هذا الحضور الفاعل للنساء المؤمنات في إحياء ممارسة الأربعين يتطلب تنمية الأنشطة الخاصة بهن، واستثمار حضورهن بما يعود على رفع مستوى الوعي العبادي والاجتماعي لديهن، فلا زالت الأنشطة النسوية ضعيفة نوعاً ما - كما هو حال الأنشطة الرجالية - في إتجاه الأعمال الثقافية والتوعوية، بالرغم من مشاركتها للأعمال الخدمية التي يقوم بها المتطوعون في خدمة الزائرين من أصحاب المواكب والهيئات وغيرهم، فهناك جيش من النساء التي يعملن على تهيئة الطعام وأعمال التنظيف وضيافة النساء في الأجنحة الخاصة بالنساء، ولولا مساندة المرأة في المجال المذكور لما تمكن المتطوعون من الرجال بمواصلة تقديم الخدمات بالمستوى الذي عليه الآن، لكنّ إقتصار نشاط

المرأة على الأعمال الخدمية دون الإنفتاح على الأنشطة الثقافية والتوعوية وحتى الفنية يعتبر خسارة كبيرة وتضييعاً لفرصة لا تُعوّض، حيث أشرنا سلفاً أن إستقطاب هكذا حجم من المشاركات والمشاركين ليس بالأمر السهل، وليس بوسع أية منظمة أو دولة تنظيمه ولا يتسنى لها الحصول على مثل هذه الاستجابة الجماهيرية مهما سعت وخطت ونفقت...، مما يضعنا أمام مسؤولية كبيرة، فالتناس تأني صوب شعائرنّا، وتتفاعل مع مبادئنا دون أن نعمل على بذل الأموال الطائلة وممارسة الإستراتيجيات التأثيرية من أجل خروجهم ومشاركتهم، كما هي طبيعة الفعاليات الحياتية التي تنفق على الإعلانات المرغبة لتسويق الأفكار والمشاريع والأطروحات أموالاً وجهوداً ضخمة... إننا بحاجة - وخاصة الأخوات المؤمنات - إلى تطوير وسائل التفاعل وحتى تقديم الخدمات، وخلق أنماطاً جديدة في تقديم المعلومة بالنسبة إلى النساء المؤمنات وعلى مختلف الشرائح العمرية للوصول بالوعي النسوي إلى مستوى الطموح المنشود، وإلى ما ينسجم مع أهداف بطلا كربلاء الحوراء زينب التي أتضح من خلال المقابلات والإستجابات الشفهية لأغلب النساء المشاركات بأنهن يشاركن في السير إلى كربلاء من أجل التأسي ومواساة السيدة زينب ٣ وتخليد دورها الرسالي في الحياة، لذلك يصبح من المعيب أن لا تتوفر الأخوات المؤمنات على أنشطة نوعية تثري وعي المرأة المؤمنة وتنهض بواقعها الحياتي.

٦.١١ الدور الإعلامي

من البداهة بمكان كبير التطرق إلى أهمية الإعلام ودوره في الحياة وبخاصة الحياة المعاصرة، حيث لم يعد الإعلام مجرد وسيلة من وسائل نقل الأحداث والترويح لها، بل بلغ مرحلة صناعة الأحداث، وخلق السلوكيات الجديدة، وتغيير القنوات الفكرية والذوقية حسب الوجهة التي يخطط لها المهندسون لها، كما واستطاع أن ينتزع لنفسه سلطة خاصة سميت بالسلطة الرابعة - في صف السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية - تكتسب هذه السلطة الإعلامية مكانتها المتميزة من دورها الرقابي في مجريات

القطاعات الخاصة والعامة. ولعلّ في هذا بالذات ما يفسر لنا الاهتمام بل الفيضان العالمي بالتعاطي والانشغال بالقطاع الإعلامي، والأرقام المالية التي يذكرها المعنيون في هذا الحقل - سواء أكانت مصروفات أو أرباحاً - تكاد لا تصدق بسبب ضخامتها وفداحتها. ولسنا بصدد الخوض في هذا الحقل الغائر بالحقائق والغرائب بقدر ما نعتزم الإشارة إلى أهمية بعض جوانب الحقل الإعلامي بدراسة ثقافة الزيارة عموماً وزيارة الأربعين المباركة تحديداً، حيث أن كل ما أشرنا إليه من إضاءات وكشوفات وتوصيات يعتمد في توصيله وتفعيله على الأدوات الإعلامية المعاصرة.

ولا بد من التصريح في مستهل حديثنا عن الموضوع الإعلامي بأن مؤسساتنا الإعلامية لم تقصّر في ما قدمته إلى ثقافة الزيارة من تغطيات وتقارير ومقابلات، ولا يسعنا إلا أن نتقدم لهم بالشكر والتمنين، بيد أن من الضروري الإشارة إلى أن مؤسساتنا الإعلامية لا زالت تسبح في الفضاء المحلي، ولم يتسن لها اختراق الفضاءات العالمية، وهذه من أهم التحديات التي تواجه ثقافة الزيارة المعاصرة. إن الحضور العالمي الذي شهدته ممارسة زيارة الأربعين المباركة يتطلب منا العمل على النهوض باعلامنا إلى مستوى العالمية توصيلاً وصناعة، ومن السذاجة أن ننتظر حضور الإعلام الغربي والعالمي من أجل التعامل والتعاون والتفاعل مع هذه المهرجانات العقائدية الثورية التي تقف منه موقف المناهضة، وحتى لو حضرت بعض القنوات الإعلامية الغربية - وبالفعل قد حضرت العديد منها - فسوف لن نتوقع منها أن تتعامل بموضوعية وشفافية مع محاور وملفات ثقافة الزيارة، بل ما حصل أنها قد سعت إلى تسطيح الحدث وتوجيهه بوجهات بعيدة عن روحه الحقيقية ومضموناته الأصيلة، حيث حاولت أن تكرر الطابع المذهبي الخاص للمشاركين في ممارسة الزيارة الأربعينية، وأعطاء أنطباع للمتلقي بأنها ثقافة تخص هذه المجموعة من الناس، وهذا أحد أوجه التشويه المنظم للحقائق، حيث بالرغم من إهتمامها وإعجابها ونقلها للحدث، تعمل على تقزيم مضموناته الإنسانية العملاقة. إنها مجبورة على نقل الحدث ولو بنحو هامشي لإعتبارات متعددة، وأهمها المحافظة على

متلقيها وعدم السماح لهم بتلقي مثل هذه الأخبار من قنوات أخرى، والتشبت بسمعة الموضوعية والالتزام بأخلاق المهنة الإعلامية بالرغم من بعدها ومجانبتها للأخلاق المهنية الشريفة.

من هنا نشدد على السعي الجاد للتخطيط السريع والعمل المكثف من أجل التوفر على خبرات وطاقات إعلامية باعلى مستويات معايير الكفاءة والجودة العالمية لإيصال رسالة الزيارة إلى العالم. إننا نَشُدُّ على أن تكون الخبرات ذات معايير عالمية في ما يتعلق بالجودة والكفاءة لأننا - مع وافر التقدير - لم نشهد خبرات محترفة في أعمال مؤسساتنا الإعلامية المتخصصة في التعامل مع هذا الحدث الهام، والكثير منها أشبه ما تكون ممارستها للعمل الإعلامي بـ (هواية) أو وسيلة من وسائل الكسب وليست (إحترافاً) ونخص بالذكر القيادة والإدارة الإعلامية، فهي دون المستوى المطلوب بدرجات كبيرة، وإذا كان السبب في تقدمهم إلى تلك المناصب هو درجة قربهم أو نزاهتهم واخلاصهم بالنسبة إلى المؤسسات والمنظمات والشخصيات المؤسَّسة لتلك المؤسسات الإعلامية... فهذا السبب وغيره لا يجدي شيئاً في مجال تطوير عملنا الإعلامي والارتقاء به إلى مستوى عالمية الرسالة الإسلامية وعالمية ثقافة زيارة أهل البيت (عليه السلام).

إن المطلوب في هذا الحقل، هو: (الحرفية) العالية، لأننا نعمل في ميدان ممتلئ بالمحترفين ولا مجال للضعف وخوض التجارب معهم، وأما تحقيق النزاهة والالتزام بالأطر والمضمونات الإسلامية فمن الممكن الإستعانة بالرقابة المكثفة لكي تقوم برصد سلوك العاملين وما يقدمون من أعمال في الحقل نفسه.

إن المسؤولية المهنية والأخلاقية تحتم علينا تجاوز عملية المحاباة التي أضرت بأعمالنا على كافة الصعد والمستويات، ومنها الحقل الإعلامي الذي لا يزال يحبو في مجال عمله أمام تقدم مذهل للمؤسسات الإعلامية المحلية والإقليمية والعالمية.

١٢. الملامح الحضارية

نريد بقولنا (اللاماح الحضاريّة) مجموعة العناصر الأساسية التي تدخل في تهيئة الإنسان بغية تقبله لشروط التحضر وصناعة ذاته الإنسانية، العناصر التي تجعل من رؤية الإنسان إلى الحضارة كمفردات سلوك ضروريّة، وخيارات حياتيّة لا بديل لها، عناصر تسهم بوجه أو آخر في تعميق الفهم الإنساني إلى القيم الإنسانية نفسها، بكونها ركائز تحمل البناء الحضاري وتمنحها قوّة الترسخ والصمود، فلا شك أنّ هناك مقدّمات تسبق بلوغ المشهد الحضاري المتمثّل بـ (الانتاجيّة والإبداعيّة والسيطرة على مصادر الطبيعة) من خلال ترشيد الفعل الإنساني في توسيع ممارسة الكشف المتواصل عن القوانين التي يمكن توظيفها في مصلحة الإنسان، مع التأكيد على الالتزام الحقيقي بإحياء العامل الأخلاقي ومنحه دوراً محورياً في العملية الحضارية برمتها. هذه المقدّمات هي نفسها العناصر المشار إليها توّاً.

وحتىّ نقرب من إيضاح الفكرة نسوق المثال التالي: إنّ إحدى المؤشّرات الحضاريّة في جغرافيّة معيّنة من جغرافيات العالم هي شيوع حالة النظام في جميع مفاصل الحياة العامّة فوق تلك الجغرافيّة؛ لأنّ وجود مجتمع متحضّر من دون التوفّر على إنسيابيّة التعامل المنظّم يشبه تصوّر نهر بلا ماء، أو جنة بلا أشجار.

إنّ النظام يمثّل البوابة الرئيسيّة في الدخول إلى عالم الحضارة، بيد أنّ الشعور والإدراك والتفاعل مع الحقيقة عينها لا يأتي عن طريق الوصفات الطبيّة أو المحاكاة الخرساء كما لا يولد فجأة.. إنّّه خلاصة تجارب حسّية ونتائج كلّفت المجتمعات المتحضّرة جهوداً شاقّة، مكنتها فيما بعد للتوصل إلى التلبّس بهذا المبدأ كخيار مصيري وعامل بناء في اتّجاه

الرقى والرفاه من جانب، ومن جانب آخر من أجل لجم فوهة الإهدار والاستنزاف البشري، والتأكيد بعد ذلك على القيم الأخلاقية التي ترعى الحضارة نفسها من الانحراف والتشوه والزوال.

من المؤكّد أنّ ثمة أشكالاً ثقافيّةً لاحصر لها تمثّل أنموذجاً فريداً للشراكة الفاعلة في إنجاز الكسب الحضاري، وأنّ ظاهرة الزيارة عند أتباع أهل البيت عليه السلام مصداق شاخص على أحد أشكال الثقافة الساعية إلى بلوغ المقصد الحضاري في مداه اللامتناهي، وأن أهم ما يميز حركته الحضارية هو إرتكازه على قيم أخلاقية إلهية لا تتقاطع مع القيم الإنسانية المشتركة.

وفيما يلي نعرض لأهمّ الملامح الحضاريّة التي من السهل الوصول إلى كنهها من ممارسة الزيارة وثقافتها الواسعة.

١.١٢ الاستفادة من المنجز التاريخي

إنّ الإنسان في رحلته نحو الحضارة يواجه تحديات شاقّة، لكونها تمثّل رحلة مصيريّة تدع الإنسان في مواجهة حقيقة مع قدره، وربّما تفضي به إلى الانكسار والضياع والسقوط في مجاهيل الفشل، والذاكرة الإنسانية تحتفظ بالعديد من التجارب الكارثية في المجال عينه. ولهذا يلزمه الاستعانة بتجارب الرحلات السابقة عليه، وبأدلاء يتوفّرون على خبرات مشهودة في منحنيات المسيرة عينها، يلزمه أدلاء يسهّلون عليه قراءة الدليل الخاصّ بالرحلة، وتحديد مكانه الفعلي على خارطة الحركة التاريخيّة في لحظته المعاصرة، وبأي اتجاه ينبغي أن يسير، وكيف يتاح له تفادي المخاطر المحيطة بالمسارات المزمع المرور بها.

إنّ الإنسان في مشاريعه كافّة لا يبدأ من الصفر، بل يحسن فهم سنن التواصل مع الجهود السابقة عليه، ولهذا برزت الحاجة إلى جهة تمتلك رؤية نافذة في ترجمة حركة

التاريخ، ولديها وعي تاريخي عميق للتصاق مع ركب التعاون الإنساني، والتعامل مع الديناميكية التاريخية بصفاتها وحدة بنائية تتغير قشرتها الخارجية بتغير الصيرورات الحضارية، أمّا ما يدخل في آلياتها الداخلية (القيمية) فهي ثابتة ثبوت النوع الإنساني، ولهذا أيضاً كانت الحاجة إلى الانفتاح الواعي لدراسة أبعاد وعناصر المنجز التاريخي، ومراقبة مساره التطوري بنحو تحدده استراتيجيّة خاصّة من أجل فهم الواقع الحاضر، والتنبؤ العلمي السني بالمستقبل، ولا يتحقّق ذلك إلّا من خلال التمحور حول قطب الشخصيات الرياديّة التي شاركت في صناعة المنجز التاريخي المذكور.

من المنطقي أنّنا لانقصد بالتمحور الجمود والتوقّف في استيحاء الملابس والظروف التي طبعت حياتهم فحسب، بل في كونهم مشروعات حضاريّة جادّة، أسهمت في تقديم قراءات عملية حول الإنسان والحضارة والطبيعة مستمدة من رؤية كونية وتجارب خاصة.

إنّ تمحورنا حول شخصيّة عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) كقطب من أقطاب الحضارة البارزين، يعني استلهاهم تجربة عليّ (عليه السلام) الحضاريّة، حيث لا يختلف شخصان في كونه أحد بناء الصرح الحضاري للإنسانيّة جمعاء، وللمسلمين بصورة خاصّة، كما يعني أيضاً المقاربة الجادّة في استدراك إخفاقات الشعوب وقتئذ بالنسبة إلى تأخرها من الاستجابة له، وهكذا الحال مع تجربة الحسين والسجاد والصادقين والكاظم والرضا والجواد والعسكريين (عليهم السلام)، والاستعداد لتبني مشروع الإمام المهدي (عجل الله فرجه) المرتقب.

إنّ جميع ذلك يتحقّق بصورة مباشرة وغير مباشرة عن وعي أو اللا وعي، حينما يقبل الزائر على مرقد من المراقد الطاهرة، حيث يفرض المشهد عليه أن يعيش مراجعة نقدية تفاعلية سريعة للماضي المتمثّل بحركة التاريخ الحاضرة، وإن كان هذا النوع من الفهم الرسالي للمنجز التاريخي يفتقر إلى التثقيف والترشيد بالنسبة إلى الزائرين.

وهذا ما نأمل معالجته من قبل المعنيين، إلا أنّ ضربات شعوريّة خفيفة يكاد أن يعترف بأثارها الزائر بكل تأكيد، حيث يكفي - في تصوّرنا - أن يعي الزائر أو الموالي مكانة (المزور)، فالوعي بحجم الزائر وخطورة شخصيّته، يعدّ شكلاً من أشكال الوعي بالتاريخ، ومن الحقائق المفروغ منها إنّ الوعي بالتاريخ لا يعني الامام بوقائع التاريخ التي تعنى بتسجيلها المدوّنات المعروفة بكتب التاريخ، وحفظها بقدر ما تعني معرفة الشخصيّات التي منحت التاريخ لونه ولغته وطابعه... الشخصيّات التي أحدثت النقولات النوعيّة في فهم الكون وجوهريّة الحركة التاريخيّة، وأسهمت في إضافات معرفيّة تركت أصداء مدوّية في مجالات العقل الإنساني.

إنّ تحديد الانتماء القيادي من خلال الالتفاف النابع من الوعي المذكور مسألة في غاية الأهميّة، حيث يؤكّد الانتماء ذاته قَمّة الإدراك بطبيعة المنجز الحضاري الذي أنتجته القيادات التاريخيّة والإفادة من معطياته في طريق الوصول إلى عتبة الانفتاح على الحضارة بعمقها الأوسع والأشدّ تخلّقاً وتفاعلاً وإبداعاً.

ولا غنى - حسب تصوّرنا - في مسيرة أئمة في السعي نحو الحضارة من تشخيص قادتها وتحديد المنجز الذي أفرزته تجاربهم بغية المحافظة عليه ومواصلة التقدّم على ذات الخطوات، وممارسة الزيارة تفتح لنا نافذة كبيرة على رؤية المنجزات الحضارية التي صنعها عظماء الإسلام وقادته الشرعيين عليه السلام، وتقدم - بالوقت نفسه - أدواتاً ضرورية للعمل على مواصلة السير في تفعيل المشاريع الحضارية المنجزة من قبلهم عليهم السلام. ولا شك أن أول خطوات العمل على مواصلة المشاركة الجادة في مشاريعهم الحضارية تتجسد في إحياء شخصياتهم في الحياة والتفاعل معهم كما لو أنهم لا زالوا على قيد الحياة، وزيارتهم تمثل واحداً من أهم مصاديق الإحياء المذكور.

٢٠١٢ الانفتاح والتعاون بين الشعوب

إنّ واحدة من أنصع مؤشرات الوجود الحضاري أو الاعتراف بالكيانات الحضاريّة على سطح الأرض، وفي أي مفصل معيّن من مفاصل التاريخ المتعدّد تتموقع في ملاحظة التنوّع الثقافي البشري والاحتكاك الحيّ بين هويّات وثقافات متنوّعة، واندماجها في صيغة تمنح الجغرافيّة التي يسبحون في فضاءاتها سمة الكينونة الحضاريّة، فحيثما كانت الحضارات كانت إلى جانبها بصمات العيش المتنوّع قديماً وحديثاً، ولا تشدّ عن هذه السنّة تجربة من التجارب المنظورة، حيث لا توجد أمة منغلقة على ذاتها، وقد استطاعت تحقيق إنجاز حضاري مطلق، وحتى لو استطاعت في بعض الأحيان تحقيق إنجاز مذكور، يبقى إنجازاً حضارياً مشوّهاً ومفتقراً للنضوج.

إنّ الحضارة حصيلة شراكة إنسانيّة متعدّدة، وتبادل للتجارب والإضافات، وهذه من الحقائق التي لا تحتاج إلى تذكير.

فالمنجز يحتاج إلى عقول، والعقول تتوزّع على أصقاع شتّى، ويحتاج بعد هذا وذاك إلى عرض وتبادل منفعي، كي يتحمّس المبدعون والمنجزون بقيمته ممّا يدفع الآخرين إلى تجاوز الحدود التي تمّ التوصل إليها وعبر التعرّف على مضموناتها، للانطلاق من النتائج المنتهي عندها إلى مستويات أقصى، وهذا ما يحمّ الهجرة إلى مراكز الكشف والاختراع والدوائر التي تخوض غمارات البحث العلمي والمحصّلة هي حالة من الاشتباك الإنساني الذي تنصهر به الإلماعات الكشفية متناسية جانباً عريضاً من الخصوصيّات الذاتيّة، ومتّحدة مع الهدف الطامح إلى تحقيق الكسب الحضاري.

هذا كله في صفّ، وفي صفّ آخر، فإنّ دراسة مصائر الحضارات والأسباب المؤدّية إلى انهيارها - حسب تصوّري - له علاقة صميميّة مباشرة في مسألة الانفتاح والتعارف

بين الشعوب، حيث غالباً ما تستأثر بعض الأمم بعد تربّعها على قمّة الهرم الحضاري مكتسبات الحضارة على أسوار جغرافيّتها وابتزاز الشعوب الأخرى، ورهن مصائرهما، واستلاب حرياتهما، والتنكّر لجميع جهودها، ممّا يسهم في زرع الكراهية والتطلّع إلى الشرّ، وعادة ما يتبلور هذا التوجّه في فكر أصولي يرتكز على الدين أو القومية أو بعض الأيديولوجيّات المذهبيّة الداعية إلى الحروب والتصادمات التي تسفر عن تخريب الأسس الحضاريّة، وتأخير حركة المجتمع البشري من بلوغ مبتغاه وتطلّعاته الطموحة في النهضة والرشد والتكامل، وبذلك تنتهي التجربة العمليّة - الميدانيّة - للتقدم والإزدهار والرفاه وتؤول إلى البدائية والجاهلية.

إنّ انفتاح الشعوب على بعضها، وفسح فرص التعايش والاحتكاك يقلّص إلى حدّ كبير من الأخطار الملمّح إليها، ويدفع باتجاه الشعور بالمصير المشترك للنوع الإنساني الذي يواجه أخطاراً ومشاكلات وتحديات متعددة، لا يمكن معالجتها إلا بالعمل المشترك كأسرة واحدة تعيش على الأرض.

وفي هذا السياق يمكن الاستشهاد بتجربة الجاليات الإسلاميّة في الغرب، حيث يلاحظ أنّ المهاجرين المسلمين أصبحوا ينظرون إلى المجتمعات الغربيّة التي يستوطنونها وكأنّها أوطانهم الأصليّة، ويدافعون عن قيمها ومبادئها، واشتركوا بجديّة فائقة في بناء تلك المجتمعات الغربيّة وتطوير مؤسّساتها، حيث لا يوجد قطاع من القطاعات أو مؤسّسة من المؤسّسات دون أن يكون لأبناء المسلمين حضور متميز، وما كان ذلك ليحدث لولا إدراك أصحاب الرأي والشرائح الواعية من شعوب تلك البلدان الأصلانية بأهمية الإنفتاح والتعايش الحضاري المتبلور عبر تقديم فرص المشاركة والمساهمة للمهاجرين من الحضارات الأخرى إليها، وإن كانت تطبيقات برنامج المشاركة والمساهمة لم تصل إلى المستوى المطلوب بسبب الأصوات والأعمال الواضحة والمتسترة للعنصرية.

ولعلّ القارئ يتساءل - وهو محقّ في تساؤله - عن صلة الحديث الآنف بموضوع ثقافة

الزيارة؟ والتأمل في بواطنها.

في الواقع إنّ معاينة الممارسة والتأمل في بواطنها من الزاوية النقدية يكشف عن علاقة جدية بين ما تقدّم وموضوع ثقافة الزيارة؛ وذلك لسبب دقيق الخصوصية، يتحدّد في انفتاح مراكز العتبات المقدّسة على أمم وشعوب تنتشر على امتداد انتشار الإنسان في الأرض، تقصد هذه العتبات في مواسم ثابتة وعلى مدار أيام السنة، وربّما يتصوّر البعض أنّ الأمم والشعوب تنتمي إلى هويّة وثقافة واحدة، وهي الثقافة والهويّة الإسلامية. وهذا محض توهم خاطئ، فالوافدون على زيارة عتبات أهل البيت عليه السلام لا ينحدرون بالمسلمين فحسب، وإنّما تقصدها أجناس مختلفة لاتربطها علاقة خاصّة بالإسلام، وإنّما جذبها حبّ المعرفة وهواية الوقوف على الآثار والمعالم الحضاريّة والإنسانيّة، وحتى لو اقتضت المسألة على الأمم والشعوب الإسلاميّة، فهذا وحده كاف في تنمية الرغبة في الانفتاح والتعايش والاحتكاك، فإن هذه الأمم والشعوب تنحدر عن موروثات إنسانيّة خاصّة، مضافاً إلى الثقافة الإسلاميّة العامّة، وممارسة ثقافة الزيارة تتيح لمختلف الأعراق والهويات والثقافات فرصة الالتقاء والتعارف والحوار، بيد أن هذه المفاهيم الثلاثة (الالتقاء والتعارف والحوار) تتميز دلالاتها عما هو مألوف عليه في الأدبيات والانشغالات الخاصة، ف (الالتقاء) عند العتبات المقدسة هو في - حقيقته - لقاء مبادئ وأرواح عشقت الحق والعدل والخير فتعلقت بالأبواب المفتحة عليه. و (التعارف) أكبر من أن يكون تبادل للبطاقات الشخصية أو ملفات السيرة الذاتية أو لمحة عن حياة الشخص (Profile)...، إنه مفهوم قرآني يهدف إلى التسامي والتنافس للوصول إلى أرفع مستويات التهذيب التقوائي (لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم). والحوار يحوم على التعاضد والتعاون والتواصي بالحق والصبر، وعرض قضايا الأمة المصيرية على منهج أهل البيت عليه السلام من أجل تشخيص الوضع وحالاته الملتبسة والعمل على علاجه أو توخي الأمراض والمزالق المحتملة.

إن مراكز العتبات المقدسة تمثل فضاء يجتمع تحته جميع المؤمنين الذين يشتركون في وحدة المبدأ ووحدة الهدف ليمدوا جسور الترابط فيما بينهم وليعززوا قوة إيمانهم بما يقتنعون فيه وما يعيشون همومه من مبادئ رسالية، وذلك أنهم يشكلون كياناً واحداً مهما ابتعدت بهم المسافات وتعددت اللغات وأختلفت الهويات.

وهي بعد هذا وذاك، محطة إنسانية يقف عندها كل من ينتصر للقيم الروحية ويقدس أصحابها والمضحين من أجلها. محطة تقربك ممن تشترك معهم في النوع والتوجه والحلم بغض النظر عن الاختلافات والتشوهات المشار إليها، مما يسهم في نبذ الكره المتأقي عن الانغلاق والجهل وتقديس الذات.

٣-١٢ الإحتفاء بالشهيد والشهادة

لا أحسب أن ثقافة من ثقافات العالم بأسره احتفت بمفهوم الشهادة وشخصية الشهيد نظير احتفاء الثقافة الإسلامية بهما، وبخاصة ثقافة أهل البيت عليهم السلام التي نمت وتجدرت بعباء الدم الطاهر الذي أريق من أجل المحافظة على القيم الربانية عبر قرون متعددة، فلقد تعامل فكر أهل البيت عليهم السلام مع الشهيد تعاملًا مغايرًا للتعاملات المألوفة.

إن أقصى ما وصل إليه الفكر الإنساني في تعامله مع الشهيد كقيمة من القيم الإنسانية العليا، يتحدد بالتكريم الكبير له، وإقامة النصب التذكارية على مفترق الطرق وفي المتاحف الوطنية، والإشادة بمنجزاته في كل مناسبة ترتبط به، وما عدا هذه المكافآت التكريمية، فليس هناك ما يمكن تسجيله أبداً، بيد أن الثقافة الإسلامية طرحت فهماً آخرًا في سياق الإحتفاء بالشهيد حينما اعتبرت أن الشهيد يتمتع بالحضور والحياة والفاعلية، وأنه لم يغيب ولم ينقطع ولم يبتعد عن سجل الحاضر والواقع والمعاصرة مهما تمددت الحياة، وهذه واحدة من المعطيات الفذة التي تفرّدت بها الرؤية الإسلامية.

إنَّ القرآن الكريم يقول:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩)، وفي آية أخرى ينهى الله سبحانه وتعالى عن تسمية الشهداء بالأموات: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ١٥٤).

إنَّ رؤية الشهيد وفق هذا الفهم الخاص تنحو منحى مبتكراً فاعلاً يضع الشهيد موضع الشاهد على حركة المجتمع في ماضيه وحاضره ومستقبله، والمختبر الصحي الذي يُعرف من خلاله حالة المجتمع ودرجة مرضه من تعافيه، حركته من سكونه، كدحه من تكاسله... الخ.

والزيارة في الواقع تجسيد لهذه الرؤية الجديدة في فهم مسألة الشهيد ودوره في الأمة.

تقول إحدى فقرات الزيارة مخاطبة أمير المؤمنين عليه السلام:

«وَأَشْهَدُ يَا مَوَالِيَّ أَنَّكُمْ تَسْمَعُونَ كَلَامِي، وَتَرَوْنَ مَقَامِي، وَتَعْرِفُونَ مَكَانِي، وَتَرُدُّونَ سَلَامِي، وَأَنْتُمْ حُبَّجُ اللَّهِ الْبَالِغَةُ، وَنِعْمَةُ السَّابِغَةِ» (المشهدى، ١٤١٩ هـ: ٢٥٢).

فالملاحظ أنَّ الزائر يصدر عن قناعة راسخة بحياة الأئمة عليهم السلام ومراقبتهم للوضع الخاص والعام، فهو لا يتعامل مع أموات أو رموز غائبة بل مع شخصيات قيادية حاضرة وفاعلة وموجهة حسب عقيدته الإيمانية.

بل إنَّ طبيعة ممارسة الزيارة بأسرها تنطق بإيمان الزائر في مسألة حضور الأئمة وشاهديتهم على الأمة، فالآداب المرسومة، والنصوص الحوارية، والمشاعر الملموسة... آليات تفيد بجميع ما تمت الإشارة إليه. والمدعش أنَّ ممارسة الزيارة تمنح شهداء أتباع أهل البيت عليهم السلام وأنصارهم في هذه المفصلية، الاعتبارات نفسها، حيث وردت العديد من النصوص في زيارة أنصار الحسين عليه السلام الكاشفة على الدلالات المذكورة.

تقول إحدى الزيارات:

«السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الصَّادِقُونَ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الشُّهَدَاءُ الصَّابِرُونَ. أَشْهَدُ أَنَّكُمْ جَاهِدْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَصَبَرْتُمْ عَلَى الْأَذَى فِي جَنْبِ اللَّهِ، وَنَصَحْتُمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ حَتَّى أَتَاكُمْ الْيَقِينُ. أَشْهَدُ أَنَّكُمْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّكُمْ تُرْزَقُونَ، فَجَزَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الْأَسْلَامِ وَأَهْلِهِ أَفْضَلَ جَزَاءِ الْمُحْسِنِينَ، وَجَمَعَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ فِي مَحَلِّ النِّعَمِ» (المشهدى، ١٤١٩هـ: ٤١٦).

وفي نص آخر يخاطب أنصار أبي عبد الله الحسين عليه السلام الذين يمثلون سادات الشهداء وذروات الوعي الإيماني: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الرِّبَانِيُّونَ، أَنْتُمْ لَنَا فَرَطٌ وَسَلَفٌ، وَنَحْنُ لَكُمْ أَتْبَاعٌ وَأَنْصَارٌ. أَشْهَدُ أَنَّكُمْ أَنْصَارُ اللَّهِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ (آل عمران: ١٤٦). فَمَا وَهَنْتُمْ وَمَا ضَعُفْتُمْ وَمَا اسْتَكَنتُمْ حَتَّى لَقِيتُمْ اللَّهَ عَلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَنُصْرَةِ كَلِمَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَى أَرْوَاحِكُمْ وَأَبْدَانِكُمْ وَسَلَّمْ تَسْلِيماً...»

أَنْتُمْ سَادَةُ الشُّهَدَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. أَنْتُمْ السَّابِقُونَ وَالْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ» (ابن قولويه القمي، ١٣٥٦هـ: ٢٠٤).

ولا تسمح مساحة البحث بدراسة المفردات والدلالات الفكرية التي تضممتها فقرات الزيارة، فهي مفردات غائرة في أقصى مديات التفرد والجدّة والإثارة.

إنّ النصوص المتقدمة تشكّل تجسيدا حقيقيا للرؤية الإسلامية الخاصة في التفاعل مع مفهوم الشهيد والشهادة، بل أنّ ثقافة الزيارة أساساً تعدّ تعبيراً كاشفاً عن التعامل الإسلامي المغاير لجميع الثقافات العالمية التي لم تنجح في تفعيل دور الشهيد بعد رحلته عن الحياة المادية، وإشعار المجتمع بحضوره وشاهديته ومعطيته...

٤.١٢ خصوصيات السلوك الحضاري

تتمتاز ممارسة الزيارة بجملة من الشعارات والخصوصيات التي تسمها بلون يفريها عن سائر ألوان الممارسات الجماهيرية والشعائرية الماثلة، وذلك من قبيل:

٥.١٢ سلمية الحركة

تقدّم أنّ أحد أهمّ أبعاد ظاهرة الزيارة تتمحور في طابع سياسي هادف وذات مضامين احتجاجية تغييرية ثورية ملتزمة، بيد أنّ الطابع نفسه يفترق عن النشاطات الاحتجاجية المألوفة، وسلمية الممارسة أنصع مصاديق الخصوصيات المشار إليها آنفاً.

فالملاحظ أنّ أغلبية التظاهرات العريضة تنحو منحى ذا صبغة عدوانية، وغالباً ما يتقهقر العقل وتنحسر لغة المنطق تاركة الميدان لعربدات العاطفة الغير مسؤولة، فتتحوّل فجأة حكمة الكلمة والسلوك وطهارة العاطفة إلى تيّار من العنف وزوابع من الصخب الذي يقدّم إساءة للاتّجاه الصادرة عنه هذه التظاهرة أو تلك من خلال الإخلال بالأمن وانتهاك الحقوق العامّة وإشاعة الفوضى، وهذا ما لا يلتقي مع أبسط مبادئ الحضارة والنظام.

إنّ المتابع لممارسة الزيارة الموسمية الحاشدة يتّفق مع تسجيل هذه الخصوصية الواضحة، فبالرغم من وجود الكثير من الضغوطات والأزمات التي يتعرّض لها الإنسان الشيعي، وبالرغم كذلك من ثورية الممارسة الزيارية، إلّا أنّه يحتفظ بتوازنه، ويؤدّي ممارساته بصورة سلمية تماماً، علماً أنّ السلطات في جميع العصور تتعمد استفزازه أثناء تأدية ممارسته، ولا حصر لأنواع الاستفزات، حيث بلغ الأمر بهم في عهد طاغية العراق البائد أن يعتقلوا أثناء الزيارة العديد من الزوّار والاعتداء عليهم بالكلمة الهابطة واليد

الآثمة، مضافاً إلى قطع تيار الكهرباء والماء وغيرها من أشكال التعسف والاضطهاد، ومع كل ذلك فقد بقي الإنسان الشيعي مسلماً في أداء ممارسة الزيارة معتبراً أن ما يتعرض إليه من عدوان جزءاً من تحمل المسؤولية الولائية لأهل البيت عليه السلام.

٦.١٢ نظامية الأداء

لاتزال مسألة انسيابية الأداء مع العلم المسبق بضخامة الجمهور الزاحف إلى العتبات المقدسة في الزيارات الخاصة، والذي يصل حسب تقارير وكالات الأخبار العالمية إلى خمسة عشر أو عشرين مليون زائر في زيارة موسمية واحدة، مثل زيارة الأربعين المباركة،... موضوعاً مثيراً للدهشة والاستغراب.

إنّ الزوّار يقدمون إلى مدن غير مؤهلة البتّة لإستقبال مثل هذه الأعداد، حيث شوارعها وأزقتها ومقرّرات إقامة الزائرين في فنادق ومساجد أو غيره من الخدمات العامة كمواقف خاصة بالسيّارات ومستشفيات تكاد جميعها أن تكون منعدمة، وحتى أروقة العتبات المقدسة نفسها لا تتسع إلاّ لأعداد بسيطة لاتنسجم مع الحشود المتدفقة إليها، وبالرغم من ذلك كلّ أنّ الممارسين يؤدّون أعمالهم ويذهبون دون أن تشهد الأمكنة المقدسة أية مفارقات أو حوادث، ودون أن تتدخل الدولة في تنظيم الحشود الزاحفة.

ومن الجدير بالإشارة إلى ما حدث بعد سقوط نظام البعث في العراق، حيث قدم إلى زيارة الحسين عليه السلام في (الأربعينية) أكثر من خمسة ملايين زائر، حسب إحصاءات وكالات الأنباء الغربية، في حين أنّ العراق في تلك السنة لم يعهد وجود سلطة تحكمه إلاّ قوات الاحتلال، ومع ذلك لم تحصل أيّة مشاكل تنظيميّة أو أمنية أو مؤنّية، مقارنةً بما يحصل في العديد من الممارسات الشعبيّة من اضطرابات أو تعثرات سواء أكان ذلك في العراق أو في الدول الأخرى، فلقد عاش كاتب هذه السطور - ولا يزال - في إحدى عواصم العالم الغربي المشهورة بالنظام والرتابة والتحصّر، إلاّ أنّهم يعيشون في معضلة لا يهتدون

إلى حلّها تكلفهم مبالغاً وخسائراً وجهوداً مذهلة، وتستنفر من أجلها أجهزة الأمن والدولة، وهي مسألة المشجّعين الرياضيين لأندية كرة القدم وبخاصة حينما يحضرون لمؤازرة أنديةهم حينما تقام مباراة كرة القدم والتي تنتهي إلى خسارة إحدى الفرق حيث يتحول المشهد إلى حالة من الشغب والفوضى والتجاوزات القانونية وتخريب الأماكن العامة والخاصة حتّى ليخيّل للمشاهد أنّه يعيش في حاضرة من حواضر القرون الوسطى أو أحد مجتمعات الغاب.

لجميع ذلك، يحق القول: إن الانضباط الذي يسود سلوك الزائرين في أداء ممارسة الزيارة يُعد - بحق - أحد المواضيع والظواهر التي ينبغي الافتخار بها والاستفادة منها في تعديل السلوك العام، فمن النادر أن نلمح ثمة من يتجاوز على الآخر أو يتسبب بعرقلة أداء الآخرين أو يتتّك توجيّهات المسؤولين... إن الحشود المليونية الزائرة تمارس أداء طقوسها الدينية والاجتماعية بنظام عفوي وبانسيابية مذهلة.

٧.١٢ موضوعيّة المقصد

إنّ سلامة المقصد وخلوص النية من كلّ شائبة ذاتيّة وديويّة مقيّنة لمن ألصق خصوصيّات الممارسة الزيارتيّة، وهذا ما لا يختلف عليه اثنان مع الإقرار المسبق بأنّ معرفة النوايا والسرائر من خصوصيّات الله سبحانه وتعالى، لكن آثار الإخلاص ملحوظة وواضحة للعيان، فلنا أن نتساءل عن السبب الرئيس الذي يدعو هذه الجماهير وبظروف تشكّل تحدياً للذات وللآخر وللطبيعة أحياناً، حيث قساوة المناخ وغيرها من المعوّقات؟

كما لنا أن نتساءل أيضاً عن الجهة التي تسيّر الحملات والإعلانات والتشجيع عليها ولها وغير ذلك من الأمور؟

في حين أنّ هناك من الجهات والأحزاب التي تبذل أموالاً طائلة من أجل إحداث

مظاهرة بسيطة تلفت بها الأنظار، ولا توفق لذلك.

لا شك أن نظافة المطلب وصدق المشاعر هو الباعث الحقيقي وراء هذا التجمهر الإيماني الضخم، الذي يشده حبّ الله عزّ وجلّ وتجذبه أشواقه الملتهبة من خلال اتّخاذ الوسيلة إليه، وهم أولياء الله ﷺ الذين طهرهم من كلّ رجس، وهذا ما يلتقي مع بعض التوجّهات الإنسانيّة الخالصة، التي تنطلق في مواقفها من منطلقات موضوعيّة بحثة لا تشوبها شائبة ذاتيّة، وإنّما هدفها خدمة المصلحة العامّة، والوفاء للجهود الخيرة التي يبذلها بعض الأفراد والجماعات من أجل المبادئ السامية والدفاع عن حقوق الإنسان، وهذا وغيره من العوامل ما يحمل زائري العتبات المقدسة لإحياء ممارسة الزيارة فهم يصدرّون عن مقاصد موضوعية خالصة تشدّ تكريم هذه الشخصيات الربانية العظيمة والاعتراف بفضلها على المسلمين والبشرية كافة.

ولهذا بالذات يمكن تفسير قسم من النجاحات البشريّة التي لاصلة لها مع الثقافة الدينيّة على صعيد التنظيم والإدارة وتحقيق بعض المشاريع الإنسانيّة، ولذلك ألحقنا الموضوع أعلاه ضمن موضوعات الملامح الحضاريّة، فكلما تجرد العمل عن الاعتبار الذاتية وتوجه نحو المقاصد الحقيقيّة كلّما أكتسب العمل قيمة النجاح والخلود، وكلّما تقدّمت الأعمال خطوة إيجابية في اتجاه تشييد الحضارة الإنسانيّة الفاضلة.

٨.١٢ الوحدة وانتفاء الخصوصيّات الضيّقة

إنّ واحدة من أهمّ دلالات زيارة أهل البيت ﷺ الموسميّة واليوميّة هي انصهار ملايين الوافدين ضمن هدف واحد شبيه بممارسة الحجّ، حيث لا يمكن التشخيص بالاعتبارات الدنيويّة البغيضة من عرقيّة وجغرافيّة وحسبيّة وسياسيّة واقتصاديّة... الخ بينهم.

إنّ جميع العناوين التي تفرّق الناس في الخارج تسقط في داخل حرم الإمام المقصود،

كشروط لقبول هذه العبادة، وإن كانت الاعتبارات نفسها تسقط عفويًا تحت تأثير المقام والأجواء التي تغلفه مما يعيد إلى الذاكرة وحدة المصير الذي يجمع هذه الوفود والتقائهما على غاية واحدة من خلال التزامهما بمنهج واحد، وهذه هي القيمة الحقيقية النوعية لما نقصده من مفهوم الوحدة.

إنَّ التوجّه العالمي المعاصر يخلّق وجود بعض العناصر الساعية إلى تقريب العديد من الشعوب المختلفة بغية إيجاد تكتّل سياسي اقتصادي ثقافي موحد يحميها من الابتلاع وتربّص الحيتان التكتليّة بها، فلامكان على الأرض في المرحلة المعاصرة لوحداث دوليّة منفردة وغير متّحدة مع قوى أخرى، علمًا بأنّ التوحّد والتكتّل المشهود حاليًا ينطلق من مصالح ماديّة محضة لاعلاقة لها بالقيم الإنسانيّة المشتركة، وعلى العكس من أرضيّة التقارب في الثقافة الإسلامية بين أمّها وشعوبها والمناخات التي تنهجها العتبات المقدّسة في الواقع من أهمّ عناصر التوحّد والتكتّل النظيف والواعد بمستقبل يطمئنّ إليه حضاريًا وإنسانيًا، إنها تسعى إلى دمج أتباع أهل البيت عليه السلام ومحبيهم من المسلمين وغيرهم وتوحيدهم ورفع الحواجز الدنيوية التي تعيق من التقائهم وتعارفهم واشعارهم بأنهم كيان واحد ينطلق من مبدأ واحد ويعمل للوصول إلى أهداف مشتركة. وهذا ما يرفع من وعي الشعوب حول المبادئ الأساسية والأهداف الضرورية، وتنمية عناصر العيش المشترك، وإشاعة روح التسامح والحب والإحترام المتأني عن الإيمان بالخالق جلّ وعلى.

١٢.٩ الإدارة الذاتية

ثمة نمط من أنماط الإدارة المعاصرة يُعرف بـ (الإدارة الذاتية) حيث يستغنى فيه عن التوجيه القيادي، ويُفوض الأمر الإداري إلى فريق العمل نفسه، بمعنى أنهم يديرون أنفسهم بأنفسهم، وينفذون أعمالهم دون أن يشرف عليهم القادة والإداريون، وقد ساهم هذا النمط الإداري في زيادة الإنتاج ورفع دوافع العمل عند العاملين، ونضج

الوعي الوظيفي، وهو إلى جانب كل ما كتب عنه يمثل حالة متقدمة في مسارات التنظيم الإداري. لكن النمط نفسه لم يخل من شروط صعوبة لكي يمكن له أن يؤدي دوره الفعال ويأتي بنتائجه الإيجابية، حيث لا يمكن تطبيقه كيفما اتفق، وربما تسبب الإخلال بالشروط الموضوعية له بشل العمل وإحداث الخسائر الثقيلة للمنظمات والمؤسسات المطبقة للنمط المذكور، ولهذا فقد أعتنى علماء السلوك التنظيمي بعناصر نجاح النمط ذاته بنحو مفصل، وبإمكاننا اختصارها بـ: (المؤهلات الخاصة للعاملين، الحوار فيما بينهم، وتحمل المسؤولية).

١. المؤهلات الخاصة: يقصد بها التوفر على مجموعة من عناصر فريق العمل من قبيل: التوفر على المؤهلات التنفيذية الكافية للقيام بالأعمال المناطة تنفيذها حتى يتم لهم إجراء عدة أعمال بأنفسهم. ومن هنا ينبغي تطويرهم عبر إخضاعهم لتدريبات خاصة تعمل على تمكينهم من بعض المهارات الضرورية. وبما أن الإدارة الذاتية تتطلب من أعضاء فريق العمل التفاهم لأداء مهام متنوعة، وتهيئة العديد من الإجراءات فيما بينهم، تعين عليهم القيام بالتحاور المستمر فيما بينهم:

٢. الحوار فيما بينهم: يقصد به ضرورة الاجتماعات الدورية، القدرة على التعامل بإيجابية مع اختلاف وجهات النظر، الوصول إلى القرارات التي تقدم المساعدة الكافية لفريق العمل.

٣. تحمل المسؤولية: إن الوصول إلى النتائج الإيجابية المستهدفة من عمل الإدارة الذاتية - وهي بطبيعة الحال الأداء العالي - يتوقف على الشعور بمسؤولية العمل الجماعي، والتوفر على المعايير العالية للأداء العملي (Alblas & Wijsman, 2009).

ولا تقف المسألة على ما تقدم، فهناك عدة متطلبات أخرى تتدخل في نجاح العمل الذاتي، منها:

١. التشكيل: حيث يتطلب توزيع العمال الماهرين والغير ماهرين بنحو جيد في أقسام العمل لضمان حضور الخبرة والمعرفة في كل مجموعة حتى يتاح لأعضاء فريق العمل الضعاف التوجيه الكافي.

٢. المناخ: لا تضع الأشخاص ذوي الطباع الغير قابلة للإنسجام والإتحاد في المجموعة الواحدة. وأحرص على أن تكون العلاقات بين الأعضاء جيدة، والثقة متبادلة. وإذا كان المناخ العام للفريق غير جيد، فعليك أن تغير تشكيل الفريق.

٣. معايير الجهد: يجب أن يكون ثمة إتفاق مع القيادة على سقف الإنتاج الذي سوف يعمل الفريق على تحقيقه.

٤. الوسائل: يتعين على القيادة أن تقدّم الوسائل والقدرات المطلوبة لتحقيق الأداء المرغوب فيه من أجل نجاح عمل الفريق. إن رفع المطالب وعدم تقديم الوسائل الكافية يقود إلى سوء علاقة فريق العمل من جهة، وسوء العلاقة بين الفريق والمنظمة التي يعملون فيها من جهة أخرى (Alblas & Wijsman, 2009).

من الطبيعي بأننا لا نعتزم الخوض في دراسة مسائل هذا النمط الإداري بقدر ما نهدف إلى التدليل العلمي على السلوك الحضاري المتقدم عند جمهور زيارة الأربعين المباركة. فمن اللافت أن الجمهور ذاته قد عكس قدراته على التنظيم الإداري الذاتي بكل جدارة وإلى مستوى أذهل فيه المتابعين. لقد تمكن جمهور الزيارة من إدارة نفسه بنفسه، وتحقيق أفضل نتائج أداء العمل الجماعي بالرغم من صعوبة المهام التي يؤديها، وسعة أعداد مجموعات فريق العمل، وإنعدام الإمكانيات، وضخامة سقف الإنتاج من الخدمات المقدمة إلى ملايين المشاركين.

بصراحة لا يمكننا مقارنة الإدارة الذاتية بصيغتها التي أفرزتها مؤسسة زيارة الأربعين المباركة مع نظرية الإدارة الذاتية، ولا بالمنظمات العالمية التي طبقتها عملياً، ذلك أن الرؤية

والمنطلقات مختلفة بالرغم من تشابه آليات العمل.

إن رؤية النظرية لإدارية الذاتية شأنها شأن أغلب النظريات الغربية التي تتعامل مع الأشياء بمعزل عن الحقائق الإيمانية مما تحبس دوافع العاملين في تحقيق أهداف دنيوية صرفة، ولا يختلف إثنان في أن المنطلقات الأساسية لتلك المنظمات والعاملين هي الوصول إلى أكبر حجم من المكاسب المادية، بينما تتفرد رؤية ومنطلقات الإدارة الذاتية عند جمهور زيارة الأربعين المباركة بكونها إلهية نابعة من الإيمان بالله تعالى والسعي إلى كسب رضوانه، بالرغم من أنها حققت أعلى مستويات الإنتاج الدنيوي من تقديم الخدمات والأعمال المتعددة في إطار الممارسة نفسها، فرؤيتها الإيمانية لم تدعها تنكفأ على نفسها، وتبتعد عن التعامل الجاد مع الواقع وأسبابه، بل نستطيع القول أن الرؤية عينها دفعتها إلى مضاعفة جهودها وتطوير وسائل وأدوات العمل وظروفه.

وإذا حاولنا مراجعة الشروط التي وضعتها نظرية الإدارة الذاتية في محاولة سريعة لمقارنتها مع طريقة جمهور زيارة الأربعين المباركة، فسنجد أنها مستكملة لجميع الشروط مع الاحتفاظ بطابعها الخاص. ففيما يتعلق بـ:

المؤهلات الخاصة نجد أن الجمهور الأربعيني يتمتع بمؤهلات عالية الجودة من حيث التنفيذ، واتخاذ القرارات اللازمة في تيسير عمليات العمل بأنفسهم.

وأما الحوار فيما بينهم: نجد أن عناصر، التفاهم، التشاور، التقييم، الاحترام، والإنسجام... حاضرة ومتأصلة، وقد عكس الجمهور ذاته قابلية مدهشة في احتواء اختلافات وجهات النظر التي لا يكاد أن يفلت منها أي تجمع أنساني، والسبب يعود إلى الاتفاق على المنطلقات والأهداف، فالناس غالباً ما تختلف فيما بينها نتيجة لاختلاف مبادئها وأهدافها، حيث أن وحدة الهدف لا تسمح بالتقاطع والإفتراق، وحتى لو حصلت بعض الاختلافات في وجهات النظر بسبب اختلاف طرائق المعاينة للأشياء وتنوع تجارب الأشخاص ومستوياتهم المعرفية وهذا أمر طبيعي، لكن مثل هذه الأمور

لا يفترض بها أن تكون سبباً لترك العمل الجماعي أو التثبث بالآراء والإنهاء بالكرهية والعداء كما نعيشه في العديد من مؤسسات العمل ذات الطابع الرسمي أو الغير رسمي، فهل يعقل بأننا نختلف على تقديم الأحسن من الخدمات أو على التضحية والمساعدة والتعاون والإيثار...

إن الاتفاق على المبادئ يتكفل بحل كل أنواع الخلافات وإيجاد القواسم المشتركة، بل ويعمل الاتفاق ذاته على خلق حالة التسامي في تقديم التنازلات والتركيز على مضمون الأعمال ومقاصدها الأصيلة كما هي الحال في تجربة خدام ممارسة زيارة الأربعين المباركة. **تحمّل المسؤولية:** أشرنا في دراستنا الماثلة عن مفهوم الشعور بالمسؤولية الذي جسده على أرض الواقع جمهور الزيارة الأربعينية، ولولا وجود هذا الوعي بالمسؤولية - وليس مجرد الشعور - لما شهدنا كل هذا الثبات والاستمرار والنجاح، فلقد تبنى جمهور الزيارة الأربعينية قضية إحياء هذه الممارسة الإنسانية العظيمة بنحو أفقد الكثير من المفكرين والباحثين القدرة على تفسير هذا الوعي المقدس.

والمحصلة أن الإدارة الذاتية التي أفرزتها ممارسة زيارة الأربعين المباركة تضعنا أمام ظاهرة حضارية يندر وجودها في المجتمعات الإنسانية، وتدعونا بنفس الوقت إلى دراستها بنحو معمق بغية الانتفاع منها في مجالات مشاريع الإصلاح الاجتماعي، وتنمية مواردنا البشرية، والتدليل على قدراتنا الحضارية في تقديم الحلول الإيجابية للأسرة الدولية على الصعيد التنمية الإنسانية.

١٣. الحشد الشعبي وزيارة الأربعين المباركة

شهد العالم - قبل عام أو أكثر من ذلك بقليل - استجابة الغيارى من المؤمنين وتليبيتهم لنداء المرجعية الشريفة المتمثلة بفتواها الخالدة للجهاد الكفائي ضد زمر الإرهاب التي احتلت أجزاءً من أرض العراق وعاثت بها فساداً ودماراً، وهدّدت ولا زالت بالمزيد من الإجرام، ولم يقف تهديدها عند حدود العراق فحسب، بل طال جميع الدول المجاورة له، ولدول العالم كافة، وقد نفذت العصابات الإرهابية تهديداتها في بعض الدول العربية مثل: مصر، تونس، لبنان، السعودية، والكويت، وخارج الدول العربية مثل: فرنسا، بلجيكا، وأميركا. وفي الوقت الذي تعبر به الاستجابة المذكورة عن إلتزام أتباع أهل البيت عليه السلام بتوجيهات المرجعية الشريفة وتعبدهم بأوامرها، وهذا من الأشياء التي تكتنز بالكثير من الدلالات الاجتماعية والتربوية في زمن تستولي عليه اللامسؤولية، وتضعف القيم والمبادئ الإنسانية، وضعف الترابط بين أعضاء المجتمع الواحد، والتشتت، والاغتراب، وعدم تأثير الوازع الديني على نفوس قسم كبير من الناس مسلمين وغير مسلمين...، فإنها تكشف - بالوقت ذاته - عن عنصر في غاية الأهمية، ألا وهو الأساس العقائدي الذي يستند إليه أبناء الحشد الشعبي، والمحرك الفعلي لسلوكهم التضحيوي العظيم، والأساس المتحدث عنه يستمد معطياته من أرث ثقافي ضخم، أسهمت في تكوينه روافد متعددة، وتكفلت بصيانتة وفاعليته المستمرة عناصر واسعة يطول التطرق إليها وكشف حقائقها، بيد أن أبرز معطيات هذا الأرث هو ثقافة عاشوراء وثقافة الزيارة، وبخاصة ثقافة زيارة الأربعين المباركة بكل رموزها وشعاراتها وطقوسها ومعانيها التي ترسخت بوجدان الجمهور الحسيني. فحسب تصوري ان الملهم لحماسة المتطوعين الذين لبوا نداء المرجعية هو روح كربلاء، وتأثيراتها الفاعلة على النفوس، وتحديداً النفع الروحي المذهل للممارسة

زيارة الأربعين المباركة، فهي تعمل على تفعيل مفهومات الفكر الحركي والتغييري، وترفع من أفق التطلع والإستشراف، وتمنح جمهورها سعرات عالية من الرغبة والطموح والإرادة الحقيقية في تغيير الواقع، وقد مرت قرون من الزمن وهي تحتزن بهذه الطاقات والمعطيات، لم يسنح لها أن تعبّر عنها وتنزلها على مسرح الحياة إلا نادراً، فكانت تبحث في صمت وترقب ورصد على لحظة التطبيق، وقد حانت مع لحظة انطلاقة الفتوى المقدسة، حيث وجدنا عبر التتبع الدراسي ان معظم المتطوعين من أبناء الحشد الشعبي هم من الجمهور الحسيني وبخاصة جمهور ثقافة زيارة الأربعين المباركة.

إن الحشد الذي نشهده في مسرح زيارة الأربعين المباركة العظيمة هو نفس الحشد الذي استجاب لنداء المرجعية الشريفة، فما أروع هذا التلاحم والترابط بين الالتزام بقيادة المرجعية الشريفة وبين الذوبان في حب سيد الشهداء عليه السلام والوعي الكبير في إحياء شعائره. وقد انعكست بركات الالتزام بالقيادة الشرعية الشريفة، كما انعكست نفحات هذه الزيارة المباركة بالذات على تحشيد أبناء الحشد، ومواصلة تدفق الزخم المعنوي والمادي لديهم بنحو ملفت للغاية. وسوف نتطرق إلى الإستدلال على هذه الدعوى عبر الموضوعات التالية:

١٠١٣ احتضان المواكب الحسينية للنازحين

إن أول مبادرة شعبية صدرت لإغاثة المتضررين من وحوش الأرهاب في العراق، كانت من أبناء المواكب الحسينية وبخاصة مواكب زيارة الأربعين المباركة، وهذه من الحقائق التي لا يختلف عليها اثنان، وقد سبقت واخجلت المبادرة ذاتها الحكومة المركزية في ايثارها ونخوتها وطرائق تقديم مساعداتها المتوشحة بالخلق الإنساني الرفيع. فقد آوت النازحين الذين هجرهم القتل والتدمير، ولم تفرّق بين قومية وأخرى، ولا دين وآخر، ولا طائفة وغيرها، وكانت قد فتحت المواكب الحسينية - في جميع أنحاء العراق

وبخاصة طريق النجف الأشرف و كربلاء المقدسة المزدهم بالحسينيات والمضايف المعدة لخدمة زوار الأربعينية - أبوابها للنازحين من التركمان والعرب والأكراد، والشبك، والمسلمين من الشيعة والسنة، والغير مسلمين من مسيحيين، وايزيديين. ولولا وقفة أبناء المواكب المذكورة لكانوا من دون مأوى يقيهم حر شمس العراق، وشدة برد ليالي شتاءه، وبإمكان المتابع ان يقارن بين النازحين إلى إقليم كردستان في شمال العراق، وإلى مناطق شمال بغداد، وبين النازحين إلى الوسط والجنوب، حيث لا تزال العوائل المهجرة تقاسي معاناة الإقامة في مخيمات بئسة تفتقر لكل مقومات الحياة الأولية، فلا ماء ولا غذاء ولا دواء إلا الشيء القليل، وناهيك عن أساليب التعامل المهينة التي يتعرض لها هؤلاء المنكوبون كل يوم.

أما المواكب والمضايف المشار إليها فهي مجهزة بأهم وسائل العيش الكريم، وهي أشبه بالبيوت السكنية، وقد سارع العديد من أصحاب الضمير بمساعدة أصحاب المواكب في استكمال الاحتياجات التي ينبغي توفرها بالسكن من مبردات ومدفئات وغيرها من أشياء ضرورية، مما سهّل على المقيمين بها تعويض بعض ما حُرّموا منه في مساكنهم الشخصية. ولم تقف المساعدات عند حدود الإيواء وتقديم بعض المعونات المادية، حيث تجاوزت كل ذلك، فتناولت الأمور التعليمية بالنسبة إلى الأطفال الذين حُرّموا من مواصلة دراستهم عبر فتح الدورات التعليمية، والمساعدات الدراسية، إلى جانب تقديم خدمات الرعاية الاجتماعية والنفسية للضحايا وذويهم، ومواصلة تفقدتهم المستمر من خلال النشاطات الاجتماعية والثقافية والروحية المختلفة.

وهنا يُثار سؤال: ألا تستحق هذه الثقافة الإنسانية المتمثلة بالشعائر الحسينية التكريم والحماية والتنمية من قبل الحكومات سواء أكانت في العراق أم في خارجه، ذلك لما تقوم فيه من أدوار إنسانية واجتماعية تصب في حقبة المصالح العامة للمجتمعات؟

إننا لا نغالي فيما لو خلعنا على هذه الثقافة المباركة صفة الثروة الإنسانية التي لا تقدر

بشمن أو تحدد برقم. إنها رصيد من القيم والمثل العليا، حيث تسهم بخلق فريق عظيم من ذوي المواهب النادرة من العاملين الاجتماعيين الذي يشكل وجودهم حماية لأمن المجتمع وترباط أواصره ومواصلة حياة تراثه ومبادئه، وهم بعد ذلك كله يمثلون قوة من قوى الطوارئ لكل حدث أو كارثة تحل بالمجتمع. قوة من الطوارئ التي لا تكلف الدولة والمجتمع شيئاً، بل هي من تنفق على الدولة وعلى المجتمع دون مقابل، وبكل إخلاص ومحبة واحترام.

لهذا بالذات نطالب الحكومات بسن قوانين خاصة لحماية هذه الثقافة وبالعاملين عليها، وتقديم المساعدات القانونية والمادية لتنمية وتطوير أعمالهم، وتوفير الفرص الملائمة لأدائها بالنحو الذي يلبي طموحاتهم الخيرة، بدلاً من محاربتها أو توهينها أو إيجاد العراقيل أمامها أو إهمالها، فقد وقفت الحكومات - قديماً وحديثاً - موافقاً سلبية متفاوتة اتجاه هذه الثقافة وهذا الجمهور، وليس ثمة من سبب في الوقت الحاضر من السكوت على التقصير والقصور الذي تم تشخيصه من قبل المتابعين والمعنيين بهذا الشأن الهام، ولا بد من المطالبة بتشريع قوانين محددة تلزم الحكومات في حماية ممارسة زيارة الأربعين المباركة ومحاسبة كل من يحاول الإساءة إليها ولجمهورها فهي كما أشرنا سلفاً من المكاسب الدينية والإنسانية والقومية والوطنية.

٢.١٣ المشاركة في جبهات القتال

لا شك ان الميدان الجهادي في العراق كان ولا يزال يحتفظ بأسماء لبعض الفصائل والقوى التنظيمية العسكرية التي أسهمت بشكل فاعل في محاربة فلول البعث الصدامي والتيارات الإرهابية التي تلخصت مؤخراً بتنظيم داعش، إلا ان نزول الجمهور الحسيني العريض، وبخاصة أبناء ممارسة زيارة الأربعين المباركة - سواء الخدمة منهم أو المشاركين في أداء الزيارة - وهب المعركة زخماً نوعياً من حيث حجم المشاركين، فقد هب للمشاركة

خمس ملايين شخص في غضون أيام قليلة، حتى أعلنت الحكومة عن عجزها لإستقبال الأعداد المتدفقة إلى مراكز التسجيل، وهذا ما دفع أبناء الحشد ان ينظموا أنفسهم بأنفسهم، وينسقوا أعمالهم مع القوات العراقية المسلحة، وكان لنزولهم واستعراضاتهم واهازيجهم الشعبية المترشحة بالحماسة والمروءة والغيرة... دور كبير في التعبئة العامة، وإيقاظ الشعور بالمسؤولية الدينية والاجتماعية، فقد أعاد نزولهم لميادين الجهاد إلى أذهاننا صورة نزول جمهور ممارسة زيارة الأربعين المباركة الهادر، أيام ملحمة الزيارة من كل عام.

المهم، أن الزخم المذكور اسهم في معالجة الروح المعنوية للمؤسسة العسكرية التي أصيبت بالانكسار الكبير، بعد هروب قياداتها والعديد من منتسبيها في مناطق غرب وشمال البلد، فقد تشكل بسرعة ملفقة جيش عقائدي جرار، يفوق في عدده الجيش والقوى الأمنية الرسمية، وهذا ما أسهم بدوره في إطفاء حالة الخوف التي نشبت في الشارع العراقي، واقلقت مواطنيه، حتى لم يعد يعرفوا في حينها أي مصير ينتظرهم بعد الأنبيارات العسكرية التي أعلن عنها رسمياً.

يُضاف إلى الزخم العددي الزخم المعنوي ونقصه به روح التضحية والإيثار ووعي المعركة، أو كما أطلقنا عليها آنفاً بروح كربلاء، وهذا ما كانت تفتقره المؤسسة العسكرية والأمنية العراقية الرسمية التي كان يتخذ منها العديد من منتسبيها وسيلة للكسب والحرفة والإعتياش، لذلك فقد انهزمت بنحو مخجل امام حفنة من شذاذ الآفاق وقطاع الطرق والصعاليك، وهو انهزام غير مبرر ومسيء إلى سمعة وتأريخ العراقيين المشهود لهم بالبسالة والشجاعة والنضال. ولكن حينما دخل أبناء ثقافة كربلاء الميدان بروحهم التضحية المعروفة استطاعوا - وبوقت قياسي - ان يقلبوا الطاولة على المخططين الحقيقيين لحشرات داعش الإرهابية، وان يلقنوا من وقف بوجوههم دروساً بالبسالة والبطولة والصمود. كما جسدوا أروع أمثلة النبل والقيم الإسلامية والإنسانية في إثارةهم وشدة

حرصهم على الآخر، يكفي أنهم تركوا عوائلهم لسنة كاملة دون معيل، ولم يتقاضوا أجراً مادياً يعينهم على تمشية أمورهم، ولا زالت الحكومة تماطل في صرف الرواتب لهم ولعوائلهم، علماً بأن عوائل الشهداء منهم لم تحصل على أية مستحقات رسمية بعد.

والخلاصة ان مصاديق البذل والتضحية والإيثار التي كثيراً ما نشهد حضورها أيام موسم زيارة الأربعين المباركة كانت - ولا تزال - حاضرة في سوح القتال تلهب عزيمة المجاهدين وتزيدهم اصراراً وعزيمة لمحاربة الممسوخين من تنظيم داعش الإرهابي، إلى جانب معرفتنا الشخصية ببعضهم وبمن استمعنا إلى تعريفهم بأنفسهم وكشفهم عن طبيعة دوافعهم بالمشاركة، فلقد كان القسم الأكبر منهم، من خدمة المواكب الحسينية ومن المتطوعين لخدمة زوار الأربعينية بخاصة.

لهذا أمكن القول: أن الحشد الشعبي مرجعي الاستجابة والتأسيس حسيني الدوافع والمنطلقات، وقد أدرك دواعش السياسة والأعلام في داخل العراق وخارجه هذه الحقيقة الأصلية بما فيهم الغربيون الذين لم يكن لهم موقفاً إيجابياً من ظهور وحركة الحشد الشعبي، فحاولوا تفريغ كيانه من مضموناته الحركية والعقيدية والثقافية عبر وصف أتباعه تارةً بالمليشيات، وتارةً ثانيةً بالطائفية نتيجة رفعهم وترديد شعارات كربلاء الثورية، حيث تصاعدت عقيرتهم بالتنديد والإستنكار إثر تسمية حملته العسكرية التي أنطلقت لتحرير المناطق المحتلة والمستباحة من قبل داعش بـ (لييك يا حسين) وأصروا على استبدالها بشعار آخر. وفي الواقع إنهم يدركون بنحو عال ماذا يعني التسليح بعقيدة وثقافة كربلاء، ولا أشد خطر يهدد مشاريعهم الأرهابية مثل السلاح الحسيني، ذلك أنه يمتلك قوة الردع والقدرة الفائقة على حسم المعركة، ولم تستطع مختلف القوى التي واجهت الأرهاب من الصمود أمام الرعب الذي نشره الأرهاب، ولم يتمكن أحد من كسر شوكرته ما لم يكن متسلحاً بالعقيدة والثقافة الحسينية، وما حدث في العراق وسوريا ولبنان واليمن من أوضح الشواهد.

من هنا نناشد المعنيين بحركة الحشد الشعبي أن لا يتخلوا عن شعارات كربلاء تحت ضغط الأعلام والسياسة المعادية بذريعة الطائفية والصبغة المذهبية، أو انتهاك لسيادة الدولة وغير ذلك من تصريحات معروفة الدوافع، فالقصد من وراء جميع الضجيج والجلبة هو اجبار أبناء الحشد الشعبي على التخلي عن ثقافة الشهادة والكرامة والأباء، ثقافة كربلاء المقاومة والتصدي والفداء. والعجب كل العجب من تصنيف سيد الشهداء عليه السلام على مذهب أو طائفة وهو إمام المسلمين بنص جده رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا». علماً بأن أبناء الحشد الشعبي قد نهضوا لتحرير المدن التي أحلتها الأرباب في غرب العراق استجابة لفتوى المرجعية الرشيدة، وهي فتوى واضحة الأهداف والمقاصد، حيث طالبت بالدفاع عن العراق ومقدساته وأرضه وشعبه، غير ناظرة للفوارق المذهبية والدينية والعرقية والاعتبارات الفئوية والمصالح الذاتية، فكيف يقف امرء ضد هذه الحركة المقدسة وهو يدعي الإسلام؟! أم كيف يتكلم شخص وطني بالسوء عنه تحت ذرائع هزيلة باطلة، والكل يعلم بأنه لولا نهضة أبناء الحشد الشعبي المبارك لما بقي للوطن أسم ولا رسم، حيث أحلت الغزاة قرابة ثلثي مساحة العراق، وقد طوقوا عاصمته، وامتدت تهديداتهم إلى وسط وجنوب العراق، وأعلنت الحكومة في حينها على لسان رئيس الوزراء بأنهيال المؤسسة العسكرية.

على أية حال: إن وقوف العراقيين وغير الغير من قضية تأييد ودعم الحشد الشعبي، أو مناهضته والتنديد به كان الفيصل الصريح لكشف حقائق العراقيين وغير العراقيين إزاء العراق وأهله، وهو بنفس الوقت فرقان يفرق بين الحق والباطل، ومؤشر موثوق لمعرفة انتهاء الأمة لمبادئها ورموزها الأصيلة، وقد كانت ولا زالت ثقافة كربلاء الميدان الذي يحدد هوية الناس العقيدية وطبيعتها الإنسانية، وزيارة الأربعين المباركة من أنصع مصاديق هذه الثقافة بل هي بنفسها ثقافة تعمل - ومنذ بداياتها - على فرز وتصنيف الناس وإعادة ترتيب اصطفااتهم، حيث تكشف لنا في كل عام - وفي أشد الأوقات التباساً -

من هم المؤمنون بفكر وهموم الحسين عليه السلام ومن هم المناهضون والمزيفون واللا مبالون، وستبقى على المنهج ذاته حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

٣-١٣ تقديم الإمدادات والمساعدات

من الحقائق التي ينبغي توثيقها للتأريخ ما يتعلق بالدعم المالي والخدمي بكافة أشكاله، ومنها ما يعرف بـ (الخدمات اللوجستية) الذي برع بأدائه أبناء الحشد الشعبي، فالملاحظ أن الحكومة العراقية لم تستطع تزويد أبناء الحشد الشعبي عند تشكيله، وما بعد تشكيله وإلى لحظة كتابة هذه الكلمات بالمؤن الأساسية للمقاتلين والمرابطين على جبهات القتال من أبناء الحشد الشعبي وحتى للقوات العراقية المنتمية إلى وزارتي الدفاع والداخلية، وبخاصة التموين الضروري من وجبات الطعام المعدة بشكل يومي منتظم، والإصرار على إيصالها إلى كافة الجبهات والخطوط المربطة، وغيرها من مستلزمات حياتية، ولولا اسهامات بعض المؤسسات والعتبات المقدسة والمؤمنين وبخاصة أصحاب المواكب الحسينية المتخصصة بخدمة زوار زيارة الأربعين المباركة لما استطاع الحشد الشعبي من المواصلة وتحقيق المنجزات العظيمة التي شهدناها. فقد سجل أصحاب المواكب مواقفاً إنسانية تُسيل الدموع وتقشعر لها الجلود من شدة الإعجاب بها والتفاعل مع معانيها النبيلة، وهذا ما كان يسهم في رفع معنويات المجاهدين ويزيدهم صبراً وصموداً، فالتعاطف الذي يصلهم من إخوانهم الحسينيين والمحسنين يلهب من الحماسة ويضاعف من التفاني ويجعل من الإقدام على التضحية سعادة وأقصى غايات الرضا. ولا يعلم المرء أية القصص والمواقف يذكر فهي بازدياد مطرد وتنوع ثر، حيث شاهدت أحد التقارير عن أحد المواكب الذي ذهب إلى سامراء، وكان يعمل في فرن متواضع لصناعة الخبز إلى المجاهدين، وكانوا يعملون على مدار الأربع والعشرين ساعة دون توقف، لينتجوا ستين ألف (٦٠٠٠٠) قطعة من الخبز (الصمون) ومن أموالهم الخاصة. يلبث أحدهم

أسابيع بالعمل دون أن يذهب إلى اهله للأستراحة، والأجل ما في الأمر هو ملاحظة الفرحة الصادقة التي كانت تغمر وجوههم إزاء ما ينجزونه، وهذا ما يذكرنا من جديد بحماسة ومعنويات وسخاء ممارسة خدام الحسين عليه السلام أيام زيارة الأربعين المباركة. وهناك (من أصحاب المواكب الحسينية) من يعمل على كفالة أيتام الحشد الشعبي من كافة شرائح الشعب، ومنهم من تكفل بمعالجة الجرحى، ومن جميل ما سمعت من أحد المشايخ الثقات أن أحد المحسنين شاهد في إحدى زيارته إلى مناطق القتال مجموعة من المجاهدين الشباب في جبهة سامراء، وكانوا جميعاً غير متزوجين فتكفل بنفقة زواجهم كاملة، وقد بلغ عددهم المئة شاب (١٠٠).

وأهم ما ننوي تسجيله عبر هذه الأسطر المختزلة أن السمة التعبوية العامة لكل أنواع تقديم المساعدات في معركة الدفاع عن المقدسات، هي سمة الإندفاع الولائي الذي تفيض به نشاطات عشاق زيارة الأربعين المباركة، فلقد شكلت ثقافة زيارة الأربعين المباركة - كما سلفت الإشارة - مدرسة تربوية عظيمة لهؤلاء المجاهدين الشرفاء، ولهذه الطاقات الخدمية المتنافسة على تقديم الأحسن والأفضل والأشرف.

٤.١٣ استثمار علاقة الحشد الشعبي مع الجمهور الحسيني

برهن أبناء الحشد الشعبي على صلتهم الوثيقة بالثقافة الحسينية، وبخاصة ثقافة الزيارة عبر العديد من الأصعدة والوجوه والمواقف، وقد تطرقنا في الموضوعات السابقة إلى جانب منها، وفي ختام دراستنا هذه نناشد المعنيين والحريصين وجمهور الزيارة عامة على بقاء عطاءات ثقافة الزيارة في رفدها ومؤازرتها وتفاعلها مع مشروع الحشد الشعبي - حاضراً ومستقبلاً - في الاستمرار والتطور والانتشار كرسيد دفاعي استراتيجي لأمتنا وبلدنا نردع به كل من تحدّثه نفسه بالتعدي علينا وانتهاك حرماننا ونهب ثرواتنا، وكقوة جماهيرية نعتمد عليها في مشاريع البناء والإعمار والإصلاح الداخلي، ولا سبيل للنهوض

وتحقيق الاستقرار وإعادة التلاحم الاجتماعي من دون الإستعانة بهذه القوة الشعبية المسلحة بالعقيدة السوية والعاطفة الإنسانية الغنية والمتسمة بالتجرد عن الأهداف المادية والمصالح الذاتية.

لجميع هذه الحقائق يتعين على المعنيين والمسؤولين عن ثقافة الزيارة المباركة وأبناء وقيادات الحشد الشعبي الغياري أن يعملوا على تعميق الصلة المذكورة وتوسيع طرائق تفعيلها في الحياة العامة من خلال صياغة رؤية عملية واضحة مستندة على التخطيط والبرامج المدروسة بنحو يتناسب مع خطورة الدور الذي تلعبه المسألة المذكورة، كما يتعين أن تتوفر على رؤية مستقبلية تنظر إلى استثمار المعطيات المشار إليها، والعمل الجاد على حمايتها والمحافظة على مكتسباتها بعيداً عن كل التجاذبات والإستقطابات. وقد أفرزت حركة الثقافة الحسينية المتمثلة بفرق تنظيم المناسبات والخدمات (المواكب الحسينية) الخاصة بمواسم العزاء وزيارة الأربعين المباركة بعض الأدوات العاملة على استثمار العلاقة المذكورة وتنميتها ومنها الدعم المادي - مثلما أشرنا سلفاً - حيث تم فتح حسابات خاصة ووضعت صناديق جمع المال في المواكب والحسينيات والعتبات المقدسة لغرض مؤازرة أبناء الحشد الشعبي وتلبية احتياجاتهم الضرورية في معركتهم المصيرية، كما ظهرت بعض الأعمال الساعية إلى التأكيد والتجسيد الفني والأدبي المشع بالعاطفة الصادقة والموجهة مثل كتابة الشعر وإنشاده بالطرائق الشجية والحماسية المعروفة عند أوساط أتباع أهل البيت عليه السلام، وقد سجل أصحاب المواكب الحسينية خطوات عملية حضارية في المجال نفسه، وذلك من خلال القيام ببعض المشاريع البسيطة في الشكل والغنية بدلالة المضمون، حيث شاهدت تقريراً - على سبيل المثال - تضمن مبادرة أحد المواكب الحسينية في تأهيل إحدى الساحات العامة في أقضية مدينة البصرة، وتزينها بصور شهداء أبناء الحشد الشعبي من أبناء البصرة الكرام. وما أجمل رمزية صور شهداء أبناء الحشد الشعبي المعلقة على أعمدة الطريق الممتد بين النجف الأشرف و كربلاء

المقدسة، فهي تشيء بأشياء شتى، وتفصح عبر هذه الإلتفاتة بما لايسع اللغة أن تبوح به، وبخاصة اختيار المكان الذي يشكل مسرح عرض الولاء لسيد الشهداء عليه السلام... طريق زوار الحسين عليه السلام ومشاة موسم الأربعين المبارك. ذلك الطريق المعبر عن العشق واللهفة والإنجذاب إلى الجمال والمثل والقيم المتمثلة بسيد الشهداء عليه السلام. الطريق الذي يمنح سالقيه شعوراً وإدراكاً بالسوية والهدفية والرسالية. الطريق الموصل إلى محطة السعادة والأمان والنجاح، فهو صراط الفائزين.

بيد أن هذه المبادرات والنشاطات المشكورة بالرغم من تميمنا لها والدعاء لأصحابها، لا تلبي طموحاتنا المتطلعة إلى استثمار هذه الثروة المعنوية الجماهيرية العظيمة بنحو أكثر شمولية ودلالية وفاعلية، فنحن بحاجة كما سلفت الإشارة إلى التوفر الحقيقي إلى صياغة رؤية عملية حاضرة ومستقبلية تنسجم مع حجم المكاسب التي نتوقع ولادتها عبر تبني مثل هذه المشاريع العقائدية، وقد شهدنا جميعاً الإنتصارات الباهرة التي حققتها علاقة الحشد الشعبي بالجمهور الحسيني وبخاصة بثقافة زيارة الأربعين المباركة في معارك تحرير الأراضي المغتصبة من بلدنا الحبيب بعد أن أعلنت الدول العظمى عن عجزها من التصدي للدواعش المجرمين، وأصرت على أن سحقهم في العراق يتطلب سنوات طويلة، حسب تصريح الرئيس الأميركي أوباما وقادته العسكريين في أكثر من مناسبة بهذا الشأن.

والأهم من هذه الإنتصارات هو استعادة الشعب العراقي ثقته بنفسه وإيمانه بقدرة مجابهة هذه القوى المجرمة وهزمها. إلى جانب تحقيق الترابط الاجتماعي والتضامن بين كافة مكونات الشعب العراقي بعد أن مزقته الأطماع السياسية والشخصية والأفكار المذهبية البعيدة عن ساحة الإسلام وكافة الأديان، وهذا ما انعكس على أمن شعوب العالم والدول الإقليمية ذات الأغلبية الإسلامية، وكشف حقيقة المشاريع الإرهابية المستترة بثياب الدين، والمدعومة من قبل دول عديدة بنحو مباشر وغير مباشر. ولعل

الدعوات التي ظهرت إلى تشكيل تحالفات دولية تتصدى إلى هذه القوى المجرمة - وهو ما حدث بالفعل - أحد مصاديق الإنجازات التي قدمها الشعب العراقي في حربه ضد الأرهاب، وإن كنا لا نعول على مثل هذه التحالفات كثيراً، ونؤمن بتحالفات الشعوب على قضاياهم المصيرية، وتعاضدهم الصادق على مناصرة الحق وإغاثة المظلومين بنحو أقوى وأوثق. وقد وصلت أمواج من المساهمات الشعبية العالمية إلى أرض العراق لتقديم الدعم بمختلف أشكاله المعنوية والمادية مؤكدة بذلك أصالة الخير وحضور الوعي الإنساني.

ملحق : نص زيارة الأربعين يوم العشرين من صفر

روى صفوان بن مهران الجمال قال: قال لي مولاي الصادق عليه السلام في زيارة الأربعين المباركة: تزور عند ارتفاع النهار، وتقول:

السَّلَامُ عَلَى وَلِيِّ اللَّهِ وَحَبِيبِهِ، السَّلَامُ عَلَى خَلِيلِ اللَّهِ وَنَجِيِّهِ، السَّلَامُ عَلَى صَفِيِّ اللَّهِ وَابْنِ صَفِيِّهِ، السَّلَامُ عَلَى الْحُسَيْنِ الْمَظْلُومِ الشَّهِيدِ، السَّلَامُ عَلَى أُسِيرِ الْكُرْبَاتِ وَقَتِيلِ الْعِبَرَاتِ، اَللّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهُ وَلِيُّكَ وَابْنُ وَلِيِّكَ وَصَفِيُّكَ وَابْنُ صَفِيِّكَ الْفَائِزُ بِكَرَامَتِكَ، أَكْرَمْتَهُ بِالشَّهَادَةِ وَحَبَوْتَهُ بِالسَّعَادَةِ، وَاجْتَبَيْتَهُ بِطَيْبِ الْوِلَادَةِ، وَجَعَلْتَهُ سَيِّدًا مِنَ السَّادَةِ، وَقَائِدًا مِنَ الْقَادَةِ، وَذَائِدًا مِنَ الذَّادَةِ، وَأَعْطَيْتَهُ مَوَارِيثَ الْأَنْبِيَاءِ، وَجَعَلْتَهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِكَ مِنَ الْأَوْصِيَاءِ، فَأَعْذَرَ فِي الدُّعَاءِ وَمَنْحِ النَّصْحِ، وَبَدَّلَ مُهْجَتَهُ فِيكَ لِيَسْتَنْقِذَ عِبَادَكَ مِنَ الْجَهَالَةِ وَحَيْرَةِ الضَّلَالَةِ، وَقَدْ تَوَازَرَ عَلَيْهِ مِنْ غَرَّتِهِ الدُّنْيَا، وَبَاعَ حَظَّهُ بِالْأَرْذَلِ الْأَدْنَى، وَشَرَى آخِرَتَهُ بِالثَّمَنِ الْأَوْكَسِ، وَتَغَطَّرَسَ وَتَرَدَّى فِي هَوَاهُ، وَأَسْخَطَكَ وَأَسْخَطَ نَبِيَّكَ، وَأَطَاعَ مِنْ عِبَادِكَ أَهْلَ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ وَحَمَلَةَ الْأَوْزَارِ الْمُسْتَوْجِبِينَ النَّارِ، فَجَاهَدَهُمْ فِيكَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا حَتَّى سَفِكَ فِي طَاعَتِكَ دَمُهُ وَاسْتَبِيحَ حَرِيمُهُ، اَللّهُمَّ فَالْعَنُهُمْ لَعْنًا وَبِيلاً وَعَذَّبْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا، اَلسَّلَامُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، اَلسَّلَامُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ سَيِّدِ الْأَوْصِيَاءِ، أَشْهَدُ أَنَّكَ أَمِينُ اللَّهِ وَابْنُ أَمِينِهِ، عِشْتَ سَعِيدًا وَمَضَيْتَ كَهِيدًا وَوُتَّ فَقِيدًا مَظْلُومًا شَهِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ مُنْجِزُ مَا وَعَدَكَ، وَمُهِلِكُ مَنْ خَذَلَكَ، وَمُعَذِّبُ مَنْ قَتَلَكَ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ وَفَيْتَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَجَاهَدْتَ فِي سَبِيلِهِ حَتَّى أَتَاكَ الْيَقِينُ، فَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ قَتَلَكَ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ ظَلَمَكَ، وَلَعَنَ اللَّهُ أُمَّةً سَمِعَتْ بِذَلِكَ فَارْضِيَتْ بِهِ، اَللّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُكَ أَنِّي وَلِيُّ لَيْلٍ وَالْأُهِ وَوَعْدُ لَيْلٍ عَادَاهُ

بأبي أنت وأُمِّي يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ، أَشْهَدُ أَنَّكَ كُنْتَ نُورًا فِي الْأَصْلَابِ الشَّاحِجَةِ وَالْأَرْحَامِ
الْمُطَهَّرَةِ، لَمْ تُنَجِّسْكَ الْجَاهِلِيَّةُ بِأَنْجَاسِهَا وَلَمْ تُلْبَسْكَ الْمُدْهَمَاتُ مِنْ ثِيَابِهَا، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ مِنْ
دَعَائِمِ الدِّينِ وَأَرْكَانِ الْمُسْلِمِينَ وَمَعْقِلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ الْإِمَامُ الْبَرُّ التَّقِيُّ الرَّضِيُّ
الزَّكِيُّ الْهَادِي الْمَهْدِيُّ، وَأَشْهَدُ أَنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ وَلَدِكَ كَلِمَةُ التَّقْوَى وَأَعْلَامُ الْهُدَى وَالْعُرْوَةُ
الْوُثْقَى، وَالْحُجَّةُ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا، وَأَشْهَدُ أَنِّي بِكُمْ مُؤْمِنٌ وَبِإِيَابِكُمْ، مُوقِنٌ بِشَرَائِعِ دِينِي
وَحَوَاتِيمِ عَمَلِي، وَقَلْبِي لِقَلْبِكُمْ سَلَمٌ وَأَمْرِي لِأَمْرِكُمْ مُتَّبِعٌ وَنُصْرَتِي لَكُمْ مُعَدَّةٌ حَتَّى يَأْذَنَ
اللَّهُ لَكُمْ، فَمَعَكُمْ مَعَكُمْ لَا مَعَ عَدُوِّكُمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَعَلَى أَرْوَاحِكُمْ وَأَجْسَادِكُمْ
وَشَاهِدِكُمْ وَغَائِبِكُمْ وَظَاهِرِكُمْ وَبَاطِنِكُمْ آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (المشهدى، ١٤١٩).



المصادر والمراجع

المراجع العربية

- القرآن الكريم

- ابن طاووس أبي القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد. (١٩٩٦). إقبال الأعمال. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

- ابن قولويه أبو القاسم جعفر بن محمد القمي. (١٣٥٦هـ). كامل الزيارات. النجف الأشرف: المطبعة المرتضوية.

- ابن منظور محمد بن مكرم. (١٩٧٠). لسان العرب. بيروت: دار صادر.

- الأصفهاني الراغب. (١٤٢٤هـ). مفردات ألفاظ القرآن. قم: انتشارات ذوي القربى.

- الأصفني الشيخ محمد مهدي. (٢٠١٤). البيت الثالث: رؤية حضارية جديدة لزيارة الإمام الحسين ومزارات أهل البيت. النجف الأشرف: مجمع أهل البيت.

- الأصفني محمد مهدي. (١٩٩٩). الهجرة والولاء. لندن: بوك اكسترا.

- الأصفني محمد مهدي. (٢٠١٢). بيت التوحيد وبيت الولاء: تحليل وتفسير لزيارة الحسين عليه السلام بكر بلاء. النجف الأشرف: مجمع أهل البيت.

- البستاني محمود. (١٩٩٤) الإسلام وعلم الاجتماع. بيروت: مجمع البحوث الإسلامية للدراسات والنشر.

- البستاني محمود. (٢٠٠٠). دراسات في علم النفس الإسلامي. بيروت: دار البلاغة.

- الحائري السيد كاظم. (١٤٢٨هـ). مباحث الأصول. قم: دار البشير.

- الحر العاملي الشيخ محمد بن الحسن. (١٤١٤ هـ). وسائل الشيعة. قم: مؤسسة آل البيت: لإحياء التراث.
- الحرائي الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة. (١٩٦١). تحف العقول عن آل الرسول. النجف الأشرف: الناشر المكتبة والمطبعة الحيدرية.
- الحكيم السيد محمد سعيد. (٢٠١٠). فاجعة الطف: أبعادها، ثمراتها، توقيتها. النجف الأشرف: مؤسسة الحكمة للثقافة الإسلامية.
- الحلبي ابن أمير الحاج. (١٩٩٩). التقرير والتحير على التحرير في أصول الفقه. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الخميني روح الله. (٢٠٠٣). الأربعون حديث. قم: مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني.
- الريشهري الشيخ محمد. (١٤٢٢ هـ). ميزان الحكمة. قم: دار الحديث.
- الساعدي محمد عبد الرضا هادي. (٢٠١٥). ثقافة الزيارة عند أتباع أهل البيت عليه السلام مقاربات تأملية في اتجاه فهم آخر. قم: دار الهدى - مؤسسة الإمام الحسن.
- السدلان صالح. (١٤١٧ هـ). القواعد الفقهية الكبرى. الرياض: دار بلنسية.
- السيوطي عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين (١٩٩٣). الدر المنثور. بيروت: دار الفكر.
- الشيخ الصدوق. (١٩٩١). إكمال الدين وإتمام النعمة. بيروت: مؤسسة الأعلمي.
- الصدر السيد محمد باقر. (٢٠٠٩). فلسفتنا. بيروت: دار التعارف للمطبوعات.
- الطباطبائي محمد حسين (١٩٩٧). الميزان في تفسير القرآن. بيروت: مؤسسة الاعلمي للمطبوعات.
- الطوسي ابي جعفر محمد بن الحسن بن علي. (١٩٩٢). تهذيب الاحكام في شرح المقنعة

- للشيخ المفيد. بيروت: دار التعارف.
- الفياض الشيخ إسحاق. (١٤١٩ هـ). محاضرات في أصول الفقه. قم: مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين.
- القرشي باقر شريف. (٢٠٠٩). موسوعة أهل البيت عليه السلام. قم: دار المعروف.
- الكفراوي أسعد عبد الغني. (٢٠٠٢ هـ). الاستدلال عند الأصوليين. القاهرة: دار السلام.
- المجلسي محمد تقي. (١٩٨٢) بحار الأنوار. بيروت: مؤسسة الوفاء.
- المشهدي الشيخ أبو عبدالله بن محمد بن جعفر. (١٤١٩ هـ). المزار الكبير. قم: نشر القيوم.
- بن نبي مالك. (١٩٧٩). شروط النهضة. دمشق: دار الفكر.
- شمس الدين الشيخ محمد مهدي. واقعة كربلاء في الوجدان الشيعي. المؤسسة الدولية للدراسات والنشر - بيروت
- شيخ إدريس جعفر. (١٩٧٧). التصور الإسلامي للإنسان أساس لفلسفة الإسلام التربوية. مجلة المسلم المعاصر، العدد ١٢ .
- عبده الأستاذ الإمام محمد. (٢٠٠٦). شرح نهج البلاغة. دار المعرفة: بيروت
- مطابق لفتاوى سماحة آية الله العظمى السيد علي حسيني السيستاني دام ظله، المراجعة: شعبة التبليغ في قسم الشؤون الدينية. (١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م). فقه الزائر. النجف الأشرف: العتبة العلوية المقدسة.
- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. (١٩٩٤). الموسوعة الفقهية. الكويت: دار الصفوة للطباعة والنشر.

المراجع الأجنبية

- Alblas, G., Wijsman, E. (2009). *Gedrag in organisaties*. Groningen: Noordhoff Uitgevers.
- Amato, P. R. (1983). Helping behavior in urban and rural environments: Field studies based on a taxonomic organization of helping episodes. *Journal of Personality and Social Psychology*, Vol 45(3), Sep 1983, 571-586.
- Aronson, E. (2000). *Nobody left to hate: Teaching compassion after Columbine*. New York: Worth/Freeman.
- Aronson, E., Wilson, T. D., & Robin, M.A. (2011), *Sociale Psychologie*, 5de druk, Pearson Education, Amsterdam.
- Aarts, H. en Dijksterhuis, A. (2000). Habits as knowledge structures: Automaticity in goal-directed behavior. *Journal of Personality and Social Psychology*, 78, 53-63.
- Aarts, H., Verplanken, B. en Van Knippenberg, A. (1998). Predicting behavior from actions in the past: Repeated decision making or a matter of habit? *Journal of Applied Social Psychology*, 28, 1356-1375.
- Aarts, H., Gollwitzer, P., & Hassin, R. (2004). Goal contagion: Perceiving is for pursuing. *Journal of Personality and Social Psychology*, 87, 23-37.
- Aarts, H., Chartrand, T.L., Custers, R., Danner, U., Dik, G., Jefferis, V., & Cheng, C.M. (2005). Social Stereotypes and automatic goal pursuit. *Social Cognition*, 23, 464-489.
- Axhar, M. Z., Varma, S. L. & Dharap, A. S. (1994). Religious psychtherapy in anxiety disorder patients. *Act Psychi. V. 90*, P 1-3.
- Bandura, A., Ross, D., & Ross, S. H. (1963). Imitation of film-mediated aggressive models, *Journal of Abnormal and Social Psychology*, 66 (1), 3-11.
- Bargh, J.A., Gollwitzer, P.M., Lee-Chai, A., Barndollar, K. en Trotschel, R. (2001) 'The automated will: Nonconscious activation and pursuit of behavioral goals', *Journal of Personality and Social Psychology*, 81, 1014-1027.
- Barkow, L., Cosmides., & Tooby, J. (1992). *The adapted mind: Evolutionary psychology and generation of culture*. New York: Oxford University Press.
- Balsam, P. D., & Tomie, A. (Eds.). (1985). *Context and learning*. Hillsdale, NJ : Erlbaum.
- Batson, C. D. en K.C. Oleson (1991). 'Current status of the empathy-altruism

- hypothesis', *Review of Personality and Social Psychology* 12: 62-85.
- Batson, C.D. (1998). Altruism and prosocial behavior. In D. T. Gilbert, S. T. Fiske & G. Lindzey (red). *Handbook of social psychology*. (4th ed , Vol. 2, PP. 282-316). New York: McGraw-Hill.
 - Batson, C.D. (2002). Addressing the altruism question experimentally. In S. G. post & L G. Underwood (red). *Altruism and altruistic love: Science , philosophy, and religion in dialogue* (pp.89-105). Oxford, England: Oxford University Press.
 - Batson, C.D. (2011). *Altruism in Humans*. New York: Oxford University Press.
 - Batson, C.D., & Powell, A. A. (2003). Altruism and prosocial behavior. In T. Millon & M. J. Lemer (red). *Handbook of psychology: Personality and social psychology* (Vol. 5, pp. 463-484). New York: Wiley.
 - Batson, C.D., Coke, J. S., Jasnoski, M. L., & Hanson, M. (1978). Buying Kindness: Effect of an extrinsic incentive for helping on perceived altruism. *Personality and social psychology Bulletin*, 4, 86-91.
 - Batson, C.D.; Shaw, L.L. (1991). "Evidence for Altruism: Toward a Pluralism of Prosocial Motives". *Psychological Inquiry* 2 (2): 107-122. doi:10.1207/s15327965pli0202_1. JSTOR 1449242.
 - Baumeister, R. F., Stillwell, A. M., & Heatherton, T. F. (1994). Guilt: An interpersonal approach. *Psychological Bulletin*, 115, 243-267.
 - Baumeister, R., & Leary, M. R. (1995). The need to belong: Desire for interpersonal attachments as a fundamental human motivation. *Psychological Bulletin*, 117(3), 497-529.
 - Beaman, A. L., Barnes, P. J., Klentz, B., & McQuirk, B. (1978). Increasing helping rates through informational dissemination: Teaching pays *Personality and social psychology Bulletin*, 4, 406-411.
 - Berkowitz, L. (1987). Mood, self-awareness, and willingness to help.. *Journal of Personality and social psychology*, 52, 721-729.
 - Berridge, K.C. (2007). The debate over dopamine's role in reward: The case for incentive salience. *Psychopharmacology*, 191, 391-431.
 - Boyd, R. en P.J. Richerson (2005). *The origin and evolution of cultures*, New York: Oxford University Press.
 - Braswell, L., & Kendall, P. C. (2001). Cognitive behavioral therapy with youth. In K.S. Dobson (Ed.), *Handbook of cognitive-behavioral therapies* (pp. 246-294). New York: The Guilford Press.

- Brehm, J. & Kassin, S. (1996). *Social Psychology* Boston: Houghton Mifflin (Third Edition).
- Brewer, M. B., & Brown, R. J. (1998). Intergroup relations. In D. T. Gilbert, S. T. Fiske & G. Lindzey (red). *Handbook of social psychology*. (4th ed , Vol. 2, PP. 554-594). New York: McGraw-Hill.
- Buss, D. M. (1999). *Evolutionary Psychology: The new science of the mind*. Needham Heights, MA: Allyn & Bacon.
- Cacioppo, J. T., & Patrick, W. (2008). *Loneliness: Human nature and the need for social connection*. New York, NY: W.W. Norton.
- Camic, C. (1986). The matter of habit. *American Journal of Sociology*. 91, 1039-1087.
- Cantor, J., Bushman, B. J., Huesmann, L. R., Groebel, J., Malamuth, N. M., Impett, E. A.,...Smith, S. (2001). Some hazards of television viewing: Fears, aggression, and sexual attitudes. In D. G. Singer & J. L. Singer (red.), *Handbook of children and the media* (pp. 207-307). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Carlson, M., & Miller, N. (1987). Explanation of the relationship between negative mood and helping. *Psychological Bulletin*, 102, 91-108.
- Carlson, M., Charlin, V., & Miller, N. (1988). Positive mood and helping behavior: A test of six hypotheses. *Journal of Personality and social psychology*, 55, 211-229.
- Catalano, R.F., & Hawkins, J.D. (1996). The social development model: A theory of antisocial behavior. In J.D. Hawkins (Ed.), *Delinquency and crime: Current theories* (pp. 149-177). Cambridge University press.
- Cialdini, R. B. (2009). *Influence: Science and Practice*. New York: Pearson Education.
- Cialdini, R.B., Reno, R.R. en Kallgren, C.A. (1990) 'A focus theory of normative conduct – Recycling the concept of norms to reduce littering in public Places', *Journal of Personality and Social Psychology* 58: 1015-1026.
- Clark, M. S., & Isen, A. M. (1982). Toward understanding the relationship between feeling states and social behavior. In H. Hastorf & A. M. Isen (red.). *Cognitive social psychology*. (pp. 73-108). New York: Elsevier.
- Clark, R. E., & Squir, L. R. (1998). Classical conditioning and brain systems: The role of awareness. *Science*, 280, 77-81.
- Clary, E. G., Snyder, M., Ridge, R. D., Miene, P. K., & Haugen, J. A. (1994). Matching messages to motives in persuasion: A Functional approach to promoting volunteerism. *Journal of Applied Social Psychology*, 24, 1129-1149.

- Cooper, R.P. en Shallice, T. (2006). Hierarchical schemas and goals in the control of sequential behavior. *Psychological Review*, 113, 887-916.
- Custers, R., Maas, M., Wildenbeest, M., & Aarts, H. (2008). Nonconscious goal pursuit and the surmounting of physical and social obstacles. *European Journal of Social Psychology*, 38, 1013-1022.
- Danner, U.N., Aarts, H. en De Vries, N.K. (2008). Habit and intention in the prediction of behaviors: The role of frequency, stability and accessibility of past behavior. *British Journal Social of Psychology*, 47, 245-265.
- de Bil, M. & de Bil, P. (2007). *Praktijkgerichte ontwikkelings-Psychologie*. Soest: Nelissen.
- De Koning, J., Collewet, M., en Ligthlem. (2008). **PARTICIPATIE EN GEZONDHEID THEMA 1: DE INVLOED VAN ARBEIDSPARTICIPATIE EN TERUGKEER NAAR WERK**. Rotterdam: SEOR, Erasmus Universiteit Rotterdam
- Dean, D.H., Dolan, R.C., Schmidt, R.M. (1999), "Evaluating the vocational rehabilitation program using longitudinal data. Evidence for a quasiexperimental research design". *Evaluation Review*, 23 (1999) 162.
- Dickinson, A. en Balleine, B. (1995). Motivational control of instrumental action. *Current Directions in Psychological Science*, 4, 162-167.
- Ekman, P. & Davidson, R. J. (red.). (1994). *The nature of emotion: Fundamental questions*. New York: Oxford University press.
- Ekman, P. (1993). The Facial expresion and emotion. *American psychologist*, 48, 384-392.
- Ekman, P., & Friesen, W. V. (1969). The repertoire of nonverbal behavior: Categories, origins, usage, and coding. *Semiotica*, 1, 49-89.
- Ellingson, T.J. (2001) *The myth of the noble savage*. University of California Press.
- Elliot, D.S., Ageton, S.S., & Canter, R. (1979). An integrated theoretical perspective on delinquent behavior. *Journal of Research in Crime and Delinquency*, 16, 3-27.
- Eron, L. (1982). Parent-child interaction, television violence and aggression of children. *American Psychologist*, 37, 197-211.
- Eron, L.D. (2001). Seeing is believing: How viewing violence alters attitudes and aggressive behavior. In A. C. Bohart & D. J. Stipek (red), *Constructive & destructive behavior: Implications for family, school, & society*. , (pp. 49-60). Washington, DC, US: American Psychological Association.

- Eron, L.D., Huesmann, L.R., Lefkowitz, M.M., & Walder, L.O. (1972). Does television violence cause aggression? In D.F.Greenberg (red.), criminal carrers (vol.2,pp.3112321). Aldershot, England: Dartmouth.
- Estrada-Hollenback, M., & Heatherton, T. F. (1998). Avoiding and alleviating guilt through prosocial behavior. In J. Bybee (red,) Guilt and children (pp. 215-231). San Diego, CA: academic press.
- Fearing, F. (1930). Reflex action: A study in the history of physiological psychology. Baltimore:Williams & Wilkins.
- Feldman, R. (2007). Ontwikkelings psychologie. Amsterdam: Pearson Education.
- Felling, A., J. Peters en P. Scheepers, 2000, Individualisering in Nederland aan het einde van de twintigste eeuw: empirisch onderzoek naar omstreden hypothesen. Van Gorcum, Assen.
- Fitzsimons, G. M., & Bargh, J. A. (2003). Thinking of you: Nonconscious pursuit of interpersonal goals associated with relationship partners. *Journal of Personality and Social Psychology*, 84, 148-163.
- Flanagan, C. A., Bowes, J. M., Jonsson, B., Caspo, B., & Sheblanova. E. (1998). Ties that bind: Correlates of adolescents civic commitments in seven countries. *Journal of Social Issues*. 54. 457-475.
- Forgas, J. P., & Bwoer, G. H. (1987). Mood effects on person-perception judgments. *Journal of Personality and social psychology*, 53, 53-60.
- Fourneret, P. en Jeannerod, M. (1998). Limited conscious monitoring of motor performance in normal subjects. *Neuropsychologia*, 36, 1133-1140.
- Frankenhuys, S., Van der Hagen, S., & Smelik, A.(2007). De Effecten van nieuwe media op jongeren van 12-14 jaar. Enschede: Stichting leerplanontwikkeling (SLO).
- Fujii, S., & Kitamura, R. (2004). What does a one-month free bus ticket do to habitual drivers? An experimental analysis of habit and attitude change. *Transportation*, 30, 81-95.
- Geller, E.S., Winett, R.A. en Everett, P.B. (1982). Preserving the environment: New strategies for behavior change, New York: Pergamon Press.
- Gintis, H.M., S. Bowles, R.T. Boyd en E. Fehr (red.) (2005). Moral sentiments and material interests: the foundation in economic life, Cambridge: The MIT Press.
- Goethals, J. (2007). Psychologie en Delinquentie: Een inleiding in de criminologische psychologie. Leuven: Acco.

- Gollwitzer, P.M. en Sheeran, P. (2006). Implementation intentions and goal achievement: A meta-analysis of effects and processes *Advances in Experimental. Social Psychology*, 38, 69-120.
- Goodwin, A. M. en Kennedy, A. (2001). The psychosocial benefits of work for people with severe and enduring mental health problems. *Community, Work & Family*, vol. 8, nr.1, p. 23-35
- Greenberg, D. en Davis, A. (2007), Evaluation of the New Deal for Disabled People: The cost and cost-benefit analyses. Department for Work and Pensions.
- Haidt, J. en S. Kesebir (2010) 'Morality' in S. Fiske en D.G.G. Lindzey (red.) *Handbook of social psychology*, 5th ed., Hoboken: Wiley.
- Hargie, O. (1997). *The Handbook of Communication Skills*. New York: Routledge.
- Hedge, A. & Yousif, Y. H. (1992). Effects of urban size, urgency, and cost on helpfulness. *Journal of Cross-Cultural Psychology*, 23, 107-115.
- Hirschi, T. (1969). *The causes of delinquency*. Berkeley, Ca: University of Berkeley Press.
- Holland, R.W., Hendriks, M., & Aarts, H. (2005). Smells like clean spirit: Nonconscious effects of scent on cognition and behavior. *Psychological Science*, 16(9), 689-693.
- Holland, R., Aarts, H. en Langendam, R. (2006). Breaking and creating habits on the working floor: A field-experiment on the power of implementation intentions. *Journal of Experimental Social Psychology*, 42, 776-783.
- Hommel, B. (1998). Perceiving one's own action – and what it leads to' in J.S. Jordan (red.), *Systems theories and a priori aspects of perception* (pp. 143-179), Amsterdam: Elsevier Science.
- Huesmann, L. R., & Moise, J. (1996). Media violence: A demonstrated public health threat to children. *Harvard Mental Health Letter*, 12 (12,) 5-7.
- Isen, A. M. (1987). Positive affect, cognitive processes, and social behavior. In L. Berkowitz (red.), *Advances in experimental social psychology* (Vol. 20, pp. 203-253). San Diego, CA: Academic Press.
- Isen, A. M. (1999). Positive affect. In T. Dalgleish & M. J. Power (red.). *Handbook of cognition abd emotion* (pp. 521-539). Chichester, England: Wiley.
- Janoff-Bulman, R., & Leggatt, H. K. (2002). Culture and social obligation: When "Shoulds"are personality, 36, 260-270.
- *Journal of Personality and Social Psychology*, Vol 45(3), Sep 1983, 571-586.

- Kameda, T., Takezawa, M., & Hastie, R. (2003). The logic of social Sharing: An evolutionary game analysis of adaptive norm development. *Personality and social psychology Review*, 7, 2-12.
- Kamil, A. C., Krebs, J., & Pulliam, H. R. (1987). *Foraging Behavior*. New York: Plenum.
- Kamphuis, J. H., Emmelkamp, P. M. G., & Krijn, M. U. (2002). Specific phobia. In M. Hersen (ED.), *Clinical behavior therapy: Adults and children* (pp. 75-89). New York: Wiley.
- Kelly, A.M.C. en Garavan, H. (2005). 'Human functional neuroimaging of brain changes associated with practice', *Cerebral Cortex*, 15, 1089-1102.
- Köhler, W. (1925). *The mentality of apes*. New York: Harcourt Brace.
- Kok, L., D. Hollanders en J.P. Hop (2006), *Kosten en baten van re-integratie*. Amsterdam: SEO.
- Kruyswijk, M. (2017). *Lopen is vooral schipperen*. Amsterdam: Het Parool.
- Kunda, Z., & Schwartz, S. H. (1983). Undermining intrinsic moral motivation: External reward and self-presentation. *Journal of Personality and social psychology*, Thibaut, J., & Kelley, H. H. (1959). *The social psychology of groups*.
- Latané, B., & Darley, J. M. (1970). *The unresponsive bystander: Why doesn't he help?* New York: Appleton-Century-Croft.
- LeBlanc, M. (1997). A generic control theory of the criminal phenomenon: The structural and dynamic statements of an integrative multilayered control theory. In T.P. Thornberry (Ed.), *Developmental theories of crime and delinquency. Advances in criminological theory* (vol VII, pp. 215-286). New Brunswick, NJ: Transaction.
- Liebert, R. M. & Baron, R. A. (1972). Short term effects of television aggression on children's aggressive behavior. In G. A. Comstock, E. A. Rubinstein, & J. P. Murray (eds.) *Television and Social Behavior*, vol. 2, *Television and Social Learning*. Washington, DC: United States Government Printing Office.
- Lindenberg, S. & Steg, L. (2007) 'Normative, gain and hedonic goal frames guiding environmental behavior', *Journal of Social Issues* 65(1): 117-137.
- Litman, T. (2003). Economic value of walkability. *World Transport Policy & Practice* pp. 3-11 and in Volume 10, Number 1, 2004.
- Loersch, C., Aarts, H., Payne, K., Jefferis, V. (2008): The influence of social groups on goal contagion. *Journal of Experimental Social Psychology* pp. 1555 – 1558.

- Lovallo, W.J., Stress and health. (2005). London: Sage publications.
- Magoo, G., & Khanna, R. (1991). Altruism and willingness to donate blood. *Journal of Personality and Clinical Studies*, 7, 21-24.
- Mathers, C.D., D.J. Schofield (1998), The health consequences of unemployment: the evidence. *The Medical Journal of Australia*, vol. 168, blz. 178-182.
- McKee-Ryan, F.M., Song, Z., Wanberg, C.R., Kinicki, A.J. (2005), Psychological and Physical Well-Being During Unemployment: A Meta-Analytic Study, In: *Journal of Applied Psychology*, Vol. 90, No.1, 53-76.
- Meykamp, R. en Aarts, H. (1997). Breaking through habits: Is car sharing an instrument to reduce car use?', Research paper published in *Book of proceedings 25th European Transport Forum*, Brunel University, Uxbridge, London: p.t.r.c.
- Meyer, P. (1999). The Sociobiology of human cooperation: The interplay of ultimate and proximate causes. In J. M. G. van der dennen & Smillie (red), *The Darwinian heritage and Sociobiology: Human evolution, behavior, and intelligence* (pp. 49-65). Westport, CT: Praeger.
- Miller, J. G., Bersoff, D. M., & Harwood, R. L. (1990). Perceptions of social responsibilities in India and the United States: Moral imperatives or personal decisions. *Journal of Personality and social psychology*, 58, 33-47.
- Moghadam, F. M., Taylor, D. M., & Wright, S. C. (1993). *Social psychology in cross-cultural perspective*. New York: Freeman.
- OECD (2006), *Sickness, Disability and Work: Breaking the Barriers*. Norway, Poland and Switzerland.
- Papies, E.K., Aarts, H. en De Vries, N.K. (2009). Planning is for doing: Implementation intentions go beyond the mere creation of goal-directed association, *Journal of Experimental Social Psychology*, 45, 1148 – 1151.
- Papies, E., Stroebe, W. en Aarts, H. (2008). The allure of forbidden food: On the role of attention in self-regulation. *Journal of Experimental Social Psychology*, 44,1283-292.
- Papies, E.K., Stroebe, W. en Aarts, H. (2008). Healthy cognition: Processes of self-regulatory success in restrained eating. *Personality and Social Psychology Bulletin*, 34,1290-1300.
- Pashler, H. en Johnston, J. C. (1998) 'Attentional limitations in dual-task performance' in
- H. Pashler (red.) *Attention* (pp. 155-189), Philadelphia: Taylor & Francis Press.

- Penner, L. A., & Finkelstein, M. A. (1998). Dispositional and structural determinants of volunteereism. *Journal of Personality and social psychology*, 74, 525-537.
 - Penner, L. A., Fritzsche, B. A., Craiger, J. P., & Freifeld, T. S. (1995). Measuring the prosocial personality. In J. Butcher & C. Spielberger (red). *Advances in personalty assessment* (Vol. 10, PP. 147-163). Hillsdale, NJ: Erlbaum.
 - Pinker, S. (2002). *The blanke slate: The modern denial of human nature*. New York: Viking.
 - Primavera, L. H., Herron, W. G., & Javier, R. A. (1996). The effect of viewing television violence on aggression. *International Journal of Instructional Media*, 23(1), 91-104.
- Powers, W.T. (1973). Feedback: Beyond behaviorism. *Science*, 179, 351-356.
- Salovey, P., & Rodin, J. (1985). Cognitions about the self: connecting feeling states and social behavior. In P. Shaver (red.), *self, situations, and social behavior: Review of personality and social psychology* (Vol. 6, pp. 143-166). Beverly Hills, CA: Sage.
 - Salovey, P., Mayer, J. D., & Rosenhan, D. L. (1991). Mood and helping: Mood as motivator of helping and helping as a regulator of mood. In M. S. Clarck (red.), *Prosocial behavior: Review of Personality and social psychology* (Vol. 12, PP. 215-237). Newbury Park, CA: Sage.
 - Seppa, N. (1997). Children's TV remains steeped in violence. *APA Monitor*, 28, 36.
 - Shackelford, T. K., & Buss, D. M. (1996). Betrayal in mateships, friendships, and coalitions. *Personality and social psychology Bulletin*, 22, 1151-1164.
 - Shah, J.Y., Friedman, R. en Kruglanski, A. W. (2002). Forgetting all else: On the antecedents and consequences of goal shielding. *Journal of Personality and Social Psychology*, 83, 1261-1280.
 - Shah, J.Y. (2003). The motivational looking glass: How significant others implicitly affect goal appraisals. *Journal of Personality and Social Psychology*, 85, 424-439.
 - Sheeran, P., Aarts, H., Custers, R., Webb, T.L., Cooke, R. en Ravis, A.J. (2005). The goaldependent automaticity of drinking habits. *British Journal of Social Psychology*, 44, 47-63.
 - Sime, J. D. (1983). Affiliattive behavior during escape to building exits. *Journal of Environmental psychology*.
 - Skinner, B.F. (1938). *The behavior of organisms*. New York: Appleton-Century-Crofts.

- Snyder, M. (1993). Basic research and practical problems: The promise of a 'functional' personality and social psychology. *Personality and social psychology Bulletin*, 19, 251-264.
- Steblay, N. M. (1987). Helping behavior in rural and urban environments: A meta-analysis. *Psychological Bulletin*, 102, 346-356.
- Stukas, A. A., Snyder, M., & Clary, E. G. (1999). The effects of 'mandatory volunteerism' on intentions to volunteer. *psychological Science*, 10, 59-64.
- Taylor, S. E. (2007). Social support. In H. S. Friedman & R. C. Silver (Eds.), *Foundations of health psychology* (pp. 145-171). New York, NY: Oxford University Press.
- Thornberry, T.P. (1987). Toward an interactional theory of delinquency. *Criminology*, 25, 863-891.
- Tiemeijer, W.L., Thomas, C.A, Prast, H.M. (2009). *De menselijke beslisser: Over de psychologie van keuze en gedrag*. Amsterdam: Amsterdam University Press.
- Ting, J., & Piliavin, J. A. (2000). Altruism in comparative international perspective. In Philips, B. Chapman, & D. Stevens (red). *Between state and market: Essays on charities law and policy in Canada* (PP. 51- 105). Montreal and kinnston, Ontario, Canada: McGill-Queens University Press.
- Tolman, E. C. (1948). Cognitive maps in rats and men. *Psychological review*, 55(4), 189-208.
- Trivers, R. (1971) 'The evolution of reciprocal altruism', *Quarterly Review of Biology*, 46, 35-57.
- van der linden, M. (2006). *Hersenen & Gedrag*. Amsterdam: Boom.
- Waal, F. de (2009) *Een tijd voor empathie: wat de natuur ons leert over een betere samenleving*, Amsterdam: Contact.
- Waal, F.B.M. de (1996) *Good natured: The origins of right and wrong in humans and other animals*, Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Waddell, G. en Burton, K., (2006). *Is work good for your health and well-being?* London, 87, TSO.
- Webb, T.L. en Sheeran, P. (2006). 'Does changing behavioral intentions engender behavior change? A meta-analysis of the experimental evidence', *Psychological Bulletin*, 132, 249-268.
- Wegner, D. T., & Petty, R. E. (1994). Mood management across affective states: The

- hedonic contingency hypothesis. *Journal of Personality and social psychology*, 66, 1034-1048.
- Williamson, G. M., & Clark, M. S. (1989). Providing help and desired relationship type as determinants of changes in moods and self-evaluations. *Journal of Personality and social psychology*, 56, 722-734.
 - Wilson, E.O. (1975) *Sociobiology: The new synthesis*, Cambridge, MA: Harvard University Press.
 - Wood, W., Tam, L. en Guerrero Witt, M.G. (2005). Changing Circumstances, Disrupting Habits. *Journal of Personality and Social Psychology*, 88, 918-933.
 - Woolfenden, G.E. (1975) 'Florida scrub jay helpers at the nest', *Auk*, 92, 1-15
 - Zimbardo, P.H. G., Johnson, R.L., & McCann, V. (2013). *Psychologie een inleiding*. Amsterdam: Pearson Education.
 - Zimbardo, P.G., en Leippe, M. (1991). *The psychology of attitude change and social influence* (3rd ed.), New York: McGraw-Hill.
 - <http://antidepressie.webklik.nl/page/hardlopen-en-fietsen>
 - <http://mens-en-gezondheid.infonu.nl/diversen/19381-gezonder-slanker-en-gelukkiger-door-wandelen>
 - <http://www.360magazine.nl/in-het-nieuws/679/wandelen-helpt-tegen-depressies-maar-amerikanen-kunnen-nergens-lopen>. 17- april- 2012
 - <http://www.depressie.org/docs/Publieksversierichtlijn-depressie.2014>
 - <http://www.runningtherapie.nl2014>
 - <http://www.sistani.org/arabic/qa/0507/2015>

المحتويات

٦.....	السيرة الذاتية للمؤلف
٩.....	كلمة المركز
١١.....	مقدمة الطبعة الثالثة
١٢.....	دوافع الدراسة وأهدافها
١٧.....	إشراقات تمهيدية
١٧.....	التفرد
١٨.....	مدهشة التفسير
١٩.....	غرابية الدوافع
٢٠.....	إبتكارية الأدوات
٢٠.....	الاستمرارية المتألقة
٢١.....	الأداء العفوي
٢٢.....	نبل العطاء
٢٣.....	الطاقة التأثيرية
٢٤.....	الحماسة الحقيقية
٢٦.....	الهوية الولائية
٢٨.....	الروح التضامنية

٢٩	أسطورة الوفاء
٣١	١. البراءة من الظالمين.....
٣٤	١-١ البراءة السياسيّة في زيارة الحسين عليه السلام.....
٣٨	٢-١ إحياء الإرادة السياسيّة.....
٣٩	٣-١ الانتصار والعمل.....
٤٢	٢. استعراضات الجماهير المؤمنة الهادفة.....
٤٢	١-٢ استعراض القوى المؤمنة.....
٤٣	١-١-٢ المنجز العددي.....
٤٥	٢-١-٢ القيمة النوعية.....
٤٧	٢-٢ الاستعراض الأخلاقي.....
٥٠	٣-٢ استعراض هموم الأمة وتوجهاتها.....
٥٣	٣. السلوك الاجتماعي الإيجابي.....
٥٤	١-١-٣ تفسير علم النفس التطوري للإيثار.....
٥٦	الانتقاء النسبي.....
٥٧	مبدأ التبادل المنفعي.....
٥٨	تعلم القوانين الاجتماعية.....
٥٨	نقد نظرية التفسير البيولوجي.....
٦٠	نقد الانتقاء النسبي.....
٦٠	نقد التبادل المنفعي.....

- ٦٢ نقد تعلم القوانين الاجتماعية
- ٦٣ ٢-١-٣ نظرية التبادل الاجتماعي: الربح والخسارة
- ٦٤ نقد نظرية التبادل الاجتماعي
- ٦٧ ٣-١-٣ التعاطف والإيثار: الدافع الخالص للمساعدة
- ٦٩ نقد فرضية الإيثار والتعاطف
- ٧٢ ١-٢-٣ السمات الشخصية والإيثار
- ٧٤ ٢-٢-٣ الاختلاف بين الجنسين في السلوك الإيثاري
- ٧٦ ٣-٢-٣ الاختلافات الثقافية والسلوك الاجتماعي الإيجابي
- ٧٧ نقد نظرية الاختلافات الثقافية
- ٧٨ ٤-٢-٣ تأثيرات الحالة المزاجية على السلوك الاجتماعي الإيجابي
- ٧٩ ١-٤-٢-٣ التأثيرات المزاجية الإيجابية
- ٨١ ٢-٤-٢-٣ التأثيرات المزاجية السلبية
- ٨٢ نقد نظرية تأثيرات الحالة المزاجية على السلوك الاجتماعي الإيجابي
- ٨٣ ٣-٣ العوامل الظرفية والسلوك الاجتماعي الإيجابي
- ٨٤ ١-٣-٣ الريف والمدينة
- ٨٦ نقد فرضية الريف والمدينة
- ٨٧ ٢-٣-٣ تأثير المتفرجين على الحادثة
- ٩٠ نقد أنموذج لاتانة ودارلي
- ٩١ ٣-٣-٣ الباحثون الغربيون المؤيدون للسلوك الإيثاري

- ٩٣ ٤-٣-٣ كيف نشجّع الناس على المساعدة
- ٩٤ تنمية السمات الشخصية
- ٩٤ رفع العقبات الظرفية
- ٩٥ نشر المعرفة وتوعية الناس
- ٩٦ ٥-٣-٣ اسهامات زيارة الأربعين المباركة في حقل السلوك الإيثاري
- ٩٧ ١-٥-٣-٣ إثارية سلوك زيارة الأربعين المباركة والتفسير البيولوجي
- ٩٨ ٢-٥-٣-٣ إثارية سلوك زيارة الأربعين المباركة ونظرية التبادل الاجتماعي
- ٩٩ ٣-٥-٣-٣ إثارية سلوك زيارة الأربعين المباركة وفرضية الإيثار والتعاطف
- ١٠٠ ٤-٥-٣-٣ إثارية سلوك زيارة الأربعين المباركة والاختلاف بين الجنسين
- ١٠١ ٥-٥-٣-٣ إثارية سلوك زيارة الأربعين المباركة والاختلافات الثقافية
- ١٠٣ ٦-٥-٣-٣ إثارية سلوك زيارة الأربعين المباركة والتأثيرات المزاجية
- ١٠٤ ٧-٥-٣-٣ إثارية سلوك زيارة الأربعين المباركة والعوامل الظرفية
- ١٠٥ ٨-٥-٣-٣ إثارية سلوك زيارة الأربعين المباركة وأنموذج تأثير المتفرجين
- ١٠٧ ٤. العمل التطوعي
- ١٠٧ ١-٤ العمل التطوعي اقتصادياً
- ١١٠ ٢-٤ العمل التطوعي اجتماعياً
- ١١٣ ٣-٤ العمل التطوعي صحياً
- ١١٥ ٤-٤ زيارة الأربعين المباركة والعمل التطوعي
- ١١٩ ٥-٤ مقارنة العمل التطوعي بين خدام الحسين عليه السلام وغيرهم

- ١١٩ ١-٥-٤ الدوافع الذاتية
- ١٢٠ ٢-٥-٤ حرية اختيار العمل التطوعي
- ١٢٢ ٣-٥-٤ التنافس الرسالي
- ١٢٤ ٤-٥-٤ الحالة التعبوية
- ١٢٥ ٦-٤ طموحنا في العمل التطوعي
- ١٢٧ ٥- الإحساس العبادي الطويل
- ١٢٧ ١-٥ زيارة الأربعين المباركة والإحساس العبادي الطويل
- ١٣١ ٢-٥ الإحساس العبادي الطويل نفسياً
- ١٣٣ ٣-٥ الإحساس العبادي الطويل اجتماعياً
- ١٣٥ ٤-٥ الإحساس العبادي الطويل كاستراتيجية مواجهة للشيطان وحزبه
- ١٣٧ ٦. تأثيرات المشي على الصحة النفسية والعقلية
- ١٣٧ ١-٦ المشي والعلاج النفسي والعقلي
- ١٣٨ ٢-٦ المشي والتنظيم الذاتي
- ١٣٩ ٣-٦ المشي والتشجيع عليه
- ١٤١ ٤-٦ المكتسبات الصحية لممارسة المشي في زيارة الأربعين المباركة
- ١٤٣ ٥-٦ المشي الجماعي والرفاه النفسي
- ١٤٥ ٧. المعطيات التربوية والتعليمية والإصلاحية لزيارة الأربعين المباركة
- ١٤٦ ١-٧ السياق الاجتماعي الإسلامي
- ١٤٩ ٢-٧ المعطيات التربوية لزيارة الأربعين المباركة

- ١٤٩ ١-٢-٧ ترسيخ مكانة سيد الشهداء عليه السلام في النفوس
- ١٥١ ٢-٢-٧ الجرعة الولائية الوقائية
- ١٥٢ ٣-٢-٧ التربية الإيجابية
- ١٥٣ ٤-٢-٧ التربية العملية
- ١٥٤ ٣-٧ الإعلام وعنف الأطفال
- ١٥٦ ٤-٧ التأثير الإعلامي الإيجابي
- ١٥٨ ٥-٧ المعطيات التعليمية لزيارة الأربعين المباركة
- ١٥٩ ١-٥-٧ المهارات الاجتماعية
- ١٦٢ ٢-٥-٧ المهارات الكلامية (فن التخاطب)
- ١٦٤ ٣-٥-٧ المهارات الغير كلامية
- ١٦٧ ٦-٧ المعطيات الإصلاحية لزيارة الأربعين المباركة
- ١٦٧ ١-٦-٧ رؤية علم النفس الإجرامي للانحراف
- ١٦٨ ٢-٦-٧ نظرية الضبط الاجتماعي social control theory
- ١٧٠ ٣-٦-٧ معالجة الزيارة للانحراف السلوكي
- ١٧٤ ٨. مكاسب زيارة الأربعين المباركة والسلوك المعتاد
- ١٧٥ ١-٨ نظرة عامة حول العادات السلوكية
- ١٧٨ ٢-٨ ما هي العادات
- ١٧٨ ١-٢-٨ تعريف العادة لغةً واصطلاحاً
- ١٨٠ ٢-٢-٨ العادة في الدراسات الأكاديمية

- ١٨٢ ٣-٨ تعلم وتنفيذ العادات
- ١٨٢ ١-٣-٨ السلوك المعتاد كترابط بين المثيرات والاستجابات
- ١٨٣ التعليم الشرطي (Classical Conditioning)
- ١٨٥ التعليم الإجرائي Operant Learning
- ١٨٦ أهمية الترابطات بين المثيرات والاستجابات
- ١٨٨ ٢-٣-٨ العادات كمهارات معتمدة على هدف
- ١٩٢ ٣-٣-٨ العادات، الاختيارات والسلوك الموجه لتحقيق هدف معين
- ١٩٦ ٤-٨ التطلع الغير واع للأهداف
- ١٩٨ ٥-٨ علم النفس وتغيير السلوك المعتاد
- ٢٠٠ ١-٥-٨ رفع الانتباه
- ٢٠٤ ٢-٥-٨ نوايا التنفيذ
- ٢٠٦ ٣-٥-٨ تغيير الأولوية في الأهداف اللا واعية
- ٢٠٩ خلاصة: إمكانيات تغيير العادات السلوكية
- ٢٠٩ ٦-٨ التوصيات الإرشادية للمؤسسات التنفيذية:
- ٢١٠ ١-٦-٨ استخدام اللحظات التي يصنع فيها الناس الموازنات الجديدة
- ٢١١ ٢-٦-٨ شجّع الناس على التخطيط للسلوك الجديد
- ٢١٣ ٣-٦-٨ إستفد من العمليات اللا واعية
- ٢١٤ ٧-٨ التصور الإسلامي إلى العادات
- ٢١٥ ١-٧-٨ سلطة العادات

- ٢١٦ ٧-٢ النجاح مرهون في غلبة العادات
- ٢١٧ ٧-٣ العادات الإيجابية
- ٢١٨ ٧-٤ وقفات مع الدراسات الأكاديمية للسلوك المعتاد
- ٢١٨ ملاحظتنا على الاتجاه السلوكي
- ٢٢٤ ٧-٥ حقيقة الترابطات بين المثيرات والاستجابات
- ٢٣٠ ٧-٦ علماء الأصول ومباحث الترابطات
- ٢٣٣ ٧-٧ نتائج دراسات العادات وزيارة الأربعين المباركة
- ٢٣٥ ١. رفع الانتباه
- ٢٣٦ ٢. نوايا التنفيذ
- ٢٣٩ ٣. تغيير الأولوية في الأهداف اللاواعية
- ٢٤٢ ٧-٨ التوصيات الأخيرة
- ٢٤٥ ٩. صيانة ممارسة زيارة الأربعين المباركة
- ٢٤٥ ٩-١ المحافظة على طابعها العبادي
- ٢٤٦ ٩-٢ مراعاة الأحكام الشرعية
- ٢٤٧ ٩-٣ الالتزام بمنطلقاتها الأصلية
- ٢٤٩ ٩-٤ عكس الطابع التقديسي
- ٢٥٢ ٩-٥ تنمية ممارسة زيارة الأربعين المباركة
- ٢٥٣ ٩-٦ مشاريع التنمية الحكومية
- ٢٥٥ ١٠. محاور التنمية الحكومية

- ١٠-١ مشكلة النقل ٢٥٥
- ١٠-٢ مشكلة الفندق ٢٥٦
- ١٠-٣ تهيئة الطرق العامة ٢٥٦
- ١٠-٤ الإسعاف الطبي ٢٥٨
- ١٠-٥ وزارة زيارة العتبات المقدسة ٢٥٩
١١. الجمهور المؤمن وتنمية زيارة الأربعين المباركة ٢٦٢
- ١١-١ المؤتمر الدولي للمواكب والهيئات الحسينية ٢٦٣
- ١١-٢ الأعمال الثقافية ٢٦٤
- ١١-٣ الأعمال الفنية ٢٦٧
- ١١-٤ الأنشطة الخاصة بالطفولة ٢٦٩
- ١١-٥ الأنشطة النسوية ٢٧٠
- ١١-٦ الدور الإعلامي ٢٧٢
١٢. الملامح الحضارية ٢٧٥
- ١٢-١ الاستفادة من المنجز التاريخي ٢٧٦
- ١٢-٢ الانفتاح والتعاون بين الشعوب ٢٧٩
- ١٢-٣ الإحتفاء بالشهيد والشهادة ٢٨٢
- ١٢-٤ خصوصيات السلوك الحضاري ٢٨٥
- ١٢-٥ سلمية الحركة ٢٨٥
- ١٢-٦ نظامية الأداء ٢٨٦

- ٢٨٧ ١٢-٧ موضوعية المقصد
- ٢٨٨ ١٢-٨ الوحدة وانتفاء الخصوصيات الضيقة
- ٢٨٩ ١٢-٩ الإدارة الذاتية
- ٢٩٤ ١٣. الحشد الشعبي وزيارة الأربعين المباركة
- ٢٩٥ ١٣-١ احتضان المواكب الحسينية للنازحين
- ٢٩٧ ١٣-٢ المشاركة في جبهات القتال
- ٣٠١ ١٣-٣ تقديم الإمدادات والمساعدات
- ٣٠٢ ١٣-٤ استثمار علاقة الحشد الشعبي مع الجمهور الحسيني
- ٣٠٦ ملحق: نص زيارة الأربعين يوم العشرين من صفر
- ٣٠٨ المصادر والمراجع
